مجلة

كلية الآداب

المجلد الحادى والأربعين العام الجامعى ٩٣/١٩٩٤

المعجزة الكبري للقرآن الكريم ..... عبد العزيز برهام
إبداع المتنبي ..... صالح حسن اليظي
أصفهان ..... مجدي عبد المنعم عجمية
منهج السيوطي النحوي ..... ممدوح عبد الرحمن
فتاوي لغوية ..... زين كامل الخويسكي
معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين ..... ابراهيم خميس ابراهيم سلامه
التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها ..... حمدي عبد المنعم محمد حسين
الصراع الزيدي العثماني في اليمن ..... هاني مهنا
وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم ..... محمد عبد الستار عثمان
قرائن التنمية الريفية في دولة الإمارات العربية المتحدة .....
..... محمد علي بهجت الفاضلي
معدلات العدوانية لدي المراهقين والشباب الكويتين ..... عويد سلطان المشعان
التضحية بالبشر بين العهد القديم والأساطير اليونانية ..... حسين الشيخ
المصطلحات اليونانية لدي كلسوس - الهون والرومان الشرقيون خلال النصف
الأول من القرن الخامس الميلادى ..... أحمد عبد الكريم سليمان
'Developing Countries and Environmental Geographical Issues .....
..... Abdullah R.A.Al-Kandari

تصدر « مجلة كلية الآداب » وإصداراتها محكمة عن كلية الآداب بجامعة الاسكندرية وتقدم مخطوطات البحوث مكتوبة على الآلة الكاتبة من ثلاث نسخ . ويجب ألا يزيد عدد صفحات البحث عن ثمان وأربعين صفحة من القطع المتوسط مكتوبة على الآلة الكاتبة.

تقدم البحوث وتكون جميع المراسلات باسم :

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الشاطبى - الاسكندرية

جمهورية مصر العربية

مجلة كلية الآداب
مجلس التحرير

رئيس مجلس الادارة

الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانه

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

مدير التحرير

الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران

أعضاء مجلس التحرير

أ. د. سعد زغلول عبد الحميد

أ. د. سلمى محمود جبر

أ. د. عبد الرحمن محمد العيسوى

أ. د. عثمان سليمان موافى

أ. د. عزيزة سعيد محمود

أ. د. غريب سيد أحمد

أ. د. محمد عبد المعز نصر

أ. د. محمد محمد حلمى هليل

أ. د. محمد محمود السروجى

أ. د. نادية محمود عبد الله

السيدة / تسبى إبراهيم عبد الغنى (سكرتيرة المجلس)

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المعجزة الكبرى للقرآن الكريم أ. د. عبد العزيز برهام	١
إبداع المتنبي – ظواهر فنية ونفسية في نص من سيفياته د. صالح حسن اليظي	٤٣
أصفهان منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي د. مجدي عبد المنعم عجمية	٨٣
منهج السيوطي النحوي د. ممدوح عبد الرحمن	١٣٣
فتاوي لغوية د. زين كامل الخويسكي	١٨٧
معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين د. ابراهيم خميس ابراهيم سلامه	٢٦٥
التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها في حوادث الصراع بين المسلمين والنصاري د. حمدي عبد المنعم محمد حسين	٢٩٩

رقم الصفحة

الصراع الزيدي العثماني في اليمن

د. هاني مهنا ٣٥١

وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم وأضواء جديدة

علي تاريخ عمارته

د. محمد عبد الستار عثمان ٣٧٥

قرائن التنمية الريفية في دولة الإمارات العربية المتحدة

د. محمد علي بهجت الفاضلي ٤١٧

معدلات العدوانية لدي المراهقين والشباب الكويتين

د. عويد سلطان المشعان ٤٧٥

التضحية بالبشر بين العهد القديم والأساطير اليونانية

د. حسين الشيخ ٥١٣

المصطلحات اليونانية لدي كلسوس - الهون والرومان

الشرقيون خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي

د. أحمد عبد الكريم سليمان ٥٥٣

Developing Countries and Environmental Geographical Issues

Abdullah R.A.Al-Kandari ١

المعجزة الكبرى للقرآن الكريم

محاضرة

ألقاها الدكتور عبد العزيز برهام

الأستاذ بالكلية

في تفسير قوله تعالى :

" فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون:
هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل
لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون "

س . البقرة ٢ / ٧٩

يوم الأثنين | ١١ من صفر ١٤١١ هـ
٢٩ مارس ١٩٩٣ م

أيها المستمعون الكرام!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد) فلكل دين من الأديان السماوية الثلاثة التي نعرفها كتابُه الذي يختص به . وهو يشكل أساس الأيمان عند المؤمنين بهذا الدين . وكل مؤمن يعُد كتابه تسجيلا لوحي إلهي .

** وقد يكون هذا الكتاب منزلا تنزيلا مباشرا ، فيتلقي الرسول الوحي من خالقة رأسا ، دون واسطة ، كما كان الشأن مع إبراهيم ، وموسي (عليهما السلام)

يقول الله سبحانه وتعالي " إن هذا لفي الصحف الأولي ، صحف إبراهيم وموسي " ، في الوقت الذي لا نعثر في التوراة التي بين أيدينا ، علي أي وحي إلي " ابراهيم " عليه السلام ـ تتكوّن منه الصحف المشار إليها . وكل ما نلتقي به فيها هو تجلي (يهوفا) لأبراهيم تارة ، وإبلوهيم تارة ، وأكثر ما يقوله له هو الوحي الخاص " بالوعد " بأعطاء (ابراهيم) وذريته من بعده أرض كنعان ـ فلسطين . وبعد هذا التجلي يبني الرسول مذبحا للرب الذي ظهر له ، في المكان الذي ظهر فيه ، وقد يسميه باسمه . أما ما هو دين إبراهيم الذي يشير اليه القرآن الكريم ، والصحف التي سجلته ، فلا أثر لهما أصلا في التوراة . فهل معني هذا أن هذه الصحف لا أساس لها أو أنها اندثرت ؟ إن النظر الديني الحديث ـ كما سنري ـ أثبت أن التوراة التي بين أيدينا ليست هي نفسها التي أُوحي بها ، وإنما الذي دون منها ليس إلا روايات كانت تتناقل ، قبل أن تدون، شفاها ، علي ألسنة بني إسرائيل ، حتي انتهي بها الأمر بعد قرون عدة إلي تسجيلها أي أنها لا تضم كل ما أوحي

به ، بل ضمت ما علق بأذهان المتعبدين بها . أما ما لم يعلق فقد عفا عليه الزمن . هذا ، ولما كانت الفترة التي عاش فيها إبراهيم كان بينها وبين فترات التدوين دهورا طويلة ، فليس ببعيد أن رسالة إبراهيم تكون قد اندثرت ، لأن الوثنية في أيامه كانت منتشرة بين سكان المناطق التي عاش فيها والتي تنقل فيها ، وكانت العشائر التي تعيش في هذه المناطق التي عاش فيها إبراهيم كثيرة تدين بغير دين إله إبراهيم ، وقد اختلط بنو اسرائيل بهم ، وشاركوهم عبادتهم ، ونسوا بذلك ما كانوا قد تلقوه من ابراهيم من تعليمات ، ولا سيما في الفترة التي كان فيها الرسول يعيش في وادي الرافدين ، في (أور) الكلدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والتي سجلها القرآن الكريم أروع تسجيل ، وسجل موقف قوم ابراهيم منه ، حين أوقدوا نارا ، وألقوه فيها ، فقال الله سبحانه ـ " قلنا ، يا نار ! كوني بردا وسلاما علي ابراهيم " . إن القرآن الكريم يسرد علينا طبيعة الصراع الذي دار بين ابراهيم (عليه السلام) وقومه ، في أكثر من موضع منه ، ويعلن حربا شعواء علي عبادة الأوثان التي كانت منتشرة في تلك الأماكن ، بين سكانها ، حينذاك ، والتي لم تشر إليها التوراة ، بحرف واحد . يقول الله تعالي :

" ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل ، وكنا به عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا : وجدنا آباء نا لها عابدين (٥٣) . قال لقد كنتم ، أنتم وآباؤكم في ضلال مبين (٥٤) . قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين (٥٥) . قال : بل ربكم رب السموات ، والأرض ، التي فطرهن ؛ وأنا علي ذلكم من الشاهدين (٥٦) . وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولوا مدبرين (٥٧) . فجعلناهم جذاذا إلا كبيرا لهم ، لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا : مَن فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين (٥٩) . قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له (إبراهيم) (٦٠) قالوا فأتوا به علي أعين

الناس ، لعلهم يشهدون (٦١) قالوا . أ أنت فعلت هذا بآلهتنا ، يا ابراهيم ؟ (٦٢) . قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون (٦٣) فرجعوا إلي أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نُكِسُوا علي رءوسهم : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم (٦٦) أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا : حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا: يا نار ! كوني بردًا ، وسلاما علي إبراهيم (٦٩) . وأرادوا به كيدا ، فجعلناهم الأخسرين (٧٠) . ونجيناه ، ولوطا إلي الأرض التي باركنا فيها للعالمين(٧١). ووهبنا له إسحق ، ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين (٧٢) . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ؛ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وأقامَ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين (٧٣) .

س الأنبياء ٢١/٥١ـ٧٣

** هذا السرد التاريخي ـ الديني الرائع ، وهذا التقدير الكبير لأبراهيم لم تشر إليه التوراة بكلمة واحدة ، فقد أغفلت الفترة التي عاش فيها (إبراهيم) في أرض الكلدانيين قبل أن ينتقل إلي (حاران) مع ذريته ، ولوط ابن أخيه ، ويبدأ هناك حياة جديدة ، ويتجلي له الرب ـ كما قلنا أكثر من مرة.

إن الآيات الكريمة التي أوردناها ، تبين معالم الدين الجديد ، الذي يعلن الوحدانية ، ويجدد طريق العبادة التي أغفلها (العهد القديم) ، والتي تتمثل في عبادة الله ، وفعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ... لأن عبادة الأوثان التي خلفها ابراهيم وراءه في بلاد الكلدانيين التقي بها في البادية التي هاجر إليها ، واختلط قومه بسكان المناطق التي كان يتنقل فيها طلبا للرزق ، وحدث امتزاج بين ما أوحي إليه به ، وما كان يعبده هؤلاء السكان .

وإذا كان ابراهيم لم يترك وراءه صحف دونت فيها الديانة الموحي بها مباشرة فان (موسي) كان كذلك كليم الله . وهو الذي حمل العبء الأكبر في تبليغ رسالة السماء . يلقي في سبيل ذلك ما لقي من عنت ، وضيق ، ومشاق. واستوزاء من بني إسرائيل الذين قادهم عبر صحراء ليرشدهم إلي مكان الأرض الموعودة . حتى كلمه (يهوا) رأسا أكثر من مرة . بما يريد أن يوحي إليه به . وهو الذي تلقي الألواح التي سجلت عليها الديانة الجديدة . وأشار الي ذلك كل من القرآن الكريم ، والتوراة .

*** هذا ، وقد يكون الوحي منزلا بطريقة غير مباشرة ، عن طريق رسول ، يكون حلقة الاتصال بين الموحِي ، والموحي إليهم ، كما هو الشأن مع عيسي ومحمد (عليهما السلام) . فقد أعلن المسيح أنه يتكلم باسم الرب ؛ وأما محمد (صلوات الله وسلامه عليه) فقد بلغ الرسالة التي نقلها إليه جبريل (عليه السلام) .

والإسلام يحد التوراة ، والأنجيل كتبا مقدسة ، ويجعل الأيمان بما صح لديهما جزءا من العقيدة ، بينما بنو إسرائيل ، والنصاري ينكرون علي القرآن أن يكون كتابا موحي به ، ويدعون أنه من صنع الرسول ، وأنه نقل عنهما ما جاء به ، وأن بشرا يعلمه ، فيرد الله بقوله : " لسانُ الذي يُلْحِدُون إليه أعجميٌ، وهذا لسان عربي مُبين " .

النحل ١٠٣/١٦ .

إن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعدها ، فهي تكذب بالمسيح ، ولا زال بنو إسرائيل ينتظرون ظهور مسيح من بينهم ، ينشر ديانتهم في الأرض؛ فتصبحُ السيادة فيها لهم ، وهم لهذا لا يعترفون بالأسفار التي أضافتها الكنيسة إلي (العهد القديم) اليهودي ، لأنها غير مكتوبة بالعبرية .

فالنصرانية قد آمنت بالتوراة العبرية ، ولكنها زادت عليها بعض الأضافات ؛ وإن كانت هذه لا تمس العقيدة في شيء .

لقد جعلت الكنيسة من نفسها حكما علي ما كُتب عن المسيح ، وعن رسالته - واعتبر البابا نفسه معصوما - فأسقطت عددا كبيرا من الأسفار التي كتبت عنه ، ولم تحتفظ في العهد الجديد ، المسمي بالأنجيل ، إلا بعدد محدود من الكتابات من أهمها الاناجيل الأربعة التي لا تعترف بغيرها ، والتي يناقض بعضها بعضا .

والنصرانية هذه لا تعترف بالأسلام ، ولا زال أتباعها يكذبون ما جاء به، حتي بعد أن ظهر لهم أن الكتاب " المقدس " محرف ، ومليء بالمتناقضات، وظلوا - ولا يزال فريق منهم ينسبون إلي الأسلام أمورا ليست فيه ، ويسئون إلي رسوله أبلغ الأساءات ؛ ويحاربون من يؤمن بالله من أتباع الكنيسة كل المحاربة .

لقد جاء القرآن الكريم بعد ظهور المسيح بستة قرون ، جاء ليصحح مفهوم العقيدة ، ويخلصها من الشوائب التي علقت بها ، وجعل إيمان المؤمن بالرسل الذين بعثوا قبل الرسول (عليه الصلاة والسلام) جزءا من العقيدة الاسلامية ، كذلك الايمان بما جاء به الرسل السابقون يقول الله (سبحانه):

" يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذي نُزّل علي رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفُرْ بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " .

سورة النساء ١٣٦/٤

فالقرآن بهذا يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل كنوح ، وإبراهيم ، وموسي ، وسائر أنبياء بني اسرائيل الحقيقيين ،

كذلك عيسى الذي يحتل مكانة بارزة بينهم في الدين الاسلامي هو وأمه حتى إن سورة كاملة من سور القرآن سميت باسمها ، وهي " سورة مريم " . وقد نزهها الله عن كل ما أحاطوها به من اتهامات . والذي يقرن بين ما جاء في سورة " مريم " وما جاء عنها في الأناجيل الأربعة يجد أن القرآن الكريم ، وضعها في منزلة لم تضعها فيها هذه الأناجيل . يقول الله سبحانه :

" واذكر في الكتاب (مريم) إذ انتبذت [1] من أهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا ؛ فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال : إنما أنا رسول ربك ؛ لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشر ، ولم أك بغيا (٢٠) قال : كذلك قال ربك : هو علي هين ؛ ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا . وكان أمرا مقضيا (٢١) فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها ألا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريا [2] (٢٤) وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) ـ فكلي ، واشربي ، وقري عينا ؛ فإما ترين من البشر أحدا فقولي : إني نذرت للرحمن صوما ؛ فلن أكلم اليوم إنسيا (٢٦) فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم ! لقد جئت شيئا فريا [3] (٢٧) . يا أخت هرون ! ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا (٢٨) ـ فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة ، والزكاة مادمت حيا (٣١) . وبرا بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) . والسلامُ عليّ يوم وُلدتُ ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا (٣٣) .

---

(١) أتخذت لنفسها مكانا بعيداً عن القوم . (٢) السّريّ : جدول الماء

(٢) فريا : عظيما (٣) يمترون : يشكون

ذلك عيسي ابنُ مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْتَرون (٣٤) ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ ؛ سبحانه . إذا قضي أمرا فإنما يقول له : كن فيكون (٣٥) .

" سورة مريم ١٩/١٦ ـ ٣٥ "

× × ×

فالقرآن كالأناجيل يعد ميلاد المسيح أمرا خارقا للعادة ، وبذلك يبرىء أمه من كل ما قاله عنها ذووها .

× × ×

** غير أننا يجب أن نعترف أن النصاري الذين لم يختلطوا بالمسلمين لا يعرفون ـ كما قلنا ـ شيئا عن الدين الأسلامي ، وما عرفوه عنه مشوه ، أو يحاولون تشويهه حتي يطمسوا معالمه ، ويظهروه للناس بمظهر كريه ، حتي ينفروهم منه ، رغم أنهم أو أكثرهم هجروا دينهم ، وابتعدوا عما ذكرته كتبهم، وجاراهم رجال الدين فيما ساروا عليه ؛ فلم يعودوا يعترفون منه إلا بالاسم ، وبالطقوس . ونحن من جانبنا ـ معشر المسلمين ـ لم نفعل شيئا لتعريف الناس بأمور ديننا ، ولا بحقيقته ، واكتفينا بالخطب ، والشعارات ـ وعقد المؤتمرات ، وإقامة الحفلات ... دون أن نستفيد من الخطط التي يضعها رجال الكنيسة لنشر دينهم . ومن يحاولون نشره ينسَون قول الله تعالي لرسوله ، " أدع إلي سبيل ربك ـ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن " .

لقد اتخذنا " التسامح " شعارنا ، دون أن نفهم حقيقته ، في عصور ، ومجتمعات لا تعرف معني التسامح ، ولازالت تعيش بعقلية " الحروب الصليبية التي كان هدفها القضاء علي الإسلام ، دين السلام ، والتعايش ، والحرية

الدينية لأهل الكتاب ، والتآخي الخ : ـ هذه العقلية التي لا تعلن عنها ، وإن كانت تمارسها عمليا . ففي أيامنا هذه يتجمع مندوبون من دول العالم في مجلس يسمونه " مجلس الأمن " يتخذ من الولايات المتحدة مقرا له . والذي يتتبع أعماله يجد أن مفهوم " الأمن " لا ينطبق على المسلمين . فأمامنا حرب صليبية ، دون رفع الصليب ، دائرة بين فلول الدولة التي كانت من قبل تسمى "يوغوسلافيا" ، وهي تتمثل في دولتي الصرب والكروات المسيحيتين المسلحتين أقوى تسليح ، عن طريق الدول المسيحية المحيطة بهما ، بينما الدولة المسلمة المعتدى عليها ، والمغتصبة أراضيها ، مجردة من السلاح بقرار من المجلس الموقر ، الذي أنشيء أصلا للحفاظ على الأمن في العالم ، فاذا طلبت الأذن لها بالتسلح أو الحيلوله بين إعدائها والتسلح رفض المجلس طلبها ، وحرمها من كل وسائل الدفاع ، لا لشيء إلا لأنها مسلمة . ولو كان هذا الصراع الدموي الباغي بين دول مسيحية أو مسيحية ويهودية لتدخل مجلس الأمن في الحال ، وأوقف سيل الدماء .

ومع ذلك فأن الذنب ليس ذنب المجلس ، وإنما هو ذنب مسلمي العالم الذين وقفوا يتفرجون دون أن يحركوا ساكنا . وصدق كليلة ودمنة الذي سجل مؤلفه كلمة مشهورة : " لقد أُكلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض " ، ضاعت (الأندلس)، وتلتها (فلسطين) العربية ؛ والبوسنة ، والهَرْسَك ، يسيران في طريق الضياع . ولله في خلقه شئون .

يقول المسيو (موريس بُوكاي) الفرنسي الذي أشهر إسلامه : بعد دراسة الأسلام دراسة عميقة ، وكتب عن الكتب المقدسة الثلاث مقارنة :

" لقد فرض على أجيال أوربا الكثيرة العدد ، الجهل بكل ما يمس الأسلام . وهكذا ، فأن الاستعمال السائد حتي اليوم أن يسمي : " الدين

المحمدي " وأن يسمي من يعتنقونه " المحمديون " والغاية من هذا أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطيء القائل بأن المعتقدات المحمدية انتشرت بفضل جهاد رجل ، وأنها ليست لله ، فليس لهذه المعتقدات إذن مكان في المعتقدات الألهية " .

" إن كثيرا من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية ، والاجتماعية ، والسياسية في الإسلام ، دون أن يعالجوا قضية الوحي الإسلامي بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويردوا ما يشاع بين غير المسلمين من أن " محمدا " قد اعتمد فيما قاله علي من سبقه ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلي استبعاد الوحي الإلهي منذ البداية " .

× × ×

** كل هذا يقودنا إلي أن نقول كيف يقال إن رسول الأسلام قد نقل ما أوحي إليه به عمن سبقوه ، وهم بنو اسرائيل ، والنصاري في الوقت الذي يعلن فيه صراحة أن كل ما ينسبونه إلي أنفسهم ، ويقولون أنه موحًي به إلي رسلهم وأنبيائهم ، قد دخله التحريف ، والتزييف ، والاختلاق ؟ كيف ينقل عن (الكتاب المقدس) ما يبلغه إلي المؤمنين برسالته ، وهو يعلم أنه ليس هو الموحَي به، وإنما كتبته أيد آدمية ، وادعت أنه وحي وليس بوحي ؟ أليس القرآن المنزل عليه هو الذي يقول عن بني إسرائيل : " فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون (٧٩) وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل : أتّخذتم عند الله عهدا ، فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون علي الله مالا تعلمون (٨٠) بلي ؛ من كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئتُه

، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٨١) .

سورة البقرة ٢/٧٩ ـ ٨١ .

فكيف ينقل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) الوحي الإلهي عن الكتب المسماة بالمقدسة ، وهو يعلم أنها محرفة ، وليست من عند الله ، وأن الكتاب الذي يتلوه الله عليه يقول له ذلك ؟

كيف ينقل ما يبلغه قومه عن اليهود ، والله يقول فيهم : " ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تَهْوى أنفسكم استكبرتم ؛ ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟ (٨٧)

(س . البقرة ٢/٨٧)

ويقول:

" وإذا قيل لهم : آمنوا بالّذي أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ـ ويكفرون بما وراءه ـ وهو الحق مصدقا لما معهم . قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ . إن كنتم مؤمنين (٩١) . ولقد جاءكم موسى بالبينات ، ثم اتخذتم العجل من بعده ، وأنتم ظالمون (٩٢) وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ؛ خذوا ما آتيناكم بقوة ، واسمعوا . قالوا : سمعنا ، وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم ؛ إن كنتم مؤمنين . (٩٣)

سورة البقرة ٢/٩١ ـ ٩٣

هذه الآيات البينات ، وكثير غيرها لا يمكن إلا أن تكون وحيا من الله الذي كان طرفا مع موسى ، ومع بني إسرائيل ، فهو يبلغ رسوله بما حدث

من اليهود الذين يعارضونه اليوم ، وينكرون دعوته ـ حدث مع (موسي) رسولهم الذي أخرجهم من مصر ، وجاوز بهم البحر ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يعبدوا إلهم (يهوفا) الذي نجاهم من فرعون ، وقومه ، وإذ بهم ينغمسون في الوثنية ، ويعبدون العجل . ثم تأتي ذريتهم من بعدهم فيقتلون أنبياءهم إذا بلغوهم ما لا تهوي أنفسهم ...

فليس من المنطق إذن أن يدعي أحفادهم أن ما يوحي به إلي رسول الإسلام ليس إلا ما أوحي إلي أنبيائهم به ، ينقله إلي أتباعه من كتبهم ،علي حين أن كتبهم محرفة . (كما سنري) ومليئة بالوثنيات ، وبالخرافات ، والمخزيات . وكتاب.الله لم يرد فيه أي شيء من هذا . إن المصدر الذي أوحي بما أوحي إلي نوح وإلي ابراهيم وموسي ، وعيسي ، وسائر الرسل الأنبياء هو نفسه الذي أوحي إلي محمد بن عبد الله ، رسول الانسانيه جمعاء ، قصة كل من الأنبياء السابقين عليه ـ وهو الله تعالي . وإذا كانت الكتب السابقة علي القرآن قد حُرفت ، وبدلت ، فان القرآن أتي بحقيقة ما بُلغ ، ونعي علي المحرفين تحريفهم ، وعلي المزيفين تزييفهم ، والتاريخ هو التاريخ ، ولم يُخف شيئا مما حدث .

يقول الله سبحانه :

" ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون أن تَضلوا السبيل (٤٤) . والله أعلم بأعدائكم ، وكفي بالله وليا ، وكفي بالله نصيرا (٤٥) . من الذين هادوا .. يحرفون الكَلِم عن مواضعه .. (٤٩) .

سورة النساء ٤/٤٤ ـ ٤٦ أ

ويقول جل جلاله عن اليهود :

" فبما نقضهم ميثاقهم ، لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية . يحرفون الكَلِم

عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذُكّروا به

سورة المائدة ٥/١٣

ويقول:

" إن الله اشتري من المؤمنين أنفُسَهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيَقتلون ، ويُقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة ، والأنجيل ، والقرآن ؛ ومن أوفي بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ؛ وذلك هو الفوز العظيم "

س التوبة ٩/١١١

ويقول : " وإذ قال عيسي ابن مريم : يا بني إسرائيل ! إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يديّ من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ؛ فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين " (س. الصف ٦١/٦)

والسؤال الآن : أين التوراة الموحي بها ، وأين الأنجيل المنزل علي عيسي؟

ويقول جل جلاله :

" نزّل عليك الكتاب بالحق ، مصدّقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة ، والأنجيل (٣) من قبلُ هدي للناس ، وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بأيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام (٤) - س آل عمران ٣/٣ - ٤

ويقول - سبحانه :

" وإذ قال موسي لقومه ياقوم ' لم تؤذونني ، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين

(س الصف ٦١ / ٥)

× × ×

** ترشيق النصوص " المقدسة " :

هذه الآيات البينات جعلت المسلمين يؤمنون بالكتب المذكورة الصحيحة الموحَي بها ، لا التي سطرتها أيدي البشر ، لذلك كان علينا ، قبل أن نعمل بما بها ، أن نوثق نصوصها ، وأن نتأكد من أنها هي حقيقةً الموحَي بها ، والمسجلة وقت نزولها علي الرسل .

لو كانت بين أيدينا مخطوطة منسوبة إلي شخص ما علي أنه مؤلفها ، ونريد نشرها فأول شيء نفكر فيه هو أن نتأكد من صحه هذا المكتوب علي غلافها هذا مخطوط في أي موضوع دنيوي من الموضوعات ؛ أفلا يكون من الأولي أن نتحقق من صحة ما نتعبد به ؟ هذا هو الموضوع الذي عالجه الباحثون علي مدي قرون عدة ، وقد توصلوا في النهاية إلي التشكيك في صحة ما جاء في (الكتاب المقدس) بشقيه : العهدين القديم والجديد . وبذلك أيدوا ما قاله كتاب الله (جل جلاله) عن الكتب الموسومة بالمقدسة وأنها من صنع البشر ، وليس كل ما فيها وحيا من خالق السموات والأرض

إن النظر في " الكتب المقدسة " يقتضي باديء ذي بدء دراسة الظروف التي سادت تحرير نصوصها . والطرائق التي انتقلت إلينا بها هذه النصوص " وإن معالجة نصوص الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية شيء قريب العهد في البلاد الأوربية فقد ظل الناس إلي عهد قريب جدا يتقبلون نصوص (العهد القديم) ، و (العهد الجديد) علي أنها مقدسة . وكان التعبير عن أي روح نقدية إزاء الكتاب المقدس يعد خطيئة لا تغتفر . وكان القساوسة ، والأحبار هم الصفوة التي تستطيع بدون عناء أن يكون عندها معرفة إجمالية عن (التوراة) و (الأنجيل) أما عامة الناس فلم يكن يؤذن لها إلا بتلقي نصوص مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر العظات ، من مثل ما في (دلائل الخيرات) عند المسلمين

وكلنا نذكر ان (مارتن لوثر) قد ثار علي هذه الطريقة واحتج عليها وأعلن أن الناس يجب أن يقرءوا نصوص العهدين القديم والجديد بكاملها وقد ترجمهما إلي اللغة الألمانية فطردته الكنيسة وحرمته من الرضا الألهي، وألف مذهبه البروتستنطي فتبع مذهبه هذا الذي نادي به كثير من قومه ، وسُمي البروتستنطية أي مذهب المحتجين وهو الذي تدين به ألمانيا ، وغيرها وهو متأثر في تعاليمه وبساطته إلي حد كبير بالإسلام فليس فيه رهبانية فالقساوسة يتزوجون شأنهم شأن بقية خلق الله علي خلاف ما في المذهب الكاثوليكي وكنائسه خلو من التماثيل ، والصور . ففيها بساطة المسجد وليس فيه شيء اسمه (البابا) المعصوم من الخطأ وثبتت قواعده . كما هو الشأن في الأسلام فليس فيه مجالس كنسية تحلل الحرام وتحرم الحلال . فتبيح للرجل أن يتزوج الرجل وللمرأة أن تتزوج المرأة وليس فيه مبدأ الاعتراف بالذنب وغفران القس لمرتكبه في الوقت الذي لا يملك غفران ذنبه هو فيعترف أمام قس آخر كما أن هناك كنائس اخري لا تتبع المذهب الكاثوليكي

وبعد هذا الانشقاق بين أتباع الكنيسة التي كانت موحدة اضطر البابا أن يجمع رجال الدين ليعيدوا النظر في شئون دينهم ومعتقداتهم كان ذلك في منتصف القرن السادس عشر الميلادي فدعا إلي المجمع الكنسي خلال المدة بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٦٣ م في مدينتي ترنت وبولونيا في شمال إيطاليا للنظر في إصلاح حال الكنيسة الكاثوليكية بعد انتشار الأصلاح البروتستنطي الخطير فعقد المجلس عدة جلسات متفرقة في خلال المدة المشار إليها وسمي المجمع التّريدنْتي وتقرر في هذا المجمع تقديس العهدين القديم ، والجديد . بما في ذلك الأسفار غير الموثقة ولقد أعلن أحد القساوسة أن الكتاب المقدس هو صوت الجالس علي العرش كل سفر من أسفاره أو اصحاح من اصحاحاته أو جملة من جملة ليست الا حديثاً يتلو به الكائن الأعلي وهو معصوم من الخطأ [illegible] الخطير لا أحد يعرف

من أين استمد هذا القس علمه هذا ، وهو ليس برسول يوحي إليه ، ليس إلا بشرا من بني آدم ، ثم من هو هذا الكائن الأعلي المعصوم من الخطأ؟ أهو خالق هذا الكون أم هو الرئيس الأعلي للكنيسة ؟ الله أعلم .

هذا القرار الكنسي الذي صدر من أعلي سلطة في الكنيسة ، والذي جعل (الكتاب المقدس) هو صوت الجالس علي العرش ، وحكم بتقديس العهدين كان يعيش في واد والبحوث الدينية في واد آخر . في العصر نفسه أي السادس عشر الميلادي .

قال تعالي : " وآتينا موسي الكتاب **فاختُلف فيه** ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضي بينهم ؛ **وإنهم لفي شك منه مريب** " صدق الله العظيم .

هذه الحقيقة أنكرها اليهود

يوم أن أوحي بها إلي رسول الأسلام (صلوات الله وسلامه عليه) في القرن السادس الميلادي . وحتي ذلك الحين لم يكن هناك من غير المؤمنين من يصدق صحة هذه الحقيقة ؛ فكذب بها بنو إسرائيل ، وتابعهم في ذلك النصاري ، ولا يزالون . فقد كان هؤلاء وأولئك يسلمون بصحة كل ما جاء به (العهد القديم) ، سواء منه (التوراة) أو الكتب الأخري التي ألفت بعدها ، والتي لا تخرج عن أن تكون سردا تاريخيا ، وقصصا ، وخرافات ، وترهات ، وأوصافا للمعارك الدامية التي دارت بين الأسرائيليين وغيرهم ، وبينهم وبين أنفسهم ، إلي جانب نبوءات الأنبياء ، وغيرها . وهذه كلها إذا فكر فيها المرء، وأمعن في التفكير لا يستطيع أن يصدق أنها وحي من خالق السموات ، والأرض ، وحي من إله إسرائيل .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أهل الكتاب الذين عاشوا في عصر نبي الأسلام (عليه الصلاة والسلام) أو بعده يقاومون الرسالة الألهية التي بلغها هذا النبي ـ الرسول :

(أولا) لأنهم لم يكونوا يعرفون عن حقيقة كتبهم شيئا ، فكانوا يؤمنون إيمانا عميقا بأنها وحي سماوي ، فلا سبيل لمعارضتها .

(ثانيا) لأن العلم لم يكن قد تقدم ، والتاريخ قد كُتب ، والناسَ قد وَعَوْا ما يقال ، وما ينقل اليهم من كتبهم ؛ لأن رجال الدين هنا وهناك كانوا بما يقولونه يسيطرون علي أتباع دينهم ، ويسوقونهم سوق السوائم ؛ وآية ذلك قيام الثورة الفرنسية التي دعا إليها تحكم رجال الكنيسة في مصائرهم ، الدنيوية ، والأخروية علي حد سواء ، والتي انتهت بفصل الكنيسة عن الدولة .

كذلك ثورة (مارتن لوثر) علي الكنيسة ، وقد كان هو نفسه من رجالها، وخروجُه منها ؛ لأنها كانت تحرم علي أتباعها قراءة (العهد القديم) إلا ما تختارة هي لهم ؛ لعلمها بما فيه من أمور يندي لها الجبين . ولذلك رأينا هذا الثائر يترجم (الكتاب المقدس) إلي اللغة الألمانية ؛ ليقرأه جميع أتباعه ، ومع ذلك فإنه كان يدرك حتي يومه هذا أن أكثر ما في هذا الكتاب وحي إلهي، لا من صنع البشر ؛ لأن التاريخ لم يكن قد كشف عن هذه الحقيقة بعدُ، وإذا كان رجال الكنيسة قد سيطروا علي أتباعها ، وأفهموهم أن ما جاء به الرسول (عيسي) عليه السلام ، ودُون في الأناجيل حق ، فأن الشيء ذاته قد حدث مع اليهود أيام أن كانت لهم دولة ، وأيام أن صاروا رعايا لمن قوضوا دولتهم هذه من الأشوريين ، والبابليين ، والرومان ، ودب فيهم الفساد حتي هددهم أنبياؤهم بالزوال ماداموا ينأوْن عن سبيل ربهم (يهوڤا) ، ويحرفون دينه ، ويعبدون الأصنام . فهذا النبي (أشعياء) يقول :

" اسمعي ، أيتها السموات ، وأنصتي أيتها الأرض ، فأن (يهوڤا) قد تكلم (١) . لقد غذيت أطفالا ، وربيتهم ، ولكنهم تمردوا عليّ (٢) الثور يعرف قانيه ، والحمار معلف صاحبه ، لكن إسرائيل لم تعرف ، وشعبي لم يفهم (٣) . ويل للأمة الخطّاءة ، للشعب المثقل بالآلم ، لذرية المجرمين الفجار ! لقد

انصرفوا عن (يهوذا) ، واستهانوا بقدوس إسرائيل ، وارتدوا علي أعقابهم(٤) .

ما هي العقوبات الجديدة التي نزلت بكم ، عندما استكثرتم من عصيانكم ؟ فالرأس كله سقيم ، والقلب كله مصاب ، من أخمص القدم ، حتي قمة الرأس . لا شيء معافي . ليس إلا جروح ، وكُدوم ، جروح تسيل ؛ لا شيء منها قد عولج أو ضُمّد . أو برئت الأمة من أثر الزيت (٦) . بلادكم قد صارت خرابا ، ومدنكم قد التهمتها النيران ، ومزارعكم (٥) قد أتلفها الغرباء أمام عيونكم ؛ لقد خربوها ، وهدموها كالبرابرة (٧) - (الأصحاح الأول ١ - ٧)

ويقول :

اغتسلوا ، وطهروا أنفسكم ، وأزيحوا من أمام ناظريّ أعمالكم الشريرة، كفوا عن الأساءة (١٧) تعلموا الأحسان ، وأنصفوا اليتيم ، ودافعوا عن الأرملة (١٨) .

* * * * * *

ماذا ننتظر من شعب يصفه ربه وحاميه بهذه الأوصاف ؟ المال ! المال ! فلا عجب إذن أن يتمرد الذين تمرد أسلافهم علي ربهم،أن يتمردوا علي رسول الأسلام وينكروا رسالته ، ويكيدوا له ، ويتهموه بتزييف الوحي عندما قال الله لهم : " إن هذا القرآن يقص علي بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " .

كان لا بد إذن من الانتظار عشرة قرون أو تزيد حتي تُفك هذه الطلاسم التي أشار اليها كتاب الله الكريم ، حتي تكشف الدراسة النقدية للكتاب المقدس ، عن مصادره ، وعن مدي صحة ما جاء فيها ، وما تحمله من حقائق أو زيف (كما سنري) .

× × ×

لقد جاء الأسلام في القرن السادس الميلادي أي قبل قرار المجمع الكنسي الأعلي بعشرة قرون ، وأوحي الله في قرآنه إلي رسول الإسلام أن فريقا من بني اسرائيل " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا " (١) . ولكن اليهود آنذاك أنكروا إنكارا تاما ما قاله كتاب الله . وظل هذا الأنكار سائدا حتي القرن السادس عشر الميلادي ، فانضم إليه قرار المجمع المشار إليه الذي أيد ما يقول به اليهود منذ ظهور الأسلام ، وزاد علي ذلك أنه أضفي القداسة علي أسفار في (العهد القديم) لا يُعرف من الذي ألفها ، وعلي أسفار لا يتصور عاقل أن تكون موحي بها ، لما فيها من غزل فاضح ، وحكايات مخزية ، وخرافات ... لا يمكن أن تصدر عن خالق الكون . القرآن كاذب فيما يقول ، وفيما يتهم به الذين زيفوا التوراة ، والانجيل ، فكلاهما مقدس ، وكلاهما موحي به – هكذا قيل .

وكان لا بد أن ننتظر عشرة قرون بعد نزول القرآن ، حتي نري أول بذرة من بذور تصديق ما جاء به كتاب الله ، تلقي في حقل البحث الديني ، والنقد الديني للكتاب المقدس ، وظلت هذه البذور تنمو ، وتتكاثر حتي ملأت حقل التصديق بأكمله ، ولم تكفّ حتي اليوم عن نموها ، وتكاثرها . فقد أصبح نقد النصوص علما ، كان له الفضل في الكشف عن كثير من مشاكل مطروحة ، أثبت أن هناك مواطن ضعف كثيرة فيما يسمي (الكتب المقدسة) : التوراة ، والأنجيل . " ولكن الغالبية النصرانية ـ كما يقول مسيو (بُوكاي) ظلت في جهالة تامة عن أمر تناقض ما بهذه الكتب مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعد غالبا من المعارف الأساسية جدا " .

هذا ، وقبل أن ندخل في سراديب هذا النقد الذي أثبت أن كلا من العهدين القديم والجديد لم يدون كما أوحي به ، بل خطته يد الأنسان ، وملأته بما لا يليق بكتاب مقدس ـ نقف مع العهد القديم وقفة قصيرة لنصف ما فيه من أسفار .

---

(١) ذكرنا ما جاء به القرآن في هذا الصدد من قبل (ص ١٠ ـ ١٣)

العهد القديم

تطلق كلمة (العهد القديم) علي كل ما يضم ما أُنزل علي أنبياء بني إسرائيل من نبوءات ، وعلي غيرها من الأسفار التي تؤرخ لهذا الشعب منذ ظهوره إلي عالم الوجود حتي اختفائه من علي خريطة التاريخ ... الخ .

وسمي (القديم) لأنه هو الذي أبرم بين ابراهيم وربه الذي وعد رسوله أن يعطي الأسرائيليين أرض كنعان هبة منه - بينما (العهد الجديد) كان بين (عيسي) وربه .

ويطلق القرآن كلمة (التوراة) علي كتاب بني إسرائيل الذي أوحي به إلي (موسي) ؛ لأنه العمود الفقري للشريعة الأسرائيلية . أما ما عداه فلا علاقة له بالدين ، فهو تاريخ ، وتكرار لما أوحي به علي (موسي) ، حتي نبوءات الأنبياء . إلخ .

مكونات العهد القديم

أولا- التوراة :

تتألف من خمسة أسفار هي : التكوين أو الخليقة ، والخروج ، واللاويون أو الأحبار ، والعدد ، والتثنية .

(١) سفر التكوين :

يروي لنا قصة خلق الكون ، واستقرار الأنسان علي الأرض بعد أن كان يعيش في الجنة ، وظهور شعب بني إسرائيل . وهو يحدثنا عن نوح ، وابراهيم ، ويعقوب ، واسحق ، واسماعيل ، ثم عن يوسف ، وعن السيارة

التي اشترته ، وأخذته معها إلي مصر ، وإقامته بها ، وعن وصول يوسف إلي أعلي منصب في أمور التموين الخ ثم عن حدوث مجاعة في أيام يعقوب في أرض مقامه وقبيلته ، وارساله بنيه يمتارون من مصر، وتعرّف (يوسف) الذي كان حينذاك صاحب الشأن في الميرة علي إخوته دون أن يعرفوه ، واستدعائه لأهله أجمعين . وينتهي السفر بوفاة (يعقوب) بمصر ، وتحنيطه ، وحمله ، ليدفن في أرض كنعان . ثم وفاة (يوسف) ، وقد بلغ من العمر ١١٠ سنوات.

(٢) سفر الخروج:

يروي لنا قصة بني إسرائيل الذين قدموا مع يعقوب إلي مصر ، وكان عددهم ٧٠ نفسا ؛ وبعد فترة من الزمان أخذوا في التكاثر حتي " امتلأت الأرض بهم " . وأثناء مقامهم بمصر ولد (موسي) الليفي ، وتربي في بلاط فرعون بعد أن انتشل من النيل . ولما كبر حدثت بينه وبين فرعون وقومه أمور استدعت هربه من مصر ، وذهابه إلي سيناء وتزوجه من بنت كاهن (مدين) ثم اختياره رسولا إلي فرعون ليطلب منه الأذن لبني اسرائيل بمغادرة البلاد ، والذهاب الي طور سَيناء لعبادة (يهوڤا) إله اسرائيل ـ وقد تم ذلك ، واستقر بالطور لتلقي الوحي هناك .

(٣) سفر اللاويين :

يقص علينا اخبار قبيلة (لاو) التي ستتولي سدانة المعبد ، والسهر علي تابوت العهد الخ .

وقد استخدمت الأحداث التاريخية إطارا لعرض المباديء ، والتعاليم التي تنظم الحياة الدينية ، والاجتماعية ، للشعب الإسرائيلي . ومن هنا جاءت كلمة " التوراة " أي التعليم من فعل (ירה) يعلّم ، درّس .

(٤)سفر العدد :

به إحصاء جماعة بني اسرائيل الخارجين من مصر وبيوت آبائهم ، بعدد أسمائهم ، من ابن عشرين سنة فصاعدا ، أي كل من يخرج إلي الحرب .. الخ . وتسجيل مراحل الخروج (٣٦ إصحاحا) ـ ذكر الوعد (٣٤) وتخوم الأرض .

(٥)سفر التثنية :

وفيه تكرار لبنود الشريعة التي ذكرت في الأسفار السابقة . وكانت التوراة أربعة إصحاحات ثم أضيف اليها هذا السفر الذي عثر عليه في الهيكل عام ٦٢٢ ق . م .

ثانيا – النبـــوءات :

هذه الطائفة من الأسفار تضم نبوءات مختلف الأنبياء الذين ظهروا في بني إسرائيل ، أذا استثنينا كبارهم أمثال موسي ، وصموئيل ، وإيليا واليشع الذين تكفلت أسفار أخري بعرض حياتهم ، من خلال أحداث عصورهم السياسية ، ومشاركتهم فيها .

وهؤلاء الأنبياء ظهروا في الفترة التي تمتد من القرن الثامن إلي القرن الثاني قبل الميلاد .

أما أسفار القرن الثامن ق . م . فهي نبوءات عاموس ، وهُوشع ، وأشعياء ، وميخا ..

أما (عاموس) فقد ثار علي المظالم الاجتماعية ، وأما (هُوشع) فثار علي الفساد الديني مما جعل اسرائيليو عصره يعذبونه (بعد أن تزوج بعاهرة

مقدسة في عبادة وثنية) . كصورة الرب الذي يتألم بسبب انحلال شعبه ، وإن أعطاه حبه دائما .

- وأما (أشعياء) فانه وجْه للتاريخ السياسي . إنه يسود الأحداث ؛ لأن الملوك يستشيرونه . إنه نبي العظمة . وإلي مؤلفاته تضاف نبوءاته التي نشرها تلاميذه حتي القرن الثالث ق . م . ومنها الاحتجاج علي الظلم ، والخوف من يوم القيامة ، والتبشير بالتحرر ، في عصر النفي ، والتنبؤ بعودة الأسرائيليين إلي فلسطين في فترة لاحقة .

ومن المؤكد أن نبوءتَي أشعياء الثانية ، والثالثة تحتويان ، إلي جانب الاهتمام النبوي ، علي اهتمام سياسي يظهر فيهما جليا .

- وتتبع رسالة (ميخا) ، وهو معاصر لأشعياء ، أمثالَ هذه الأفكار .

- وفي القرن السابع ق . م يظهر صفَنْيا ، وأرمياء ، وناحوم ، وحَبَقُّوق علي مسرح التبشير . ويقضي (أرمياء) حياته شهيدا ، فتلقي (باروك) نبوءاته . وقد يكون هو كاتب المراثي المنسوبة إلي أرمياء .

- وفي بداية القرن السادس ق . م . يقع السبي البابلي ٥٨٦ ق . م ، فيؤخذ الأسرائيليون إلي (بابل) بالعراق أسري فتظهر في فترة السبي نبوءات نشطة .

ويعد النبي (حزْقيال) المجلّي في هذا المضمار ؛ فقد تضمنت نبوءاته الكثير من المواساة لشعبه ، حين بذر فيهم بذور الأمل ، بعودتهم إلي أرض كنعان - فلسطين ، وله رؤي مشهورة .

أما (عُوبِيديا) فيرتبط كتابه بكوارث القدس المشهورة .

● هذا ، ولما انتهت فترة النفي عام ٥٣٨ ق . م بعودة من أراد من بني إسرائيل العودة إلي فلسطين استؤنف النشاط النبوي مع (حَجّاي) ، و(زكريا) للحث علي إعادة بناء هيكل سليمان ... (ملاخي) .

وبعد بناء الهيكل تلتقي بنبوءات متنوعة ، ذات طبيعة روحانية .

ثم هناك كتاب (يونس) ، (والعهد القديم) لا ينسب إلي هذا النبي نبوءات بالمعني الحقيقي للكلمة ، فالكتاب ليس إلا حكاية يُستخلص منها أمر رئيسي هو الخضوع المطلق للإرادة الالهية .

ونتساءل : كيف أدرج هذا السفر بين أسفار الأنبياء ؟

(**دانيال**) – سفره مكتوب بثلاث لغات هي (العبرية ، والآرامية ، والإغريقية) . وهو رؤيا ، يقول المعلقون من النصاري إنها مذهلة ، من وجهة النظر التاريخية .

ويعتقد أن هذا السفر ألف في القرن الثاني ق . م . ، في عصر المكابيين .

ويحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد هدف إلي إقناع مواطنيه ، في عصر (منتهي الشر) إلي أن ميعاد الخلاص قريب ، حتي يبعث فيهم روح الأمل .

ثالثا – كتب الشعر ، والحكمة :

هناك مجموعات متنافرة ، وإن كانت تتمتع بوحدة أدبية لاجدال فيها . وتحتل (المزامير) المقام الأول بين هذه المجموعات . إنها الصرح الشامخ في الشعر العبري . وينسب إلي (داود) كتابة عدد كبير منها . أما البقية فقد

كتبها الكهنة اللاويون . وموضوع هذه المزامير هو المدائح ، والتضرعات ، والتأملات ؛ وكانت وظيفتها طقوسية الطابع .

- أما سفر (أيوب) ، سفر (الحكمة والبر = العدل) فيرجع تاريخ تأليفه، فيما يقال ، إلي القرن الخامس (٤٠٠) أو السادس (٥٠٠) ق . م .
- ونشيد الأناشيد ليس إلا مجموعة من الأناشيد الرمزية التي تتناول الحب الإلهي قبل كل شيء .
- وأما (المراثي) علي سقوط (القدس) ، فتنسب إلي (أرمياء) في بداية القرن السابع ق . م .
- ويتكون سفر (الأمثال) من طائفة من أقوال سليمان ، وحكماء آخر كانوا في بلاطه .

وأما سفر (الجامعة) فيتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة .

سؤال:

والسؤال الذي يرد علي الذهن الآن هو : كيف استطاع هذا المجموع المتنافر في مضمونه ، والذي يتألف من أسفار دونت علي مدي سبعة قرون علي الأقل ، وجاءت من مصادر متنوعة للغاية ، ثم تجمعت بعد ذلك في مؤلف واحد .

كيف استطاع عبر القرون أن يكوّن كُلا لا تنفصم عراه ، وأن يصبح – مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية – كتاب الوحي اليهودي – المسيحي ؟ كيف أصبح القانون Canon ، وهي كلمة إغريقية يرتبط بها معني (عدم المساس) ؟

إن هذا التجميع يرجع إلي العبد اليهودي نفسه ، ولا شك أن مرحلته الأولي تعود إلي القرن السابع ق . م . ثم جاءت الكتب اللاحقة فأضيفت إلي الموجود منه . علي أننا يجب أن نلحظ تلك المنزلة الخاصة التي حظيت بها في كل العصور الأسفار الخمسة التي تتألف منها (التوراة) ، والتي كانت نواة لما جاء بعدها . فقد أمكن ، فيما بعد ، إضافة أسفار الأنبياء إلي الأسفار التي قيلت من قبل ، مادامت هي أيضا تتحدث عن الثواب ، والعقاب .

إن النصرانية التي كانت في أول أمرها يهودية – نصرانية قد تقبلت بشكل طبيعي جدا ميراث (العهد القديم) الذي ارتبط به كل الارتباط مصنفو الأناجيل ، وذلك قبل أن يجري عليها التحول الذي حدث بتأثير (بولص) الداعية ، ولكن إذا كان " تطهير " الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل "المزورة"، فأن المسئولين لم يَرَوْا ضروره الفرز بالنسبة للعهد القديم وقبلوا كل ما يحتويه تقريبا ، بل أضافوا إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل .

× × × × × ×

** مدي التصديق بصحة ما جاء في العهد القديم :

لقد ظل الحال كذلك حتي العصور الوسطي الأوربية لا يخطر ببال أحد أن يفكر في قضية التشكيك في صحة ما جاء بالعهد القديم .

ومنذ العصور الوسطي الأوربية حتي بداية العصور الحديثة ظهرت علي الألسنة، والأقلام بعض الانتقادات لمحتويات الكتاب المقدس ، ولكن الكنيسة نجحت دائما في فرض سيطرتها ، وكتم أنفاسها .

ومع ذلك فقد شهد العصر الحديث ميلاد نقد أصيل للنصوص المقدسة، أو المدعاة كذلك ، ولكن المتخصصين في هذا المجال لم تكن لديهم الشجاعة

الكافية للتصريح ، وتجاوز الأمور التفصيلية ، واكتفوا بالتلميح بأن هناك صعوبات في دراسة بعض نصوص الكتاب المقدس . وحتي ذلك الحين لم يجرؤ أحد منهم علي عمل موازنة صريحة ، وعميقة بين روايات الكتب المقدسة بعضها وبعض ، وبينها وبين المعارف الحديثة ؛ لأن هذا لو حدث كان سيقود إلي القضاء علي صحة فكرة الكتابات اليهودية النصرانية التي لم يناقشها حتي ذلك الحين أحد.

ولكي نقف علي حقيقة ما بأسفار (العهد القديم) يجدر بنا :

(أولا) أن نقف علي المصادر التي استُقي منها ما بها .

(ثانيا) أن نقف علي المسار الذي سلكته حتي وصلت إلي أن أصبحت شريعة يؤمن بها ملايين الناس .

مصادر العهد القديم

أولا- مرحلة النقل مشافهة :

كان العهد القديم قبل أن يدون ، ويصبح مجموعة من الأسفار تراثا شعبيا يعتمد اعتمادا كليا علي الذاكرة ، وكان هذا التراث يغنّي .

يقول (إدمون يعقوب) : " إن كل شعب يغني في مراحل تطوره البيئية " . ولم تكن إسرائيل بِدعا من الشعوب ؛ ففيها سبق الشعر النثر الفني . وكانت حياتها التاريخية خليطا من الحماس البالغ ، واليأس القاتل . ولهذا أعطت أغانيها تعبيرات كثيرة التنوع . فكان الناس يغنون في مختلف المناسبات . ويسجل لنا (العهد القديم) نفسه الأغاني التي كانت تغني في هذه المناسبات . فمنها أغاني الطعام ، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ؛ وأناشيد العمل ، مثل أناشيد البئر المشهورة (سفر العدد ٢١ / ١٧) يقول المصنف :

" ورحلوا من ثم إلي البئر ، وهي البئر التي قال يهوفا عنها لموسي اجمع الشعب حتي أعطيهم ماء (١٧) حينذاك ترنم إسرائيل بهذا النشيد اصعدي يا بئر ، تجاوبوا لها (١٨) بئر احتفرها الرؤساء ، احتفرها أشراف الشعب بمِخْصرة ، بعصيهم ، من البرية إلي المتّانة ؛ ومن المتّانة إلي تحْلِيئِيل، ومن تحليئيل إلي (باموت) (٢٠) ومن باموت في الوادي الذي في حقل مؤاب إلي رأس الفِسْجة الذي يُطل علي البرية (٢١) .

وأناشيد الزواج مثل : " نشيد الأنشاد " ، وتراتيل الحداد ، وأناشيد الحرب ، وما أكثرها في (العهد القديم) ؛ ومنها ترنيمة (دبُورة) (س . القضاة – الحكام ١/٥ – ٣٢) التي كانت ترددها فرحا بنصرة إسرائيل في حرب قادها (يهوفا) بنفسه (س العدد ٣٥/١٠) .

كذلك هناك الحكم ، والأمثال (س . الأمثال) . كذلك الأمثال والحكم التي تتضمنها الكتب التاريخية المقدسة ، وكَلِم البركات واللعنات ، والنواميس التي يسنتها الأنبياء للناس بعد أن يكون الرب قد وكّلهم في ذلك .

أما الطريقة التي كانت تتناقل بها كل هذه الأمور فهي طريق الأسرة ، شفويا ، وطريق المعابد في شكل روائي يقص تاريخ بني إسرائيل .

وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلي تطعيمه بالأمثال . من ذلك مثل يوثام (الحكام ٩ / ٧ / – ٢١) الذي فيه يقول :

" ذهبت الأشجار لتعين عليها ملكا ؛ فتوجهت أولا إلي الزيتونة ، ثم إلي شجرة التين ، ثم إلي الكرمة ، ثم إلي العَوسج " .

هذا الأسلوب من التعبير جعل (إدمون يعقوب) يقول : إن الوظيفة الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات ، وعصور كان تاريخها معروفا بشكل سيء " – ويخلص من هذا إلي القول بأنه " يحتمل أن ما يرويه (العهد القديم) عن (موسي) ، وعن الآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي

مع المجري التاريخي للأحداث . ولكن القصاصين كانوا يعرفون – حتي في هذه المرحلة من النقل الشفوي – كيف يخلعون الأناقة ، والخيال علي القصة حتي يربطوا بين أحداث شديدة التنوع " .

" وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في صورة حكاية لما حدث في أصل العالم ، وللإنسان . ويستطيع العقل الناقد أن يعدها في آخر الأمر معقولة إلي حد كبير " - وبذلك شهد شاهد من أهلها .

◎ هذه هي الحال التي كانت عليها الأمور حتي نهاية القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح : قصص تتناقل شفاها من جيل إلي جيل ، يدخل عليها ما يدخل من التحوير ، والزيادة ، والنقص الخ .

فلما استقر بنو اسرائيل في أرض فلسطين فكروا في أغلب الظن في تدوين تراثهم ، والاحتفاظ به . ولكن الفكرة لم تكن قد تبلورت ، وتحمس لها ذوو الشأن .

ثانيا : مرحلة التدوين

ومع ذلك فأن هذه الفكرة شهدت ، علي أية حال ، تدوين بعض نواميس الشريعة ، والأحداث ، منها الناموس الذي تنسب كتابته إلي الرب نفسه ، وهو " الوصايا العشرة " . فهذا التشريع قد أُدخل فيما بعد في ثنايا (العهدالقديم)، ولكنه ذكر مرتين ، بروايتين مختلفتين ، مرة في سفر الخروج (١٨/٣١) [١] (خج ٢٧/٣٤ – ٢٨) ، وأخري في سفر التثنية (١/٥ – ٣٠) وروح الوصايا في الروايتين واحدة ، ولكن النص مختلف [٢] .

(١) يقول : " ولما فرغ (يهوثا) Yahvé من مخاطبة (موسي) دفع إليه لوحي الشهادة ، لوحين من حجر مكتوبين بأصبع الرب " .

(٢) انظر س الخروج (صح ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ الخ) .

كذلك دونت الوثائق الهامة من عقود ، ومخاطبات ، وقوائم الشخصيات (الحكام ، وكبار الموظفين بالمدن ، وقوائم الأنساب) ، وقوائم القرابين ، وقوائم الغنائم ، الخ . بهذا تكونت الملفات التي ضمت الوثائق التي استخدمت فيما بعد في تحرير المؤلفات النهائية التي انتهت بالأسفار التي في حوزتنا اليوم .

بهذه الطريقة اختلطت في كل سفر أنواع أدبية متنوعة : وعلي أدل العلم المتخصصين أن يبحثوا عن الدوافع التي أدت إلي التأليف بين هذه الوثائق المتنافرة .

كذلك نبوءات يعقوب ، وموسي ، والنصوص التشريعية في جملتها ، كل هذا وغيره أنشأ تقليدا دينيا قبل سن القوانين الشرعية .

كل هذه النصوص تكوّن قطعا متفرقة في ثنايا (العهد القديم) . وهكذا نري أن هذا المجموع المتنافر الذي يسمي (العهد القديم) قد اعتمد أولا في جزء منه كبير علي الرواية الشفوية دهورا طويلة ، وخلال هذه الفترة سجلت أمور كثيرة هنا وهناك ، ثم في النهاية بدأ **التدوين النهائي** ، علي مراحل ، ولكن كيف ؟ ومتي ؟ .

ولكي نجيب عن هذين السؤالين ، علينا أن نستعرض حال كل قسم من أقسام (العهد القديم) علي حدة ، علي انفراد ، في شيء من الإيجاز (كما سيأتي) .

وها نحن أولاء نختم حديثنا هذا بكلمة عن سبب التدوين وطريقته في رأي Wells . وِلْـز ، و Hosmer هُسمر .

النفي البابلي والتدوين:

في عام ٥٨٦ ق . م أغار البابليون علي مملكة (يهوذا) في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (أورشليم) أو (بيت المقدس) وتغلبوا عليها ، ونفَوا عددا كبيرا من أهلها إلي (بابل) . وبقي هؤلاء البابليون يحكمون البلاد وقتا طويلا ، وبقي اليهود المنفيون يعيشون في وادي الرافدين ، صاحب الحضارة العريقة ، والتقدم العلمي الكبير الذي خلف وراءه آثارا قيمة لا تزال باقية حتي اليوم ، تشهد بما كان عليه البابليون من تمدُّن . وقد كان لهذه البيئه الحضارية الجديدة بدون أدني شك آثار كبري في حياة الأسرائيليين المقيمين بها ، وفي أسلوب تفكيرهم ، وثقافتهم . كانت حياة تختلف كلية عن حياة البادية التي نشأ فيها بنو إسرائيل ، وترعرعوا ، وهم أميون . لقد خرجوا من هذه البادية ، واحتلوا أرض كنعان ، واختلطوا بأهلها ، وأفادوا من عاداتهم الوثنية ، وعلمهم الضيئل ، واقاموا لهم دولة ، ولكنهم لم تتفتح عيونهم علي شيء جديد ، وبقُوا يعيشون عيشة البداوة إلي حد كبير : يتقاتلون علي امتلاك بئر يشربون منها ، ويَسقون مواشيهم ، وظلوا حتي في أرض فلسطين ليس لديهم من غذاء روحي إلا ما كان يحمله إليهم الرسل الموفدون من قبل (يهوذا). والله سبحانه وتعالي يقول عنهم : " كلما جاءكم رسول بمالا تهوي أنفسُكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون [١] .

ولكن الحال تبدل كل التبدل حين عاشوا في بابل حيث النعيم المقيم ، والثقافة العالية ، والعقول المتفتحة ، والأحساس العميق بالوطن ، ووحدة

---

(١) سورة (٢/٨٧)

الوطن . لهذا نري كبار المؤرخين يصفون (فترة النفي البابلي) بأنها هي التي فتّحت عيون الأسرائيليين ، وآذانهم وعقولهم ، فعكفوا علي تراثهم القديم يدونونه ، ويشرحونه ، ويصفونه الخ حتي استقر علي دعائم ثابته ، رغم ما فيه من اضطراب ، ومبالغة ، وزيف ، واختلاف ، و(التلمود البابلي) أكبر شاهد علي ذلك . يقول Wells في كتابه : موجز تاريخ العالم ص ٨٩ : A short History of the World

" إن أسفار (العهد القديم) جُمعت لأول مرة في (بابل) ، وظهرت في القرن الخامس ق . م . وهو يعقد صلة بين رأيه هذا وبين مرحلة (النفي البابلي) التي قضاها بنو إسرائيل في وادي الرافدين ، فيقول : إن بني إسرائيل لم يكونوا قبل النفي يكوّنون شعبا متحضرا ولا موحدا . ولم يكن فيهم في أغلب الظن إلا فئة قليلة تعرف القراءة والكتابة . وتاريخ هذا الشعب لم يذكر لنا قط أن أحدا فيه كان مثقفا ، وأنه كانت له قبل السبي أسفار يقرؤها عامة الناس . ويرجع الفضل في تحضرهم ، وتثقفهم ، وتولد فكرة جمع تراثهم الذي يضم تاريخهم ، وتسجيل عاداتهم المرعية . الي غير ذلك إلي ما تعلموه من البابليين أثناء مقامهم بينهم .

لذلك أخذوا في تدوين الاسفار من المصادر المتعددة ؛ حتي يعدّوا أنفسهم ليوم الخلاص الذي سيطلق فيه سراحهم . فرأيناهم حين عادوا إلي فلسطين شعبا تختلف حالته اختلافا كبيرا عما كانت عليه عند ذهابهم . ومن

هنا قال بعض المؤرخين إن التوراة هي التي صنعت الإسرائيليين ، وليس هؤلاء هم الذين صنعوا التوراة "

كذلك يكتب Wells في مؤلفه Outline of history " ملخص تاريخ اليهود " إن بني إسرائيل ذهبوا إلي (بابل) فمجا ، وعادوا منها متحضرين، خرجوا جماعة منقسمة علي بعضها البعض ، لا يربط بينهم أي رابط قومي ، وعادوا بروح وطنية متماسكة ، وميل إلي العزلة ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك بينهم ، وليس في تاريخهم ما يدل علي أنهم يميلون إلي قراءة أي كتاب ، وعادوا إلي وطنهم ومعهم قسم كبير من مادة " العهد القديم " . لقد نشط العقل الإسرائيلي في فترة السبي ، وخطا خطوات فساحا إلي الأمام ، بعد أن تخلص العبريون من ملوكهم القتلة الكثيري المنازعات ، وخلوا الساسة جانبا ، وعاشوا في الجو البابلي المسالم الباعث علي النشاط الذهني . (ص ٢٢٠) .

فالكتاب المقدس إذن لم يكن وحيا إلهيا مدونا وقت نزوله بحيث أمكن الحفاظ عليه ، كما حدث مع القرآن الكريم الذي حفظ ودون بأملاء من الرسول علي المؤمنين كما أنزل ، أملاه آية آية وحرفا حرفا أولا بأول . لقد اشترك الكهنة في كتابة (العهد القديم) وكان علي رأسهم الحَبْر (عِزْرا) الذي رأس طائفة من اللاويين – كما يذكر Hosmer – وكان ذلك في منتصف القرن الخامس ق .م وذهب بهم إلي فلسطين حيث استعاد معهم الحياة الأسرائيلية، وكان هو أكثرهم نشاطا ، وتحمسا حتي استطاع أن يجمع أجزاء كثيرة مما سمي بعد (العهد القديم) ، فلما قضي أجله أكمل الكهنة الذين خلفوه العمل

الذي بداه . وما أن وصلنا إلي عصر المكابيين حتي كانت أجزاء (العهد القديم) قد اكتملت ، ولكنها لم تكن قد أخذت بعدُ صورتها التي هي عليها الأن، كما أنها لم تكن كلها بمنزله واحدة من التقديس بل كانت منازل . Hos-mer, The Jews (٧٥ – ٧٦) .

● ● هذا ، وقد اخترع الأسرائيليون والنصاري فكرة (الألهام) يخلعونها علي من ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ليبرروا بها عملهم الدنيوي الذي لا يمت إلي الوحي الألهي بسبب وصدق الله حين قال : " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله " .))

واذا كان أسلافنا قد عدوا قوله تعالي في سورة (الروم ٣٠ / ٢ ـ ٤) : غُلبت الروم في أدني الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيُغلبون ، في بضع سنينَ . لله الأمر من قبل ومن بعد .)) من قبيل الأعجاز في القرآن الكريم . فمن باب أولي أن تعد المعجزة الكبري له ما ورد فيه عن تحريف ، واختلاف ، وتضارب .. الخ ما جاء بالكتب " المقدسة " ـ " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا " .

ثالثا ـ مرحلة التصديق بما جاء في الكتاب المقدس :

ولنبدأ بالتوراة:

ظل الأسرائيليون ، والنصاري – كما قلنا – دهورا طويلة يؤمنون بأن موسي هو الذي صنف التوراة ، ولعلهم كانوا يعتمدون في رأيهم هذا علي بعض آيات وردت فيها، من مثل :

– قول الرب لموسي : " اكتب هذا تذكارا في الكتاب " (خج ١٧/١٤)– وهذه اشارة إلي هزيمة عماليق .

ومثل ما ورد في الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد : " وكتب موسي مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب " .

وما جاء في الأصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية : " وكتب موسي هذه التوراة وسلمها للكهنة من أبناء (ليفي) الذين يحملون تابوت عهد يهوفا ، وإلي جميع شيوخ إسرائيل (٣١/٩) .

– هذا ، ومنذ أوائل القرن الأول ق . م بدأ الدفاع عن هذه الفكرة ، فكرة أن (موسي) هو الذي كتب التوراة . قال ذلك المؤرخ الشهير (يوسف)، وفيلون الاسكندري .

كذلك يُنسب (العهد الجديد) إلي موسي تأليف التوراة . فهذا (بولص) الداعية الملقب في النص العربي بالرسول يقول في رسالته إلي أهل رومية (١٠/٥) ؛ لأن موسي يكتب في العدل الذي يصدر من الشريعة ". وهو بهذا يقتبس عبارة من سفر اللاويين .

هذا الاعتقاد ظل سائدا حتي نهاية العصور الوسطي النصرانية ، والذي خالف هذا الرأي هو (ابن عِزرا) في القرن الثاني عشر ، كان هو الوحيد الذي رفض هذه الفكرة .

رابعا ـ مرحلة النقد الديني :

بدء التشكك : القرن السادس عشر :

وفي القرن السادس عشر استرعي نظر (كارل شتات) أن سفر (التثنية) الذي هو السفر الأخير من (التوراة) يتحدث في نهايته (صح ٣٤/

٥ – ١٢) عن وفاة موسي ، ودفنه . فقال : ليس من المعقول أن يكون موسي قد كتب بنفسه خبر وفاته ، ودفنه . ثم جاء نقاد آخرون بعده فأنكروا أبوة موسي علي الأقل لجزء من الأسفار الخمسة التي منها تتألف التوراة .

● القرن الثامن عشر :

ولكن الفضل الأكبر للكشف عن الاضطراب البالغ الذي في (التوراة) يرجع إلي (يوحنا أستروك) الفرنسي الذي كان طبيبا لأحد ملوك فرنسا ، فقد نشر عام ١٧٥٣ م دراسة بعنوان :

((تكهنات عن المذكرات الأصلية التي يبدو أن (موسي) قد أفاد منها في كتابة (سفر التكوين) .))

لقد كان الطبيب (استروك) شجاعا حين أعلن أن هناك نصين جنبا إلي جنب في (سفر التكوين) يحتوي كل منهما علي خاصية مختلفة في تسمية الرب ، فأحدهما يسميه (يهوفا) ، بينما الآخر يسميه (إيلوهيم) .

وقد أكمل بحثه في هذا المجال أيخ هوم Eichhom (١٧٨٠ – ١٧٨٣) فكشف النقاب عن هذا الكشف بالنسبة للأسفار الأربعة الأخري في التوراة .

ثم جاء إلجن Ilgen (١٧٩٨ م) ولحظ أن أحد النصين اللذين بحثهما استروك ، وكشف فيهما عن أن كلا منهما يطلق علي الاله اسما يغاير الآخر ، - يهوفا وإيلوهيم – ينقسم هو أيضا إلي قسمين ؛ وبذلك تفتتت تماما أسفار موسي الخمسة .

● القرن التاسع عشر :

فلما كان القرن التاسع عشر وجدنا نقد النصوص الدينية يصل إلي نتائج حاسمة ، ودقيقة تقول : إن التوراة قد اشترك في كتابتها أربع جماعات:

(١) **إحداها** : واقدمها تلك التي تسمي الأله (يهوفا) ويرجع تاريخها في أغلب الأحايين إلي القرن التاسع ق . م . وقد عاشت في مملكة يهوذا ، في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (أورشليم) أي بيت المقدس أو القدس .

(٢) **وثانيتها** : تلك التي تطلق علي الإله اسم (إيلوهيم) وهي أحدث عهدا من السابقة ، وكانت بمملكة اسرائيل ، مملكة الشمال التي كانت عاصمتها شُمرون .

(٣) **سفر التثنية** : وقد حرر في القرن الثامن أو السابع ق . م .

(٤) **الجماعة الكهنوتية أو جماعة الأحبار** : وهذه ظهرت في عصر النفي الي بابل ٥٨٦ ق . م أو بعده بقليل أي في القرن السادس ق . م .

● ● ●

من هذا نري أن تدوين (التوراة) استمر علي أقل تقدير ثلاثة قرون . وهي مدة غاية في الطول ، كما نري ، وتحتمل الزيادة والنقص ، والتغيير والتبديل الخ . كما تحتمل الاختلاف في الآراء ، وفي ذكر الأحداث ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، ولا سيما إذا نظرنا إلي أن الفارق الزمني بين وقوع الأحداث منذ عصر نوح ، والطوفان ... حتي عصر التدوين فارق كبير جدا ، كانت فيه رواية الأحداث ، والوقائع ، والنواميس الشرعية وغيرها تتناقل فاها لفاه ، والنقل الفموي له ما له من مضار وخيمة .

ويكفي تأييدا لهذا أن نتصور – ونحن في أواخر القرن العشرين – أننا نسجل في أواخر هذا القرن تاريخ بلادنا منذ أوائله دون أن يكون قد دون منه شيء ؛ ثم نجيء نحن اليوم لندونه من علي ألسنه الناس . فما بالك إذا كنا

نسجل اليوم تاريخ الأسلام في عصره الأول دون أن يكون قد دون منه إلا مقتطفات قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع ؟

● **القرن العشرون :**

إن البحوث التي مرت بنا ، والتي انتهت إلي أن التوراة قد اشترك في تدوينها عدة جماعات ، واستغرق هذا التدوين مالا يقل عن ٣٠٠ عام – لم تتوقف عند حد . فقد جاء القرن العشرون ، والعقول متفتحة ، والأضواء الساطعة ملقاة علي نصوص التوراة ، والشك في صحة هذا السفر " المقدس" آخذ في التزايد ، والحمية الدينية الملتهبة قد خمدت أو كادت ، والعقول العلمية قد أوصلتنا إلي الطواف حول الكرة الأرضية ، وإلي معرفة حقيقة القمر الذي يطوف حول الأرض الخ الخ – كل هذا ألقي علي عقول المفكرين حزما من الأشعة أضاءت لهم سبل التفكير . لم يعد الأحبار ، ولا الكنيسة حجر عثرة في سبيل البحث الحر الطليق في أمور الدين ، وفي مصادره ، وفي الكلام عن المشاركة الجماعية في تدوين أصوله . بذلك رأينا البحوث تزداد عمقا ، كما تزداد تعقيدا . ففي عام ١٩٤١ م استطاع البرفيسور ادولف لودز Adollphe Lods الاستاذ بالسربون ، والذي تتلمذت عليه ، أن يميز في الوثائق اليهوفية ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة الأيلوهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النصوص الكهنوية تسعة . وهذا ، دون اعتبار **"للأضافات الموزعة بين ثمانية مصنفين"** – كما يقول الأب (ريفو) .

ولكن البحث لم يتوقف عن النمو ، إذ أنه وصل في النصف الثاني من هذا القرن (العشرين) إلي أن يبين أن " كثيرا من النواميس التي في أسفار (موسي) الخمسة كان لها ما يماثلها خارج (التوراة) ، وفي فترة تسبق **بكثير التاريخ المنسوب إلي مصادر التوراة** " ، وأن " عددا من أسفار موسي الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قِدَما من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه " فالمشكلة إذن غاية في التعقيد ، ولا ندري أين يكمن الحل . وسيأتي يوم تظهر فيه الحقيقة كاملة بعون الله ، بفضل علماء النقد الديني أنفسهم .

وصدق الله العظيم حين قال :

" فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون .

(سورة البقرة ٢ / ٧٩)

وقال:

" يا أهل الكتاب ! قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير " .

(سوره المائدة ٥ / ١٥)

وقال :

" ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ، وقال الله : إني معكم : لئن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي – وعزّرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرنّ عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل (١٢) . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية . يحرفون

الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذُكّروا به ؛ ولا تزال تطّلع على خائنة منهم (١٣أ) **سورة المائدة (٥/١٢ - ١٣أ)**

❸ ❸ ❸

(وبعد) فان تعدد المصادر التي أشرنا إليها ، وطول المدة التي تنوولت فيها النصوص على ألسنة الناس ، من بدو ، ومن حضَر - كل هذا يجر إلي تنافرات ، وتكرارات عديدة في هذه النصوص ، الموسومة "بالمقدسة" . وقد أعلن كتاب الله الكريم عن كل هذا قبل أن يظهر النقد الديني للنصوص بعشرة قرون من الزمان ، وقال : " إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " سورة النمل (٢٧ / ٧٦)

ويكفي لأثبات ما قاله الله عمليا أن نستعرض مادون عن خلق العالم ، وعن ذرية (قابيل) ، وعن الطوفان ، وعن بيع (يوسف) ، وعما جري له بمصر ، وغير ذلك كثير - لنؤمن بما وصل إليه النقد الديني لنصوص (العهد القديم) ولنضرب لبيان ذلك مثلا ، على حين أن الجُعبة ملأي بما أثبته النقد الحديث عن هذا (العهد " المقدس ") من أول حرف فيه إلي آخر حرف [1]

والله ولي التوفيق

قصة خلق العالم ، كما وردت في (التوراة) :

ذكرت هذه القصة التي لم يكن هناك داع لذكرها في سفر التكوين (الخليقة) اللهم إلا رغبة المصنف في أن يجعل من آدم أبا لهذا العالم عن طريق بني إسرائيل .

---

(١) انظر " أضواء علي الكتب المقدسة ، للمحاضر ففيه عدد وفير من الأمثلة علي تعدد الروايات التي تقص الخبر الواحد أو الحدث الواحد أو الفعل الواحد بصور مختلفة ، قد تكون متناقضة " . وقد نشرته كلية الآداب عام ٩١ - ١٩٩٢ ونحن بصدد إعداد مؤلف جامع عن هذه القضية سيصدر فور إتمامه (إن شاء الله) للبرهنة علي صدق ما جاء بالقرآن الكريم.

● هناك روايتان عن هذا الأمر ، الأولي منهما يرجع ما فيها من تصور إلي (الجماعة الأيلوهيمية) أي التي تسمي الأله (إيلوهيم) ، والأخري إلي اليهوفية وهي التي تسمي الأله (يهوفا) . ولكن نلحظ في هذه أن الاسمين يذكران جنبا إلي جنب ، مما يدل علي أن هناك يدا ثالثة ظهرت ، بعد أن وضعت الروايتان إحداهما بعد الأخري في القصة ، ووضعت اسم إيلوهيم بعد يهوفا حتي يظل أثر المدرسة الأيلوهيمية مستمرا . ونعود إلي الوقائع المذكورة في كل من الروايتين فنقول :

في الرواية الأيلوهيمية التي دونت الأصحاح الأول من سفر الخليقة ، والجمل الأربعة الأولي من الأصحاح الثاني أن إيلوهيم بدأ عمله بخلق الكائنات جميعا وبعد أن فعل ذلك صور الأنسان (آدم) . بينما تأتي الرواية الأخري اليهوفية ، وتذكر أن أول المخلوقات هو الأنسان ثم خلقت بقية الكائنات من بعده ؛ وعللت خلقه أولاً لكي يفلح الأرض ، فهي تقول : لم يكن هناك مطر ليروي الأرض ، ولا إنسان ليفلحها . ثم إنه لم يرد في الرواية الأولي ذكر لخلق المرأه ، بينما خلقت المرأة في الرواية الثانية من ضلع آدم بعد أن أتم يهوفا خلق العالم .

فهل هذا كلام موحي به . والله سبحانه وتعالي يقول للخلق جميعا : "أفلا يتدبرون القرآن ؟ " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "

س النساء (٨٢/٤)

وشكرا علي حسن استماعكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبداع المتنبى

ظواهر فنية ونفسية فى نص من سينياته

بقلم

الدكتور / صالح حسن اليَظْمى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

إبداعُ المتنبيِّ
ظواهرُ فنيَّةٌ ونفسيَّةٌ في نَصٍّ من سَيْفياتِه

بقلم : الدكتور صالح حسن اليَظّى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

لقد طوف أبو الطيب بعد خروجه من السجن بين ممدوحيه من الأعيان والسراة ، وقبل اتصاله بسيف الدولة اتصل بأمير عربى آخر هو بدر بن عمّار قائد الجيش فى طبريا . وليس من شك فى أن فروسيته وعروبته ، وليس جداه فقط ، كانتا مما جذب أبا الطيب إلى ساحته ، فمدحه خلال سنتين أو ثلاث بست قصائد ثم اضطر إلى مغادرته إذ سعى بينهما الواشون والكارهون . ولابد لنا من أن نرد شنآن هؤلاء وحقدهم على أبى الطيب – فى قدر كبير منه – إلى ما اتسم به الشاعر من صلف وشعور متعاظم بالنفس ، وبعد مرحلة أخرى من التنقل والترحال بين الممدوحين اتصل أبو الطيب بوالى أنطاكية من قبل سيف الدولة وهو أبو العشائر الحمدانى ، ومن ثم تهيأت له فرصة عمره فاتصل بسيف الدولة على بن حمدان أمير حلب وفارسها العربى المناضل ضد الروم وحامى الثغور الإسلامية ، وكان إلى ذلك محبا للثقافة راعيا للعلماء والشعراء ، وقد اجتمع إلى بلاطه جلّة من هؤلاء جميعا ، منهم العالم اللغوى ابن خالويه معلم الأمير وأبو الفرج البغاء وأبو عبد الله الخليع والوأواء الدمشقى وأبو بكر وأبو عثمان الخالديان وأبو الطيب اللغوى والسرى الرفاء وأبو على الفارس والصنوبرى والفارابى وأبو الفرج الأصفهانى فضلا عن أبى فراس الحمدانى ابن عم الأمير وختنه وأبي الطيب المتنبى نفسه ، ويبدو أن المتنبى أحب سيف الدولة حبا صادقا إذ جسّد لديه بعروبته وفروسيته واتساع أفق ثقافته صورة مثلى للحاكم ، ربما كان فى دفعات طموحه إلى

التَّسيّد والحكم تواقا إلي أن يكونها ، ولقد نال الشاعر بدوره من مودة سيف الدولة ورعايته وعطائه قدرا هائلا متميزا ، فإذا أضفنا إلى ذلك تعاليه المتعاظم وصلفه المعهود رأينا من الطبيعي أن يتراكم لدى الآخرين شعور تجاهه بالعداء والحقد والنفور ، ومن ثم يكون من ركدهم إفساد مابينه وبين الأمير ، وربما ساعد علي ذلك مالا نستبعده من جنوح المتنبى تحت وطأة طموحه العنيف للحكم . إلى تجاوز مكانته باعتباره شاعرا ، إلي أن يكون مسهما ولو بقدر هامشيّ فى شئون الحكم ، فتغير عليه سيف وأسلم أذنيه وقلبه للطاعنين فى أبى الطيب ومنهم أبو فراس ، وقد نقل صاحب الصبح المنبي عن ابن الدهان قوله " قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتسمىّ كثيرُ الإدلال عليك ، وأنت تعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره " (١) .

تغير إذن سيف الدولة علي شاعره الأثير بعد تسع سنوات هى أزهى سنى حياة المتنبى وأحفلها بمجد الفن والمال والشعور بتحقيق الذات جميعا ، وأدرك أنه لا بقاء له في حلب ولا مفر من الرحيل ، وفى جمع حاشد ببلاط سيف الدولة على رأسه الأمير ويضم حاشيته ومنهم خصوم أبى الطيب والناقمون عليه ، أنشد ميميته الشهيرة التى هى وثيقة فنية بالغة الدلالة علي خصائص الشاعر النفسية والفنية .

استهل أبو الطيب قافيته استهلالا بارقا مستجيبا فيه لجواذبه ودوافعه الكامنة ، إنه يستغيث مما ينوء به من وجد أورثه نحول الجسد وتصدع النفس ، وإن هذا الحبيب المحبوب – سيف الدولة – لبعيد عنه غير عابىء بحبه المتوقد الذى يزيده الإخفاء والترفع عن المجاهرة أُوارا وتلهّباً فيغدو سكينا

يفري الجسد فريا على حين قد أغرق مدّعو حب الأمير في الإعلان عن بلطلهم والترويج لشرورهم :

واحرَّ قلبـــــاه ممّن قلبُه شَبِمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

مالي أُكتّم حبًّا قد برى جسدي وتَدّعي حبَّ سَيْفِ الدولةِ الأممُ (٢)

وأبو الطيب هنا ابن نفسه من غير شك ، فقد حوّل العلاقة بين الشاعر المادح والأمير الممدوح إلي علاقة حب خالص يطرأ عليها الوصل والهجر ويترتب عليها نحول الجسد واعتلال النفس ، ويضنّ بها أحد طرفيها في مرحلة من مراحلها على علانية البوح ، وهكذا انتهى المتنبى في الفن إلي مساواة هامته بهامة أميره بعد أن اشترط عليه فى الواقع ألا ينشده واقفا وألا يقبّل الأرض بين يديه مستثنىً بذلك من أعراف سارية على شعراء بلاط الأمير . إنها شخصية أبى الطيب المتأبّية المتعاظمة ، بل الجانحة إلي الصلف المغرور في أحيان غير قليلة .

وقد استغاث المتنبي متولها في مطلع القصيدة وتوجع من تأبي الحبيب مما أورثه نحولا في الجسد وتفزّعا في الروح ، ويلفتنا أنه عبّر عن النفس أو الروح بكلمة ذات دلالة خاصة فى سياقها وهى كلمة " الحال" وذلك كله غير بعيد عن مجال التصوف ، بل إن الاستغاثات المتوجعة والتعبير عن معاناة النفس بالحال ، أشبه مايكون بحالة من حالات الوجد الصوفىّ التى يكابدها العشاق المريدون قبل ماقد يوهب لهم من الكشف والفتح والنوال ، وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلي ما نبه إليه المستشرق ماسينيون من اتصال الشاعر بالمتصوف هارون بن على الأوراجى الذى كان له شأن في قضية الحلاج ، وقد مدحه المتنبى مما يوحى بأنه أخذ عنه مبادىء التصوف (٣) ،

وفي موضع آخر يرد علي ماسينيون منحاه في القول بقرمطية المتنبي وتشيعه وإن كان قد تأثر بهما في شعره ألوانا من التأثر ، ويذهب إلي أن أثر التصوف في شعره كان أوسع نيتزل : " وإن من يقرأ في ديوانه لَيَجِدُ هذا التصرف يستوعب حيزا واسعا من خواطره وأفكاره . واقرأ هذه الأبيات التي يقولها في بعض ممدوحيه :

ذا السراجُ المنيرُ ، هذا النقيُّ الـ ... جَيْب ، هذا بقيَّةُ الأبْدالِ

فخذا ماءَ رجْلِهِ وانْضَحَا في الـ ... مُدْنِ نامِنْ بوائقَ الزالزالِ

وامْسحَا ثوبَهُ البَقيرَ على دا ... ئكما تُشْفَيَا من الأعْلاَلِ

فإنك تحس بأنك إزاء شاعر صوفي يصوغ معانيه صياغة صوفية ، أليس يمدح صاحبه كما يمدح الصوفية أقطابهم فيجعله بقية الأبدال (٤) ويورد الدكتور شوقي ضيف غير قليل من شواهد روح التصوف في شعر أبي الطيب وخاصة همزيته التي مدح بها الأوراجي (٥) وهو متابع لمنحي الدكتور طه حسين في هذا الخصوص وعلي الرغم من أننا – فضلا عن شواهد الدكتور ضيف – قد ألمحنا إلى بعض جو التصوف في أول أبيات القصيدة وثانيها ، فإن الأمر عندنا لا يعدو أن يكون لدي المتنبى صنعة شاعر لا سلوك متصوف حقيقي ، ونحسب أن السيرة العملية لأبي الطيب وكلفه العنيف بالجاه والمال والسلطان . ناهيك عن عجبه المسرف بنفسه ، تباعد كلها بينه وبين سلوكيات التصوف لدى المتصفين به .

إن حالة الوجد الصوفي ومعاناة الجسد والروح والضّن بذكر حب المحبوب ليست إذن إلا أجزاء من صنعة أبى الطيب وليست تصوفا فعليا ،

ونراه يراكم من عناصر تلك الصنعة بما يدل عليها أبلغ دلالة . إنه يحقق التناسق بين امتداد صوت المستغيث في قوله : (واحرّ) وبين القيمة الصوتية لكلمة (قلبي) بأن يقلب الياء فيها ألفا ، فتصبح (قلباه) بعد أن يتبع الألف هاء السكت محركا إياها فتضفي علي اندفاع الصوت في (قلباه) صوتا متأوها يحكي التوجع والأنين ، ونراه يطابق بين كلمتي (حَرَّ) و (شَبم) ويقابل بين (واحرّ قلباه) وبين (قلبه شبم) ، ثم يطابق في عجز البيت بين (الجسم) (والحال) ، ثم نراه في البيت الثاني يستنكر من نفسه ما يلتزم به من الترفع بذلك الحب عن أن تلوكه الألسن باستخدام أداة الاستفهام (ما) ، ثم يقابل بين ترفعه بهذا الحب الحقيقي عن الانكشاف وبين ترخُّصِ خصومه بما يدّعون باطلا من حب سيف الدولة ، ولا يفوتنا أن نلحظ كيف وضع أبو الطيب نفسه في كفة ، ووضع خصومه الذين عبر عن كثرتهم الكاثرة بكلمة (الأمم) في كفة أخرى ، وهو حين أثبت لنفسه معاناة الحب المكتم وعبر عن ذلك بالصورتين الاستعاريتين في قوله (أكتِّم حبًا) و (قد برَىَ جَسدى) وبتضعيف الفعل للمبالغة في (أكتّم) لم يثبت لخصومه المتطاولين غير سوءات الترخص والادعاء في عَجُز البيت .

ولا يلبث في البيت الثالث أن يشارط علي خصومه شرط المشكّك في حبهم لسيف الدولة ، ويتمنى في جواب الشرط أن يكون نصيب كلٌّ من مودة الأمير وعطفه وحبائه بقدر حبه إيّاه ، وإنه لواثق من أنه سيكون صاحب النصيب الأوفي والأسنى، بل يكاد سياق البيت أن يدل على أنه سيكون الصاحب المتفرد بالأمير ، فليس الآخرون غيرَ متخرّصين بالحب المدَّعَى .

ومازال أبو الطيب يلح على قاموسه الخاص بتصوير العلاقة بالأمير علاقة حب ، لا علاقة نفع عامة أو خاصة ، فيكرر كلمة

(الحب) مرتين ، ويعبر بالمجاز المرسل في (غرته) عن بهاء طلعة المحبوب في عين المحب الوامق :

إن كـــانَ يجـــمُعنا حبٌّ لِغُرَّتِه فليت أنَّا بقدرِ الحبِّ نقْتسِمُ(٦)

وفي البيتين التاليين يعمد أبو الطيب إلى مدح أميره بالخلق الرفيع سلما وحربا أي في حالي حياته كلها :

قد زرتُه وسـيوفُ الهندِ مُغمدَةٌ وقد نظرتُ إليـــه والسيـــوفُ دَمُ

فكان أحسـنَ خلقِ اللـــه كُلِّهِمِ وكان أحسنَ ما في الأحسنِ الشيمُ(٧)

إن أبا الطيب للشاعرُ الذي استوت أداته وامتلك ناصية فنه . وقدَرَ على لغة شعرية مواتية ، فصور المعاني تصويرا دون أن يقررها تقريرا ، فزياراته التي هي في السياق النفسي زيارات ولقاءات بين متلازمين ، قد تمت سلما . والصورة الكنائية هنا هي التي أدت ، لقد كانت السيوف القواطع في أغمادها ، والزيارات المتكررة التي هي جسور الاتصال بين الأوداء سلما ، قد كشفت نصف حقيقة الأمير ، وتكشّف النصف الآخر حين تملأه الشاعر في احتدام الوغي . لقد نظر إليه آنئذ نظر المفتون بجبروته وشجاعته ، والصورة التي أداها التشبيه البليغ في قوله (والسيوف دم) قد خلقت بدورها التصور التام لما كان يحوّم على الساحة من أشباح الموت وقتامة الفناء .

إن الأمير في دعة السلام وبلهنيته ، وفي حومة الحرب الضروس ، لأعظم خلق الله قاطبة . إنه رجل سلام ورجل حرب لا نظير له ، وإن مناقبه ودماثة خلقه لأحسن ما في هذا الحسن الشامل الذي انتظم حياته كلها ،

ولايفوتنا أن نلاحظ الجنوح الظاهر إلي المبالغة فى المدح ، إذ رفع المتنبى أميره في الفضل علي البشر كافة ومنهم المقدمون الأعلوْن من أنبياء الله ورسله ، اللهم إلا إذا كان القصد تقديمه على الكافة من أحياء زمانه . وعلى أية حال فالمبالغة في الفخر بالنفس والإعلاء من شأن الممدوحين سمة لا يخطئها المتأمل في شعر أبى الطيب ، ولقد ذكر الشاعر اسم التفضيل (أحسن) ثلاث مرات وقرنه فى المرة الثالثة (بأل) التعريف محققا بذلك تدرجا محمودا في انديا ح المعني إلى غايته عن طريق مايمكن أن نسميه شغف المتنبي بالمبالغة والتصرف في صيغ الأداء بإيجاد تفضيل مطلق علي التفضيل الأساسى ، بحيث تصبح الشيم أحسن هذا الأحسن من كينونة سيف الدولة ، هذا فضلا عن تكثيف ذلك النسق الموسيقي الداخلى المرغوب في بنية البيت الداخلية .

وفي ستة الأبيات التالية ينصرف لمدح سيف الدولة بأخص خصائصه ، فيؤكد فروسيته النادرة ، وكلفه الفائق بالبطولة بحيث ترقي عنده إلى درجة الجهاد ، يقول أبو الطيب :

فـــوتُ العـــدوِّ الـذى يَمّمتَه ظفـرٌ ... فى طيـــه أسفٌ ، فى طيـه نِعَمُ

قد نابَ عنكَ شديدُ الخوفِ واصطَنعتْ ... لك المهـابةُ مـالا تصنـعُ البُهـمُ

ألزمتَ نفسـك شيئـا ليـس يَلْزمُهـا ... أن لا يواريَهُـم أرضٌ ولا علـــم

أكلّمـــا رُمْت جيشـاً فانثنى هربـــا ... تصرّفَتْ بـكَ فـي آثـــاره الِهمَمُ

عليـــك هَزْمُهُـمُ فـــى كـلِّ مُعْـتَرَك ... وما عليـــكَ بهم عارٌ إذا انهزموا

أمـــا تري ظفـــراً حلـواً سوى ظفر ... تصافحتْ فيه بيضُ الهندِ واللُّمَمُ(٨)

لقد اتجه سيف الدولة بجنده كي يقاتل الروم أعداء الدين ، فانسحبوا دون ملاقاته جبنا وخوفا ، وذلك الانسحاب ظفر مؤكد للأمير ، غير أنه ظفر قد انطوى على ضدين هما الأسف والنعمة : أما الأسف فلأن الأمير لا يهدف إلي نصر نظري معنوي تحقق فعلا بانسحاب الخصوم ، وإنما يهدف أصلاً إلى التحام فعلي يدمرهم فيه تدميرا باعتبارهم أعداء الدين والخلاص منهم يشبع رغبته الحميمة هذه ، أما النعمة التى ينطوى عليها الظفر بانسحاب الخصوم ، فهي أن جيش المسلمين جُنِّبَ القتال والمواجهة ومالابد أن يترتب على ذلك من خسائر مهما كان حجمها صغيرا فلا شك أن امتناعها خير من وقوعها ، ثم يعلل فى البيت الثانى انسحاب الروم فيقول إنهم لم ينسحبوا دون مواجهة كما يدل الظاهر ، وإنما واجهوا فى الحقيقة جيشا لجبا مرعبا فرسانه خوفهم البالغ من سيف الدولة وكتائبه الأسطورية التى يفوقُ صنيعُها صنيعَ خوارقِ الفرسان . إن رعبهم من سيف الدولة ومهابته القصوى بنفوسهم جيش لا قبل لهم بمواجهته ، ومن ثم كان انسحابهم المبكر أمام ذلك الجيش المعنوي الأسطورى الخارق ، غير أن الأمير الذى اعتمد الجهاد والبطولة منهجا ، لا يرضي بذلك النصر المؤكد لأنه فوز لم يسفك فيه ، ونتيجة له دماءَهم ، ولأن الهمةَ شامخةٌ والإرادة صلبة فعليُّ بنُ حمدانَ قد أوجب على نفسه مالا يجب وألزمها مالا يلزم . فرأى ضرورة أن يطاردهم غِبَّ انسحابهم ليفنيهَم إفناءً تاما فلا يبقى منهم بقية تحتمى بسهل أو تلوذ بجبل .

ويبدى أبو الطيب في البيت الرابع غاية مدحه وإعجابه بصنيع أميره ذي الهمة التى لا تُدْرَك . إنه أبدا يطلب الأعداء ويسعى إليهم للتنكيل بهم . فإذا بهم يخشونه ويلوذون هاربين ، ولا يقنع الأمير مستجيبا لطبعه الغلاّب وعزيمته المتدفقة إلا بأن يطاردهم إلى حيث فروا واحتموا فيلحق بهم غاية

الهزيمة والهلاك . ويمعن المتنبي في البيتين الخامس والسادس فى تكثيف الإيحاء بتجاوز الأمير كل حدود الشجاعة بتخطي الأعراف السائدة . إنها تلزمه بأن يهزمهم إذا جسروا على مواجهته في ميدان القتال ، ولا عليه بهم إذا انسحبوا خائفين مهزومين . فالعار آنئذ عارهم وليس عار سيف الدولة ، غير أن الأمير – وفقا للبيت السادس – لا يستمتع بفوز أو يلتذ بظفر مالم ينجزه فى حومة الجلاد وساحة الصراع حيث تطيحُ سيوفُ جند الإسلام برؤوس خصومه وشانئيه من أجناد الروم .

واصطناع أبى الطيب لثقافة المتكلمين والمتفلسفة في عصره لا يخفي على المتأمل ، فها هو فى أول الأبيات الستة التى بين أيدينا يخبر عن الأمر بنقيض معناه . إنه يقول : " فوتُ العدو ظفرٌ " فالفوت الذي هو الفرار والهزيمة قد أخبر عنه بالظفر ، وهى مطابقة لفظية بيّنة ، ورغبة حميمة لدي الرجل لتجلية قدرته علي التصرف فى المعاني ، وبديهي أن الفرار المهزوم صنيع الروم ، والفوز – من ثَمَّ – لسيف الدولة ، ولا يلبث الشاعر أن ينهج النهج نفسه في الجمع بين الأضداد حين يضم جناحي هذا الظفر علي الأسف والنعم فى آن واحد ، وفى مطابقة لا تخفي . إن فوز المسلمين بانسحاب الروم قد انطوي علي أسف سيف الدولة التواق إلي تدميرهم . كما انطوي علي توقّى خسائر الجيش ، وهى نعمة لاشك فيها . أما نسق الموسيقى الداخلية في البيت ، فقد حققه توالى الكلمتين : (ظفرٌ ، أسفٌ) وقد دارتا على صيغة صرفية وموسيقية واحدة حققت رويا داخليا خاصا ، ثم فى ورود كلمة (نِعَمٌ) فى قافية البيت على ثلاثة أحرف مثل سابقتيها ، وإن اختلفت فى الإيقاع عنهما ذلك الاختلاف اليسير الجميل الذى يربطها بهما أكثر مما ينافرها عنهما ، ويحقق الإيقاع الداخلي – فضلا عن ذلك – بذلك

التوالى الأسر للجار والمجرور والضمير المضاف إليه في قوله (فى طيه) مرتين في عجز البيت الأول .

وفي البيت الثاني يُعَوِّل أبو الطيب علي تخليق المعني بالصورة الاستعارية مرتين حين يكون الخوف الشديد نائبا عن الأمير في محاربة الروم ، وحين تصنع مهابته فيهم ما يجاوز صنيع الفرسان الذين بلغوا الغاية في الشجاعة . هذا فضلا عن تلك المقابلة بين قوله : " اصطنعت لك المهابة " وبين " مالا تصنع البهم " ولا يخفي علينا أن المقابلة والطباق بين يدى المتنبي لم يعودا بذينك النوعين الساذجين العَفْويّيْن من فنون الصياغة لفظا وتركيبا ، وإنما هما نتاج ثقافة دقيقة وتأمل مُمَحِّص يقصد قصداً إلى إنجاز توشيات لامعة ومعايير خاصة في لغة الشاعر وصياغته وطرق أدائه ، وتلك المقابلة التي يقصد إليها العقل قصدا لا تلبث أن تطالعنا في صدر البيت الثالث حين يقول : ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ، كما أننا نرصد الطباق الدال علي الشمول بين كلمة (أرض) وقد أفادت فى السياق دلالة السهل وكلمة (جبل) .

ونحن نعلم كلف أبى العلاء المعرى بأبي الطيب وتقديره العالي لفكره وشاعريته حتي ليخصّه بمؤلَّفيْن هما : اللامع العزيزي ، ومعجز أحمد (٩) ، وتأسيسا علي ذلك نظن ظنا بأن أبا العلاء الذى ألزم نفسه فى الحياة وفي الفن كليهما مالا يلزمه ، ربما تأثر توجهه في ديوانه " لزوم مالا يلزم " خاصة عنوان الديوان – بقول أبى الطيب فى صدر هذا البيت (ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها) .

ويذهب الأستاذ البرقوقي رحمه الله إلى أن الاستفهام فى صدر البيت الرابع إذ يقول المتنبى :

أكلَّمـــا رُمتَ جيشـــاً فانثنى هربـــا تصرَّفتْ بكَ فـي آثـــاره الهِمَـمُ

هو استفهام للاستنكار (١٠) ، ونحسبُ أن ربط الاستفهام هنا بالسياق النفسي العام يصرفه بلاغيا للإكبار لا للاستنكار ، وذلك لأن أبا الطيب يسوق البيت ضمن الأبيات الستة لمدح سيف الدولة بالفدائية وبأقصي درجات الشجاعة التي تتجاوز الأعراف ، ومن ثم فالبيت إذ يبالغ بإظهار تلك الشجاعة التي تلزم صاحبها مالا يلزم إنما يتصد إلي غاية مدحه بإتيان مالا قبل لغيره بإتيانه ، ويعمد أبو الطيب في عجز البيت إلى تكثيف وصف الأمير بشجاعة أولي العزم عن طريق الصورة الاستعارية التى شخّصت الهمم وجسدتها ، ونلمح فى البيت الخامس نمطا من أنماط رد الأعجاز علي الصدور يكاد يبرأ من آفة التعمّل ، لأنه ينتصر باقتضاء المعني إياه وذلك في قول أبى الطيب :

عليـــك هَزْمُهُمُ فـــى كـــلِّ مُعْـــتَرَك وما عليـكَ بهـم عارٌ إذا انهزموا

هذا فضلا عن أنه قد دل بالأولي علي هزيمة الميدان الفعلية . في حين دل بالثانية على الفرار جبنا عن المواجهة .

حتى إذا أدركنا البيت السادس رأينا المضمون مؤدًى بصورتين استعاريتين سلستين إذ صوّر استمتاع الأمير بالنصر الفعليّ تصويرا حسيًا باستخدام دلالة المذاق الحلو ، ثم أدى دلالة النصر الواقعى النابع من تنكيل المسلمين بالروم بصورة أخرى تجيش بالنضال والموت إذ تداخلت سيوف جند الإسلام بهامات الخصوم تداخل أيدى المتصافحين ، وقد تُصَادَرُ هذه الصورة بتنافرها مع دلالة التصافح ، ولكننا لا نلبث أن نتذكر كم من الخصوم الألداء يتصافحون وقد طفحت منهم القلوب والنفوس بالشحناء والبغضاء ،

أما الاستفهام فى صدر البيت فقد أدى دون لبس إلي تقرير مضمون البيت وتثبيته في نفوس المتلقِّين .

وبعد إذ فرغ المتنبى من مدح سيف الدولة ، يلتفت إلى عتابه ، وهو قصده الأساس من قصيدة الوداع هذه ، وإنه لعتابٌ مر تكاد تصل به مرارته إلي عتبات الطعن ، وقد كسته قدرات الصياغة غلالاتٍ عتابيةً شفافة تكاد لا تخفى ما انسدلت عليه ، يقول أبو الطيب :

ياأعدلَ الناسِ إلا فى معاملتى	فيكَ الخصامُ . وأنت الخَصْمُ والحَكَمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً	أن تحسبَ الشَّحْمَ فيمن شحْمُهُ ورمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظِرِهِ	إذا استَوَتْ عندَه الأنوارُ والظلمُ (١١)

إن أبا الطيب قد انتهى بعد تسع سنوات من صحبة الأمير إلي أنه أعدلُ البشر كافة في معاملة الناس كافة ، باستثنائه هو ، أى أن الأمير يخصه وحده بالظلم ، وعلى غير طبيعته العادلة ، فهو إذن ظالم ومتحامل ، يقصد إلي الظلم قصدا ، ويقسر عليه نفسه قسْراً ، وإن الأمير ليعلم أن شخصه محور الصراع بين أبي الطيب وشانئيه في البلاط وما أكثرهم ، وما أفدح كيدهم له وحقدهم عليه ، وكان يتعين عليه إن تراجع عن نصرته أن يبقى فيصلا عادلا بينه وبينهم ، غير إنه – من أسف – قد أسلم إليهم قلبه وأذنيه فأوغروا صدره علي أبى الطيب بوشاياتهم وأكاذيبهم ، وملأوا مسامعه بمهزول أشعارهم ، وصار الأمير في نهاية الأمر خصما لأبى الطيب وحكما بينه وبين نفسه ، وحكما بينه وبين ألدائه في البلاط . فقضية أبي الطيب إذن قضية خاسرة وقد تحوّل حَكَمه وملاذُه إلي صفوف الخصوم فصار منهم ، وهو الذى لا معدي لأبي الطيب من أن يرضي بحكومته الظالمة ،

فليس ثمة من يحكُّم فى الأمير .

ولايخفي علينا أن العتاب – هنا – قد تجاوز تُخُومَه تماما ليصير نوعا من التعنيف الزاجر لسيف الدولة . بل صار نوعاً من تأكيد غاية الظلم القبيح والتحامل السفيه فيه ، ولامناص لنا من أن نري الشاعر فى البيت الثاني يُنَمّى ما بدأه في سابقه من تأنيب الأمير وتسفيهه والتعريض به ، واتهامه – كذلك – بلىٍّ ذوقه الفني للإعجاب بساقط شعر خصومه وسفسافه كما لوي طبيعته العادلة السمحة كي يظلم أبا لاطيب . إن الأمير ذو نظرات لابد أن تصيب إذا ما قصدت إلي اجتلاء الحقيقة في نفس البشر وفي قيمة الفن جميعا ، إنه لا يمكن أن ينخدع في المشاعر ، فهو المجرب الخبير ، ولايمكن أن يحسب غث الشعر سمينا ، فهو الشاعر الأديب المتذوق البصير ، ولئن كان أبو الطيب في ظاهر كلامه يرباً بالأمير عن هذا الخلط المعيب ، فواقع الحال ومن خلال جمّاع النص ، إنه تدني إليه بالفعل في البشر والفن كليهما ، فقد انحاز إلي خصُوم الشاعر وهم عنده مدعو إخلاص ومتكفو حب ، وليسوا مخلصين محبين علي الحقيقة ، كما إنه ليستمعُ إلي أشعارهم ويستسيغُها ويجيزها ويعتبر هؤلاء جميعا في الحياة والفن ذوي قيمة وشأن ، وهم علي التحقيق ترّهات وفُقاعات ، لقد اعتبرهم أشياءَ وليسوا بأشياء ، وحسب ورمهم شحماً وليس غير مرض تشوّهيٍّ خبيث . إنهم متشاعرون مدّعو إخلاص ، والمتنبى هو الشاعر المخلص والمحب صادق الحب ، ويتولد البيت الثالث من سابقه تولّداً عضويا لازما . ذلك لأن من يصنع صنيع الأمير في هذا الخلط المعيب بين حقائق النفوس وحقائق الفنون يكون قد عطل قدرات حسّه وروحه جميعا عن التمييز بين الأضداد والتمييز بين المتناقضات ، وإن الذى يساوي بين أبي الطيب وخصومه – إنسانيا وفنيا – ليكون مساويا بين الأنوار

والظلمات علي غير مايقبله القياس السليم والمنطق المستقيم .

وهكذا نرى شخصية أبي الطيب – وقد تحددت معالمها تماما – واضحة غاية الوضوح في الأبيات ، حتي ليبلغ شعوره بنفسه واعتداده بكبريائه رفنه أن يجمع في ثلاثة الأبيات السابقة بين تهجمه علي الأمير واتهامه بالأمْت الصريح المتعمد عن الذم الكريم ، يجمع ذلك إلي النفخ بشخصه ، والاعتداد البالغ بفنه ، ولئن كان خصمه جميعا دم الورم والظلمات ، فهو بطبيعة الحال الشحم والنيّرات . إن الشعر بين أيدينا صورة مؤدية لحقيقة تلك النفس الطامحة القلقة المتجاوزة الساعية إلي التسيّد والزعامة ، وإذا كان أبو الطيب قد اشترط أن ينشد مدائحه جالسا ، وألا يُقبِّل الأرض بين يدي حاكم ، ثم رفض بعد ذلك أن يقصد غير الملوك ومن فى درجتهم . مترفعا حتى عن الوزراء ورجالات الدولة الكبار ، فإنه يثبت في قصيدتنا هذه أنه الجسور إلي الحدّ الذي يهاجم فيه أميراً عربيا فارسا جهير الصيت في بلاطه ، وبين حاشيته ، وأن يقرن تهجمه عليه بفخر صارخ النبرات بنفسه كما رأينا وسنرى وشيكا .

وبالمثل فإن لغة الشاعر فى الأبيات هى صورة فنّه ، وكفاء خصائص عبقريته ، فهو لا يزال كلفا بالجمع بين المتناقضات فى ساحة واحدة ، بل في مساحة ضيقة كى تتوتر الأذواق وتتنبه العقول لما يقول ، فلقد أثبت للأمير غاية العدل وغاية الظلم في صدر البيت الأول ، كما أثبت له الخصومة والحكومة فى عجزه ، وحقق – وصولا إلى ذلك – مقابلة في الصدر وجناسا وطباقا في العجز بصيغة دقيقة تجبرنا على أن نتقبل ولانتأفف أو نرفض ، وفى البيت الثاني يطابق بين الشحم والورم فضلا عن كون الأول استعارة تصريحية عن الأصالة والثاني ضريب ذلك عن التحمل والادّعاء الخبيث ، وفى

صدر البيت الثالث يرد الاستفهام لنفي الانتفاع بالحواس والأحاسيس عمن يساوي بين المتناقضات ، ولا يلبث أن يطابق في العجز بين الأنوار والظلم فضلا عن أنهما استعارتان تصريحيتان أولاهما عن الشاعر والثانية عن خصومه ، ولانخطىء تشبيه التمثيل في مؤدي العجز ، فتوجُّهُ أبي الطيب إلى القول بأن الفرق بينه وبين شانئيه ظاهرٌ بيّن كالفرق بين الأنوار والظلمات .

ثم يخلصُ الشاعرُ في البيتين التاليين إلي أقصي درجات الفخر بفنه حتي ليكاد زعيقه فيهما يكون غرورا قبيحا رائعا لا نملك أنفسنا – بمعايير الفن – إلا أن نعجب به الإعجاب كله ، خاصة أنه تعبيرٌ عن نفس صاحبه مخلصٌ وحميمٌ ليس فيه نأمة واحدة من تكلف أو ادعاد ، بل إنه لَلصّدقُ الفني والإنساني بأجلي صورهما ، فهكذا خلق المتنبي ، وهكذا عاش ، بل بسبب هذا الاعتداد البالغ بقيمته وبفنه قد قتل ... يقول أبو الطيب :

أنا الذى نظَرَ الأعمى إلى أدبى وأسْمَعَتْ كلماتي من بـه صَمَمُ
أنامُ مِلءَ جفونى عن شواردها ويسهرُ الخلق جرَّاهـا ويخْتصَمُ (١٢)

إن المتنبي يقرر في أول البيتين أن عطاءه الفنّى قد تجاوز حدود الإنجاز وأدرك تخوم الإعجاز ، فمعلوم ألا يري الأعمي أدبا ، وألا يسمع الأصمُّ شعرا إلا أن يكون ذلك محمولا علي المعجزات والخوارق ، وليس هذا التصوّرُ والتصوير بمستغرب من رجل لا نستطيع أن ندينه أو نبرئه من تهمة التنبؤ ومحاكاة القرآن ، بل إنه لمن التوافق الغريب أن أبا العلاء الذى كلف بشاعرنا أشد الكلف ، وكان إذا أُنشد هذا البيت قال : " أنا الأعمى " من التوافق الغريب أنه اتهم بدوره بمحاولة محاكاة القرآن الكريم في كتابه

الفصول والغايات ، وكأنه كان يسعى هو الآخر إلي تحقيق معجزة كلامية من إبداعه ، فضلا عن أنه – كما ألمعنا سابقا – قد سمّى أحد كتابيه عن الشاعر باسم ذي دلالة خاصة في هذا المجال هو " معجز أحمد " ، إن إبداع المتنبي – وقد رقى لدي صاحبه إلي حد المعجزات – ليشرد فى الآفاق ، وتلهج به الألسن والقلوب ، وهو لا يكلف مبدعه من أمره عسرا ، ولا يركب وصولا لإبداعه مركبا صعبا ، بل إنه ليبدعه متي شاء وكيفما شاء ، وهل تجد الزّهرة عناء في بث العبير أو النحلة معاناة في الإتيان بالأرْي ؟ إنها إذن الموهبة الخلاقة والطبيعة الدفّاقة التي تبدع دون جهد أو إجهاد ، وليس كذلك خصومه من أدعياء الشعر محدودى الموهبة أو معدوميها ، إنهم يجدون العنت كله ، ويتجشمون غاية العناء في الصف والنظم والتلفيق ، وذلك ديدنهم لافتقادهم خصوية الموهبة وتمحّلهم ماليس فيهم . إن النظم تحوّل لدي هؤلاء إلي معركة عنيفة يخوضونها ضد الأفكار والكلمات والصياغة كى يقسروها ويرغموها علي المطاوعة وأنى لهم إلي ذلك من سبيل .

وهاهو ذا المتنبي المتشامخ بفنه إلي ذراً لا تُدْرَك ، والشاعر بذاته قبل الفن وفوق العالم ، يبدأ بيت رفع راية عبقريته " بالأنا " فهو أولا ، والفن الرفيع يأتي من خلاله ، يضع الضمير الزاعق الضخم " أنا " يتبعه الاسم الموصول ليخبر عن عبقريته به وبجملة الصلة ، فالفن المعجز إذن ، به ، ومن خلاله ، ويكثف منحاه في عجز البيت بأن يعطف على جملة الصلة : " نظر الأعمي إلي أدبى " "وأسمعت كلماتي من به صم " والأنا فضلا عن ذلك موجودة في ياء المتكلم في قوله : أدبى ، وكلماتى ، وجفوني في البيت التالي ، وهو لايزال آخذا بمنهج الجمع بين المتناقضات إعمالا لملكة العقل . ورغبة فى الإبهار وإظهار الاقتدار ، فالأعمى يري فى صدر البيت والأصم يسمع

في عجزه ، والطباق اللفظي وارد بعد التماع الفكر وحفز الانتباه ، وفي البيت التالي لايزال يؤكد على عظمته الفنية من خلال نفسه كذلك ، فجملة " أنام " خبرٌ عن مبتدأ محذوف تقديره " أنا " إن الأنا عند أبي الطيب محور العالم من غير شك ، وهو إذ يكني عن تمكنه الفني المطلق بالنوم العميق إذ هو مطمئن إلي قدرة العبقري في اجتلاء روائع الشعر ، يكني في عجز البيت عن إقفار شانئيه من خصوبة الموهبة بأرقهم وصراعهم ضد المعاني لاقتناص الصياغات والأفكار ، واللافت أن أبا الطيب وقد وضع " الأنا " في صدر البيت قابلها في العجز بالخلق طراً ، ومعلوم أن القصد يتجه إلي خصومه من الشعراء . غير أننا لا نستطيع أن نغض الطرف هنا عن دلالات الصياغة لدى شاعر يعنى مايقول تماما ، ويقصد إليه قصدا ، هو شاعرنا أبو الطيب المتنبي ، إنه إذن في كفة والخلق بأجمعهم إزاءه في كفة أخرى ، وهو بتوحّده وسموقه وعبقريته لا يعاني ، وهم أجمعهم يعانون ويختصمون ، وهو لا يزال يجمع بين المتناقضات ، فيطابق بين أنام وأسهر ، ويقابل بين مؤدى يُسْرِ الخلق لديه في الصدر ، وعُسْرِه لدى خصومه في العَجُز .

وفي سبعة الأبيات التالية يلْتَفتُ أبو الطيب الفارس إلي فروسيته كي يفخر بها بعد أن فرغ من غاية الفخر بالفن .

ومن حق المتنبي – عندنا وعند غيرنا – أن يفخر بفروسيته وإقدامه ، فأغلب الآراء تصفه بغاية الشجاعة والإعتداد بالنفس بما قد يجاوز الاعتدال المحمود إلى خُرْقِ الغرور المذموم ، فقد أورد البديعي أن سيف الدولة قد عهد به إلى المدربين فعلموه الفروسية وفنون القتال ، وأنه كان يصحب الأمير في بعض غزواته ويُظهر فيها ضروبا من الثبات ورباطة الجأش ، وقد حدث في إحدي الغزوات أن انسحب الجيش ولم يصمد للقتال سوي الأمير

وستة رجال أحدهم أبو الطيب (١٣) .

وقد بلغ اعتداده بشجاعته حدّ الغرور الأخرق الذى أورده مورد الهلاك على يد فاتك الأسدي ورجاله ، فقد أورد البديعي ماذكره الخالديان عن أبى نصر الجبلى خاصا بملابسات مصرعه . قال الجبلى : إنه قابل أبا الطيب وتحدّث إليه محذراً من فاتك الأسدي ورجاله ونصحه بأن يصحب معه من يقوم بحراسته ، فأجابه المتنبي " والله لا أرضي أن يتحدث الناس أنى سرت في خفارة أحد غير سيفي . معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين " (١٤) ثم أصر علي رأيه ، وسافر مع ولده وبعض غلمانه فكان مصرعه على يد فاتك ورجاله . من حق المتنبي – إذن – أن يفخر بشجاعته ، فهو يحكى الحقيقة ولا يتشدق بالادعاء . إنه الصدق متشحا بلغة الفن وطرق الأداء فيه ... يقول أبو الطيب :

وجاهلٍ مدّهُ في جهله ضحِكى ... حتي أتتْهُ يدٌ فَرّاسَةٌ وفمُ

إذا نظرْتَ نُيوبَ اللّيثِ بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أنّ الليثَ مُبتسمُ

ومهجةٍ مهجتى من همِّ صاحبها ... أدركتهُا بجوادٍ ظهرهُ حَرَمُ

رجلاهُ فى الرّكض رجلٌ واليدان يدٌ ... وفعلُه ما تريدُ الكَفُّ والقدمُ

ومرهفٍ سِرْتُ بين الجحفلَيْن به ... حتى ضربْتُ ، وموجُ الموتِ يلتطمُ

فالخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرفُنى ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صَحِبْتُ فى الفلواتِ الوحشَ مُنفرداً ... حتى تعجّبَ من القُورُ والأكَمُ (١٥)

ويقفُنا المتنبي في أول الأبيات علي أن خصومه ليسوا في ساحة الوغي فحسب . بل إنهم كثر فى الحياة كذلك ، وواحدهم ونموذجهم يتمادي في

خُرقِه وحُمقه مَسوقًا بمالم يَع من ابتسامات سُخْر أبى الطيب به ، ومخدوعا – لسفهه – بظاهر التبسم عن باطن التحفز والتربّص ، ولا يتنبه لتدنيه في التطاول المرذول إلا وقد نكبه أبو الطيب وأوقع به غاية العقاب ، ولا يلبث في ثاني الأبيات أن يخاطب كل مأفون من خصومه مخاطبة الأستاذ الحكيم من هم بحاجة إلي فضل التعليم والتوجيه والتبصّر بحقائق الأشياء ، فينبههم إلي خلطهم حين حسبوا نيوب الأسد وقد برزت قرينة ابتسام ، وهي في الحقيقة دليلُ غضب ونذيرُ انقضاض ، وجَلِيٌّ هنا أن المتنبى هو الأسد ، وأنَّ بصرهَ وبصيرتَه إذ يُنشدُ ذينك البيتين كانا على كلّ خصم من خصومه المحتشدين لسماعه وتحدّيه فى بلاط الأمير ، وأنه لَيُدركُ أنه الشُّجَى في حلوق شانئيه ، وأنهم لا يستهدفون أقل من حياته يدمرونها وينفضون أيديهم منه ، وإنه إذ يدركُ ذلك تماما لَيَتَجهّزُ ويتحفزُ وينطلق سابقًا بالموت إليهم علي ظهر جواد بَرْقيِّ السرعة ، لا يُنَالُ فارسُه أبو الطيب الذى قدر عليه وامتطاه ، إنه جوادٌ دُربةٌ أصيل ، تجاوزت به مهارته النمط المعتاد من الجرى ، فأدرك فنّ النقال والمناقلة ، واختصر أربعة أعضاء جَرْيِه إلي عضوين فصارت الرجلان رجلا واليدان يداً ، وهو – إلى ذلك – دارٍ بما يُنجَزُ به النصرُ من مهارات حتى ليندفع ويتوقف وينحرف وفقا لمقتضى المعركة ، وبما يُغْنى أبا الطيب عن توجيهه بكفيه وقدميه ، وملاك فروسية الفارس بالفرس والسيف ، يتصرف فيهما قلبٌ راسخٌ وإرادة حديدٍ ، وهاهو أبو الطيب قد امتلك القلب والإرادة وامتطى الفرس واستل مهنّدَه حادّ الشفرتينْ قاطعَهما ، فاخترق به الجيْشين الهائلين دون أدني تردد أو وجل ، وخاض عباب الموت ، وركب موجهُ المتلاطمَ إلي أن أدرك خصمه فأرداه إرداء ، ولاعليه بعد ذلك أن يطاول النجوم بفخره هادراً ببيته المشهور كي يُكرِّس تسيُّده المطلق للفروسية والشجاعة والنزال

والرمح واجتناء الثقافات والبوح بروائع الإبداع ، إنه رب الخيل والليل والبيداء وسيد السيف والثقافة والإبداع الشعري جميعا ، وإنه ليُنَمِّي في البيت السادس قيمة كبري في باب الشجاعة واقتحام المخاوف والانفراد بالموت والوحش في المفازات . إن الصداقة الثابتة بينه وبين ليل الصحراء في البيت الخامس لَتتكثَّفُ في سادس الأبيات بعجيب صنعه في الانفراد والتوحد بوحوش الصحراء وكواسرها حتى لَيَصَّاعد التعجبُ المتسائلُ لهذا الصنيع .

ويُلفتُنا أن أبا الطيب لم يَقْسِم النّصَّ قسمة عادلة بينه وبين أميره ، بل لا عجب أنْ نراه قد تحيَّفَه ، فمدح خلقه وفروسيته في ثمانية أبيات (١٦) بينما افتخر بنفسه – دهاءً وفروسيةً وثقافةً وشاعريَّةً – في تسعة أبيات (١٧) والأصل أن يتجه جُلُّ النص إلى الأمير ، فإن كان للشاعر أن يذكر نفسه فدائرا في فلكه ، لا متعالياً عليه أو متجاوزا إياه ، ولكنه أبو الطيب ذو النفس المتميزة والحوافز المتأججة والطموحات التي لم يحدّها سوى الموت ، وإنه ليفخرُ هذا الفخر الصارخ المتجاوز في حضرة أمير جرير الشخصية والصيت وفي مواجهة خصُوم شانئين مُتحفزين يعلم يقينا أنهم لَيَسْعون إلي حتفه ماوسعهم إلي ذلك الجهد .

وإذا ما التفتنا إلي لغة الأداء في الأبيات الستة رأينا أبا الطيب يتدني بقدر أيّ من شانئيه ، فيدلُّ عليهم أحادَ بتنكير كلمة (جاهل) ولا تلبث (الأنا) أن تظهر مرة ثانية في ياء المتكلم إذ يقول : " مدّه في جهله ضحكي " ثم يورد المجاز المرسل الدال على غاية الفتك والفرس بكلمتَي (يد : وفم) وجليٌّ أن التنكير هنا للتعظيم الذى أكده قبلا إذ وصف اليد بأنها (فرّاسة) ، ويمكن أن نرى في كلمة (فرّاسة)توريةً تُعرِّضُ بأبي فراس الحمداني ، وقد رأينا قبلا كيف كان يلوم ابن عمه سيف الدولة لإفراطه فيما يخص به

أبا الطيب ، فضلا عن تردد القول بما كان بين الرجلين : أبى الطيب وأبي فراس من صراع حول خولة أخت سيف الدولة ، ويأخذ الأستاذ محمود شاكر بهذا التصور ، إذ يذهبُ إلى أن المتنبي قد أحب الأميرة ، وأن سيف الدولة وعده سراً بها وكان عِلْمُ أبى فراس بالأمر سببا رئيسا فيما احتدم بين الرجلين من مجابهة وخصام (١٨) وفي البيت التالى يعوّل على التعبير عن نفسه باستعارة تصريحية نابعة مباشرة من إحساسه المفرط بنفسه ، فهو بالقطع الليث الذى برزتَ أنيابه ، وهو تصوير يتسق تماما والتعبير بأدوات القوة في البيت السابق ، والبيت فى مجموعه حكمة يتكىء عليها أبو الطيب في التعريض بسفه أولئك الذين يسيئون تقدير الأمور ولا يقدّرون عواقبها أو يأخذونها بظاهرها لا بجوهرها . إنهم أولئك الذين تمادوا في التحرش به مخدوعين باستهزائه الضاحك بهم ، إلي أن انقض عليهم وأودي بهم . وفي البيت الثالث يُكَنِّى عن أنه الهمُّ الشاغل لخصومه ، وأن وكدهم اقتناص حياته ، ويستخدم التنكير فى (مهجةٍ) لتحقير أىٍّ من خصومه الشُّر ، فالكلمة بتنكيرها قد دلّت علي تحقير الكيف وتكثير الكَم ، وولعه بالعزف علي تجانسات الألفاظ والحروف يتجلىّ فى أن يُتبع (مهجة) بـ (مهجتى) التي تضاف إليها (الأنا) ممثلة فى ياء المتكلم وتبرز (الأنا) كذلك في (أدركْتُها) ممثلة في تاء الفاعل المتكلم كذلك ، ولايخفي علينا دلالة جملة (أدركتُها) بعد قوله : " ومهجةٍ مهجتى من هَمِّ صاحبها " إنها الدلالة علي غاية شجاعة الرجل وتعويله على أن يبادرَ خصومَه قبل أن يبادروه اعتقادا منه بمزية الهجوم علي الدفاع ، فهو كي يدركهم لابد من أن يطاردهم ، وتنكير " جواد " في عجز البيت دل على مدحه والإعلاء من شأنه ، ثم كنّى بالجملة الاسمية (ظهرُه حَرَمٌ) ومافيها من بليغ التشبيه علي غاية السرعة

لذلك الفرس الأصيل . إذ يستحيل على خصوم راكبه أن يدركوه فيصيبوا من تحرُّم بامتطائه ، وفي صدر البيت الرابع أورد تشبيهين بليغين علي امتلاك الجواد فنَّ المناقلة في عدوه ، فهو ليس من أفراد الخيول التي تصطنع فنون الجري المعتاد ، لقد صارت الرِّجْلان رِجْلا وكذلك اليدان يداً إذ أخذ في ركضه الهادر المندفع ، وقد ضَمَّن التصوير الاستعارى في عجز البيت كناية دالة علي غاية خبرة الجواد ، فهو لا يحتاج إلي توجيه اليد والقدم ليسلُكَ وَفْقًا لمقتضيات الكرّ والفرّ ، إذ هو غني بخبرته الفائقة وحساسيته وحسن دربته عن ذلك كله ، وفي البيت الخامس يُعظّم سيفه بتنكير (مرهف) ويكنى عن غاية الشجاعة بأن اقتحم الجيشيْن اللُّجِّيّيْن المتصارعيْن شاهرا ذلك المرهف إلى أن أدرك مبتغاه فطعنَ وقتل ، وتتجسد الأنا مرتيْن محمولة على تاء الفاعل فى قوله : (سرتُ) و (ضربتُ) ، ولاقيمة لصنيعه هذا إلا في معركة رهيبة يتفاقم فيها الهول ويصّاعد الموت ، وقد أدت الاستعارة والترشيح لها في عجز البيت ذلك الهول أداءً بليغًا ، ويلفتنا في البيت الخامس بروزُ أل التعريف في كل من الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم ، وإنها لجديرة بأن تُكَبَّر وتُعظَّم لأن كلا منها معراج يعرج المتنبى به وعليه إلي وجه من وجوه عظمته ومجده ، وهو إذ شخّصها ونسب إليها معرفة وثيقة به نراه قد أدي بأبلغ طرق الأداء وأكثرها تكثيفا ما يصور قدْر فروسيته لتبريزه في امتطاء خيل الحرب وقيادتها ، وقدْرِ ثبات جنانه وقوة جأشه لاقتحامه الليل متوحدا غير هيّاب ، وقدْر جلَده وصبره على المعاناة باقتحامه المفازات ، وقدْر مهارته فى الطعان لخبرته التامة باستخدام آلاته ، وقدْر ثقافته واتساع آفاق علمه لدراسته ماسوِّدتْ به بطونُ القراطيس ، وقدْر شاعريته المتوهجة وقد امتلك القلم رمز ذلك وأداته ، وتبرز الأنا – كذلك – محمولة علي ياء المتكلم

في قوله (تعرفنى) وفي البيت السادس يكثف قيمة الشجاعة وقوة القلب ، وإنها لَمنقبةٌ محمودةٌ لأبى الطيب الشاعر الفارس المشهور المغرور المحُسَّد كثير الأعداء ، إنه يكتني عن ذلك الجأش الثابت بانفراده بمصاحبة الكواسر في قلب المهامه ؛ وهو بذلك قدير على خوفيْن لا خوف واحد : خوف مواجهة الصحراء ، وهى رمزٌ للمعاناة والتيه واحتمالات الفناء ، وخوف مباشرة الوحوش ، وهى لدى البشر كافة أسبابٌ أكيدة ورهيبة للموت ، وتصور الاستعارةُ في عجز البيت قدر التّميُّز والبطولة في صنيعه هذا . إذ تدهش الأغوار والآكام من فعله الخارق غير المألوف ، والجمع بين الأضداد ماثل في (الغور والأكم) كما أن الأنا لَتبْرزُ مرتين : أولاهما فى تاء الفاعل إذ يقول : (صحبْتُ) والثانية في ياء المتكلم في قوله (منّى) . وما يعتِّم أبو الطيب في سبعة الأبيات التالية أن يلتفت مرة أخرى لأميره ، لا ليمدَحَه ، بل ليُعاتِبَهَ عَتاباً يحرصُ في بعضه على ألا تنقطع بينهما شعرة معاوية ، ويبلغ في بعض آخر منه حد التعنيف السّافر والتأنيب الصريح ، وليس بوسع أبي الطيب إلا أن يعيش ذاته وأناه فى الأبيات ، فيفخر بنفسه فخرا يدركُ به الثريا فى هام السماء . يقول أبو الطيب :

يامَنْ يعزُّ علينا أنْ نُفارقَهم ... وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكُمْ عَدَمُ

ماكان أخلقنا منكمْ بتكرِمَةٍ ... لو أنَّ أمركُم من أمرنا أمَمُ

إنْ كان سركُمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرح إذا أرضاكمُ ألَمُ

وبيْنَنَا - لو رعيتُم ذاكَ - معرفةٌ ... إنّ المعارِفَ في أهلِ النُّهَى ذِمَمُ

كمْ تطلبون لنا عيْباً ، فيُعْجِزكُم ... ويكرهُ اللهُ ما تأتُون والكرَمُ

ما أبعَدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفى ... أنا الثريا ، وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

ليت الغمامَ الذى عندى صواعقُهُ ... يُزيلُهُنَّ إلى مَنْ عندهَ الدِّيَمُ (١٩)

ولا خلاف عندنا أو عند غيرنا في أن أبا الطيب أحبّ الأمير ، ولاخلاف كذلك علي أن سنوات أبي الطيب التسع في بلاط الأمير كانت هي أزهي أيام عمر الشاعر وأحفلها بالمجد والشعور بالقيمة ، فضلا عما ألمحنا إليه آنفا من تلك العلاقة العاطفية المحتملة بين الشاعر وخولة بنت حمدان شقيقة الأمير ، ولذلك فالبوح بالأسي ، والحرص علي ألا تنقطع شعرة معاوية بينه وبين آل حمدان ، يسربلان البيت الأول بظلالة من الشفافية الدامعة التي ندر جداً أن ندّتْ من أبي الطيب الصلف المتعجرف ، ولا يبعد أنه وقد تيقن من أنه فقد بالفعل فردوسه الأرضي في حلب ، كان يُرجِّي العودة بعد حين يدور فيه الزمن دورته ، وتسكن النفوس وتهدأ العواصف والعواطف ، فالبيت إذن جسرٌ وردىٌّ من المودة يمدّه الشاعر بينه وبين الأمير مدفوعا بعواطفه الصادقة وأشواقه العائدة إلي الأوداء قبل أن يغادرهم . يقول أبو الطيب : إنها لَمِحْنةٌ تجتاحه إذ يُضطرُ إلى مغادرة الأحباب ، وإنهم إذ هم نوو الفضل والوداد والعواطف ليتلاشي إلى جوارهم كيانُ الآخرين ممّن اتصل الشاعر بهم أو سيتصل ، ويستمرُّ أبو الطيب معاتبا عتابا ودوداً في البيتين التاليين ، فيهمس للأمير بأنه أحقُّ الناس بكرمه وحبه لولا سوءُ رأيه الطارىء فيه وتغيُّره عليه بفعْل وشايات الشانئين وتحريضهم ، وتصّاعد المحنةُ إذ صار للأمير في شاعره تقييمٌ مُهْدِرٌ ورأيٌ سيىءٌ متشكّكٌ ، علي حين بقي أبو الطيب – وفقا للنص – على ولائه المعهود وتقديره العالي للأمير ، وهاهو البيت الثالث جسرُ حبٍّ آخر ، ونفحةُ عطرٍ يُضمِّخُ بها أبو الطيب مابينه وبين الأمير علّها تأسو الجراح وتهدهد النفوس ، إن الأمير قد استمع للوشاة واستطاب تجريحهم أبا الطيب بالكذب ، وتطاولَهم عليه بالادّعاء ، وتلك سلوكيات تنهش القلب والعصب من الشاعر ، إلا أنه ليتحاملُ على نفسه ويتجاوز آلامه مرضاة

لأميره الذى يستمع لشانئيه ويتلذذ بعذابه ، ويبدو أن أبا الطيب قد استنكف من نفسه أن يتطامنَ إلى هذا القدر وأن يوغلَ فى الانحناء وترقيق المشاعر إلى هذا الحد مرضاة للأمير ، ومن ثم لا يلبث فى البيت التالى أن يوازن صنيعه ، وأن يعود إليه عصبُه العنيفُ الثائر ، وطبيعتهُ المتأبيةُ الصلبةُ ، فيقول للأمير إنه إذ استمع إلي الرشاة المحرضين فجفاه وتنكر له ماديا ومعنويا . إنما يكون بذلك قد أهدر حقوقا حقُّها أن تُراعَى وأن تُصان ، إنها حقوق لا علاقة للحب الذى تجافى عنه الأمير بها ، فمن مقتضيات الثقافة والأدب والمعرف المشتركة بين الشاعر وأميره أن يصون المنتمون إليها بعضهم بعضا . لأن صلات العقول والأذواق عهود ومواثيق بين المثقفين يجب أن تراعَى ، والأمير – فيما تقول الجملة الاعتراضية " لو رعيْتُم ذاك " – قد أهدرَ – من أسفٍ – تلك الحقوق ، بعد أن تنكر لعاطفة الصداقة بينه وبين شاعرِه ، فالصداقة أولا ثم صيانة العلماء بعضهم بعضا قد أهْدرَتا ، بل إن الأمير – فيما يقول البيت الخامس – ليتجاوزُ ذلك إلي سلُوكيات معيبة بمعايير الدين والأخلاق جميعا ، إنه أساءَ معاملة شاعره دون علة يتكىء إليها ، ولم يكن أمامه – تبريرا لسلوكه المعيب غيرِ المفهوم – إلا أن يحاول مداراته بسلوك أكثر إيغالا في العيب ، فأخذ يتمحّلُ الأسباب ويلتمّسُ بالتوهم الأخطاء ، ويختلقُ المعايب اختلاقا فى سلوك أبي الطيب وأخلاقه . غير أنه عجز عن شىء من هذا كله ، ولم يبق إلا أنه سلوك قبيح لا يجوز لأمير في حجم سيف الدولة أن يتورط فيه ، والمتنبي هنا – فيما نرى – قد جاوز العتاب العنيف إلي الطعن الصريح والتعنيف ، وكأنه قد أبى من نفسه تلك الرقة التى أشرنا إليها آنفا ، وقصد – مدفوعا بعصبه الثائر ودخيلته المتضخمة – إلي إرضاء نفسه بعد أن أرضى الأمير ، ويردُ البيت التالى تعليلا لسابقه ، لقد

عجز الأمير ومن أثاروه علي أبي الطيب عن طِلْبتهم في التماس معايبه لأنه – رفقا للشاعر – مبرأ بالفعل من كل عيب . بعيدٌ عن كل نقص . إنه في عليائه نجمُ الثريا المشعُّ المتألق ، ولايجوز عليه العيبُ والنقصانُ إلا إذا جاز الشيبُ والشيخوخةُ على الثريا ، والأمران كلاهما مستحيلان ، وعلينا ألاّ ننسى أن شاعرنا إذ يجاوزُ هكذا كلَّ حدٍّ في الفخر بشرفه وترفّعه . إنما يفعلُ ذلك إثر بيت من الأوابد تهجَّمَ فيه على الأمير وعلى سائر خصومه تهجُّماً سافرا جامحا لا تحفُّظ فيه ، وكأني بأبي الطيب قد استشعر مدي عنفه المتطرف في البيتين كليهما ، بل أدرك – فضلا عن ذلك – أن بيت الفخر الرّاعق بنفسه إن هو في الوقت ذاته إلاّ ذمٌّ وتعريض بالأمير ، ومن ثم أراد لشعرة معاوية التي آذنت بالإنبتات ألاّ تفعل ، فتعَمدَ في سابع الأبيات إلي نوع من ترضية سيف الدولة بأن اعتبره السحابَ ذا المطر الخَيِّر الخصب والصواعق الجائحة المهلكة ، وتشكّى من أنه المخصوص بصواعق الجفاء والمنع ، وأن الآخرين مخصوصون بديَم الوصال والمنْح ، وتمنّى على سيف الدولة أن يزيلَ عنه سخطَه إلى شانئيه تخفيفا وعدلاً .

حتي إذا التفتنا إلي طرق الأداء في الأبيات رأينا أبا الطيب يستخدم النداء في مخاطبة سيف الدولة ، ثم يردفه بضمير الجمع للغائبين (نفارقهم) وكأن الفراق الوشيك قد وقع بالفعل ، ولعلّ في ضمير الغائبين ما شمل خولة بمضمون البيت المُغْرِقِ في التودُّدِ والأسي ، وتبرز (أنا) الشاعر في البيت ثلاث مرات بصيغة الجمع .. (يعز علينا) ... (أن نفارقهم) ... (وجداننا) ، وكأنه وقد خاطب الحمدانيين جميعا أبي إلا أن يعادلهم بنفسه مجموعا ، ويبرز الجمع بين المتناقضات في عجز البيت إذ يطابق بين (وجداننا) وبين (عدم) . فضلا عن أن العجز كناية عن تفرّدهم بالعظمة والفضل ،

واختصاص الشاعر إياهم بمحبته الصادقة دون سائر الناس ، ولا يزال في البيت الثاني يعبر عن نفسه بضمير المتكلمين في قوله : " ما كان أخْلَقَنا ، ومن أمرنا ، وينطوى عجز البيت علي ما كلف به الشاعر من الجمع بين المتناقضات . وذلك لأن قوله : " لو أن أمركُم مِنْ أمرِنا أَمَمُ " مؤداه أن للأمير في أبى الطيب رأيا سيئا يناقض رأى أبى الطيب فيه ، وفي البيت الثالث – بيت الغاية القصوى في التودد والتطامن – تصور الاستعارة التصريحية غور الآلام المعنوية التى عاناها المتنبي إذ تغيّر عليه الأمير وأسلم القلب والسمع للشانئين ، والبيت بأكمله كناية مُصوِّرة لتفاضى المحب عما يلقى من هول عاطفته مرضاةً لحبيب يتلذّذُ بما يصيبه ، وقد كان الأمير مستجيبا بالفعل للطاعنين علي أبى الطيب ، وتفصح (الأنا) عن نفسها في ضمير المتكلمين فى قوله : (حاسدنا) وفي رابع الأبيات أدت الجملة الاعتراضية – لو رعيتم ذاك – دلالة عدم المراعاة ، وهو عتاب أرهص بأشد التهجم وأعنفه في البيت التالى كما فصلنا آنفا ، وتنكير كلمة (معرفة) زادت دلالة تعظيم المتنبي وإجلاله للعلم والثقافة والفكر ، تلك الأواصر التي يراها ذات شأن في تثبيت الود بين العلماء والأدباء ، وترتيب حقوق لأى منهم تجاه الآخرين ، وقد صور ذلك تماما ببليغ التشبيه المؤكّد بإنَّ في قوله : (إنَّ المعارف في أهل النهى ذِمَمُ) ، فتلك الأواصر الثقافية التي لم يَرْعَ الأميرُ حرمتها – فضلا عن تجاهله موجبات الصداقة والود بينه وبين أبى الطيب – إن هى في الحقيقة إلا مواثيق وعهود بين المفكرين وأصحاب العلم والرأى لا معدى لذوي الأصالة منهم عن مراعاتها . والبيت إلي ذلك يجمع التناقض بين ما ينبغى للعلاقات الفكرية بين أربابها من صيانة ، وبين تجافي الأمير عن ذلك .

وفي خامس الأبيات وأعنفها تقول لغة الأداء إن التماس الأمير وخصوم

المتنبي لمعايبه كان ركدهم وفعلهم المتكرر القاصدين إليه بإصرار ، وقد أدت " كم " ذلك في صدر البيت ، وفضلا عن ذلك تؤدي جملة (تطلبون) معنى السَّعْي الحثيث والالتماس الدؤوب ، فليس الذي يطلب شيئا بالذي يطلبه عرضا أو كيفما اتفق ، وقد ذكر أبو الطيب كلمة (عيبا) في معرض القول بأنهم يعنّون أنفسهم – خاصة الأمير – بالتماس عيب .. أى عيب للاتكاء عليه تبريرا للمجافاة والحرمان ، و(الأنا) المتضخمة ظاهرة في صدر البيت محمولة علي ضمير المتكلمين ، وفي الإفادة عن مسعاهم بالعجز تدليل علي كامل فشلهم في هذا المسعى ، وهو يتجاوز بدلالته اللغوية والنفسية التعبير عن هذا الموقف بالإخفاق أو الفشل مثلا ، ففى العجز عن إدراك أمر تصويرٌ لقصور الفاعل لاستحالة مبتغاه عليه استحالة مطلقة ، وفي عجز البيت كناية تصور قبح هذا الصنيع المتحلّل وإدانته بمعايير الدين والأخلاق جميعا . علي أن الدلالة علي تصادم صنيعهم هذا مع القيم الدينية مُعبَّرا عنها بأرفع رموزها قاطبة ، وهولفظ الجلالة ليوحي بما كان يعانيه أبو الطيب من تنكر الأمير له ، ومن رغبته المصرة علي إدانته والإزراء به ، وفي صدر البيت السادس الذي هو بمثابة تعليل لعجزهم التام في مسعاهم ، يَرِدُ التعجبُ مصوِّرا لما يذهب إليه أبو الطيب من نقاء شرفه ، وتطهّره من كل عيب ودنس ، ثم يصور بليغ التشبيه المحل الأسمى الذى أحلّه أبو الطيب شخصه . إنه الثريا وحاشاه وحاشاها أن يوصما بعيب أو نقصان ، ويؤكد ذلك بليغ آخر من التشبيه يصير فيه العيب والنقصان شيبا وشيخوخة مستحيلَيْن ، وهما مستحيلان عليه بمثل استحالة الشيب والشيخوخة علي الثريا ، وينتظم البيت كله في تصوير من تشبيه التمثيل مؤداه استحالة اتصاف أبي الطيب بالمعايب والنواقص بمثل استحالة اتصاف كوكب الثريا بالشيب والهَرَم ، وتبرز (الأنا)

في البيت مرتين : أولاهما في ياء المتكلم إذ يقول : (شرفي) والأخري في ضمير المتكلم سافراً في صدر عجز البيت : (أنا الثريا) ، وما يزال الشاعر جامعا بين المتناقضات ، فيتناقَضُ اجتماع الشيب والهرم إلي الثريا ويستحيل – رفقا لمؤدي البيت – اجتماعُ العيب والنقصان إلي أبي الطيب ، وفي البيت السابع لا يملك سوي التمني الذي يشي بشبه استحالة المضمون وصور بالاستعارات التصريحية في الغمام وصواعقه والديم انديا ح الشر والخير كليهما من الأمير ، وأدت الصواعقُ هول ماشدّده عليه الأمير من نكير بمثل ما صورت الدّيمُ البلهنية التي أفاء بها علي خصوم الشاعر وكارهيه ، فضلا عن أنه جمع النقيضين لفظا وهما الصواعق والديم ، وقابل بين (عندى صواعقه) و (عنده الدّيم) ، وهو جمع للمتناقضات أبعد مدي . لأنه يُحوّل علي المعاني الكلية لا على دلالات الألفاظ فحسب ، وتبرز (الأنا) فى البيت محمولة على ياء المتكلم في قوله (عندى) كما أنه كني عن خصومه بمقتضي موقعهم من نعمة الأمير ورعايته ، فهم إذن المخصوصون بديمه .

ويبدأ المتنبى سبعة الأبيات الأخيرة من القصيدة بأن يعلن صراحة عن عزمه على الرحيل عن حلب في سفر طويل منذِرا بعقبى رحيله من ندم يملأ نفس الأمير إذ هو مسئول عن هذا الشّتات. ، معرجا علي الإلمام ببعضٍ من علل هذا الرحيل ، لقد باتت حلب صفرا من الأصدقاء ، غاصة بالأعداء ، وبات الرزق الذي يساوى فيه الأمير بين أبي الطيب على فحولته وعبقريته ، وبين خصومه من ساقطي الشعراء ، بات وصمة يتعين عليه أن يبرأ منها ، ويستنكر المتنبي من خصومه أدعياءِ الشعر هؤلاء ، أن يقولوه وقد افتقدوا آلته ، وأصفروا من قدراته ، ثم يختم رائعته مؤكدا لأميره أنه إنما صدر في عتابه إياه عن الحب لا عَنْ الكره ، وقد أزلف له العتاب في روائع باقيات من

أبيات الشعر يقول أبو الطيب

أرى النَّوَي تقتضيني كلَّ مرحلةٍ ... لا تستقلُّ بها الوخّادةُ الرُّسُمُ

لَئِنْ تركْنَ ضُمَيراً عن مَيامِننا ... لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُم نَدَمُ

إذا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... أَ لا تفارقَهم ، فالراحلون هُمُ

شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ ... وشرُّ ما يكسِبُ المرءُ ما يصِمُ

وشرُّ ما قَنَصَتْهُ راحتي قَنَصٌ ... شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

بأيِّ لفظٍ تقولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ ... تجوزُ عندَكَ ، لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ

هذا عتابُكَ إلاّ أنَّهُ مِقةٌ ... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلاّ أنَّهُ كَلِمُ (٢٠)

إنه إذن الفراق لامحالة ، وإنه لَفِراقٌ إلي مُرتحلٍ جدّ بعيد يشق حتى علي سراع النياق وأضخمها وأشدها ، ويُقسمُ أبو الطيب في صدر البيت الثانى علي أن مغبة رحيله عن حلب – وقد قرر الذهاب إلي مصر – لتكونَنَّ ندما يأكل قلب سيف الدولة ، وإنه إذ يقول ذلك ليقرِّرُ على مسمع من جمع مستمعيه الحاشد أن رحيله أمر خطير ، وليس من نثريات الأحداث التى يتساوي وقوعها وعدمه ، ومن ثم يعمد في البيت التالى إلي تحميل سيف الدولة مسئولية مباشرة وكاملة عن قراره بالرحيل ، فهو المستجيب إلي شانئيه والحاقدين عليه ، بل هو المتحامل عليه بالجفاء والمنع وإصغار الشأن ، وهو الممتنع قصداً عن كف غرْبه عن أبى الطيب ، والزاهد في مرضاته ومداواة جراحه ، إن الأمير لَلراحلُ ابتداءً عن أبي الطيب بمودته وحبه وكرمه ، وماقرار الشاعر بالرحيل عن الأمير والحمدانيين بجسده لا بمودته إلا رد الفعل الذي ليس له عنه من محيص ، وإن حلب – فى البيت التالى – قد تآمرت كلها علي أبي الطيب ، وتربصت به حتى أقفرت من الأصفياء

والأدّاء ، وإن الأمير ليُمعنُ في استفزازه ، والإناخة به من عليائه وتفرّد مكانته بين شعراء البلاط ، عطاء ، وحُظوة حتي ليساويه بهم ، وتلك محنة داهمة لأبي الطيب ويحسر بل يستحيل عليه أن تتساوى قامته الشامخة بقامات أقزام أدعياد لا يتجاوزون سفح كيانه فنيا وإنسانيا ، ولاغرو – بعد ذلك – أن يري الرجل في كسب يأتيه من الأمير وفقا لتلك المقاييس المجحفة وصمة عار لا حيلة له إلا في أن ينفض منها يديه . هذا فضلا عمّا يشوب ذلك العطاء – أيا كان قدره – من سوء معاملة الأمير وتكديره صفو حياته بمجافاته والأخذ بعضد الطاعنين عليه ، والبيت التالى تكثيفٌ لمؤدّي البيت السابق ، مضافا إليه التعريض الشديد بخصومه المتدنين الذين يشاركونه – بغير الحق والعدل – في رزق سيف الدولة وحدبه شركة مساواة ، وهم علي نقيضه موهبة وعروبة وإخلاصا ، ولا يلبث أن يفرد البيت السادسُ للقدْح المباشر في مناوئيه والطاعنين فيه ، ويصادر عليهم تطاولهم بقول الشعر وهم يفتقدون أدوات الإبداع فيه ، خاصة رهافة الإحساس باللغة وامتلاك سليقتها إذ هم من أصول غير عربية ، ولا يلبث أن ينعى علي الأمير – وهو العربي الخالص والشاعر المثقف – ما تورط فيه من تقريب هؤلاء الأدعياء وقبول مايسفسفون به من ساقط الشعر وركيكه ، وكأني بأبى الطيب يكاد يتهم سيف الدولة بأنه إنما يقرّب هؤلاء ويستمع إليهم ويجيزهم نكاية فيه لا تقديرا لهم ، ويعمد أبو الطيب إلي بيت الختام ، فيقسمه قسمة عادلة بين سيف الدولة وبين نفسه ، فيقول للأمير في صدر البيت إن عتابه إياه صادر عن حب ، فالمرء لا يعاتب إلا من يحبه ويبقى عليه ، ولا يفوتنا أن نلحظ كيف أن أبا الطيب يرفع قامته هنا لتساوى قامة الأمير ، فالحب لا يكون الا بين متكافئيْن ، ويفرغ لنفسه وفنه في عجز البيت ليقول : إنه أدى

عتابه مصوغا فى لألاءٍ من جوهر القول ورفيع الكلام ... وهل يمكن لأبي الطيب ذي الموهبة الخصبة والثقافة الرفيعة – بمقاييس الواقع – والعبقرية المتفردة – فى رأى نفسه – إلا أن يصوغ بوح نفسه ، وجدليات فكره بأحرف مجنحة وكلمات وتراكيب وصورٍ باقيات بقاء الدر . متألقاتٍ تألّقَهُ . مكتسبات علي كرّ الأزمان مكتسبه من تصاعد القيمة وجلال الدلالة ؟

حتى إذا يمّمنا أنفسنا شطر لغة الأداء فى الأبيات السبعة ، رأيناه قد صور النوى وشخصها بالاستعارة حتى لَتُري ، وحتى لتفرض عليه تجشم الأسفار الطويلة والمسافات الشاسعة ، وإنه ليتحدثُ عن هجرٍ ات وكأنه قد كان بالفعل ، ويصوّرُ عجز البيت بالاستعارة والكناية هول رحلته حتى لتتقاعس دونها النياق السريعة الضخمة الشديدة ، وتتجسد (الأنا) فى ياء المتكلم إذ يقول : (تقتضيني) ويدل قوله : (كل مرحلة) علي عراقة الرجل واقتداره عبر مراحل حياته السابقة علي تلك المشاق ، وكذلك كان المتنبى بالفعل جَواب آفاق لا يني عن دائب السعي وصولا إلي حلمه الكيانى بمجد التسيّد والمال ، ولعله بتلك الخلّة يذكرنا بابن الرومي نقيضه فيها إذ قضى جل حياته ملتصقا ببغداد متقاعسا عن الرحلة إلى ممدوحيه علي الرغم من غاية بؤسه وافتقاره المدقع إلي المال ، ولا يزال الشاعر على نهجه في القصد إلي الإبهار والإدلال بقدرته علي الفن والفكر جميعا بأن يجمع المتناقضات فى حيّز واحد ، فهو قادر على اجتياز القفار الشاسعات ذات الأهوال . لأنه رجلها ثابت القلب . القادر على الجلاد والمشاق . في حين لا يقدر عليها أسرع النوق وأشدها وأكثرها قدرة علي الترحال ، ويكنى في البيت التالى عن قيمته وعظمة شأنه بأن سيف الدولة سيندم بالقطع لرحيله ، وذلك لأن غيره من أدعياء الشعر ومسفسفيه لن يغني عنه في تمجيد بطولة الأمير وكرمه

وعروبته ، وإن أبا الطيب ليؤكد ذلك بالقسم ، واللام والنون في جوابه ، مُنَكِّرًا كلمة " ندم " في قافية البيت لتعظيم مدلولها والمبالغة فيه ، وتظهر (الأنا) بضمير الجمع في قوله : (ميامننا) وفي البيت الثالث يصوّر بالكناية مسئولية سيف الدولة عن رحيله فهو الآخذ بأسباب هذا الرحيل ، وهو المتقاعس عن إبطالها ، والبيت يضم المتناقضات كذلك ، لأن مؤداه يتماوج بين الرحيل الفعلي وإمكانات منعه المتروكة من قِبَل سيف الدولة ، وما يعنيه ذلك من اختياره رحيل المتنبي . لتكريسه أسبابه ، وكأن الأمير هو الراحل أصلا وابتداء بحدبه ومودته عن الشاعر ، وصياغة الجملة الاسمية (الراحلون هم) بتقديم (الراحلون) وتعريفها قد أفادت قَصْرَ مسئولية رحيل المتنبي علي سيف الدولة لتعلق أسبابه كلها به وحده ، وفي صدر البيت الرابع يكنى عن حلب وعن نفوره البالغ من أهلها محمولين عليها . بانها قد تنكرت له وأقفرت من صديق واحد يخلص له ، ويكني في العجز عن معافاة نفسه لرزقه من الأمير ، وقد خالطه النكد وسوء المعاملة حتى لقد بات مدّ يده لنواله سبة عار ينبغي اتقاؤها ، وقد استخدم أبو الطيب معنى التفضيل المطلق من الشر مرتين في معرض تصوير نفوره من الحلبيين ومدينتهم ومن الأمير وصنيعه ، وفي البيت التالي يستمر في تصوير نفور آخر ينتابه . هو نفوره من ذلك الرزق الهزيل الذي يساويه فيه الأمير بهابطي الشعراء وصغارهم من الأعاجم ، ويستخدم للمرة الثالثةصيغة التفضيل المطلق من الشر ، ويعكس التصوير الاستعاري في صدر البيت روح أبي الطيب الكلف بالنضال واحتمال المشاق سعيا لما يبتغي ، فالرزق هنا قنص ، وأبو الطيب – من ثم – صائد قناص ، وفي عجز البيت تصور الاستعارتان التصريحيتان اعتداد الرجل بشخصه وفنه ، وإزراءه بخصومه في الحياة والفن كليهما ، فهو البازيّ الأشهب برفعته

وعزته ، وهم الرّخم بغدرها وقذارتها وكريه منظرها ومزعج أصواتها ، ولا يزال الشاعر علي ديدنه في الجمع بين المتناقضات في ساحة واحدة ، فيجمع شهب البزاة إلي الرّخم ، وفي صدر البيت السادس يَرِدُ الاستفهام الاستنكاري ليصادر أبو الطيب من خلاله ما ادّعاه صغار شعراء الأعاجم من قدرات في العربية تسوِّغُ لهم قول الشعر بل التصدي له بالتحدي ، وهو القمة الرفيعة فيه ، ويأتي بالاستعارة التصريحية في قوله (زعنفة) مضيفا تنكيرها إلي الحقارة والتفاهة فيها ، ليصور بذلك ازدراءه البالغ لأى من خصومه المتشاعرين ، وينسحب الاستفهام الاستنكاري فى صدر البيت على مضمون العجز ، إذ كيف يروج ذلك الغثاء لدى عربي مثقف هو سيف الدولة ؟ وفي آخر البيت يبرر المتنبي لنكيره هذا الذى شدّده علي خصومه وإسقاطه إياهم من دوحة الشعر ، بأنهم في الحقيقة سقطوا دون أن يدركوا سليقة العرب ورهافة ذائقتهم وقدرتهم الطبيعية علي اللغة ، وكذلك دون أن يدركوا شيئا من لغات أصولهم الأعجمية لتقطّع أواصرهم بها بفعل الزمن ... وهكذا يضرب المتنبى علي كيان هؤلاء المنافسين تماما ، فالناس عصرئذ إما عرب وإما عجم ، ومنافسوه صفر لأنهم ليسوا إلي هؤلاء ولا إلى أولئك ، ومايزال الرجل يورد متناقضاته في حيّز ، فهناك تناقض بين قول الشعر ، وبين كون القائل أحمق جاهلا زعنفة فى دنيا اللغة والفن ، وهناك تناقض بين العرب والعجم ، حتى إذا وصلنا إلي بيت الختام رأينا أبا الطيب يسمى صنيعه في القصيدة : إنه العتاب لا الهجاء ولا القطيعة ، ثم يصله عن طريق بليغ التشبيه المؤكد بدائرة أخص تتساوى فيها هامته مع هامة الأمير إنها دائرة الحب ، فهو يعاتبه حُبًّا لا غضبا أو قطيعة ، وفى هذا

الجمع المحتشد من مناوئي الشاعر ، وعلى رأسهم الأمير ، وفي هذا المناخ المشحون بالشجن والتحدي والاستفزاز ، يأبي أبو الطيب إلا أن تكون آخر كلماته في آخر قصائده إلي الأمير عن نفسه وعن فنه ، فشعره – محمولا علي صورة التشبيه – جوهر مصوغ من كلام لا يقدر عليه سواه ، وأبو الطيب لا يُلقي كلامه أبداً كيفما اتفق ، فتشبيه شعره بالدّر يعطيه ليس نفاسة الدر المطلقة فحسب ، وإنما يعطيه فضلا عن ذلك صمود للزمن وازدياد القدر والتألق علي الأيام كلما دارت دورتها ، هذا هو الشأن في الدّر ، وهذا هو الشأن في روائع شعر فارس الفن والقلق والتجاوز ، جهير الصيت متضخم الذات أبي الطيب المتنبي .

الحواشي والإحالات

(١) – الشيخ يوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثيّة المتنبي : ٨٧ / ٨٨ – تحقيق مصطفي السقّا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده ، ط الثانية – دار المعارف تاريخ الإيداع ١٩٧٧ .

(٢) – شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي : ٤ / ٨١ ، نشر دار الكتاب العربي بيروت – لبنان . (د . ت) .

(٣) – شوقي ضيف (دكتور) ، الفن ومذاهبه في الشعر العربى : ٣١٢ ، دار المعارف بمصر ، ط التاسعة (د . ت)

(٤) – السابق : ٣١٣ ، وكذا الطبعة الأولي – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٢ هـ – ١٩٤٣ م : ١٨٦ .

(٥) – السابق : ٣١٥ – ٣١٦ ط التاسعة .

(٦) – شرح ديوان المتنبي (برقوقي) : ٤ / ٨١ .

(٧) – السابق : الصفحة نفسها .

(٨) – السابق : ٤ / ٨٢ .

(٩) – مقدمة ط الأولي : ١٢٦ .

(١٠) – السابق : ٤ / ٨٢ .

(١١) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٣ .

(١٢) – السابق : ٤ / ٨٤ .

(١٣) – الصبح المنبي : ٧٨ .

(١٤) – السابق : ١٧٠ – ١٧٤ .

(١٥) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٦ .

(١٦) – السابق : ٨١ – ٨٢ من قوله :

قد زرتهُ وسيوفُ الهندِ مغْمَدَةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دَمُ

إلي قوله :

أما تَرى ظَفَراً حلْواً سوي ظَفَرٍ تصافَحَتْ فيه سيوفُ الهندِ واللِّمَمُ

(١٧) – السابق ك ٨٣ – ٨٦ من قوله :

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأسْمَعَتْ كلماتي من بـه صَمَمُ

إلي قوله :

صَحِبْتُ فى الفلواتِ الوحشَ مُنْفَرِداً حتي تعجَّبَ منِّى القُورُ والأكَمُ

(١٨) – محمود محمد شاكر ، المتنبي ، السفر الأول : ٢٣٥ ، مطبعة المدنى (تاريخ مقدمة المؤلف ٦ / ١١ / ١٩٧٧)

(١٩) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٨ .

(٢٠) – السابق : ٤ / ٩٠ .

أصفهان

منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقى

دراسة تاريخية

الدكتور / مجدى عبد المنعم عجمية

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

أصفهـــان

منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي

« دراسة تاريخية »

أصفهان والأصل الفارسي :

لقد اختلفت الآراء وتعددت في معرفة أصل كلمة « أصفهان » ، فالبعض يسمونها « اسپهان » وفق الحروف الفارسية ، وآخرون يطلقون عليها « أصفهان » طبقاً للحروف العربية « فاين دريد » يري أن «اصبهان» اسم مركب من الأصب اسم البلد بلسان الفرس وهان اسم الفارس ، ومن هنا يُراديه « بلاد الفرسان » .

ويقول « عبيد الله » : المعروف أن « الأصب » بلغة الفرس هو الفرس ، و « هان » كأنه دليل الجمع فمعناه الفرسان ، و «الأصبهاني» الفارس [1] .

ويري « حمزة بن الحسن » أن « اصبهان » اسم مشتق من الجندية لأن مرد هذا اللفظ إلي الفارسية هو « اسپاهان » جمع «اسپاه» اسم للجند والكلب كلفظ سك وهو أيضاً اسم للجند والكلب ، وإنما لزمها هذان الاسمان لاشتراكهما في الفعل والحدث فأفعالهما للحراسة وفق اسميهما ، ويري أن « الكلب » يسمي في لغة « سك » وفي أخري «أسپاه » ، وتخفف فيقال « اسبه » ، وبهذا جمع هذان الاسمان وأطلقا

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ج ١ ، ط بيروت ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م .

علي بلدين مخصصين للجند الأساورة ، فأطلقوا علي «اصبهان» «أسپاهان» وعلي سجستان : سكان وسكستان .

ويذكر « ابن حمزة » في اشتقاق « أصبهان » حديثاً يتردد علي ألسنة العوام قال عن أصل اللفظ « أصله أسباه آن أي هم جند الله »[1].

ويفسر « المافروخي » أصل هذه اللفظة فيقول : « أصل لفظة أصفهان « اسفاهان » لأنه كان عليها في أيام الفرس « كوذربن كشواذ » ، وهو حينئذ يركب في ثمانين ابناً له فرساناً شجعاناً فضلاً عن حفدته وأشباعه وخوله وأتباعه ، وكلما ركبوا قيل « اسفاهان » أي الجيوش فسميت به لتداولهم في كلامهم وقيل أنه أمر نمروذ بنقل الأحطاب إلي الموضع الذي أراد إحراق إبراهيم الخليل عليه السلام فيه طاوعه الناس كلهم في نقلها غير أهلها فقيل لهم بعد ذلك (أسفاه آن) أي جنوده يعني جنود الله »[2] .

وينقل « ابن شاهنشاه » عن السمعاني : سمعت من بعضهم أنها تسمي بالعجمية « سباهان » و « سبا » العسكر و «هان» جمع وكانت عساكر الأكاسرة إذا وقع لهم ببكار يجتمعون بها مثل عسكر فارس وعسكر كرمان والأهواز فعربت فقيل « أصفهان »[3] .

---

(١) نفس المصدر ونفس الصفحة .

محمد بهار : سبك شناسي ، ص ٥ ، ج ١ ، ط تهران .

(٢) مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الأصفهاني : كتاب محاسن أصفهان ، ص ٦ ، ط طهران .

(٣) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤٢٣ ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

هذا وقد وردت كلمة أصفهان مكتوبة بالفارسية في صور مختلفة هي «اسپهان» «اصپاهان» ، «اسپاهان» ، و « اسپان » ، و «اپادانا» عند المؤرخين والأدباء والشعراء الإيرانيين [1] .

كما كتب الاسم بشكل ساساني « سپانه » بمعني العسكر وتعني أيضاً مكان العسكر [2] .

هذا ويري هيرودتس أن لفظة « أصفهان » بالميدية « سپاكا »[3].

ومن خلال هذا العرض لمعرفة الأصل الفارسي للفظة « أصفهان » نري أن هناك اتفاقاً علي أن معناها أرض الفرسان الأبطال أو الجند الحارسون أو جند الله وجميعها معان متقاربة ، ولكن هناك اختلافاً في تقسيم الكلمة أو الأصل الفارسي لها ، ولعل أكثر الآراء صحة وتقسيماً للفظة « أصفهان » هو أن أصل الكلمة « اسپاهان » وتسمت إلي تسمين « اسپاد » بمعني الجند ، والألف والنون علامة الجمع للعاقل في اللغة الفارسية وبذلك يصير معناها « الفرسان » .

وكأن هذا اللفظ أخذ يطلق على سبيل المجاز فصاروا يقولون « اسپاهان » بمعنى الفرسان ويقصدون أرض الفرسان ، ثم عربت لفظة « اسپاهان » فأصبحت « اصفهان » بقلب السين إلى صاد والپاء إلى فاء مثل كثير من الألفاظ الفارسية المعربة .

---

(١) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ١ ، ط تهران ، اسفند ، ١٣١٦ .

(٢) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ٢ .

(٣) دائرة المعارف : تقويم البلدان ، ص ٤٢٣ ، ط باريس ، ١٨٤٠م .

وكذلك وردت « سپاه » ، « اسپاه » ، و « سپه » بنفس المعني وبذلك يمكن أن نراها بعد إضافة علامة الجمع « سپاهان » ، «اسپاهان»، « سپهان » وجميعها تعني الفرسان الجيوش ، الجنود [1] .

ومما يؤكد هذا المعني ، وذلك التقسيم للفظ ماورد في كتب التاريخ من قصص البطولة النادرة ، والشجاعة الفائقة التي اتسم بها أهل أصفهان فمن ذلك مارواه الطبري عن شجاعة رجل من أهل أصفهان اعترض علي أمر الضحاك - وهو أحد ملوك الفرس وكانت مدة حكمه ألف سنة - والغريب أن يقبل الملك هذا الاعتراض علي الرغم من قوته وجبروته . يقول « الطبري » : « ملك الضحاك بعد جم - فيما يزعمون، والله أعلم ألف سنة ، ونزل السواد في قرية يقال لها نرس في ناحية طريق الكوفة ، وملك الأرض كلها ، وسار بالجور والعسف وبسط يده في القتل وكان أول من سن الصلب والقطع وأول من وضع العشور وضرب الدراهم ، وأول من تغني وغني له قال : ويقال أنه خرج في منكبه سلعتان فكانتا تضربان عليه فيشتد عليه الوجع حتي يطليهما بدماغ إنسان فكان يقتل لذلك في كل يوم رجلين ويطلي سلعته بدماغيهما فإذا فعل ذلك سكن مايجد فخرج عليه رجل من أهل بابل فاعتقد لواء ، واجتمع إليه بشر كثير ، فلما بلغ الضحاك خبره راعه فبعث إليه : ما أمرك ؟ وماتريد ؟ قال : ألست تزعم أنك ملك الدنيا ؟ وأن الدنيا لك قال : بلي ، قال : فليكن كلبك علي الدنيا ، ولايكونن

(١) F. Steingass : P. 48 - 651 - 652 , Liban , 1944

علينا خاصة فإنك إنما تقتلنا دون الناس ، فأجابه الضحاك إلي ذلك ، وأمر بالرجلين اللذين كان يقتلهما في كل يوم أن يقسما علي الناس جميعاً، ولايخص بهما مكان دون مكان ، قال : فبلغنا أن أهل أصبهان من ولد ذلك الرجل الذي رفع اللراء وأن ذلك اللواء لم يزل محفوظاً عند ملوك فارس في خزائنهم وكان فيما بلغنا جلد أسد ، فألبسه ملوك فارس الذهب والديباج تيمناً به » [1] .

ويزيد ياقوت الحموي في بطولة وشجاعة هذا الرجل «الأصفهاني» فيروي أنه تمكن من قتل الضحاك وأزال ملكه وجعل «افريدون» جد بني «ساسان» مكانه ، ومن يومئذ أصبح لأهل «أصفهان» الحق في حمل اللواء [2] .

وكذلك تظهر شجاعة أهل « أصفهان » في اعتراضهم علي أمر نمروذ بنقل الأحطاب إلي المكان الذي أراد أن يحرق فيه «إبراهيم» عليه السلام حيث أطاعه جميع الناس في نقل الأحطاب ماعدا أهل «أصفهان»[3].

أما عن نطق « أصفهان » فتنطق بفتح الهمزة « أصبهان » أو «أصفهان» عند أكثر الناس ، بينما ينطقها آخرون بكسر الهمزة

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٩٦ ، ج ١ ، ط دار المعارف ، ١٩٧٩م .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ج ١ ، ط بيروت ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م.

(٣) المافروخي : كتاب محاسن أصفهان ، ص ٦ .

« إصبهان » أو « إصفيان » ومنهم «السمعاني» و «أبو عبيد البكري الأندلسي» [1] .

ونخلص من ذلك إلي أن « أصفهان » اسم لمكان الجند والفرسان العظماء أصلها الفارسي « سپاهان » أو « سپهان » أو «اسپهان» ثم حرفت إلي «أصفهان» أو «أصبهان» وتنطق بفتح الهمزة وفقاً للنطق العربي لها ، وتنطق بكسر الهمزة وفقاً للنطق الفارسي لها وذلك لأن الحرف الأول في الأصل الفارسي « سپاهان » - « سپهان » - «اسپهان» ينطق مكسوراً .

نشأة اصفهان وتاريخها قبل الإسلام :

أصفهان هي إحدي المدن الإيرانية الكبيرة والتي عرفت وبقيت منذ أقدم العصور ، وشوهد اسمها في جميع التواريخ حتي في الخطوط المسمارية التي ترجع إلي الألف الثاني أو الثالث قبل الميلاد وكان البابليون يدركون أن أصفهان تقع علي الحد الشرقي ضمن الممالك الشرقية المتاخمة لهم [2] .

وتتكون « أصفهان » من مدينتين احداهما تعرف بـ « اليهودية » والثانية بـ « شهرستان » وبينهما مسافة تقدر بميلين [3] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٦ ، ج ١ .

(٢) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٦٣ ، القسم الثاني ، ط ليدن ، ١٩٣٩ .

و « اليهودية » هي تلك المدينة التي بناها اليهود أيام « بخت نصر » ، فعندما خرجوا من بيت المقدس أخذوا معهم بعضاً من ماء وتراب بيت المقدس ، وعزموا علي ألا يقيموا إلا في مكان يشابه ترابه وماؤه ماء وتراب بيت المقدس فكانوا إذا مانزلوا بمدينة وزنوا ماءها وترابها ، ومازالوا كذلك حتي دخلوا « أصفهان » فنزلوا بموضع منها يسمي « بنيحنا » وهي بالعبرية ومعناها انزلوا فقد أصبتم ظلما وجدوا وزن الماء والطين في هذا المكان كمثيليهما في بيت المقدس استقروا في هذه المنطقة وبنوا العمارات ، وتزاوجوا وتوالدوا وتناسلوا وموضعهم الآن يسمي « اليهودية » [1] وهذا المكان علي بعد بضع كيلومترات من « شهرستان » [2] .

وبرواية أخري يقول « ابن حوقل » : « إن أصل « أصبهان » كان هناك في قديم الأيام وسالف الدهر إلي أيام « بخت نصر » وقدوم اليهود من الشام ناقلة إلي هذه الناحية وكانوا قد استصحبوا من تربة بلدهم ومياههم وهربوا من ناحيتهم فقالوا نقصد موضعاً يشاكل ناحيتنا ويشبه بلدنا وتربتنا ونزلوا بالمكان المعروف اليوم بـ « اليهودية » وبالموضع الذي يعرف « باشكهان » و « أشكهان » كلمة باليهودية وقايسوا التربة والماء فقالوا بلسانهم «أشكهان» أي نقعد ها هنا ، وكان المكان في الوقت أرضاً بوراً غامرة لاساكن بها فأحدثوا المنازل وتصرفوا في وجوه العمارة والفلاحة وأسباب الغروس والزراعة وسكنوا ،

(١) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ط ليدن ، ابريل ١٣٠٢ هـ .

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٥ ، ط دار المعارف ، ترجمة حمزة الطاهر.

وكان بنواحي صايك مدينة يرتفق أهلها بمراعي هذه الناحية ويتصرفونها فتثقل عليهم ماحدث بجوارهم من الأسباب فيقال أنهم مانعوهم عما أرادوه من بعض متصرفاتهم فجرت بينهم حروب واتصلت بينهم وقائع وشغوب وتطاولت بهم المشاغبة والمواثبة إلي أن صارت الغلبة لليهود ، وتم بذلك ماحاولوه من تأسيس اليهودية وتصرف أربابهم في الغروس علي المياه واستنبطوها من مظانها وأجروها في عماراتهم وكثرت اصاياتهم بالزروع في الأراضي البور واقتنوا الماشية ومايضطر إليه أهل الأمصار وتمصرت فسكنتها من رغب في رفاهة العيش ورغدة وتوطنها كبار دهاقين الجاهلية وسراة نتاء الإسلام وأرباب النعم » [1] .

أما « شهرستان » فهي تقع في المكان المعروف بـ « جي » [2] قديماً و « جي » مدينة كان قد بناها « الاسكندر » علي مجر الحية وذلك لأنه كلما بناها مربعة أو مدورة كانت تتساقط حتي رأي حية خرجت من جحرها فدارت حول المدينة ثم رجعت في سرعة إلي جحرها فأمر « الاسكندر » بأن تبني المدينة علي جحرها ومازال البناء قائماً معرجاً حتي الآن [3] علي مثال الحية [4] .

ويذكر « ابن شاهنشاه » أن « جي » بفتح الجيم وتشديد المثناه من تحت اسم لمدينة « أصبهان » العتيقة وكانت تسمي « جي » ثم

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٦٦ – ٣٦٧ القسم الثاني .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، أصبهان ، ص ٢٠٨ ، ج ١ .

(٣) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٢ .

(٤) الطبري : تاريخ ، ص ٥٧٨ ، ج ١ .

ويذكر ابن الأثير : أن الحية أهبطت بأصفهان ، ولكنه لم يذكر وقت اهباطها ، ص ٣٧ ، ج ١ .

سميت « شهرستان » وقد خرب أكثرها واستمرت اليهودية علي العمارة وهي مدينة « أصبهان العظمي » [1] .

وتعد « أصفهان » واحدة من بلاد الجبل التي تعرف عند العامة بعراق العجم وتقع في نهاية الجبال من جهة الجنوب ، ومن «همذان» إلي «أصفهان» ثمانون فرسخاً ومن « أصفهان » إلي « قاشان » ثلاث مراحل [2] ، ويجمع بين « شيراز » و « أصفهان » ثلاثة طرق مابين ورون ، وطريق اصطخر ، وطريق سميرم [3] ، ونظراً لعظمتها وجمالها وتميزها بين الولايات عدها صاحب تاريخ بيهق [4] ضمن أمهات الولايات فذكر أن « أصفهان » أم القري في بغداد .

هذا عن نشأتها أما عن تاريخها قبل الإسلام فيعتريه الكثير من الصعوبات خاصة وأن هذه المدينة قد خضعت لكثير من حكام الفرس قبل الإسلام ونظراً لقدمها وكثرة الملوك الذين مروا عليها أو عمروها أو أعادوا بناءها يجد الباحث صعوبة أخري ولا سيما أن تاريخ الفرس قبل الإسلام حافل بالأحداث والحروب وتعدد الممالك ومن هنا ارتبط تاريخ «أصفهان» في هذه المرحلة بالعديد من الأحداث عبر عصر البيشداديين و « الكيانيين » وملوك الطوائف والساسانيين ، ومن هنا يجد الباحث نفسه في بحر عميق ملئ بالأحداث عن إيران قبل الإسلام وعلاقتها

---

(١) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤١٠ - ٤١١ ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

(٢) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٣) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ١٦٠ ، ط كمبريج ، ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١م.

(٤) أبو الحسن علي بن زيد بيهقي معرف بابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٣٢ ، ط كانون ، ١٣١٧ هـ .

بالشعوب المجاورة والأمم الأخري وماترتب علي ذلك من حروب وأحداث وإقامة ممالك وسقوط أخري ، ثم يحاول أن يحصل من هذا الخضم علي الدرر التي تحمل في طياتها أخباراً عن « أصفهان » .

ولنحاول أن نستجمع مايمكن من أخبار تتعلق بأصفهان في هذه الفترة ونصنفها وفق كل عصر من العصور التي عاشتها إيران قبل الإسلام .

يذكر صاحب كتاب فارس نامه [1] أن بناء وتعمير « أصفهان » كان في عهد الملك « طهمورث » وهو ثالث ملوك البيشدادين ، وكان قد أمر بأن تبني بها مكتبة لحفظ الكتب من الأحداث قبل حدوث الطوفان باحدي وثلاثين ومائتي سنة [2] كما كان لهذا الملك أيضاً آثار عظيمة جلية في « شهرستان » و « أصفهان » [3] .

ويقال أن جمشيد رابع ملوك البيشدادين بني أصفهان في العراق العجمي [4] ولكن يبدو أن بداية بنائها في عهد « طمورث » وجاء «جمشيد» فأتم تعميرها مثلما أتم بناء المدائن . ومن الأخبار التي وردت عن « أصفهان » أن بلغها الملك « افريدون » سادس ملوك

---

(١) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ط كمبريج ، ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١م .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٤ ، ط المثني بغداد .

(٣) مجمل التواريخ والقصص بتصحيح ملك الشعراء بهار : ص ٣٩ ، ط طهران ، ١٣١٨هـ .

(٤) عبد الوهاب عزام : الترجمة العربية للشاهنامه ، ص ٢٤ ، ط دار الكتب المصرية ، ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢م.

البيشدادين وتبعه كاوه الحداد الأصفهاني واستطاع أن يأسر الضحاك خامس الملوك ويقيده ويمثل به في مغارة علي جبل دماوند [1] .

وكذلك تخبرنا الشاهنامة أن طريق أصفهان كان ممراً في الحروب التي دارت بين « نوذر » و « افراسياب » فقد أمر « نوذر » ولديه «طوس» و « كَستهم» أن يتوجها إلي فارس عن طريق أصفهان ويأخذان معهما النساء والمال ويذهبان إلي جبل « زاوه » من جبال «البرز» وذلك أثناء حربه مع « أفراسياب » للمرة الثانية [2] .

أما في عهد الكيانيين فقد كانت أصفهان عاصمة للدولة في عهد «كيقباد» [3] أول ملوكهم حيث عمرها وأعاد بناءها وبني فيها داراً لملكه واتخذها عاصمة للكيانيين .

وتروي لنا الشاهنامة دخول « كيخسرو » [4] أصفهان في حفاوة وتكريم حيث زينت البلد وعقدت الآذينات في جميع نواحيها ، وتم تزيين القصر الكبير بالديباج والحرير ، ووضع فيه التخت الذهبي المرصع بالجواهر ، وأعدت جميع مراسم الملك من تاج وتخت وسوار وطوق ، وخيل ، وبغال ودواب ، وخرج الأصبهذية والأمراء وعظماء إيران

---

(١) الفردوسي : شاهنامه ، ص ٥٨ - ٦٢ ، ج ١ « بندكردن فريدون ضحاك ر ١ » ، ط بروخيم طهران ، ١٣١٣ هـ ، مجمل التواريخ والقصص ، ص ٤١ .

(٢) الفردوسي : شاهنامه ، ص ٢٥٨ ، ج ١ « رزم افراسياب بانوذر دكربار » .

(٣) مجمل التواريخ والقصص ، ص ٤٥ « حمد الله مستوفي » : نزهت القلوب ، ص ٢٨.

(٤) هو ثالث ملوك الكيانيين ، وهو ابن سياوخش وينتمي إلي كيقباد من ناحية أبيه ، وإلي توران بن افريدون من ناحية أمه .

لاستقباله علي بعد ثمانين فرسخاً خارج أصفهان ، ولما رقعت عيونهم عليه ترجلوا وسجدوا له إجلالاً وإكباراً ، وأقيمت مراسم الخدمة واستقبله « جودرز » [1] وكله فرحة ممتلئ العين بالعبرات ، وعزاه في وفاة والده « سياوخش » ودعا له بأن يطول بقاءه ، وأن يدوم مجده وسناءه وساروا في خدمته حتي دخل أصفهان ومكث أسبوعاً بها في القصر المعد له [2] ثم تمكن من إحكام سلطانه علي جميع الأقاليم والمدن الإيرانية . وتوج « كيخسرو » ملكاً علي إيران ونثر عليه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت وكانت مدة ملكه ستين سنة [3] .

وفي هذه الفترة تولي « جودرز » الحكم علي ولاية أصفهان من قبل الملك « كيخسرو » الذي منحه الولاية وأعطاه تاجاً عظيماً ، وتختاً كبيراً مكافأة له ، وذلك لأن « جودرز » كان ممن ساعدوا «كيخسرو» علي تولي الملك ، وتصدي معه للأعداء التورانيين في كثير من المعارك والحروب حتي رغبوا في الأمان فأرسلوا رسولاً من قبلهم إلي « كيخسرو » يعتذرون عما بدر منهم من إساءة ، ويطلبون الأمان

---

(١) هو جودرز كشواذ صاحب الرؤيا التي بشرت بقدوم ملك إلي إيران يدعي « كيخسرو » ويثأر لأبيه « سياوخش » ويسع ملكه بلاد الترك ، وكان « جودرز » قد حكي لابنه «جيو» هذه الرؤيا وطلب منه أن يذهب إلي بلاد الترك بحثاً عن وارث الملك « كيخسرو» فقبل أمر أبيه بالسمع والطاعة .

انظر : فردوسي : شاهنامه ، ص ٧١٠ - ٧١٢ ، ج ٣ (ديدن گودرز كيخسرو والجواب).

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ٧٤٤ - ٧٤٦ ، ج ٣ ، ط بروخيم - تهران ، ١٣١٣ هـ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ٧٦٣ - ٧٦٤ ، ج ٣ .

والصلح فمنحهم الملك ما سعوا إليه ، وأعطاهم العهد بذلك ، فعندما كافأ الملك « كيخسرو » القادة والجند ومنحهم الخلع والهبات والعطايا كانت مكافأة « جودرز » « كودرز » سلطنة أصفهان والتاج العظيم والتخت الكبير [1] .

وفي أواخر عهد الملك « كيخسرو » زهد الملك والجاه والسلطة فعزم علي توزيع أمواله وممتلكاته علي الإيرانيين ، وقرر تقسيم الممالك والأقاليم علي أولي السلطة في دولته وطلب من « جودرز بن كشواذ » أن ينفق أمواله ويوزع كنوزه علي الأيتام والأرامل ثم طلب منه أن يحصر الممالك ، ويعمل علي تنفيذ هذه الوصية [2] .

وعندما عزم الملك علي تقسيم ممالكه عرض علي قادته وكبار رجاله أن يطلبوا ماشاءوا فقام « جودرز » وعرض علي الملك «كيخسرو» جهود ولده « جيو » « كيو » في بلاد الترك وحسن صنيعه حتي عاد إلي إيران وشهرته بالخدمة والطاعة وأظهر أمله في أن تشمله رعاية وعناية الملك ، فأبدي « كيخسرو » ارتياحه لهذا العرض وأخذ يذكر ما قام به « كيو » من أعمال عظيمة وكثيرة ، وأمر بأن يعطي «كيو» عهد قم وأصفهان مكافأة له ، وكتب بذلك منشوراً معطراً بالمسك والعنبر إلي العظماء والأقاليم الكبيرة [3] .

---

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٢٦٦ - ١٢٦٧ ، ج ٥ ، ط بروخيم - تهران ، ١٣١٤ هـ .
(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٤٢٦ ، ج ٥ .
(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٤٢٩ - ١٤٣٠ ، ج ٥ .

ويقتضي هذا العهد أصبح « كَيو » حاكماً علي أصفهان في ذلك العصر .

ومازالت أصفهان مقراً للملك والسلطان ، ومن المدن العظيمة التي تحظي بالبناء والعمران [1] لدي سائر الملوك الكيانيين حتي عصر آخر ملوكهم « دار بن بهمن بن سفنديار » الذي التقي مع « الاسكندر » في ثلاث مواقع حربية لحقت فيها الهزيمة « دارا » وجيوشه ، مما جعله يضطر إلي كتابة رسالة « للاسكندر » يطلب فيها الصلح ، ولكن رجال «دارا » غدروا به عندما تأكدوا من ضياع ملكه وسيطرة « الاسكندر » وجيوشه ، فبادر وزيراه باغتياله تقرباً إلي « الاسكندر » ، وأسرعا إلي إبلاغه بما حدث ، فانتقل « الاسكندر » إلي مكان الحادث للتأكد من حقيقة الأمر فوجد « دارا » مازال علي قيد الحياة يلتقط أنفاسه الأخيرة في مرتع مصرعه فأمر « الاسكندر » بالتحفظ علي مغاليه ، وتأثر لحالة « دارا » تأثراً شديداً حتي ملأت الدموع عينيه ، وتمني أن يشفي ويتولي عرشه وسلطانه علي كل ممالكه مرة ثانية فسعد « دارا » بهذا القول ولكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فأوصي « الاسكندر » أن يحسن رعاية الشعب الإيراني ، وإلي أولاده ونسائه وآل بيته ، وطلب منه أن يتزوج بـ « روشنك » ابنته لعلها تنجب ولداً يسمي « اسفنديار » يدين بالديانة الزرادشتية أو يقيم الأعياد الفارسية « النوروز » والمهرجان ، وفارق « دارا » الحياة ، وصارت الأقاليم والممالك الإيرانية تحت سيطرة « الاسكندر » الذي كان خصماً شريفاً وفياً « لدارا » حيث أمر

(١) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ١٣٠ .

بأن ينصب له تختاً من الذهب ، ويكفن في الوشي والحرير ، ويطيب بالكافور ، وتنثر عليه الورود ويوضع في تابوت من الذهب ، وتقام له طقوس الدفن وفق مناسك المعتقدات اليونانية [1] .

وبعد ذلك أرسل « الاسكندر » رسالة إلي عظماء إيران مع رجاله الذين جاءوا أصفهان ونفذوا أوامره بتبليغ السلام والتحية إلي أسرة «دارا» وكبار رجال إيران ، وأخبروهم بوفاة « دارا » وحرص «الاسكندر» علي تنفيذ الوصية برعاية أولاده وزوجته وأقربائه والشعب الإيراني [2] .

وهكذا تخرج أصفهان من سلطان الإيرانيين وتخضع لنفوذ اليونانيين في حياة يملؤها الرضا بحكم « الاسكندر » والإذعان له بالطاعة والولاء ، وجلس « الاسكندر » علي عرش إيران سلطاناً علي ممالكها نحو أربعة عشر عاماً ، وفي هذه الفترة شهدت أصفهان عصراً جديداً يتسم بالتطورات في الحياة الاجتماعية ، والانشاءات العمرانية ، ويتلاءم مع ما طرأ علي إيران من تغيرات سياسية .

فقد سعي « الاسكندر » إلي تنفيذ وصية « دارا » فأرسل كتاباً إلي أصفهان يعزي فيه زوجة الملك ، ويؤكد فيه علي وصية « دارا » إليه بأن يتزوج من « روشنك » نطلب تجهيزها وإرسالها إلي اصطخر مع

---

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨٠٣ - ١٨٠٤ ، ج ٦ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨٠٤ - ١٨٠٥ ، ج ٦ .

موبد أصفهان ، وكذلك أرسل كتاباً آخر إلي العروس « روشنك » يعزيها ويخبرها بوصية والدها بإتمام الزواج [1] .

هذا وقد وصل كتاب إلي « الاسكندر » فيه رد زوجة « دارا » ويتضمن موافقتها علي زواج ابنتها « روشنك » وولاءها « للاسكندر » بالطاعة ودعاءها له بدوام ملكه ، وكذلك وردت أخبار سارة إلي «الاسكندر» مع الفيلسوف - حامل الرسالة - عن العروس وماتتمتع به من حسن جمالها ، وروعة بهائها ، وعلو قدرها وعظيم شأنها [2] .

وكان لهذه الأخبار السارة عظيم الأثر علي « الاسكندر » فاستدعي أمه من « عمورية » وأرسلها إلي أصفهان في موكب عظيم يصحبها فيه عشرة فلاسفة من المترجمين وتحمل الطوق والسوار والتاج المرصع بالجوهر النفيس ، وتتبعها الأحمال بالخيرات الوفيرة منها مائة جمل محملة بالثياب المطرزة ، وعشرة جمال محملة بالحرير الرومي ، وثلاثين ألف دينار من النثار ، وثلاثمائة جارية رومية .

وعندما اقترب موكب أم « الاسكندر » من أصفهان خرجت زوجة «دارا» مع كبار رجال أصفهان وعظيم علمائها ثم نزلت في الايوان حتي صحبت العروس وجهازها وأحمالها إلي اصطخر حيث يقيم ابنها «الاسكندر» ، وكان لهذا الزواج أثر كبير في نفوس الإيرانيين فعملوا علي الطاعة والإخلاص « للاسكندر » [3] ويذكر صاحب مجمل

---

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٠ - ١٨١٢ ، ج ٧ - ط بروخيم - تهران ، ١٣١٤ هـ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٢ - ١٨١٣ ، ج ٧ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٣ - ١٨١٥ ، ج ٧ .

التواريخ [1] والقصص أن « الاسكندر » بني مدينة « شهرستان » في أصفهان .

وبعد عهد « الاسكندر » أصبحت إيران في أيدي ملوك الطوائف الذين حكموا إيران مائتي سنة ، وكان يطلق عليهم « الاشكانيون » [2] وظلت أصفهان متداولة بين هؤلاء الملوك حتي صارت ملكاً «لبهرام» الذي كان يطلق عليه « أردوان الأعظم » [3] .

أما في العصر الساساني أصبحت أصفهان ولاية تابعة لملوك آل ساسان وتحمل منها الدنانير ، ويذكر « الفردوسي » أن « بهرام بن يزدجرد » المعروف « ببهرام جور » كان يأمر بحمل الدنانير إليه من الري وأصفهان [4] .

وعندما جلس علي عرش إيران « كسري أنو شروان » قسم المملكة إلي أربعة أقسام الأول خرسان ، والثاني أصفهان والثالث فارس والأهواز ، والرابع العراق والروم وبذلك صارت أصفهان مولد العظماء ومنشأ الملوك تمثل قسماً من أقسام المملكة الإيرانية يخضع لنفوذ «كسري أنو شروان » [5] .

---

(١) مجمل التواريخ والقصص ، ص ٥٧ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٩٢٢ ، ج ٧ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٩٢٣ ، ج ٧ .

(٤) فردوسي : شاهنامه ، ص ٢١٩٤ ، ج ٧ .

(٥) فردوسي : شاهنامه ، ص ٢٣١٤ - ٢٣١٥ ، ج ٨ .

ونظراً لجمال أصفهان كان ملوك الفرس يفضلونها علي سائر بلدان مملكتهم لما تتميز به من طيب هوائها ، وعذوبة مائها ، ونسيم تربتها[1].

ويذكر الفردوسي أن « هرمزد بن كسري أنو شروان » كان يقضي ثلاثة أشهر الخريف فيها ليستمتع بهوائها الجميل ، وأماكنها العظيمة[2].

وكان الملوك يؤثرون أهل أصفهان لخدمتهم لما عرف عنهم من شجاعة وبأس فيروي أن « أردشير بن بابكان » لم يستطع أن ينتصر علي ملوك الأرض إلا بنجدة أهل أصفهان له [3] .

وكان « أنو شروان » يفضل جند أصفهان علي جند الأرض أجمعين[4].

ويذكر أنه في عهد « كسري أبرويز » كان في جملة خدمته ثلاثمائة وثلاث وسبعين رجلاً منهم مائتان وثلاثون رجلاً أصفهانياً ، ولم يؤهل لحفظ الراية « درفش كاويان » سوي أهل أصفهان [5] .

---

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٣٤ .
(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ٥٧٩ ، ج ٨ .
(٣) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤١ .
(٤) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤٢ .
(٥) المافروخي : ص ٤٠ .

وكان « أبرويز » يقول : « لا يتم أمرنا إلا بمعونة أهل أصفهان »[1].

وعلي أية حال ظلت أصفهان إقليماً خاضعاً لملوك « آل ساسان » إلي أن فتحها المسلمون في عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » - رضي الله عنه - .

أصفهان ولاية إسلامية :

لا خلاف في أن فتح المسلمين لأصفهان كان في خلافة أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، ولكن الاختلاف بين المؤرخين حول تاريخ دخول المسلمين أصفهان وفتحهم لها . فإن مدرسة الكوفة التاريخية تري أنها فتحت عام ١٩ هـ التاسع عشر الهجري ، عندما اتجه عبد الله بن عتبان إلي « جي » وكان يحكمها «باذوسبان» أحد حكام الدولة الفارسية وبعد عدة وقائع حربية اضطر حاكمها إلي التسليم راضياً بدفع الخراج [2] .

ويذكر الطبري أنها فتحت في العام ٢١ هـ الحادي والعشرين من الهجرة ، بعد موافقة « عبد الله » علي مبارزة « الفاذوسفان » حاكم أصفهان ثم دخل « عبد الله » و « أبي موسي » « جي » مدينة أصفهان وكتب بذلك إلي أمير المؤمنين فاستخلف عليها السائب بن الأقرع[3].

---

(١) المافروخي : ص ٤٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مادة أصفهان ، ص ٤٧١ ، ج ٣ ، ط الشعب

(٣) الطبري : تاريخ : حوادث ، ٢١ هـ ، ص ١٤ ، ١٤١ ، ج ٤ .

وهذا وتري مدرسة [1] البصرة أن فتحها كان علي يد « أبي موسي الأشعري » وعبد الله بن بديل في بعض سنة ٢٣ هـ و ٢٤ هـ .

ويذكر « أبو نعيم » أن فتحها كان آخر سنة عشرين وقيل إحدي وعشرين من الهجرة [2] .

ويبدو أن السبب في هذا الاختلاف يرجع إلي كثرة الأحداث قبل أن يتم الفتح لأصفهان وكأن المؤرخين خلطوا بين بداية توجه المسلمين إلي أصفهان وبين إتمام فتح أصفهان ولعل أرجح هذه الآراء هو ماذهب إليه «الطبري» وهو أن فتح أصفهان تم في عام ٢١ هـ ، وذلك لأن تسلسل الأحداث التاريخية في الفتوح الإسلامية يجعل ذلك أقرب إلي الواقع .

وعلي أية حال أصبحت أصفهان ولاية إسلامية بعد أن فتحت صلحاً علي أن يؤدي أهلها الخراج والجزية ، وصارت خاضعة لأحكام الخلافة الإسلامية في عهد « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه .

وجاء في كتاب صلح أصفهان : « بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد الله للفسادوسفان وأهل أصبهان وحواليها انكم آمنون ما أديتم الجزية وعليكم من الجزية علي قدر طاقتكم علي كل سنة تؤدونها إلي الذي يلي بلادكم علي كل حالم ودلالة المسلم وإصلاح طريقة وقراه يومه

---

(١) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ ، ط ليدن ، ١٣٠٢ هـ .
البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٢١ ، ط شركة طبع الكتب العربية ، ١٣١٧ هـ - ١٩٠٠م .

(٢) أبو نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٧ ، ج ١ .

(٣) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، ط ليدن ، ١٩٣١ م .

وعادت لقوحا أصبهان بأســـرها تدر لنـــا منها القري والدراهم

واني علي عمد قبلت جزاءهـــم غداة تفـــادوا والفجاج قواتم

ليزكو لنا عند الحروب جهـــادنا إذا انتطحت في النخلتين الهماهم[1]

ويتضح في هذه الأبيات اعتزاز « عبد الله » ، وفخره بهذا الفوز العظيم الذي حققه جيش المسلمين تحت قيادته ، مشيراً إلي المبارزة الشهيرة التي كانت بينه وبين « الفاذوسفان » حاكم أصفهان في ذلك الوقت ، والتي هزم فيها « الفاذوسفان » وكان من نتائجها قبول دفع الجزية ، وفتح أصفهان صلحاً .

وقد جعل أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » « السائب بن الأقرع » والياً علي أصفهان وظل في منصبه هذا حتى عهد « عثمان بن عفان » [2] – رضى الله عنهما – ثم أخذ يليها الولاة من قبل الخلفاء .

ففي عهد « علي بن أبي طالب » – كرم الله وجه – وليها «يزيد بن قيس » [3] ثم جاء بعده « عمر بن سلمة » [4] والياً عليها.

وكان مسجد خشينان – الذي بنـــاه « أبو خناس » مولي «عمر ابن الخطاب» – أول مسجد كبير يبني بأصفهان في خلافة « علي بن أبي طالب» – رضي الله عنهما – [5].

---

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ص ١٤٧ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٣٤ هـ – ط بيروت ، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥م .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ٣٢٨ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٣٧ هـ .

(٤) نفس المصدر : ص ٣٩٩ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٥) أبو نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار من أصفهان ، ص ١٧ ، ج ١ .

وليلته وحملان الراجل إلي مرحلة ولا تسلطوا علي مسلم وللمسلمين نصحكم وأداء ماعليكم ولكم الأمان مافعلتم فإذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم لم تسلموه فلا أمان لكم ومن سب مسلماً بلغ منه فإن ضربه قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله »[1] . وقال عبد الله في فتح أصفهان :

ألم تسمع وقد أودي ذميـــــــما بمنعرج السراة مـــن أصبهـان

عميـد القـــوم إذا ساروا إلينا بشيخ غير مسترضي العنـان

فساجلني وكـــنت به كفـــيلا فلم يثبت وخر علي الجـــران

برستاق له يدعـــي إليـــــه طـــوال الدهر في عقب الزمان

نزلت به وقد شرقـت ذيـــولي بمعضـــلة من الحـــرب العوان

وكنت زعيمـــها حتـــي تراخت ولم يعني بهـــا أحد مكاني[2]

وقال أيضاً في يوم « جي » :

من مبلغ الأحياء عـــني فانني نزلت علي جي وفيها تفاقـــم

حصرناهم حتي سروا ثمت انتزوا فصدهم عنا القنا والقواصـــم

وجاد لها الفاذوسفان بنفســـه وقد دهدهت بين الصفوف الجماجم

فبارزته حتي إذا ما علوتـــه تفادي وقد صارت الينا الخزائـم

---

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، ط ليدن ، ١٩٣١ م .

(٢) نفس المصدر : ونفس الصفحة .

ويعتبر « سعد بن اياس » أول من كتب بالعربية في ديوان أصفهان، وأول من علم الناس القرآن من أهل أصفهان ويقال : «إنه استقر المسلمون بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم ممن يحفظ القرآن إلا ثلاثة فلم يحل الحول حتي تعلم عامة الناس القرآن وحفظوه»[١].

وفي أيام الخليفة « مروان بن الحكم » تولي « الهذيل بن قيس العنبري» أصفهان ، ومنذ ذلك الوقت صار العنبريون ولاة عليها [٢].

وكانت أصفهان مطمعاً للولاة في عهد « عبد الملك بن مروان » حتي أن كل من كاتبه رغب في إمرة أصفهان حتي قال الخليفة «أي شئ هذه أصبهان حتي كلهم يطلبهـــا » [٣] . ولم يف لأحد شرط عليه ذلك[٤].

وكان « عتاب بن ورقاء » ممن حظوا بولاية أصفهان في عهد «عبد الملك بن مروان » [٥] .

---

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٩٧ ، ط ليدن ، ابريل ١٨٩١ م .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٢١ .
(٣) ابن الأثير : تاريخ : ص ٣٢٥ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧١ هـ .
(٤) ابن الأثير : تاريخ : ص ٣٣١ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧١ هـ .
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ، ص ٣٢٦ ، ج ١ ، الخانجي بمصر والمثني بغداد ، ١٣٨٠هـ.

ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يعني بتولية حاكم أصفهان في هذه الفترة حيث كان البراءة بن قبيصة عاملاً علي أصفهان من قبل الحجاج [1] .

ويخبرنا صاحب فارس نامه [2] أن الحجاج كان قد أرسل «محمد ابن يوسف» والياً علي شيراز و أصفهان .

وفي أيام « هشام بن عبد الملك » نزل « أبو دلف القاسم بن عيسي بن ادريس » الكرج وسيطر عليها وبني حصناً قوياً فيها ، ولما ازداد نفوذه وعظم شأنه عند الخليفة كبر هذا الحصن وزاد فيه وسماه «الكرج» فقيل كرج أبي دلف ، وصارت الكرج مصراً من الأمصار وكانت فيما سبق رستاقاً تابعاً لأصفهان ، فأصبحت اليوم منفصلة بذاتها وتسمي «الإيغارين» [3] .

وهكذا استمرت « أصفهان » ولاية إسلامية تخضع لسلطان الخلفاء ضمن الأقاليم الفارسية التي خضعت للخلافة الإسلامية في بغداد قرابة ثلاثة قرون ، وصار تاريخ أصفهان توأماً لتاريخ بغداد [4].

وفي هذه الفترة شهدت أصفهان تطورات كبيرة بعضها يتعلق بالعمران والبناء وبعضها يرتبط بسياسة الدولة الإسلامية ، وهي في

---

(١) الطبري : تاريخ : ص ٢٩٤ ، ج ٦ حوادث سنة ٧٧ هـ .
ابن الأثير : تاريخ ك ص ٤٣٥ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧٧ هـ .
(٢) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ١٣٢ .
(٣) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ .
(٤) أصفهان : حسين نور صادق ، ص ٦ .

أوج قوتها وازدهارها ، أو في عصر ضعفها وانحلالها ، ومايترتب علي ذلك من أحداث .

فقد كان العرب في زمن العجليين من قبيلة تيم قد سكنوا أطراف أصفهان ، وتولوا الرئاسة والسلطة عليها ، وشيدوا الأحياء والمباني.

وفي الوقت الذي قرر فيه مرداويج التوجه إلي أصفهان ، بني «آل أبي دلف» العمارات العالية والقصور علي غرار مثيلاتها في الكرج خارج مدينتهم من بقاع أصفهان ، وبذلك اتسعت مدينة أصفهان ، ويذكر المؤرخون أنه اتسع ملكها بحيث كان في شمالها كاشان وقم وجزء من أصفهان وتنتهي في الري ، وضمت من جهة الغرب «الكرج» و « جايلق » و « بربرود » وتنتهي « بهمذان » ، ومن الجنوب كانت «ايزدخواست» جزءاً منها وتنتهي بفارس ، أما من ناحية الشرق فكانت تنتهي بيزد التي هي جزء من فارس [1] . وفي سنة ١٥٢ هـ كان الخليفة العباسي « أبو جعفر المنصور » قد أصابه مرض ، ولم يكن جو بغداد وهواؤها مناسباً له ، فجمع حكماء عصره ووزراء مملكته وطلب منهم أن يبحثوا له عن مكان أصح من بغداد هواء ، وأعذب ماء كي يشيدوا فيه بناء ينتقل إليه ويعيش فيه ، فتفاوضوا وأجمعوا علي بناء قصر للخليفة بجوار « زندروز » [2] . وأن يبني سور حول أصفهان

---

(١) حسين صادقي : أصفهان ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) « زندروذ » : اسم نهر عظيم يجري بأصفهان ، ويقال له بالفارسية « زرينه رود » أي نهر الذهب ، و « زنده رودي » النهر العظيم فعربوا الأولي وقالوا «زرنروذ» والثانية فقالوا «زندروذ» ، وقيل «زندروذ» معرب «زنده رود» أي النهر الحي ووجوه التسمية =

فأمر الخليفة بمخاطبة « أيوب بن زيار » عامله على أصفهان بتنفيذ ذلك، فشيد قصراً وبني مسجداً ولكن الخليفة عدل عن هذه الفكرة عندما تحسنت صحته في الوقت الذي أرشك فيه « أيوب » من إتمام البناء[1].

وفي خلافة المعتصم دخل كثير من أهل أصفهان في دين الخرمية ضمن أهل الجبل وهمذان وماسبذان وغيرها ، وعسكروا في همذان فأرسل إليهم الخليفة جنداً بقيادة « اسحاق بن ابراهيم بن مصعب » فأوقع بهم في أعمال همذان ، وقتل منهم ستين ألفاً ، وفر الباقون إلى الروم[2] .

وفي هذه الفترة اتسعت أصفهان حيث أضيف إليها خمس عشرة قرية ، وأعيد بناء المسجد في سنة ست وعشرين ومائتين[3] .

وبذلك أخذت أصفهان تزداد اتساعاً ، وعمراناً حتى كثرت رساتيقها[4]، بحيث اختلف المؤرخون في عددها .

= مختلفة أما على الأولى وهي « زرينه رود » لأن أهالي أصفهان يزرعون بمائه النخلات ويبيعونها في سائر البلاد ويأخذون الذهب عوضاً لمحصولاتهم وكأن « زرينه رود » يعطيهم الذهب وعلى الثانية لأنه نهر عظيم ، وعلى الثالثة لأنه لاينقطع أبداً بل يجري في أيام السنة فكأنه حي ، والزنده في اللغة الفارسية معنيان : الحي والعظيم ، ويقول بعضهم ان اسمه « زاينده رود » أي النهر النابع لأن ماءه ينبع .

(١) المافروخي الأصفهاني : كتاب محاسن أصفهان ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٤٤١ ، ج ٦ ، حوادث سنة ٢١٨ هـ .

(٣) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨٤ .

أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٧ .

(٤) رساتيق : جمع « رستاق » والرستاق هو «الرزداق» و «الرسداق» و «الرزتاق» وهو لفظ فارسي معرب يعني السواد وموضع فيه مزدرع ، وقرى أو بيوت مجتمعة .

(انظر : الجواليقي) : المعرب ، ص ٢٠٦ ، ط دار الكتب ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .

فصاحب معجم البلدان يذكر أن أصفهان تشتمل علي ستة عشر رستاقاً [1] . بينما يذكر ابن خرداذبه والهمذاني أن عدد رساتيق أصفهان سبعة عشر رستاقاً [2] . أما « ابن رسته » فيخالف ذلك ويذكر أن عدد رساتيق أصفهان يبلغ عشرين رستاقاً وهي : « جي » وهو القصبة وبه مدينتها وأسواقها ومجمع أهلها ومعانيه التي يفضل بها علي سائر الرساتيق كثيرة أولها أن الذي جعله القصبة ، وبني به مدينته وهو يملك البلد كله لم يفعل ذلك إلا وهو أصح المواضع التي به تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء واجمعها للخلال التي يصلح بها لأن يكون مسكن الملوك والرعية .

والآخر « ماربين » وهو متصل برستاق « جي » ومن طيبه ونزهته أن بعض الأكاسرة القدماء ويقال أنه كيقاوس اجتاز به واستطابه وأمر فبني له علي قبة فيه تطل علي وادي الزرينرود تلعة منيعة عظيمة الشأن إذا علاها الرجل أشرف علي جميع الرستاق فلما ملك «بهمن بن اسفنديار» قد كان الدهر عمل في القلعة وأحرقها فبني دونها حصناً نصب فيه بيت نار وهو باق إلي هذا الوقت والنار أيضاً باقية فيه .

ومنها « الأنجان » وهو أوسعها رقعة وأكثرها نزهة وأغزرها ماء وأزكاها هواء وأكثرها أشجاراً وأطيبها ثماراً وبه كان يسكن أكثر

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ج ١ .

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٧٦ - الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص٣٦٣.

الأشراف الذين كانوا ينزلون الأطراف ومنازلهم به قائمة وآثارهم باقية وهي علي جلالتهم وسعة نعمتهم دالة .

ومنها « براآن » و « طرج الروذ » و « رويدشت » وبه يعمل البسط التي لا ترتفع عن فرشها واستعمالها الرؤساء والأجلة ولاتستكثر للأوساط والسوقة مشهورة في الآفاق حسنها وجودة صنعتها وبقائها وان استعملت مع الأرمني الفاخر من الفرس حسنت معه وان بسطت وحدها اجتزي بها وكان يعمل به الستور المرتفعة التي تفوق الموصلية والواسطية حسناً وجودة بقاء .

ومنها « اردستان » في ضياعها ضيعة يقال لها اردستان وباسمها سمي الرستاق لجلالتها ونفاستها وبها كان مولد « كسري أنو شروان » ومنها حمل إلي دار المملكة فملك وكان يختلف معه إلي كتابة ثمانين صبياً من أهل هذه القرية فلما ملك حملهم إلي حضرته ووصلهم وأكرمهم وأمر فبني لكل واحد منهم قصر يسكنه علي ضن الملوك كان في ذلك العصر بإطلاق البنايات الفاخرة إلا لمن يستحق ذلك بحال من أحواله ثم إذا أطلق لم يجسر الباني علي تجاوز المقدار الذي حدد له الطول والعرض والارتفاع وتلك القصور باقية إلي هذا الوقت يفتخر بها أعقابهم .

ومنها « برزاوند » و « برخوار » و « جرمقاسان » و «صردقاسان» و « الران » و « الثيمرة الكبري » و «الثيمرة الصغري» و « الخيز من انار » و « الران » و « فريدين » و «كروان» و «قهستان» و « القمدان » .

ويشتمل كل رستاق علي ضياع كثيرة يزيد جملة جميعها علي ألفين وثلاثمائة قرية .

وليس هناك وصف أبلغ من وصف المافروخي لهذه الرساتيق في قوله : « أكثر هذه الرساتيق ضياع وصحار فاهقة الأنهار ، وأثيثة الأشجار ، كثيرة الثمار متكاملة الدخل ، متكانفة الأهل لايعدم المضطرب في سعت منها غصناً أملوداً ، وظلاً ممدوداً ومقاماً مشهوداً ، وأرضاً مفروشة من السندس والاستبرق بضروب من المنور والمورق ..... قد أوسعت تغشية وتفنيقاً وتوشية وتنميقاً ، تحاكي بترابها العبيد ، وتباري بحصبائها اللؤلؤ النثير ، وتشاكه بأنورها الديباج والحرير ، كأنها غارت علي الغواني فانتبهت من خزائنهن الأسفاط ، وقطعت من ترابيهن الأسماط ، وأغارت علي الزازين فابتزتهم علائق التخوت وتفائس الدستوت تشم نسيماً معطراً ، وتجلو بسيطاً محبراً [1] .

وكان لأصفهان سور فيه مائة برج ، وأربعة أبواب في أربعة مواضع من السور أحدها باب خور وتفسير خور « الشمس » وباب ماه وتفسيره ماه «القمر» ويسمي هذا الباب باب أسفيس ، والباب الثالث تيريره ومعناه باب عطارد ، وهو المعروف بباب تيره ، والباب الرابع باب كوش بر وهو المعروف بباب اليهودية .

وصنعت هذه الأبواب بدقة هندسية بحيث « إذا حلت الشمس درجة من الجدي تطلع في باب خوره وتغرب في باب اليهودية ، وإذا

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤٩ .

حلت الشمس أول درجة من السرطان طلعت في باب أسفيس وتغرب في تيره »[1] .

وفي سنة ٢٣٥ هـ عقد الخليفة المتوكل البيعة لبنيه بولاية العهد وكانت أصفهان ضمن إقطاعات ابنه « محمد » الملقب «المنتصر بالله»[2] .

ونظراً لوفرة خيرات ضياع أصفهان اشتد الصراع حولها مما أدي إلي مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، وذلك لأنه « أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصفهان والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان»[3].

أصفهان في عصر الدويلات :

ومع ضعف الخلافة العباسية وازدياد نفوذ العنصرية الإيرانية ، وظهور شخصيات أعجمية فارسية أو تركية تسعي لبسط نفوذها علي الولايات الإيرانية وتشجع علي إحياء القومية الفارسية ، ظهرت بعض الدويلات كالدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والزيارية والبويهية والغزنية والسلجوقية أثبتت وجودها علي الساحة السياسية ، وفرضت سيطرتها علي الأقاليم الفارسية واستطاعت أن تقوض نفوذ الخلافة العباسية ، وتسهم وتشجع علي إحياء القومية الإيرانية .

---

(١) ابن نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٥ .
ابن رسته : الأعلاق النفسية ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ : ص ٤٩ ، ج ٧ ، حوادث ، سنة ٢٣٥ هـ .

(٣) الطبري : تاريخ : ص ٢٢٢ ، ج ٩ ، حوادث ، سنة ٢٤٧ هـ .

مما أسفر عن ظهور شخصيات قوية لها طموحات ومطامع سياسية أخذت تساند هذا التيار القومي ، وتدخل في غمار الصراع الدائر من أجل السلطة ، وفرض السيطرة علي الأقاليم والولايات الإيرانية التي تخضع للخلافة العباسية .

ولما كانت أصفهان واحدة من المدن الفارسية العريقة التي شهدت أحداثاً جساماً قبل وبعد الإسلام كان لابد أن تعتريها يد هذا الصراع في عصر الدويلات الإيرانية .

وكان « طاهر ذو اليمنيين » أول هذه الشخصيات الإيرانية التي حاولت الاستقلال فبعد أن كان قائداً لجيش الخليفة المأمون أصبح حاكماً علي خراسان ، ثم اتخذ نيسابور عاصمة لملكه ثم أصبح هذا المنصب وراثياً لابنيه وحفيده وابن حفيده ، وعرف حكام هذه الدولة باسم الطاهريين وحكموا (١٩٥ - ٢٦٠ هـ) [١] .

وكانت شخصية « يعقوب بن الليث الصفاري » هي الشخصية القوية التالية التي ظهرت في إيران ، وكان ذا طموح عال فبعد أن كان نحاساً وقاطعاً من قطاع الطرق أصبح والياً علي خراسان من قبل الطاهريين ولكنه سرعان ما أسقط دويلتهم ، وبسط نفوذه علي كرمان وفارس وأصفهان ، ولم يقنع بذلك بل حاول دخول بغداد ولكنه فشل ، وتوفي « ٢٦٥ هـ » [٢] .

---

(١) دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها : الترجمة العربية : عبد النعيم حسنين - إبراهيم الشواربي ، ص ٥١ ، ط القاهرة ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨م .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٢٥ ، ج ٧ ، حوادث ، سنة ٢٦٥ هـ .

ولما مات « يعقوب » أسرع أخوه عمرو بن ليث بإظهاره الطاعة والولاء للخليفة الموفق فحول إليه إمارة خراسان وفارس وأصفهان وسيستان والسند وكربان [١] .

وبذلك أصبحت أصفهان ضمن الولايات التابعة لسلطانه ففوض حكمها إلي « أحمد بن عبد العزيز » [٢] .

وفي سنة ٣١٦ هـ انتقلت أصفهان إلي حكم آل زيار وذلك بعد أن دخل « مردايج بن زيار » في حرب مع حاكمها «المظفر بن ياقوت» من قبل الخليفة العباسي « المقتدر بالله » - واستطاع « مردايج » أن يقهر «المظفر» ، ويستولي علي أصفهان .

وسار « مردايج » سيرة سيئة مع أهل أصفهان حيث أخذ أموالهم وهتك محارمهم وطغي واستكبر وبالغ في بناء ملكه ومظاهر عرشه فارتدي تاجاً مرصعاً وجلس علي سرير من ذهب وكان كبار قواده يجلسون علي سرير من فضة وعند جلوسه علي عرشه يقف العساكر صفوفاً بالبعد عنه وحجب نفسه فكان لايخاطب أحداً ، وخصص الحجاب لمخاطبة الناس فخافوه خوفاً شديداً وكأنه بذلك أحيا ملك الدولة الساسانية وطبق مراسم الملك التي كانت تتبع في قصور الأكاسرة[٣].

---

(١) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٧٠ ، ط إقبال .

(٢) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٦٦ ، ط إقبال .

(٣) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٧٩ .

وقد حرص « مردايج » أيضاً علي إحياء العادات والتقاليد الإيرانية إبان فترة حكمه ، مما يذكر في ذلك أنه في سنة ٣٢٣ هـ أقام حفلاً كبيراً علي نهر « زرين رود » قرب أصفهان وكان في هذا الحفل إحياء للعادات الفارسية في كل مكان بالوادي في وقت واحد وجعل في مجلسه الخاص تماثيل من الشمع ، وعمل له سماط كبير في الصحراء ، وجمع فيه آلاف كثيرة من الحيوانات والبقر والغنم ، ودعي الناس دعوة عامة إلي هذا الاحتفال [١] .

وكان للأتراك دور كبير في إعداد هذا الاحتفال رغبة في قتل «مرداويج» فمازالوا يخدعون حراسه حتي سنحت لهم الفرصة وقتلوه في الحمام ، وقام وزيره « الحسن بن العميد » بنقله من أصفهان إلي الري حيث تم دفنه [٢] .

وقد سعد أهل أصفهان بمقتل مرداويج لظلمه وجبروته ، وتخريبه لديارهم ، وعبر الشعراء عن فرحتهم الغامرة بذلك الحدث ومما يذكر في هذا الصدد :

علت أصفهان الأرض فضلاً مبيناً علي كل صقع والطوائف تشهد

---

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٢٩٨ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٣ هـ .
آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ٢٨٨ ، ج ٢ ، الترجمة العربية لأبي ريده ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان .
جشن سده : ص ٢١ ، ٢٢ ، ط طهران ، ١٣٢٤ هـ .

(٢) مجمل التواريخ والقصص : ص ٣٨٩ ، عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩٨٠.
حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ٨ .

ومن فضلها أن الخليل دعـــا لها عليه السلام مادعا متهجـــــد

فصرنا به في ظل عزّ ومعقـــــل حصين أمين الركن ليس يهدهـد

فمن يبغها غياً غوائـــل ينتكس وأورطـــه الأمر الذي كان يقصد

ولما يئسنا من تولي أمورنـــــا ولا يأس من روح الذي نحن نعبد

تجرد في الحمام يطلب راحـــــة وغلمتـــــــه في قتله قد تجردوا

فعاجله التركـــــــــي لله دره بمشقصة والغرب منها محـــــدد

وقال شاعر آخر :

جعل الله أصفهـــان قـــــــديماً في حمي دعـــــوة الخليل أبينا

فهي شوم علي الظـــلوم فـتوك بالطغاة الخوارج المعتـــــــــدينا

من بغي أهلها الغوائل والسـو ء أذاقته في الهـــوان المنونا[1]

وهذه الأبيات السابقة لخير تعبير يصور لنا مدي فرحة الناس بمقتل مرداويج ، وقوة شعورهم بأن أصفهان أرض مباركة يحميها الله عز وجل ويحفظها برعايته منذ دعوة الخليل لها ، وهي مصدر شؤم وشقاء علي كل باغ أو معتد يريدها بسوء .

وفي هذه الفترة عاشت أصفهان فترة من الصراع والحرب نشأت بين الزياريين والبويهيين فبعد مقتل « مرداويج بن زيار » خضعت أصفهان لحكم أخيه « وشمكير بن زيار » ولكن ركن الدولة « أبا علي

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٣٦ .

الحسن بن بويه » توجه لمحاربته علي رأس جيش كبير ، وبذلك صارت أصفهان في يد ركن الدولة « ابن بويه » ويد « وشمكير » أخي «مرداويج» يتنازعان عليها [1] .

وحرص البويهيون علي إحراز انتصار في أصفهان فأرسل معز الدولة « أبو الحسن أحمد بن بويه » عسكره إلي أخيه ركن الدولة بأصفهان معونة له ومدداً علي حرب « وشمكير » [2] .

فتمكن « أبو الحسن بن بويه » من إحكام سيطرته علي أصفهان ولكن مالبث أن يستقر البويهيون حتي أرسل «وشمكير بن زيار» جيشاً كثيفاً من الري إلي أصفهان فأزال بني بويه عنها واستولي عليها وخطب فيها لـ «وشمكير» ، ثم سار ركن الدولة إلي بلاد فارس ونزل بظاهر اصطخر بينما سار « وشمكير » إلي قلعة « الموت » فملكها [3] .

وفي سنة ٣٢٨ هـ عاد ركن الدولة واستولي علي أصفهان وأخرج عنها أصحاب « وشمكير » فقتل بعضهم وأسر بعضهم ، وكان سبب ذلك أن « وشمكير » كان قد أنفذ عسكره إلي «ماكان» نجدة لـه فخلت بلاد «وشمكير» من العساكر ، وسار ركن الدولة إلي أصفهان وبها نفر يسير من العساكر فهزمهم واستولي عليها ، وكان هو وأخوه

---

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٢٣ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٤٢ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٦ هـ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٧ هـ .

عماد الدولة أبو علي بن محتاج بحرضانه علي «ماكان» و «وشمكير»، وبعدانه المساعدة عليهما ، فصار بينهم بذلك مودة [1] .

وفي سنة ٣٤٤ هـ خرج عسكر خراسان بقيادة « محمد بن ماكان» إلي أصفهان فدخلوها ، وكان بها « الأمير أبو منصور بويه » بن ركن الدولة ، فلما علم بقدومهم خرج عن أصفهان بالخزائن فأخذها وحرم أبيه ثم خرج « ابن ماكان » من أصفهان طالباً ابن بويه حتي أدرك الخزائن فأخذها وسار في أثره ، ومصادفة اتصل في ذلك الوقت الأستاذ «أبو الفضل بن العميد » وركن الدولة فعارض « ابن ماكان» وقاتله ، ولكن الهزيمة لحقت أصحاب ابن العميد ، واشتغل أصحاب «ابن ماكان» بالنهب .

وبقي « ابن العميد » وحده حتي لحق به نفر من أصحابه ، ووقفوا معه ، وأتاهم غيرهم فاجتمعوا وحملوا علي الخراسانيين وهم مشغلون بالنهب وألحقوا بهم الهزيمة فكانوا بين قتيل وأسير وأسر «ابن ماكان» وأحضر عند ابن العميد ، واتجه « ابن العميد » إلي أصفهان فأخرج من كان بها من أصحاب «ماكان» وأعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلي أصفهان واستنقذ أمواله [2] .

وكان أبو الفتح بن العميد وزير ركن الدولة قد علا شأنه بحيث يتدخل في معالجة مايحدث من خلافات بين ركن الدولة وابنه عضد

---

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٦٩ ، ٣٦١ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٥١١ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٤٤ هـ .
كَرديزي : تاريخ كَرديزي يازين الأخبار ، ص ٣٠ ، ط تهران ، ١٣٢٧ هـ . ش .

الدولة ، وكان يبذل جهداً كبيراً في هذا الصدد حتي أنه في آخر أيام ركن الدولة – عندما اشتد عليه المرض ولزم الفراش – رتب أبو الفتح لقاء بمنزله في أصفهان حضره ركن الدولة وأولاده ، وتم في هذا الاجتماع تقسيم الولايات التابعة له بين أبنائه ، وأمر فخر الدولة ومؤيد الدولة بتنفيذ أوامر أخيهم عضد الدولة ، والإذعان له بالولاء والطاعة[1].

وظلت أصفهان خاضعة للبويهيين ، واتخذها عضد الدولة – الذي كان من أبرز شخصيات بني بويه – عاصمة لملكه [2] . وكانت أصفهان في ذلك العهد مركزاً من المراكز المشهورة في العلم والأدب نتيجة لتوجه أمراء آل بويه ووزرائهم إليها [3] ، وعلي الرغم من الأصل الفارسي للبويهيين نال الأدب العربي واللسان العربي والعلوم العربية التشجيع في ذلك العصر حتي « كان ممن نبغ من العملاء والأدباء والفلاسفة في عهدهم من يعد بحق فخر المملكة الإسلامية في العصور المختلفة » [4] . وكان عضد الدولة يشجع النهضة العلمية والأدبية بنفسه وكانت تقام في مجلسه المناظرات [5] .

---

(١) غياث الدين بن همام المعروف بخواندمير : دستور وزراء ، ص ١١٧ ، ط تهران ، ١٣١٧ هـ . ش .

(٢) دونالدولبر : إيران ماضيها وحاضرها ، ص ٥٤ .

(٣) ذبيح الله صفا : تاريخ علوم عقلي در قدن إسلامي تا أواسط قرن ينجم : ص ١٥٤ ، ج١، ط داتشكاه تهران ، ١٣٤٦ هـ .

(٤) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ص ٢١٧ ، ج ١ ، ط النهضة المصرية ، ١٩٧٨م.

وإلي جانب الاهتمام بالنهضة العلمية والأدبية اعتني الصاحب بن عباد وزير البويهيين بالجانب العمراني في أصفهان ، ويعتبر جامع جورجير من أعظم المباني التي شيدت في هذا العصر ، ويصف «المافروخي» هذا الجامع في معرض حديثه عن محاسن أصفهان فيقول: « والجامع الحديث الصغير المشهور بجورجير الذي بناه الصاحب كافي الكفاة وقد أوتي فضلاً علي الجامع الأكبر في صلابة الأطيان وارتفاع المكان واستحكام البنيان والمنارة التي أجمع المهندسون علي أنه لم يبن في العالم أرشق منها قداً وأتم مداً وأدق عملاً وأحكم تفصيلاً وجملاً . قد تأنق في إبداعها الصانع وتنوق ولطف في بنائها ودقق . اتخذها من اللبن والطين في قرار مكين قيدت قاعدتها من الأرض بقفيز وشيدت قائمتها إلي جزر حريز ارتفاعها مائة ذراع وسطحها باع في باع ، وفي كل ماعددته وسردته من المساجد والخانكاهات ودار الكتب للفقهاء مدارس ، وللأدباء مجالس وللشعراء مواسم ومآنس ، وللمتصوفة والقراء محابس»[1] . وبذلك صارت أصفهان من المدن المتميزة في هذا العصر فكانت كورة نفيسة كما وصفها صاحب أحسن التقاسيم [2] .

وعلي أية حال لم تدم أصفهان في أيدي البويهيين فبعد وفاة عضد الدولة أخذت الدولة طريقها نحو الإنهيار مما أثار الطمع في الاستيلاء عليها لدي حكام الأقاليم ، والراغبين في توسيع ممالكهم وبخاصة الغزنيون [3] .

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٤

(٣) دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها ، ص ٥٤

فقد استطاع علاء الدولة أبو جعفر كاكويه أن يفرض سيطرته ونفوذه علي أصفهان بعد أن أحكم حصاره عليها [1] .

ومع بزوغ نجم الغزنيين ، وعلو نفوذهم ، واتساع ملكهم في إيران أظهر علاء الدولة أبو جعفر كاكويه الطاعة والولاء لهم حتي يبقوه حاكماً علي أصفهان [2] .

فأقام الغزنيون في أصفهان ، وخاصة ولي العهد الأمير مسعود الغزني الذي أصبح حاكماً لأصفهان بعد أن استولي عليها وعزل عنها علاء الدولة أبا جعفر كاكويه ، ولما توفي السلطان محمود الغزني تولي حكم الدولة الغزنية ابنه السلطان مسعود [3] .

وأرسل إليه أمير المؤمنين « القادر بالله » خطاباً يشفع فيه لعلاء الدولة أبي جعفر كاكويه ويطلب إعادة أصفهان إليه علي أن يكون نائباً للسلطان مسعود عليها ، ويقدم كل مايفرض عليه من مال ضماناً لحسن سيرته وولائه للسلطان ، وقبل السلطان مسعود كتاب أمير المؤمنين وأرسل إليه رسولاً وكتاباً يتضمن قبوله شفاعة أمير المؤمنين وامتنانه بذلك لأن أمير المؤمنين من حقه أن يأمر لايطلب الشفاعة ، وعلي العبيد الالتزام والطاعة ، ويعرب فيه عن جدارة علاء الدولة بحكم أصفهان

---

(١) حسين صادقي : أصفهان ، ص ٨ .

(٢) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩١ .

(٣) كَرديزي : تاريخ كَرديزي يازين الأخبار ، ص ٧٢ .
حسين صادقي : أصفهان ، ص ٩ .

خليفة له ، وذلك لأنه أصبح مشغولاً بتدبير شئون الدولة الغزنية بعد وفاة والده [١] ، فتم الاتفاق علي أن يكون علاء الدولة بن كاكويه خليفة للأمير مسعود علي أصفهان أثناء تغيبه عنها ، وأن يؤدي كل عام مائتي دينار هروي ، وعشرة آلاف ثوب من المنسوجات المنتجة في تلك البلاد ، علاوة علي هدايا أعياد النوروز والمهرجان من خيول عربية، وبغال مسرجة ، وجميع آلات السفر [٢] .

هذا وقد وصل كتاب أمير المؤمنين « القادر بالله » متضمناً التعازي بوفاة السلطان محمود ، والتهاني للسلطان مسعود بإقراره علي حكم ولايات الري والجبل وأصفهان ، فسعد الأمير مسعود بهذه الرسالة وأمر أن تقرأ علي ملأ من الناس ، وأن تنفخ الأبواق ، وتدق الطبول استبشاراً بها وأن تنسخ صوراً من هذه الرسالة وترسل إلي أصفهان وطارم ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة حتي يعلم الناس أنه خليفة أمير المؤمنين وولي عهد أبيه [٣] .

وبذلك عادت أصفهان لحكم علاء الدولة بن كاكويه ، واستمر حاكماً عليها من قبل الغزنيين حتي وفاته سنة ٤٣٣ هـ [٤]. وكانت مدة حكمه عليها قد بلغت نيفاً وأربعين عاماً [٥] .

---

(١) بيهقي : تاريخ بيهقي باهتمام غني وفياض ، ص ١٥ ، ط تهران ، ١٣٢٤ هـ .

(٢) بيهقي : تاريخ بيهقي ، ص ١٦ .

(٣) بيهقي : تاريخ بيهقي ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٤) عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران أز صدر إسلام تا انقراض قاجارية ، ص٣١١، ط كتابخانه خيام

(٥) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ١٠٠

ومن الآثار العمرانية التي تركها ذلك السور العظيم الذي بناه حول أصفهان فجعل أرضها متميزة به ، ومتفردة بحسنه ويصف المافروخي روعة بنيان هذا السور فيقول : « ومن المحاسن التي تفردت رقعتها بمزاياها وتخصصت خطتها بصفاياها ، السور الذي استحدثه علاء الدولة حول البلدة وهو زهاء خمسة عشر ألف خطوة سوي ما أهمله خارجاً عنها وعطله منقطعاً منها ، من المحال المشهورة مثل كما آن وبرا آن وسنبلان وخرجان وفرسان وباغ عبد العزيز وجروا آن وأشكهان ولنبان ويذاباذ حصاراً راسياً في الثري أساسه وسامياً إلي الثريا راسه ، تراجح بأركانه الجبال الراسيات ، ويناطح ببروجه النجوم الساريات ، فياله من سور يماسي بقرنه السماء ، وخندق يداني بقعره الماء ..... وحوله خندق قد لجّ لجته فليس يم ولا نيل يناسبه وقد فتح منها أبواباً اثني عشر حديدية يجوز كل واحد منها الفيلة بتخوتها والرايات منصوبة بعذباتها »[1].

ومن الأشعار التي قيلت في وصف هذا السور :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب المطر

وتسيل دجلة تحته ففـــــناؤه من لجة غمر وروض أخضـر

وقيل عنه أيضاً :

سور علا قمة العـــــيوق ذروتـــه وجاوزت منطق الجوزا مناكبه

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨١ .

من دون أبرجة في أبرج الفلك الدوار تري متي تسري كواكبـــــه

لو كان يحضر يأجوجاً لما فتحـــــت نوماً وأعجزها نقباً مناقبه[1]

وما ورد في هذه الأشعار يدل علي ضخامة هذا السور في جوانبه، وعظمة علوه وارتفاعه ، وقوة رسوخه وثباته .

وقد تولي حكم أصفهان بعد علاء الدولة بن كاكويه ابنه ظهير الدين أبو منصور قرامرز ومازال عليهـا حتي بداية العصر السـلجوقي[2].

وفي فترة حكم الغزنيين شهدت أصفهان أحداثاً جساماً ولاسيما عام ٤٢٣ هـ عندما شن السلطان مسعود غارته الشعواء علي أصفهان ، وقتل ما لا يحصي عدده من البشر ، حتي قيل عنه إنه « فعل مالاتفعله الكفرة» [3] .

ودخل الناس المسجد الجامع في جموع محتشدة مفزعة من جميع أبوابه وأيضاً الجنود مشهرة أسلحتها ويصف المافروخي هذا الحادث فيقول : « وتراعفت أبواب المسجد بكراديس من الأتراك والهنود وسائر الأصناف من الجنود ينسلون منها غضاباً مشرعين حراباً وشاهرين سيوفاً

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨١ .

(٢) عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٣) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ص ٢٢٦ ، ج ٣ ، ط بيروت.

عضاباً ، فاحتوشوهم ولم يجدوا عنهم وزراً ، وتقسمتهم النصال جزراً فقتل بعضهم صبراً وأثخن بعضهم فضرب ضرباً هيراً» [1] .

وفي هذه الفترة كذلك نمت وترعرعت فرق الإسماعيلية ، ونشأت الصراعات بين المذاهب والفرق الدينية في أصفهان التي كانت مركزاً للإسماعيلية منذ عهد السلطان محمود الغزني واستمرت حروبهم في عهد السلطان مسعود الذي بذل كل جهده في مواجهتهم ولكنه لم يستطع القضاء عليهم بل تنامت قدراتهم وازداد نفوذهم يوماً بعد يوم حتي سنة ٦٠٠ ستمائة هجرية [2] .

وإلي جانب هذه الأحداث الحربية والصراعات المذهبية كانت أصفهان واحداً من المراكز الحضارية المتميزة ، ومجمعاً للعلماء والأدباء التي ازدهرت في العصر الغزني .

وعندما أخذ نجم الغزنيين في الأفول ، وأخذ يعلو نجم آل سلجوق، كانت أصفهان مسرحاً للحروب بين جيش طغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية وأبي منصور بن علاء الدولة كاكويه سنة ٤٣٨ هـ ، واستطاع طغرلبك أن يحتل المدينة ويفرض حصاره عليها حتي ضاق الناس فاضطر أبو منصور إلي قبول الصلح ودفع الخراج للسلاجقة ، والخطبة باسم طغرلبك[3].

---

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤٧ - ١٠٧ .

(٢) حسين صادقي : أصفهان ، ص ١٠ .

(٣) مجمل التواريخ والقصص : ص ٤٠٧ .
عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .
حسين صادقي : أصفهان ، ص ١٠ .

ونظراً لانقطاع الود بين طغرلبك وأبي منصور عاود السلاجقة محاصرة أصفهان سنة ٤٤٢ هـ ، واستمر الحصار لمدة عام حتي اضطر أهلها إلي تسليم المدينة ، ووصل طغرلبك إلي أصفهان سنة ٤٤٣ هـ ، واتخذها عاصمة للدولة السلجوقية [١] .

وهكذا نري أن أصفهان كانت مدينة إيرانية عريقة - قبل وبعد الإسلام - شهدت مراحل تاريخية مختلفة كانت فيها مجالاً للتنافس والصراع فخضعت في حقب متفاوتة من الزمن إلي حكام وأمراء وسلاطين من الفرس واليونان والعرب والترك ، وكان أغلبهم من العجم .

وقد حاول هؤلاء الحكام بسط نفوذهم عليها توسيعاً لممالكهم أو إحياء لقوميتهم وبعث الروح في تراثهم مما جعل منها مركزاً حضارياً متميزاً عبر العصور ينبعث منه نور العلم والمعرفة ، ومجمعاً للعلماء والأدباء والمفكرين سواء كانوا من أهل أصفهان أو من العواصم الإسلامية الأخري ، وموفداً لطلاب العلم من كل مكان .

ونظراً لأن مقام هذا البحث لايسع الخوض في غمار الجوانب الحضارية بصفة عامة ، والحياة الأدبية منها بصفة خاصة . سيخصص الباحث بحثاً آخر يتناول فيه عرضاً لمظاهر الحضارة في أصفهان بعامة مبرزاً فيه دور العلماء والأدباء في نهضة أصفهان سواء كانوا من العرب أو الفرس أو كانوا من أهل أصفهان أو ممن وفدوا إليها ، والله ولي التوفيق .

---

(١) عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١٥ .

عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩٦ .

المصادر والمراجع العربية

١ – الآثار الباقية : البيرونى – طبعة المثنى ببغداد .

٢ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : المقدسى – طبعة ليدن ١٩٠٦ .

٣ – الأعلاق النفيسة : ابن رسته – طبعة ليدن ابريل ١٨٩١م .

٤ – إيران : ماضيها وحاضرها : ترجمة عبد النعيم حسنين وإبراهيم الشواربى – طبعة القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م .

٥ – البيان والتبيين : الجاحظ – طبعة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ١٣٨٠م .

٦ – تاريخ الحضارة الإسلامية : بارتولد – طبعة دار المعارف – ترجمة حمزة الطاهر .

٧ – تاريخ الرسل والملوك : للطبرى – طبعة دار المعارف ١٩٧٩م .

٨ – تقويم البلدان : ابن شاهنشاه – طبعة باريس ١٨٤٠م .

٩ – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى : آدم متز – ترجمة أبي ريدة – طبعة دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان .

١٠ – دائرة المعارف الإسلامية : طبعة الشعب .

١١ – ذكر أخبار أصفهان : أبو نعيم – طبعة ليدن ١٩٣١م .

١٢ – الشاهنامه : ترجمة عبد الوهاب عزام – دار الكتب المصرية ١٣٥٠هـ – ١٩٣٢م .

١٣ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن عماد الحنبلى – طبعة بيروت .

١٤ – صورة الأرض : ابن حوقل – طبعة ليدن ١٩٣٩م .

١٥ – ظهر الإسلام : أحمد أمين – طبعة النهضة المصرية ١٩٧٨م .

١٦ – فتوح البلدان : البلاذرى – طبعة شركة طبع الكتب العربية ١٣١٧هـ – ١٩٠٠م.
١٧ – الكامل في التاريخ : ابن الأثير – طبعة بيروت ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م .
١٨ – محاسن أصفهان : مفضل بن سعد بن الحسين المافروض الأصفهانى – طبعة طهران .
١٩ – مختصر كتاب البلدان : الهمذانى – طبعة ليدن أبريل ١٣٠٢هـ .
٢٠ – المسالك والممالك : ابن خرداذبه – طبعة ليدن ١٣٠٦هـ .
٢١ – معجم البلدان : ياقوت الحموى – طبعة بيروت ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م .
٢٢ – المعرب : الجواليقى – طبعة دار الكتب ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م .

المصادر والمراجع الفارسية

١ – أصفهان : حسين نور صادقى – طبعة تهران اسفند ١٣١٦ .
٢ – تاريخ بيهقي : باهتمام غنى وفياض – طبعة تهران ١٣٢٤هـ .
٣ – تاريخ علوم عقلى ورتمدن إسلامى تا أواسط قرن پنجم – ذبيح الله صفا – طبعة دانشكاه – تهران ١٣٤٦هـ .
٤ – تاريخ كامل إيران : عبد الله رازى – طبعة إقبال .
٥ – تاريخ كَرديزى يازين الأخبار – كَرديزى – طبعة تهران ١٣٢٧هـ .
٦ – تاريخ مفصل إيران از صدر إسلام تا انقراض قاجاريه : عباس إقبال آشتيانى – طبعة كتابخانة خيام .
٧ – دستور الوزراء : غياث الدين بن همام المعروف بخواندمير – طبعة تهران ١٣١٧هـ.
٨ – سبك شناسى : محمد بهار – طبعة تهران .

٩ – شاهنامة فردوسى : فردوسى – طبعة بروخيم – طهران ١٣١٣هـ .

١٠ – فارس نامه : ابن البلخى – طبعة كمبريج ١٣٣٩هـ – ١٩٢١م .

١١ – مجمل التواريخ والقصص بتصحيح ملك الشعراء بهار : بدون مؤلف .

١٢ – نزهت القلوب : حمد الله مستوفي قزوينى – طبعة بمباى ١٣١١هـ – ١٨٩٤م .

المراجع الأوروبية

F. Steingass : Persian English Dictionary, Liban 1944.

منهج السيوطى النحوى
دراسة فى المطالع

دكتور/ ممدوح عبد الرحمن
مدرس العلوم اللغوية
كلية الدراسات العربية – جامعة المنيا

إهـــــــداء

إلى معلمتى الأصيلة السيدة/ جليلة حسنين منصور

التى علمتنى أبجديات الحياة والمعرفة، وشمعتى التى تضىء لى السبيل بعد أن أظلمت عيناى وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن ضاق الزحام بمنكبىّ، وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس، وساعدى وعونى يوم لم ينفعنى جهدى واجتهادى، وصديقتى بعد أن دفنت أصحابى فى التراب، ومركبى الذى يقلنى بعد أن ضاق الطريق بقدمىّ.

فعدت كذى رجلين، رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت على ظلعها بعد العثار استقلت

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الذى أنزل الكتاب بلسان عربى مبين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

لما رأيت أننا بحاجة إلى إعادة وصف لغتنا بما تشمله من نصوص وقواعد وآثار علمية خلفها لنا علماء أجلاء، فقد وقع إختيارى على المطالع السعيدة للسيوطى، وذلك أن الكتاب يمثل ظاهرة معروفة فى تاريخ النحو العربى خصوصا عند النحاة والشراح والمصنفين المتأخرين ذلك هو نظم قواعد النحو والصرف العربيين بما يعرف فى تاريخ النحو العربى بالألفيات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السيوطى يعد متأخرا بالنسبة لنحاة سبقوه فى التأليف على هذا النمط، إذ يعد علما من أعلام المدرسة المصرية فى النحو، وقد تأثرت هذه المدرسة بطبيعة الحال بالمدارس النحوية السابقة، البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية وكان أثر الأندلسيين واضحا فى نحاة مصر، وقد تميز السيوطى فى منهجه بما تميزت به المدرسة المصرية من التخير من آراء المدارس السابقة مع شىء من التغليب لمذهب الأندلسيين، ولكننا نظفر له من حين إلى حين بآراء خاصة أو مفاهيم جديدة تجاه بعض المسائل.

ومن هنا فإن حديثنا عن منهج السيوطى فى المطالع والفكر النحوى عنده، يعد حديثا عن الفكر النحوى للعربية من ناحية ومن ناحية أخرى، فإنه إكمال لنظراته وملاحظه التى أبداها على سابقيه، ذلك أن رحلة العلم تحتاج إلى لون من التواصل سعيا وراء الحقيقة التى يعلمها الله وحده.

ومن دواعى فخر السيوطى واعتزازه بالمطالع أنه سماه "الألفية الفريدة" وقام بشرحه، وقد أجرينا الدراسة على الشرح، والمطالع يتألف من مجموعة من المقدمات وثلاثة كتب، قام بتحقيقه عالم فاضل هو الأستاذ الدكتور طاهر حمودة وقد أردنا بهذا العمل أن نتم الفضل الذى أسداه إلى العربية، خصوصا أن المطالع وشروحه تتسم بالصعوبة فى التناول والعرض. أضف إلى ذلك أن كثيرا من الدارسين المتخصصين لا يعلم أن للسيوطى ألفية. فهذه إضاءة للكتاب وما جاء فيه ضمناها بعض النصوص مع قليل من التصرف والتوجيه، وقد اعتمدنا فى الرصد والتوثيق على الطبعة التى أصدرتها الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ويتكون هذا البحث من فصلين: الأول فى الفكر النحوى للسيوطى ويتضمن النظام العام الذى تناول به أبواب النحو العربى، والفصل الثانى فى المعايير.

والله أسال موفور الصحة والعافية لكل من بذل معى جهدا فى تسجيل هذا البحث وإخراجه، ولله الحمد ومنه المنة.

الأسكندرية يونيو ١٩٩١

الدكتور/ ممدوح عبد الرحمن

مدرس العلوم اللغوية

الفصل الأول

فكـــــره النحـــوى

١- الحقيقة أن كتاب المطالع السعيدة، كتاب نحو، مؤلف على طريقة المنظومات العلمية شأنه، شأن كثير من الألفيات التى تنظم قواعد النحو العربى. والحقيقة أن الكتاب خاص بالنحو مع تفرده بعدم ذكر منظومات صرفية شأن ألفية ابن مالك التى شرحها ابن عقيل، وقد إسترعى نظرى وأنا أطالع الكتاب أنه منظومة علمية لقواعد النحو على طريقة (خذ بهذا ولا تأخذ بذاك) من قواعد النحو أى أنها طريقة معيارية (Prescriptive) تعليمية، لكننى حين أطالع الكتاب أجد أن السيوطى فى شرحه يتبع طريقة وصفية فى العرض للأساليب العربية، بل يناقش من سبقه من علماء النحو كما يعرض لغيرهم من آراء مبنية على وجود شواهد تخالف ما قرره النحاة من نظرات معيارية.

وقد أدهشنى أكثر ما أدهشنى تناوله فى باب المجرورات للحروف التى يتعاور بعضها بعضا فى التراكيب المختلفة فتختلف دلالة التركيب باختلاف الأداة، فالمتوقع من نحوى ما يعرض لحروف الجر أن يتحدث عن عدد هذه الحروف، ونظرية عملها، والعلامة المصاحبة لعملية الجر، وتكوين أشباه الجمل من هذه الأدوات ومجروراتها مع عرض لتعلق أشباه الجمل المكونة بالمصادر أو المشتقات أو الأفعال. لكننا نفاجأ بدراسة قد تبدو للنظرة العجلى قديمة فى طابعها، وسردية لما جاء به القدماء من النحاه وإحصائية لما فيها من استعراض للشواهد العربية من شعر ونثر وآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. لكن الحقيقة أن هناك

دراسة فى الاستعمال تشبه إلى حد كبير بل تفوق ما نصنعه اليوم، فإذا بالسيوطى وكأنه بلغة العصر يريد أن يقول إن هناك وظيفة نحوية ووظيفة دلالية:

أ – فالوظيفة النحوية للأداة هى الجر والعلامة هى الكسرة.

ب– تختلف دلالة الأداة باختلاف التركيب.

حـ– تختلف دلالة التركيب بأكمله حسب احتمالات إبدال أداة بأداة أخرى من الباب نفسه.

د – كل حرف من حروف الجر الثلاثة عشر تحل محل بعض منها على التبادل فى تراكيب مختلفة بحيث لا يمكن أن يؤدى حرف بعينه دلالة واحدة وحسب، أى أنه يرد فى تركيب واحد فقط، لكن لكل حرف ما يقرب من تسع دلالات لا يقل عنها. على أنا نلاحظ أنه لا يؤدى بنفسه جميع هذه الدلالات، بل يمكن أن نضع بدلا منه حرفا آخرا فيؤدى معناه.

والغريب أن هذا التركيب الجديد من الناحية الاستعمالية والتركيبية لايقبل وجود الأداة المفترضة بل يقبل معناها وحسب. وهذه الظاهرة غاية فى الدقة، ولكنها لا تكثر على عالم جليل مثل السيوطى، وهذا فى إطار أداء وظيفة الجر المحضة، لكننا نجد وظائف أخرى لبعض هذه الأحرف مثل: (الباء – التاء – الواو – اللام) مع وجود علامة الجر (الكسرة) نفسها، تلك الوظيفة هى وظيفة القسم مع الإشارة إلى اختلاف مكونات التركيب القسمى عن التركيب الذى يتضمن الجار والمجرور ومن هنا نصل إلى الملاحظات الآتية:

أ – الأداة الواحدة تؤدى بنفسها وظيفة الجر.

ب – الأداة تتبادل معانى الأدوات الأخرى فى تراكيب أخرى.

جـ – الأداة تؤدى وظائف أخرى فى أبواب نحوية أخرى مثل القسم.

من هنا نصل إلى شيء أساسي في منهج السيوطي وهو: تقسيمه لأبواب الكتاب، فقد بدأ المؤلف بتصنيف اللغة العربية إلى أقسام من الكلم كعادة النحويين، ثم تعمده أن يقسم بعد ذلك المؤلف إلى كتب، الكتاب الأول في العمد وهي المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ، والكتاب الثاني في الفضلات وهي أنواع المفاعيل والظروف والنداء والاستثناء والتمييز والحال، ومع كل هذا يورد نواصب المضارع والكتاب الثالث ويشمل المجرورات وما يحمل عليها من المجزومات وفيها الجر بالحروف والجر بالإضافة وفيها أيضا الجوازم من أدوات الشرط أسماءا وحروفا.

ومن هنا فإنه يحق لنا أن نتساءل عن التصنيف الذي لجأ إليه السيوطي في الكتاب.

فأول ما يصادفنا من عناوين الكتاب هو أقسام الكلام وهو غير مدرج في ترتيب المؤلف، فالمؤلف ينقسم بعد هذا التمهيد إلى ثلاثة كتب الأول منها في المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ والثاني هو الفضلات والثالث في المجرورات وما يحمل عليها من المجزومات كما ذكر فالمتوقع في هذه الطريقة من التأليف هو أن يكون السيوطي قد رتب الكتاب حسب أقسام الكلام من أسماء وأفعال وحروف وأسماء أفعال لكننا نجد الكتاب الأول معنونا ب ("الكتاب الأول في العمد" وهي المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ).

والواضح من هذا العنوان أن السيوطي قسم وحدات اللغة العربية حسب العلامة الإعرابية لكننا نلحظ مفارقة حين نجد أنه يعرض في باب واحد لمكونات ذات علامتين رئيسيتين هما الرفع والنصب معا، وإذا كان المبرر لذلك هو عرضه للنواسخ بأنواعها التي لابد أن ترفع وتنصب اسمين مختلفين في تركيب

واحد، فإن هناك مفارقات أخر، منها أنه يعرض فى الكتاب الأول نفسه لظواهر تختص بالقسم الثانى من أقسام الكلام وهو الفعل فيعرض لبعض خصائص بعض الأفعال مثل (ظن وأخواتها) إلى جانب بعض النواسخ الأخر. أضف إلى ذلك أنه يعرض بالتفصيل لظواهر الجمود والتصرف فى الأفعال والتعليق والإلغاء وعرضه لبعض الظواهر النحوية التى تختص بالإطار النظرى الخاص بالنحو العربى بأكمله كالعمل النحوى وبعض الخصائص التركيبية كالتقديم والتأخير والحذف والحقيقة أن باب "ظن" وأخواتها يختص أكثر ما يختص بالمنصوبات والدليل على ذلك أن المؤلف نفسه يعرض لهذا الموضوع باستفاضة فى باب المفعول به الذى وضعه فى الكتاب الثانى ضمن الفضلات، وفى نهاية هذا الكتاب الأول نجد السيوطى يختتم الكتاب بالحديث عن الفعل المضارع وأوجه القول فى عوامل رفعه ويبدو أن السيوطى نظر إلى الفعل المضارع من ناحية أنه من المرفوعات على حين أن الكتاب الأول خاص بالمرفوعات والمنصوبات معا من الأسماء وكنت أظن أن بعض هذا الترتيب يمكن نسبة بعضه إلى المحقق وله العذر فى ذلك فالكتاب كان مخطوطا وله ظروف خاصة شأنه شأن كثير من المخطوطات العربية، فقد تتقدم بعض أوراقه وقد يختلف ترتيب بعضها عن بعضها الآخر، وقد تفقد أرقام بعض الصفحات خصوصا أن المحقق كثيرا ما يذيل كتابته بعبارة (زيادة ليست بالأصل) أى أنه كثيرا ما يلجأ إلى توثيق النص بالاعتماد على السياق مرة وعلى كتب اللغة والنحو أخرى وعلى مؤلفات السيوطى الأخرى مرات خصوصا كتاب "همع الهوامع" للمؤلف لكننى أستطيع أن أبعد المسئولية عن المحقق فقد وضع السيوطى فى التمهيد الخاص بأقسام الكلام حديثا خاصا عن الأفعال الخمسة يسبقها حديث مفصل عن الفعل وأحواله

ومما يؤكد نفى المسئولية عن المحقق أننا نجد حديثا عن الفعل المضارع فى الكتاب الخاص بالفضلات عند عرض المؤلف لنواصب المضارع وهذا يؤكد من ناحية ثانية أن السيوطى يعمد فى تقسيمه إلى العلامات الإعرابية، فهذا هو الفعل المضارع يعرض له فى ثلاثة مواضع مختلفة بل فى أكثر من كتاب، فصنف الفعل المضارع المرفوع مع العمد وصنف المضارع المنصوب مع الفضلات، فيورد فى باب نواصب المضارع(١).

لما انتهت منصوبات الأسماء عقبت بمنصوبات الأفعال، كما ذكرت عقب المرفوعات المضارع المرفوع. وتقسيم السيوطى للأبواب وفقا لما يرى هو أنها حسب العلامة الاعرابية وليس حسب أقسام الكلام، لكن للعلامة مدلولين أحداهما هو الوظيفة النحوية التى يؤديها المكون التركيبى خصوصا فى الأسماء كالرفع للفاعلية والنصب للمفعولية، والوظيفة الأخرى هى الزمن خصوصا فى الفعل المضارع فالمرفوع الذى وضعه السيوطى مع المرفوعات، والحقيقة أن الرفع فيه يختلف عن الرفع فى العمد فالرفع فيه يدل على المضارعية.

وأبدى فى الكتاب الثانى من المطالع ملاحظة خاصة بأبواب الفاعل ونائب الفاعل والمفعول به خصوصا أن السيوطى يعرض لهذه الأبواب فى نهاية الكتاب الأول وبداية الكتاب الثانى فالحقيقة أن جميع كتب النحو العربية خصوصا المؤلفات المتأخرة تعرض لهذه الموضوعات فى أبواب مستقلة.

---

(١) المطالع السعيدة – شرح السيوطى على ألفيته المسماة بالفريدة ص ٣٧٧ تحقيق الدكتور طاهر حموده – الدار الجامعية – ١٩٨١

فعلامة الفاعل هى الرفع بالضمة وكذلك نائبه، أما المفعول فمحله هو النصب بعلامة أصلية أو فرعية ظاهرة أو مقدرة ووضع السيوطى الفاعل ونائبه فى الكتاب الأول الخاص بالمرفوعات والمنصوبات من العمد ووضع المفعول به فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات. ومن هنا نصل إلى مفارقة غريبة وهى إذا كان الكتاب الأول مخصصا للمرفوعات والمنصوبات من الأسماء، فان المفعول به من المنصوبات وأولى به أن يوضع فى الكتاب الأول كما اننا نصل أيضا إلى نتيجة أخرى وهى أن تقسيم السيوطى لمؤلفه ليس قائما على العلامة الإعرابية وحدها بل على أساس العمد والفضلات، فالتقسيم عند السيوطى مزدوج من حيث العلامة والعمد والفضلات أيضا هذا مع استثناء التصنيف حسب أقسام الكلام.

وبغض النظر عن الأساس الذى بنى عليه التقسيم فإن الفاعل وهو عمدة فى التركيب إذا ما تم حذفه لأى سبب تركيبى أو معنوى فان الذى يحل محله هو نائب الفاعل وبالتالى فإنه يكتسب علامته الإعرابية وهى الرفع، وإن المكون التركيبى الأصل الذى يقوم بهذا الدور هو المفعول به، وعلامته الأصلية وهى النصب تتحول إلى الرفع، ويتحول أيضا إلى عمدة بالرغم من أنه كان فضلة وعليه ففكرة التقسيم حسب العلامة الاعرابية والعمد والفضلات تؤدى فى رأيى إلى نوع من التداخل والتكرار فى أبواب النحو العربى هذا بغض النظر عن أن يحل المصدر والظروف المتصرفة محل نائب الفاعل. أضف الى ذلك أن الظواهر التركيبية التى يتناولها النحاة العرب فى الأبواب الثلاثة المذكورة من ظواهر واحدة بل وأغلب شواهدها وفكرتها واحدة لذا[1] فإننى أرى ضم

(١) الدكتور محمد حماسة فى بناء الجملة العربية ص ٥٣ وما يليها

الأبواب الثلاثة، الفاعل ونائبه والمفعول به فى باب واحد.

٢ – وفى المطالع مقدمة(١) عن الكلام والحقيقة انها ليست تفريقا بين القول والكلام وأصل كل منهما ومصدره واعماله من حيث الوظيفة النحوية، لكنه فى الحقيقة يعد فكرا لغويا حديثا فهو يفرق به كما نستشعر ذلك بين الكلام المنطوق والكلام المفيد المكتوب وبين الاشارة الجسمية(٢) التى يفهم مضمونها من حال المتكلم والمخاطب، ومن ذلك استشهاده ببيت عمر ابن ابى ربيعه:

اشارت بطرف العين خفية اهلها اشارة محزون ولم تتكلم(٣)

وبعده يقول:

فأيقنت ان الطرف قد قال مرحبا واهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وفى البيت الاول لابد ان نحمل الكلام المعنى على نوع خاص من الكلام وهو المنطوق به أى الكلام اللفظى، وحينئذ "قال" بمعنى اشار اشارة مفهمة، والسيوطى نفسه يرى ان تعبيره هو عن هذه الظاهرة أدق من تعبير ابن مالك وابن هشام، والحقيقة ان السيوطى فى عرضه للمقدمات يبدو موضوعيا او منظما للقضايا، فهو حين يعرض لعلامات الاسم التى يختص بها دون الفعل والحرف بذكره الجر(٤) للاسم علامات تميز بها عن قسيميه منها الجر سواء كان بحرف او تبعية على رأى من يقول بهما، وقد اجتمعن فى "بسم الله الرحمن الرحيم" أو بمجاورة نحو: (هذا جحرُ ضبٍ خربٍ) أو بتوهم نحو:

---

(١) المطالع ص ٥٥

(٢) دراسات فى علم اللغة، فاطمة محجوب – دار النهضة العربية ط ١٩٧٦ ص ١٥٩–١٨٧

(٣) المطالع ص ٥٦

(٤) المطالع ص ٦١

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

وكان يمكن لهذه المقدمات ان تعفى السيوطى من مسألة الخلط بين الوظيفة النحوية والوظيفة الدلالية والتصنيف على أساس العلامة الاعرابية ثم اللجوء الى تصنيف آخر داخلى حسب الادوات والحروف كما فى الكتاب الثالث، وعند العرض لهذه الظاهرة بعينها وهى الجر والمجرورات.

وفى مضمار عرض السيوطى لخصائص الاسم وخصائص الفعل والفرق بينهما، نجد له مناقشة وتمييزا حقيقيا بين كل منهما وتفصيلا لخصائص المكون التركيبى الذى يعرف (باسم الفعل) فهو يرى أنه يجمع بين خصائص الاسماء كالتنوين وبين خصائص الفعل من حيث تضمنه معناه وبنائه واعماله فيما يليه من اسماء وهذا العرض وتلك المناقشة والتفصيل خصوصا تأويله وتفسيره لما لا يتفق مع قواعد التصنيف فهو يتناول ويقدر المكون (لفظ) بديلا عن اسم الفعل "نزال" فى البيت ودعوا نزال(١) فكنت أول نازل فالشاهد فى هذا الشطر فى البيت قوله "دعوا نزال" حيث دخل الفعل على "نزال" والقاعدة ان اسم الفعل لا يدخل عليه العامل أصلا، وليس هذا خروجا على القاعدة هنا وانما سبب ذلك إن اسم الفعل قصد لفظه ولم يقصد معناه وفى معرض التقسيم الى اسم وفعل وحرف يتناول السيوطى المشتبهات التى يخلط فيها الدارس بين كونها اسما أو حرفا حيث تشبه من حيث عدد الاحرف وهى فى الحقيقة تؤدى دلالة الظرفية والظرف من الاسماء فتنطبق عليه احكام الاسماء، يقول(٢) وطالما فحصت عن نظير لها فى

---

(١) المطالع ص ٦٥
(٢) المطالع ص٦٦

ذلك حتى ظفرت لها بنظير ذكره ابو حيان فى تفسيره البحر وهو "لدن" فان علة بنائها كونها تدل على الملاصقة للأسماء وتختص بها بخلاف "عند" فإنها لا تختص بالملاصقة، فصار فيها معنى لا يدل عليه الظرف، بل هو من قبيل ما يدل عليه الحرف، فهى كأنها متضمنة للحرف الذى كان ينبغى أن يوضع دليلا على القرب كما فى "هنا" و "ثم".

ويحدث السيوطى لونا من التكرار فى تناول القضايا وهى بلا شك تحدث تداخلا وارتباكا للدارس خصوصا إذا ما تنوولت فى إطا رقضايا أخرى، فهو يعرض فى المقدمات الخاصة بالمطالع لعلاقة الأسماء بالجمل، تحت عنوان (الافتقار) ويقصد به ارتباط المفرد وتلازمه(١) مع الجملة بأن يفتقر الاسم بالأصالة إلى جملة كالموصولات(٢) و"حيث" و "إذا" فإن كلا مما ذكر لا يكون جزءا من كلام حتى توصل به جملة تكشف عن حقيقة المعنى المراد به فأشبهت الحروف، فلإنها لا تستعمل إلا مع الجمل بخلاف جمهور الأسماء، فإنه يستعمل مع المفردات والجمل ولو كان الافتقار عارضا لم يقتض البناء وذلك لضعفه بالعروض، وذلك كافتقار "يوم" الى الجملة التى أضيفت إليها فى نحو "هذا يوم لا ينطقون"(٣).

وكذا لو كان الافتقار إلى مفرد كسبحان الله، ووحده ولبيك، فإنه لا يقتضى البناء لأن جميع الكلمات تفتقر إلى إنضمامها إلى مفرد آخر، فليس هذا إفتقارا خاصا بالحروف والتنبيه على هذا من زياداتى، هكذا عبر السيوطى.

---

(١) المطالع ص ٦٦

(٢) وردت "الموصلات" فى المطالع المقصود بها الموصولات أى الأسماء التى تحتاج إلى جملة صلة.

(٣) المرسلات آية ٣٥

والحقيقة أن تناوله لهذه القضية ورد فى مواضع أخرى من الكتب الثلاثة، جزء منها فى باب (المفعول به) وجزء آخر فى باب (المجرورات)، خصوصا فى موضوع الإضافة، على سبيل عرض الخصائص التركيبية للمكون الذى يعرض له مثل (حيث) أو غيرها من الظروف التى تضاف إلى الجملة.

وعموما فالكتاب الثانى الخاص بالفضلات وأغلبها تختص به علامة النصب، نلاحظ أنه أكثر إنتظاما من حيث المنهج من الكتاب السابق عليه، ذلك أن وحداته كلها منصوبة وهى أيضا فضلات ومكملات للتركيب غير أننا نجد فى باب المفعول فيه[1] ظروفا مبنية وهى بالفعل فى محل نصب لأنها وعاء للزمان، لكننا نجد لها تناولا آخر فى الكتاب الثالث الخاص بالمجرورات وما يحمل عليها من المجزومات[2]، ومن ناحية أخرى فإن تناول السيوطى للمفعول فيه بعامه فى هذا الكتاب لا ينصب على كونه فضلة أو أن محله النصب (بعلامة أصلية أو فرعية) ظاهرة أو مقدرة ولكنه يزيد على ذلك تناوله للأدوات من حيث كونها حرفا او اسما وكان الأولى به أن يناقش هذا التناول فى التمهيد السابق على الكتاب الأول وليست هذه مسألة عارضة فى ظرف بعينه لكنها تتكرر مع جميع الظروف ويورد فيها بإسهاب اختلافات النحويين مع ترجيحه لأحد هذه الأراء بايراد[3] الشواهد المرجحة لاسمية الظرف أو حرفيته، كما نلاحظ فى هذا الكتاب الثانى بعامة أن القضايا المتعلقة بالفكر النحوى تتكرر بتكرار الأبواب، فعلى سبيل المثال، مسألة العامل ومسألة التعلق والحذف والتقدير تتكرر فى كل باب، بل

---

(١) المطالع الكتاب الثانى ص ٣٠٩
(٢) المطالع الكتاب الثالث ص ٤٤٨
(٣) المطالع الكتاب الثانى ص ٣٠٩-٣٣١

تتكرر فى كل جزئية من أجزاء الباب الواحد، وهذا فى الحقيقة ليس نقدا ولا عرضا للمآخذ التى تؤخذ على السيوطى، فهذا شأن أغلب كتب النحو، بل جميعها، لكن هذه ضرورة يقتضيها الدرس اللغوى بعامة والنحوى بخاصة فى سبيل ضم الموضوعات التى تنتمى إلى فرع بعينه مع مثيلاتها تبعا للمنهج المستقيم ولما يعرف اليوم بمناهج البحث اللغوى التى هدفها الأساسى هو تنظيم المواد اللغوية وإسباغ صبغة علمية عليها، وليس هذا الشأن خاصا بالسيوطى وحده، بل هو شأن اللغويين والنحاة العرب، وما نسجله اليوم على كتاب المطالع السعيدة، يعد أيضا لونا من الإضاءة نسقطها على التراث النحوى العربى، ذلك أن كتابات النحاة المتأخرين وتصانيفهم، خصوصا أصحاب المتون والشروح تعد جمعا وتصنيفا عن النحاة المتقدمين أكثر منها تأليفا. وكعادة السيوطى فى تكرار تناول المسائل، وقد تحدث فى باب المقدمات عن نون الوقاية وإلحاقها(١) بالأسماء والأفعال وحذفها، ثم نجده يعقد بابا خاصا بالتنوين فى نهاية الكتاب الثالث، ويعرض فيها للتنوين بأنواعه فى مختلف الأبواب النحوية، كما يدرسه على أنه ظاهرة صوتية، والحقيقة أن تناول السيوطى لبعض الأبواب يعد تناولا أسلوبيا بالرغم مما يشوبه من التكرار فى أكثر من موضع، فمن ذلك الظرف المتصرف وغير المتصرف، فهو يتحدث عنه فى باب نائب الفاعل، عندما يوجد المفعول فيه والمفعول به فى جملة واحدة ومدى صلاحية أى منهما للنيابة عن الفاعل، والمسألة نفسها يوردها فى باب المفعول فيه(٢)، حيث يثبت صلاحية المفعول فيه للقيام بأكثر من وظيفة نحوية وروده فى أكثر من باب نحوى بالرغم من دلالته

---

(١) المطالع ص ٤٤ * ص ٤٧٢ وما يليها
(٢) المطالع ص ٣١٣

على احتواء الزمان أو المكان وأورد لفظ الظرف ليؤدى وظيفة المبتدأ ونائب الفاعل، واحتفاظه بعلامة الباب كأن يكون مرفوعا أو منصوبا أحيانا على المفعول به، كما فى قوله "وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه"(١).

فظرف الزمان قسمان: أحدهما متصرف، وهو ما جاز أن يستعمل غير ظرف، كأن يكون فاعلا أو مبتدأ أو خبرا، أو ينتصب مفعولا به، أو يجر بغير "من" كسرّنى يوم الخميس، ويوم الجمعة مبارك، واليوم يوم الجمعة، وأحببت يوم الجمعة، و"ليجمعنكم إلى يوم القيامة"(٢). والثانى: غير متصرف بأن لا يخبر عنه، ولا يجر بغير "من" بل يلتزم النصب على الظرفية أو يجر بـ "من" وحدها كسحر إذا كان من يوم بعينه نحو "جئتك بسحر" وبعيدات بين بمعنى أوقات غير متصلة، وما عين من بكرة وسحير، وضحى وضحوة، وصباح ومساء، وعشية.

وظرف المكان أيضا قسمان: متصرف يعمل غير ظرف مبتدأ، أو فاعلا، ونائبا عنه، كيمين وشمال، نحو: جلست يمين زيد وشمال بكر، وغير متصرف لم يخرج عن الظرفية أصلا وهو ألفاظ فمن ذلك "سوى" بالكسر جمعا للغة من أفواه المتكلمين واستخدامتهم لها.

ولقد أبديت رأيا بأن تضم الأبواب النحوية، الفاعل ونائبه والمفعول به معا(٣) وذلك أن مسائلها مشتركة وتكاد تكون الشواهد واحدة فضلا عن أن القضية واحدة وهى أن المكونات التركيبية الثلاثة تؤلف معا تركيبا فعليا واحدا ذا خصائص واحدة فى التقديم والتأخير والحذف، فالفعل هو المكون الرئيسى، أى العامل

---

(١) سورة الشورى آية ٧
(٢) سورة النساء آية ٧٨
(٣) د. شوقى ضيف (تجديد النحو ص٤ دار المعارف ١٩٨٢)

يجب أن يتقدمهم جميعا، يليه فى الترتيب الفاعل ثم المفعول به، وما خالف ذلك من حلول أى منها موضع الآخر، فقد يجوزه وقد لا يجوزه النحاة العرب، فالحقيقة أن هناك ظاهرة فى التركيب الفعلى وهى تقدم المفاعيل، تكررت فى بابى نائب الفاعل والمفعول به، فيورد السيوطى فى تقدم المفاعيل(١) إذا تعدد المفعول، فإن كان فى باب ظن وأعلم فمعلوم أن المبتدأ فيهما يقدم على الخبر، والفاعل من أعلم يقدم على الأثنين، وإن كان غيره كباب أعطى واختارفالأصل تقديم ما هو فاعل معنى فى الأول وما يتعدى إليه الفعل بنصبه بدون حرف الجر الثانى لأنه أقوى.

فالأصل فى "أعطيت زيدا درهما"، و "اخترت زيدا من الرجال" هو تقديم "زيد" لأنه أخذ الدرهم، ومختار من الرجال، وقد يخرج عن هذا الأصل فيقال أعطيت درهما زيدا، واخترت من الرجال زيدا، بتأخير ما حقه التقديم، وقد يجب هذا الخروج، ويمتنع الأصل فى نحو: "أعطيت الغلام مالكه" ليعود الضمير على متقدم، ونحو "ما أعطيت درهما إلا زيدا" للحصر، وقد يجب إلزام الأصل فى نحو "أعطيت زيدا عمرا" لأنه لو قدم لم يدر أزيد آخذ أم مأخوذ، ونحو "ما أعطيت زيدا إلا درهما" لأجل الحصر، وقضايا الفكر النحوى فى أبواب الفاعل ونائبه والمفعول به تكاد تتكرر بأمثلتها وشواهدها، بل زد على ذلك ما يختص بباب الأفعال المتعدية لمفعولين التى تتكرر بأمثلتها وشواهدها فى باب نائب الفاعل.

ويبدو أن استيعاب السيوطى لتراث القدماء من النحاة واستدعاءه للمعلومات

---

(١) المطالع ص ٢٧١ + وتكررت الظاهرة فى نائب الفاعل ص ٢٦٢ وما يليها.

المتعلقة بالظاهرة المدروسة هو الذى أوقعه فى التكرار والخلط بين جميع المسائل المتعلقة بالمكون المدروس، ففى باب الإستثناء خصوصا المكون سوى: ذهب جماعة منهم الرمانى وأبو البقاء العكبرى إلى أنها ظرف متمكن، أى يستعمل ظرفا كثيرا، وغير ظرف قليلا.

والحقيقة أن السيوطى تعرض لأغلب هذا فى باب المستثنى، وأورد قول الشاعر:

وإذا تباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشترى

والشاهد فيه قوله "فسواك" حيث خرجت "سوى" عن الظرفية ووقعت هنا مبتدأ، والخبر قوله بائعها. وقوله:

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

والشاهد فيه قوله "ولم يبق سوى العدوان" حيث وقعت "سوى" فاعلا للفعل يبقى، وخرجت عن الظرفية.

ولم يقتصر التكرار على الوظائف النحوية للمكون الواحد فى أكثر من باب بل ناقش السيوطى أيضا مسألة التصنيف ألى أقسام الكلام المختلفة داخل باب المفعول فيه، فمن ذلك(١): من الظروف العادمة للتصرف "مع" وهى اسم لمكان الإجتماع أو وقته "تقول زيد مع عمرو" و "جئت مع العصر" ويدل على اسميتها تنوينها فى قولك "معا" ودخول "من" عليها فى قولهم "ذهب من معه" وقرىء "هذا ذكر من معى" (بكسر الميم).

ويورد(٢): لما وقع الكلام فى الظروف، استطردت إلى الظروف المبنية وقد

---

(١) المطالع ص ٣١٩
(٢) المطالع ص ٣٢١

تقدم عند جمع المبنيات فى باب المعرب والمبنى نوعان: الزمن المبهم المضاف لجملة أو المبنى، والظرف المقطوع عن الإضافة، وبقى أشياء غير ذلك، فمنها (إذا) والدليل على اسميتها قبولها التنوين والإضافة إليها بلا تأويل، وبنيت لوضعها على حرفين، وافتقارها إلى الجمل (بعدها).

والحقيقة أنه ينتهج نهجا أسلوبيا فى بيان الوظائف النحوية التى تؤديها "إذ" فيورد: وتلزم (إذ) الظرفية، فلا تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأ إلا أن يضاف اسم الزمان إليها نحو: حينئذ ويومئذ وبعدئذ، قال تعالى: "بعد إذ هديتنا"(١) وجوز الأخفش والزجاج وابن مالك وقوعها مفعولا به نحو "اذكروا إذ كنتم قليلا"(٢) وبدلا منه نحو "واذكر فى الكتاب مريم إذ إنتبذت"(٣) وتلزم (إذا) الإضافة إلى جملة اسمية نحو "واذكروا إذ أنتم قليل"(٤)، و"إذ هما فى الغار"(٥)، أو فعلية كما سبق.

ويستمر السيوطى فى مناقشة كون (إذ) من أى أقسام الكلام، فيورد(٦) وترد للمفاجأة نص على ذلك سيبويه، وهى الواقعة بعد (بينا) و (بينما) كقوله:

استقدر الله خيرا وأرضين به فبينما العسر إذ دارت مياسير

وهل هى حينئذ ظرف زمان أو مكان أو حرف لمعنى المفاجأة أو حرف مؤكد أو زائد؟

---

(١) سورة آل عمران آية ٨
(٢) سورة الأعراف آية ٨٦
(٣) سورة مريم آية ١٦
(٤) سورة الأنفال آية ٢٦
(٥) سورة التوبة آية ٤٠
(٦) المطالع ص ٣٢٣

ويناقش السيوطى الظروف من حيث التعريف والتنكير والاسمية والحرفية.

كما أنه يعرض ويناقش آراء النحاة السابقين مناقشة تفصيلية، بالرغم من عقده لباب المقدمات الذى تناول فيه القضايا السابقة فى مختلف الأبواب النحوية، فيقول فى المفعول به فى باب المنصوبات خصوصا عند عرضه للمكون (الآن) من الظروف المبنية (الآن) وهو اسم للوقت الحاضر جميعه كوقت فعل الإنشاء حال المنطوق به، أو الحاضر بعضه نحو "فمن يستمع الآن"(١)، "الآن خفف الله عنكم"(٢) واختلف فى علة بنائه فقال الزجاج: بنى لتضمنه معنى الإشارة لأن معناه: هذا الوقت، ورد بأن المتضمن بمعنى الإشارة بمنزلة اسم الإشارة، وهو لا تدخله "ال" وقال أبو على لتضمنه معنى لام التعريف لأنه استعمل معرفة وليس علما، و"ال" فيه زائدة، وضعفه ابن مالك بأن تضمين اسم معنى حرف إختصارا ينافى زيادة ما لا يعتد به، هذا مع كون المزيد غير المضمن معناه، فكيف إذا كان إياه. وقال المبرد وابن السراج لأنه لو خالف نظائره تفسيره هذا بأن حق الاسم فى أول أحواله التجرد من "ال" فاذا أريد تعريفه لحقته "ال" فلما وقع الان فى أحواله بـ (ال) خالف فى ذلك الأسماء وشابه الحروف. إذ هو نكرة فى الأصل استعمل من أول وضعه باللام، وباب اللام أن تدخل على النكرة وقال ابن مالك: بنى لشبه الحرف فى لفظ واحد لأنه لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر بخلاف حين ووقت وزمان ومدة.

---

(١) سورة الجن آية ٩
(٢) سورة الأنفال آية ٦٦

قال أبو حيان: وهو مردود بما رد به هو على قول الزمخشرى وذهب بعضهم إلى أنه معرب وفتحته اعراب على الظرفية واستدل له بقوله: "كأنهما ملآن لم يتغيرا" فالشاهد فيه قوله (ملآن) أى: من الأن حيث جر لفظ الأن بكسره (بكسر النون) أى: من الأن، فحذف النون لالتقاء الساكنين وجر فدل على أنه معرب، وهذا القول هو المختار عندى لأنه لم يثبت لبنائه علة معتبره فهو منصوب على الظرفية وإن دخلته (من) جر ولم يثبت خروجه عن الظرفية.

وهذه المسائل نفسها يتناولها السيوطى فى سائر الظروف، فمما كرره ما قاله فى المقدمات عن المكون (أمس) وهو يذكره فى باب المفعول فيه فيقول(١): أمس اسم زمان موضوع لليوم الذى يليه اليوم الذى أنت فيه، أو ما هو فى حكمه فى إرادة القرب، وهو اسم معرفة منصوب يستعمل فى موضع رفع ونصب وجر فان استعمل ظرفا فهو مبنى على الكسر عند جميع العرب، وعلة بنائه تضمنه معنى الحرف، وهو لام التعريف وإن استعمل غير ظرف.

وهناك قضايا أساسية لا تعالج فى بابها الخاص بها لكنها تعالج فى إطار مسائل أخرى تتداخل معها بالرغم من المقدمات الوافية فى التصنيف إلى أقسام الكلام، فالفعل المضارع الواقع بين جملتى الشرط والجواب الذى يرد منصوبا يوقع الدارس فى حيرة فيفسر بأنه إما أن يكون مجزوما عطفا على فعل الشرط، ذلك أنه يقع فى باب المجزومات (الشرط) ويفسر بأنه منصوب باضمار (أن) الناصبة للفعل المضارع التى تسبقه وتقدم الواو على المفعول معه ويذكر لذلك

---

(١) المطالع ص ٣٢٨

خصائص وهى يشترط أن يسبقه استفهام وكان الأولى أن توضع هذه المسائل الأساسية للمفعول معه فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات من ناحية وبالمنصوبات من ناحية أخرى، وإما أن تجمل المسألة فى باب المقدمات عند الحديث عن خصائص الفعل المضارع.

٣- الحقيقة أن ما نسجله فى منهج السيوطى النحوى، دراسة تحليلية فى المطالع يعد بحثا فى منهج النحو العربى، ذلك ان السيوطى قد استقى علمه من المصادر النحوية القديمة، أضف ذلك الى الأراء التى يوردها لعلماء النحو، مؤمنا بها ومفسرا لها، فمن ذلك ما أورده فى باب الحال خصوصا عند تجويز المبرد للقياس على الحال التى وردت شذوذا فى كلام العرب وأنكر النحاه القدماء القياس عليها، حيث يقول(١):

وشذ المبرد فقال يجوز القياس ويستثنى ثلاثة أنواع جوزوا القياس فيها:

الأول: ما وقع بعد خبر قرن بـ (ال) الدال على الكمال، نحو أنت الرجل علما أى الكامل فى حالة علم، ويقال أنت الرحل أدبا أو نبلا وحلما.

الثانى: ما وقع بعد (أما) نحو: أما علما فعالم.

الثالث: ما وقع بعد خبر شبه به مبتدؤه نحو: أنت زهير شعرا، وأنت حاتم جودا أو الأحنف حلما، أو يوسف حسنا. وقال أبو حيان فى الأول:

والثالث: الأظهر أن النصب فيها على التمييز، واختار ابن مالك فى الثانى أنه منصوب على المفعول به والتقدير مهما تذكر علما فالذى وصف عالم.

---

(١) المطالع ص ٣٤٩

والحقيقة ان السيوطى نثر فى الكتب الثلاثة والمقدمات التى تضمنها المطالع مسألة الاتساع فى الوظائف النحوية وقد اضطره ذلك إلى تكرار ذكر هذه المسائل عند ذكر كل باب يمكن أن يؤدى المكون التركيبى الواحد فيه وظيفة يصلح أن يؤديها المكون التركيبى نفسه فى باب آخر، فمما أورده فى باب الحال عن الخبر: الحال والخبر(١) إذا ذكر مع المبتدأ اسم وظرف أو مجرور كلاهما صالحان للخبر بأن حسن السكوت عليه، وجاز جعل كل منهما حالا..... والاخر خبر بلا خلاف، لكن إن تقدم الظرف أو المجرور على الاسم اختير حالية الاسم وخبرية الظرف نحو "فيهما زيد قائما" لأنه من حيث تقديمه الأولى به أن يكون عمدة لا فضلة، وإن تأخر اختير خبرية الاسم نحو "زيد فى الدار قائم" فان كان الظرف أو المجرور غير مستغنى به تعين خبرية الاسم وحالية الظرف، نحو: "فيك زيد راغب" وأجاز الكوفيون حالية الاسم. ويقف السيوطى عند بعض المسائل موقف الناقل عن القدماء سواء فى الشواهد أم فى الآراء النحوية ويتمثل هذا فى ايراده لمسألة الجر بالمجاورة(٢). فيقول أثبت الجمهور من البصريين والكوفيين الجر بالمجاورة فى النعت كقولهم: (هذا جحر ضب خرب) وفى التوكيد كقوله: "يا صاح بلغ ذوى الزوجات كلهم" بجر "كلهم" على المجاورة لأنه توكيد لذوى المنصوب لا للزوجات وإلا لقال: كلهن وزاد قوم وقوعه فى عطف النسق.

---

(١) المطالع ص ٣٥٦ بتصرف
(٢) المطالع ص ٤٤٠

وأنكر السيوطى وابـن حسن الجر بالمجاورة مطلقا، وتـأولا مـا ورد مـن ذلك، وخصه قوم بالنكرة وقصده الفراء على السماع ومنـع القيـاس علـى مـا جـاء منـه ولقد ظننت أن القدامى من النحاة واللغويين بعيدون كل البعد عن فكرة مناهج البحث اللغوى أو الموضوعات التى استحدثنا لها مصطلحات كالفكر النحوى أو اللغوى، لكننى وجدت عند القدامى أنفسهم الجواب، فقد كـانوا متنبهين إلـى فكرة المنهج أو الوحدة الموضوعية كالباب النحوى فالسيوطى يفرق بين التقسيم علـى أساس العلامة وبين التقسيم على أساس التركيب النحوى بأكمله أو البـاب فيقول فى الاستثناء(١) (عبرت بالمستثنى كابن مالك فـى التسهيل بخلاف تعبير النحاة وابن مـالك فـى الألفيـة "الأستثناء" لأن البـاب للمنصوبـات والمستثنى أحدهـا لا الأستثناء كما ترجم فى بقية الأبواب بـالمفعول والحـال دون المفعوليـة والحاليـة). وقد يظن البـاحث النـاظر نظـرة عجلـى أن تسـجيل السيوطى لقواعد اللغـة يعد معياريا بحتا، لكنه فى الحقيقة تسجيل بعد حصر للحـالات التـى وردت فـى كتب اللغة فهو يقررها على المتعلم على طريقة "لاتقل ولكن قل" وهى اسـتقراء مستمد من كتب القدماء مدعم باستخدامات الناطقين العرب كما استشهدت به كتب اللغـة والنحو.

فـأورد فـى مجـىء الحـال جملـة وشبه جملـة(٢): تقـع الحـال ظرفـا، وجـارا ومجرورا، وتقع جملة خبرية خالية من دليل اسـتقبال، فـلا تقـع جملـة طلبيـة، ولا ذات السين أو "سوف" أو "لن" أو "لا" والجملة الواقعة حالا إما إبتدائية ..... أو

---

(١) المطالع – الكتاب الثانى ص ٣٣٧
(٢) المطالع ص ٣٦٠

مصدرة بـ "لا" التبرئة ..... أو بـ "ما" ..... أو بـ "إن"..... أو "كان" ..... أو مضارع مثبت عار من "قد" ..... أو مقرون: "بقد" ..... أو منفى بـ "لا" أو بـ "لم" ..... أو بماضى بعد "إلا" ..... أو متلو بـ "أو" ..... أو حال.....

والحقيقة أن السيوطى قد اطلع على آثار القدماء العلمية بعامة والنحوية منها خاصة وليس من شك فى انه متأثر بما اطلع عليه من آثار الأقدمين وبمصنفاتهم بل بشواهدهم وأمثلتهم، ينعكس بطبيعة الحال ما تناولوه من قضايا على فكره النحوى وبعض الشىء بمنهج تناوله ومن ذلك تأثره بالمنحى المعيارى فى تقرير القواعد والأصول.

فالحقيقة أن هناك ظواهر تناولها السيوطى بنوع من المعيارية بالرغم من تناوله لظواهر الاتساع فى الاستخدام والوظائف النحوية معا فمنها شروط المنصوب على التوسع ومنها ايضا شروط الوصف (بإلا) احترازا من: "غير" ومثله ما أورده السيوطى فى الاستثناء ومنها ما أورده عن القدماء غير مجيز أن يحل المصدر محل المشتق فى أداء وظيفة الحال(١): وأجمع البصريون والكوفيون على أنه لايستعمل من ذلك إلا ما استعملته العرب ولا يقاس عليه غيره فلا يقال: جاء زيد بكاء، ولا ضحك زيد بكاء، وقد أدى تأثر السيوطى بمنهج القدماء – فضلا عن صبغه بصبغة معيارية – إلى أن يورد ما قاله القدماء كما هو سواء أكان ذلك اتفاقا أم خلافا، وفى شروط نصب إذن للمضارع، حدد ثلاثة شروط أحدها: أن تكون مصدرة فلا تنصب متأخرة نحو أكرمك إذن بلا خوف لأن الفعل المنصوب لايجوز تقديمه على ناصبه.

---

(١) المطالع ص ٣٤٩

وأما المتوسطة، فان احتاج ما بعدها إلى ما قبلها افتقار الشرط لجزائه نحو: إن تزرنى إذن أكرمك، والقسم لجوابه نحو:

لئن عادلى عبد العزيز بمثلها وأمكننى منها إذن لا أقيلها

أو أخبر للمخبر نحو: زيد إذن يكرمك، امتنع النصب فى الصورة كلها وإن وليت عاطفا قل النصب، والأكثر فى لسان العرب إلغاؤها.

قال تعالى "وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا"(١) وقرىء شاذا ألا يلبثوا ومما ورد معياريا ليس من جهة القواعد ولكن من جهة الاستخدام ويبدو أنه صادر إلى متعلمين للإنشاء حيث يورد فى نواصب المضارع(٢) ونواصب المضارع لايجوزأن يحذف معمولها وتبقى هى لا اختصارا ولا اقتصارا فلو قيل: أتريد أن تخرج؟ لم يجز أن تجيب بقولك: أتريد أن وتحذف "اخرج" وأجاز بعض المغاربه مستدلا بما وقع فى صحيح البخارى. "فيذهب كيما فيعود ظهره طبقا واحدا" يريد كيما يسجد، وأورد من باب الاضافة حيث يقول(٣): لا يضاف اسم لمرادفه، ولا لنعته ولا لمنعوته، ولا لمؤكده، لأن المضاف يتعرف أو يتخصص بالمضاف إليه والشىء لا يتعرف أو يتخصص إلا بغيره، والنعت عين المنعوت، وكذا المؤكد إلا بتأويل كقولهم: سعيد كرز أى مسمى هذا اللقب وخشرم دبر أى الذى له ذا الاسم لأنهما اسمان للنحل، وصلاة الأولى، ومسجد الجامع، ودين القيمة، أى الساعة الأولى، واليوم أو الوقت الجامع، والملة القيمة، سحق عمامة وجرد

---

(١) الإسراء ٧٦
(٢) المطالع ص ٣٧٩
(٣) المطالع ص ٤٢٥

قطيفة، الأصل: عمامة سحق، وقطيفة جرد، قدم وجعل نوعا مضافا إلى الجنس كخاتم فضة، ويوم يوم وليلة ليلة.

٤- وقد انفرد السيوطى ببعض الآراء الخاصة به من خلال ما سجله من ملاحظات على الشواهد العربية والاستخدامات العربية، بالرغم من تأثره الشديد بقدامى النحاة بل وبمن تلاهم من أسلاف، فلقد أورد السيوطى عناوين داخلية سمى بعضها بالفوائد وبعضها الآخر بالمسائل، وفى المسائل كان يركز على الخصائص التركيبية للظاهرة أو المكون الذى يتحدث عنه من ملاحظاته الشخصية على التراكيب العربية. أما الفوائد فكان يستعين فيها بآراء النحاة القدامى والمعاصرين وهذا بيان بها فى كتاب المطالع:

مسلسل	العنوان	الموضوع	رقم الصفحة
١	فائدة	تعريف الكلام	صفحة ٥٨
٢	فوائد	أنواع الإعراب	صفحة ٩١
٣	فائدة	الأفعال الخمسة	صفحة ١٢١
٤	مسألة	الفاء الواقعة فى خبر المبتدأ	صفحة ١٩٦
٥	مسائل	"ما" وأخواتها	صفحة ٢١٠
٦	فائدة	المفعول فيه "الظرف"	صفحة ٣١١
٧	مسألة	الوصف بغير و "إلا"	صفحة ٣٤٥
٨	فائدة	الأحوال المركبة	صفحة ٣٥٩
٩	مسألة	تمييز العدد	صفحة ٣٦٨
١٠	مسألة	لو	صفحة ٤٥٦

ومن خلال هذا يعقد السيوطى أبوابا خاصة وفروعا دقيقة لبعض مشكلات الفكر النحوى، وفى الباب الخاص بالمقدمات يسميها فوائد(١) خاصة وغالبا ما لا يقرر رأيه الخاص بل يجمع آراء من سبقوه فى هذا المجال ذاكرا بعض ملاحظاته مؤكدا ما استهواه من آراء يراها سديدة وأولى هذه المسائل عن ورود الفاء فى الخبر فقد استقصى هذه الحالات ووضعها فى ستة نقاط(٢)، ومثلها ما اورده عن أوجه الخلاف بين "ما"، "لا"، "ليس" وخصائص تركيب كل منها من حيث الاسمية والخبرية.

ومن الجوانب الأسلوبية التى أوردها السيوطى فى المطالع بعنوان "فائدة" قوله فى تقدير (قدر) على أنها مفعول فيه وأن ما حل محلها من مكونات تركيبية يعد مفعولا فيه يقول(٣) وقع قديما أنى سئلت عن وجه النصب فى قوله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" فهذه الكلمات الأربع منصوبات على الظرف، على أن التقدير: قدر زنة عرشه وكذا البواقى، فلما حدث الذى هو "قدر" قام المضاف إليه مقامه فى إعرابه. ولم يصرح أحد بأن "قدرا" ينصب على الظرفية. والجواب أن ذلك لكونه يعدون فى عداد المبتدئين المقصرين على الملحة وشبهها، وأما قولهم أن هذه الكلمات الأربع ليست من ظرف الزمان ولا من ظرف المكان، فجوابه أن ذلك بقول النحاة: إن من المنصوب على الظرف المصادر الجارية مجراه باطراد بأن حذف المضاف إليها تقدم تقديره وقد نص على ذلك ابن مالك وغيره، ونقل أبو حيان فى شرح

---

(١) المطالع ص ٩١
(٢) المطالع ص ٩٦
(٣) المطالع ص ٣١١

التسهيل أن سيبويه إمام الفن نص على أن من المنتصب على الظرف: زنة الجبل ووزن الجبل، وجزم ابن مالك فى شرح التسهيل أيضا.

ففى شرح التسهيل لأبى حيان قال الصفار فى شرح الكتاب: أعلم أن المصدر إذا استعمل فى معنى الظرف جاز أن يضاف إلى الفعل، تقول: أتيتك ريث قام زيد، أى: قدر بطء قيامه، فلما خرجت إلى الظرف جاز فيها ما جاز فى الظرف. فانظر كيف قدر نصب المصدر على الظرف بتقدير "قدر".

وتتسم الفائدة هنا بالاسلوبية ذلك أن الخلاف فيها واقع على الاستخدام وليس على القاعدة النحوية القديمة فحسب، أضف إلى ذلك الإبداع فى التفسير المبنى على الاستخدام العربى، فالحقيقة أن ما عنونه "بالفائدة" إنما يريد بها أن يقرر فكرة عنت له ورآها صوابا، وإن لم تتصل بقواعد اللغة نفسها بل إن تعلقت بإسلوبه فى الصياغة، ومن ذلك ما أورده عن الحال(١): تذكر وتؤنث، فلهذا جاءت فى النظم بالتذكير، وفى الشرح بالتأنيث، والحقيقة أن ما أورده السيوطى بعنوان "مسألة" قد لا يكون كله جديدا، بل قد يكون بعضه تلخيصا لما ورد عن القدماء مع إضافة تتضح فيها مسألة الإتساع فى الوظائف النحوية(٢) بإختلاف العلامة الإعرابية وتحولها من نصب على التمييز إلى جر بالإضافة مع ثبات المكون التركيبى، ونجتزىء فى مسألة أوردها فى باب التمييز، فننحى جانبا ما لخصه عن القدماء، ونذكر ما أورده فى إطار الإتساع فى الوظائف النحوية حيث

---

(١) المطالع ص ٣٥٩
(٢) المطالع ص ٣٥٩

يورد: وإذا جيء بنعت مفرد أو جمع تكسير، جاز العمل فيه على التمييز وعلى العدد نحو: عندى عشرون رجلا صالحا أو صالح وعشرون رجلا كراما أو كرام، فإن كان جمع سلامة تعين الحمل على العدد نحو: عشرون رجلا صالحون، ولا يجمع التمييز مع ثلاثة ونحوها جمع كثرة وأمكن جمع القلة غالبا.

****

الفصل الثانى

معايير التناول

١- تختلف معايير التناول عن أسس التصنيف فى أن الثانية تختص بتقسيم الأبواب النحوية الرئيسية وضم بعضها إلى بعضها الآخروفقا للعلامة المصاحبة أو وفقا للتصنيف حسب أقسام الكلام، اما الأولى فتكون مرحلة تالية للتصنيف والتقسيم، إذ هى تهتم داخل الباب النحوى أو المسألة النحوية الواحدة من حيث البدء بتقرير القاعدة وفقا لما ورد فى المنظومة النحوية التى لا تتسع لمناقشة آراء العلماء السابقين والمعاصرين من النحاة واللغويين، كما لاتتسع للإستشهادات التى وردت فى كتب النحو السابقة، وهى أيضا لا تتسع للأمثلة والشواهد التى يمكن بها لأن يناقض السيوطى قاعدة قديمة وردت عند سيبويه أو المبرد أو أبى حيان(١) والحقيقة أن هناك معايير للتناول، منها المعيار البنيوى الذى يستند إلى الوحدات التركيبية(٢) فى تمييز خصائص الباب النحوى المدروس كأن يقترن المكون التركيبى المدروس بمكون آخر مثل حرف الجر أو حرف ينصب الفعل المضارع بعده، كما أن هناك معيارا آخر وهو المعيار البنيوى الوظيفى(٣) الذى يستند إلى العلامة المصاحبة للمكون المدروس الذى يؤدى وظيفته النحوية

---

(١) نقصد مناقضتهم بصورة موسعة حيث إنه انتقس ببعض آرائهم.

(٢) د. أحمد المتوكل – من البنية الحملية إلى البنية المكونية، الوظيفة المفعول فى اللغة العربية – ط ١ ١٩٨٧ – ص ٥٢.

(٣) Dick Simon: Studies in Functional Grammer London Academuc press 1980

بمقتضاها من جانب ومن جانب آخر اعتماد وظيفته النحوية على مبناه الصرفى كالأشتقاق أو عدمه، والمعيار الثالث هو المعيار الدلالى الذى يقتضى أن يرد المكون فى تركيب يدل دلالة معينة.

٢- واهتمام السيوطى بالمعنى معيارا من معايير التناول يعد من المنجزات التى يجدر بنا أن نستحسنها ونثنى عليها، لكنه فى بعض الأحيان يهتم بالمسألة التركيبية مهملا المعنى مراعاة للقاعدة النحوية، ففى الباب الخاص باجتماع الشرط والقسم ينص على أنه إذا اجتمع شرطان فالجواب لأولهما والشاهد:

"إن تستغيثوا بنا أن تذعروا تجدوا منا معاقل عز زانها كرم"(١) فهو يؤول الشرط الثانى بحال تقديره (إن تستثيغوا بنا مذعورين تجدوا) والحقيقة أن الذعر حادث أولا وسابق على الإستغاثة، فالأصل من حيث المعنى أن يكون جواب جملة الشرط الثانية فى الترتيب التركيبى (إن تذعروا)، فأى الجملتين الشرطيتين سابقة الأخرى وأى التصنيفين أولى بالأخذ به، أعلى أساس الدلالة أم على أساس التركيب.....؟ وتلك قضية أخرى تطرح تساؤلا جديدا يضاف إلى التصنيف الذى أضفناه فى بداية البحث وهو: أعلى أساس الوظيفة الدلالية أم على أساس العلامة الإعرابية يجب أن نصنف؟ ويبدو أنه يجب أن نقسم على حسب العلامة عند تناول الأسماء المفردة والأفعال بالدراسة وهى التى تظهر عليها العلامات، أما فى المسائل التركيبية الخاصة بالأساليب، فيجب أن نأخذ بالوظائف، إما التركيبية أو الدلالية وعليه فإننا يجب أن نفصل بين دراسة المفردات وبين دراسة التراكيب فى التصنيف النحوى الذى نقترحه.

---

(١) أنظر الباب الخاص باجتماع الشرط والقسم – المطالع ص ٤٥١

لقد قرر السيوطى عند تناوله لموضوع الإستثناء فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات أنه يدرك الفرق بين التسميتين، المستثنى والاستثناء فالأول معناه أنه قسم الكتاب على أساس العلامة الإعرابية أما الاستثناء فمعناه أنه قسم الكتاب على أساس الباب أو التركيب بأكمله وهذا رأى سديد يستوجب أن نجد تسمية للكتاب الثالث مثل "المجرورات" وما يحمل عليها من المجزومات(١).

فالمجرورات تعنى انه اتبع النهج نفسه الذى تحدث عنه فى باب المستثنى(٢) وهو أن يفرد هذا الكتاب للأسماء المجرورة، وذلك أن الفعل لا يتأثر بهذه العلامة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا نجد تقسيم الباب على أساس الحروف التى تعمل الجر فى الأسماء، ناهيينا بما إذا كان هذا الجر محضا أى ليس لوظيفة تخضع لباب نحوى بعينه كجر جميع الأسماء أم كان هذا الجر يخضع لوظيفة دلالية تابعة لباب نحوى كالقسم بالحروف نفسها التى تقوم بالجر(٣) وهنا نصادف أكثر من تداخل، فالتقسيم على أساس الحروف العاملة جعل السيوطى نفسه يصادف عقبة كبيرة فى سبيل تناول الباب فحروف الجر عددها محدد وقد حصرها فى ثلاثة عشر حرفا، ووظيفة هذه الأحرف جميعها النحوية هى الجر والعلامة الإعرابية المصاحبة للاسم المجرور هى الكسرة، وكل من الجار والمجرور يعد مركبا يمكن أن يتعلق بأحد عناصر التركيب وبهذه العبارات المختصرة كان يمكن أن ينتهى هذا الباب.

---

(١) المطالع ص ٣٩٣
(٢) المطالع ص ٣٣٧
(٣) المطالع ص ٤١٦

لكننا نجد السيوطى يتحرك فى دائرة أوسع يتناول هذا الباب تناولا استعماليا محضا، يخص فيه كل حرف بدلالة محددة فى تركيب محدد، ثم لا يلبث أن يعرض للحرف الواحد فى تراكيب مختلفة، يؤدى فيها الحرف نفسه الوظيفة الدلالية بحرف آخر من أحرف الجر حتى يكاد يستغرق دلالة بعض الأحرف الأخرى، عارضا لاستشهادات متنوعة من التراكيب العربية المختلفةالتى تمثل المستويات اللغوية العربية المتاحة فى ذلك العهد وهذا النهج يعد منطلقا لا نستطيع أن نحكم عليه بأنه من قبيل التطور أو القصور، فليس كل ما نجده من آثار علمية عن الأقدمين وقد تطابق مع ظاهرة فى الدرس اللغوى الحديث يعد تطورا، كالمنهج الاستعمالى الاحصائى، فالذى دعا السيوطى إلى هذه الخصوصية فى التناول هو نوع التقسيم الذى لجأ إليه حيث مزج بين اتخاذ العلامة الإعرابية أساسا للتقسيم وبين الوظيفة النحوية من ناحية والوظيفة الدلالية من ناحية أخرى، كما اتخذ أيضا التصنيف إلى أقسام الكلام أساسا رابعا لتأليف المطالع. وهذا المزج بين أسس التقسيم المختلفة، نجده فى الباب التالى لأحرف الجر وهو باب القسم(١) بالأحرف نفسها التى تؤدى وظيفة دلالية هى القسم، بعد أن كانت وظيفتها فى الباب السابق تعد وظيفة نحوية، كما نجد مفارقة أخرى وهى وجود حرف "التاء" بين هذه الأحرف، فالحقيقة أنه يؤدى وظيفة دلالية هى القسم وان الاسم الذى يليه مجرور شأنه شأن الأسماء المجرورة، لكن الحرف العامل لا يندرج ضمن تصنيف أحرف الجر، وفى هذا الإطار نجد مفارقات أخر، نعنى باب القسم نجد عرضا لأسماء مجرورة بالإضافة كلفظ الجلالة

---

(١) المطالع ص ٤١٦

خصوصا عند استخدام المكون التركيبى "أيمن"، فلفظ الجلالة التالى لهذا المكون مجرور بالإضافة ومحله الإعرابى الرفع، والخبر محذوف تقديره "قسمى" وأصل التركيب "أيمن الله قسمى" ومن هنا فالوظيفة الدلالية "القسم" مستفادة من المبتدأ المضاف "أيمن" ومن الخبر المقدر "قسمى".

ومن هنا فليس هناك حرف عامل وإنما هناك مجرورات ومن هذا فإن تسمية "الكتاب الثالث" تنطبق على هذه الجزئية ولا تنطبق على ما سبق، غير أننا نجد السيوطى يعرض فى هذه المسألة لبعض الخصائص الفنولوجية لهذا المكون التركيبى فيقرر أنه يرد مبدوءا بالهمزة، كما يرد مخففا ومسبوقا بصامت يعوض الحركة المفقودة من تخفيف الهمزة فتصبح: "ويمن" كما أنها ترد محذوفة النون فتصبح "ويم الله" وترد أيضا على هيئة حرف واحد هو الميم فتصبح "م الله" والحقيقة أن الواو السابقة على هذا المكون وأيضا الميم المتبقية من هذا المكون لا تعد حرفا عاملا أو مبررا لتناول هذا الموضوع ضمن المجرورات على أساس من التقسيم حسب الظروف العاملة.

ولا يتوهم متوهم أن الواو التى تسبق "أيمن"، سواء عند ثبوتها أو حذفها تشبه الواو التى تسبق "رب": فالأخيرة لابد أن يليها اسم مجرور، لكن الأولى يليها اسم مرفوع ولفظ الجلالة مجرور بالإضافة، ونجد فى تناول السيوطى للإضافة عرضا لظواهر لغوية عامة كالمطابقة فى حالة التذكير والتأنيث ومسألة التعريف بأكثر من مؤثر كالألف واللام مع الإضافة.

كما يعرض لمسائل تركيبية كالاعتراض والفصل بين متلازمين بالمفعول به، والظرف والجار مع مجروره، وفى أثناء موضوع الإضافة نجد تناولا فنولوجيا خاصا بباب النداء. وعند حديث السيوطى عن عملية الجر بالمجاورة نلمس فى

كلامه اقتناعا بأن هذه الظاهرة تعد من الخروج عن المألوف النحوى وأنها لاتخضع لقاعدة بعينها ولا يمكن القياس عليها فى الاستخدام وجميع ما يعرض له من شواهد موروث عن الناطقين الأوائل وكتب النحاة المتقدمين.

وفى الكتاب نفسه نجد تسميتين لباب واحد، هما المجزومات فى بداية الكتاب، والجوازم فى بداية الموضوع نفسه. والتسمية بالجوازم تبدو موافقة للنهج الغالب على كتاب المجرورات وما يحمل عليها من المجزومات، فأغلب الكتاب يخضع للتقسيم على أساس الحروف العاملة التى يعمل جزء منها الجر فى الأسماء وجزء آخر يعمل الجزم فى الأفعال، والأدوات فى هذا الكتاب تتنوع بين حرف واسم، وعليه فإننا نجد مزجا فى التقسيم حيث أن عوامل الجر بعضها من الأحرف كحروف الجروبعضها أسماء كالمضاف الذى يعمل الجر فى المضاف إليه وأيضا الجوازم بعضها أحرف وبعضها أسماء كأسماء الشرط، ومما هو جدير بالملاحظة أن المعمولات فى حالة الجر، فهى أفعال، وإذا كان السيوطى قد ورث هذا التقسيم عن النحاة واللغويين القدامى، فليس من شك فى ان له نظرات لها من الخصوصية بحيث تنسب إليه وتشهد بعلمه الفريد وهو بنفسه ليسجلها فى الكتاب عند ترجيح رأى بعينه أو عند مخالفة من سبقه فى الأراء وقد ذكر ذلك لنا صراحة عند تسميته باب الإستثناء(١) بالمستثنى، وفى عرض السيوطى لجوازم المضارع، يقترن ذلك عنده بالخلط بين الوظيفة النحوية وهى الجزم والوظيفة الدلالية وهى الشرط فيتناوله تناولا تركيبيا، فيعرض لخصائص التركيب وإجتماعه مع تركيب آخر هو تركيب القسم، مسجلا غياب جواب أحد التركيبين

---

(١) المطالع – الكتاب الثانى ص ٣٣٧

بحيث يكون الجواب المذكور لأسبقهما ذكرا فى التركيب كما يعرض لظاهرة الحذف فى التركيبين ويمزج السيوطى بين تناول المجزومات بالدرس وبين إعراب الجوازم أنفسها لبيان وظيفتها بالنسبة للتركيب، وفى هذا الإطار لا يبعد كثيرا عن التسميتين(١) اللتين وضعهما للباب، لكنه فيما يلى من أجزاء الكتاب يبعد عن الجوازم والمجزومات فيعرض لحروف المعانى كالإستفهام وأحرف الجواب، وفى هذا الجزء يتناول بالدرس الأدوات من حيث الوظيفة الدلالية، وفى نهاية الكتاب يعرض لمسألة فنولوجية صوتية هى التنوين، وبهذا فالسيوطى فى تناوله للظاهرة الواحدة يتبع أكثر من طريقة فى التناول، وعند تناوله لظاهرة أخرى فإنه لا يتبع الطرائق عينها ولا المسميات نفسها، فهو فى نهاية الكتاب الثانى يذكر "نواصب المضارع"(٢) ومن العنوان نلاحظ أن التركيز ينصب على الأحرف العاملة فى الفعل المضارع، لكننا نجده فى نهاية هذا الباب يعرض لظاهرة حذف الأداة، ومن هنا نستنتج أنه يركز على العلامة الإعرابية المصاحبة لنهاية الفعل وهو تفسير لإدراجه الفعل المضارع ضمن هذا الكتاب الخاص بالأسماء المنصوبة من الفضلات بالرغم من أن الفعل المضارع ليس من الفضلات، كما نجده فى الباب نفسه يتناول الأداة الناصبة من حيث وظيفتها فى التركيب، ووظيفة التركيب نفسه بالنسبة للنص الوارد فيه وذلك تحت عنوان "أن المفسرة"(٣) على حين أننا فى بداية الكتاب الثالث نجده يضع عنوان "المجرورات وما حمل عليها من المجزومات"(٤) ومن هذا العنوان نعلم أنه يخالف نفسه فى

---

(١) الجوازم والمجزومات
(٢) نواصب المضارع - أنظر المطالع ص ٣٧٧
(٣) المطالع - الكتاب الثانى ص ٣٨٩
(٤) المطالع - الكتاب الثالث ص ٣٩٣

الطريقة التى اتبعها عند تناوله لنواصب المضارع، فيبدو للقارىء أنه سيركز على المجرورات وليس على أحرف الجر، لكنه فى الحقيقة قسم الباب حسب أحرف الجر نفسها كما أسلفنا.

والحقيقة أن هناك معايير تندرج ضمن معايير أخرى ومنها المعيار اللغوى الذى لا شك أنه يعتمد على المعيار البنيوى من حيث إن المصنف يميز بين الظاهرة النحوية المدروسة وغيرها بمكون تركيبى قد يزاد على المكون التركيبى المدروس، أو يحذف منه بسبب إستخدام ينتسب إلى لهجة بعينها، والمعيار الآخر هو المعيار الإستعمالى الذى يستند إلى كل من المعيارين، التركيبى والدلالى معا، فالأساليب قد تتشابه تركيبيا فيما عدا مكون تركيبى واحد قد يكون حرفا أو فعلا، إذا إستبدل بحرف أو فعل آخر فإنه يكسب التركيب دلالة جديدة.

ومما أورده السيوطى مستندا إلى المعيار البنيوى، مسألة التمييز بين الأبواب النحوية ببعض المكونات، كحرف الجر وذلك فى باب المفعول المطلق(١) حيث يقول: إنما سمى مفعولا لأنه لم يقيد بحرف جر كالمفعول به وله وفيه ومعه. والمصدر هو المفعول حقيقة لأنه هو الذى يحدثه الفاعل وأما المفعول به فمحل الفعل، والزمان وقت يقع فيه الفعل، والمكان محل الفاعل والمفعول والفعل.

وأورد السيوطى، جامعا الإتساع فى الوظيفة النحوية والاستخدام معا، مستندا إلى المعيار التركيبى المورفولوجى، أى البنية المكونية للصيغة المستخدمة فى باب الحال، قائلا فى الحال التى وردت مصدرا بتأويل المشتق(٢). ورد الحال

---

(١) المطالع ص ١٦٨

(٢) المطالع ص ٣٤٨ .

مصدرا بكثرة، قال أبو حيان: وهو أكثر من وروده نعتا، ومنه "ثم ادعهن يأتينك سعيا"(١) و "ينفقون أموالهم سرا وعلانية"(٢) و "ادعوه خوفا وطمعا"(٣) و "ثم إنى دعوتهم جهارا"(٤)، وقالوا: قتله صبرا وأتيته ركضا ومشيا وعدوا، ولقيته فجأة وكفاحا وعيانا، وكلمته مشافهة، وطلع بغتة، وأخذت ذلك عنه سماعا وإختلف النحويون فى تخريج هذه الكلمة ونحوها من المسموع، ومذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أنها مصادر فى موضع الحال مؤولة بالمشتق أى ساعيا وراكضا وماشيا ومسرا ومعلنا، وخائفين وطامعين، وكذا الباقى، وقال بعضهم: هى مصادر على حذف مضاف، أى إتيان ركض، وسير عدو، ولقاء فجأة، وقيل أحوال على حذف مضاف، أى ذا سعى، وذا فجأة.

والحقيقة أنه فى مثل هذه المسائل لا يمكن الإستناد إلى معيار دلالى أو تركيبى ويكون المبرر الوحيد هو الإستخدام العربى بنسبته إلى قبيلة معينة أو مستوى لغوى خاص كالشعر، ومن ذلك ما أورده السيوطى فى ضبط المرخم(٥)، ففى المرخم لغتان: الإنتظار وهو نية المحذوف، وترك الإنتظار وهو عدم نيته، والأول أكثر استعمالا وأقواهما فى النحو، وجاء عليه ما ترى "ونادوا يا مال"(٦) وقول زهير:

---

(١) سورة البقرة ٢٦
(٢) سورة البقرة ٢٧٤
(٣) سورة الأعراف ٥٦
(٤) سورة نوح ٨
(٥) المطالع ص ٢٩٥
(٦) سورة الزخرف – القراءة الفاشية "يا مالك" وقد وردت القراءة "يا مال" بكسر اللام على لغة من ينتظر أى يقدر البناء على الضم على الحرف المحذوف.

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك

والشاهد فيه قوله "يا حار" حيث رخم "حارث" على لغة من ينتظر أى من ينوى المحذوف، ومن ثم أعرب هذا وأمثاله، منادى مبنى على الضم على الحرف المحذوف محل نصب.

وجاء على الثانى قول عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

والشاهد فيه "عنتر" فهو منادى بحرف نداء محذوف ومرخم، ومع ترخيمه بنى آخره على الضم على لغة من لا ينتظر المحذوف، أى من ينوى التمام، ومن ثم يعرب "عنتر" منادى مبنى على الضم فى محل نصب، وعلى اللغتين روى قول امرىء القيس: "أفاطم مهلا بعض هذا التدلل"، روى بالفتح على لغة من ينتظر، وبالضم على لغة من لا ينتظر. ويقال فى ثمود وعلاوة وسقاية ويا ثمو ويا علاو ويا سقاى.

واستخدم السيوطى معيارا مميزا للباب النحوى المدروس، فالتمييز عنده(١): نكرة فيه معنى "من" الجنسية رافع لإبهام جملة أو مفرد، فالجملة تأتى والمفرد: عدد نحو: أحد عشر رجلا، أو مفهم مقدار كيل أو وزن أو مساحة أو شبهها كمثقال ذرة، وذنوب ماء، ونحى سمنا.

وقد اعتمد على الدلالة فى باب الإضافة، فأورد عن "كل" و "بعض"(٢) من الأسماء ما يلزم الإضافة معنى وينفك عنها لفظا، فمن ذلك "كل" و "بعض"، والمشهور

---

(١) المطالع ص ٣٦٥

(٢) المطالع ص ٤٢٧

فى استعمالها أن لا يخلو من الإضافة لفظا إلا وهما مضافان معنى، قال سبحانه وتعالى: "وكل أتوه داخرين"(١) ولأجل نية إضافتها لم تدخل عليهما الألف واللام إلا فى كلام المتأخرين.

وفى موضوع الحال عند تعرض السيوطى للمنصوبات من الأسماء، يضع تصنيفا للحال وفقا للدلالة والمعانى التى يؤديها الحال، فالحال عنده أقسام(٢) بإعتبارات، فتنقسم بحسب قصدها لذاتها وللتوطئة بها إلى قسمين مقصودة، وهو الغالب وموطئه وهى الجامدة الموصوفة نحو "فتمثل لها بشرا سويا"(٣)، وتنقسم حسب التبيين والتأكيد إلى قسمين: مبنية وهو الغالب وتسمى مؤسسة أيضا وهى التى تدل على معنى لا يفهم مما قبلها، ومؤكدة وهى التى يستفاد معناها بدونها.

وهى ثلاثة أنواع: مؤكدة لعاملها وهى التى يستفاد معناها من صريح لفظ عاملها، والأكثر أن يخالفه لفظا نحو: "وليتم مدبرين"(٤) وقد توافقه نحو "وأرسلناك للناس رسولا"(٥). ومؤكدة لصاحبها، ذكرها ابن هشام وقال: أهملها النحويون، وفسرها بأنها التى يستفاد معناها من صريح لفظ صاحبها نحو: جاء القوم طرا، ومؤكدة لمضمون الجملة، وشرط الجملة كون جزءيها معرفتين لأن التأكيد إنما يكون للمعارف، وكونهما جامدين لا مشتقين ولا فى حكمهما وفائدتهما إما بيان يقين نحو: زيد أخوك معلوما وأيضا:

أنا ابن دارة معروفا بها نسبى وهل بدارة يا للناس من عار

---

(١) سورة النمل آية ٨٧
(٢) المطالع ص ٣٥٧
(٣) سورة مريم آية ١٧
(٤) سورة التوبة آية ٢٥
(٥) سورة النساء آية ٧٩

أو فخرا: أنا فلان شجاعا أو كريما، أو تعظيم نحو: هو فلان جليلا مهيبا، أو تحقيرا نحو: هو فلان مأخوذا مقهورا، أو تصاغر نحو: أنا عبدك فقيرا إلى عفوك، أو وعيد نحو: أنا فلان متمكنا فائق غضبى.

والحقيقة أن السيوطى يجمع بين التصنيف على أساس التركيب والدلالة معا فى أغلب الموضوعات، وفى موضوع الحال يتضح الجمع بينهما، ففى "صاحب الحال" يورد(١): لما كانت الحال خبرا فى المعنى وصاحبها عنه أشبه المبتدأ، فلم يجز مجئ الحال من النكرة غالبا إلا بمسوغ من مسوغات الإبتداء بها، ومن النادر قولهم: عليه مائة بيضا، وفيها رجلا قائما، ومن المسوغات النفى كقوله سبحانه وتعالى: "وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب"(٢).

والنهى نحو:

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

والاستفهام نحو:

يا صاح هل حم عيش باقيا فترى لنفسك العذر فى إبعادها الأملا

والوصف نحو قوله تعالى: "فيها يفرق كل أمر حكيم"(٣) والإضافة نحو: فى أربعة أيام سواء(٤). والعمل نحو: مررت بضارب هندا قائما.

والحقيقة أنه لا يمكن أن نعزو إلى السيوطى وحده مسألة الإعتماد على التركيب فى التصنيف، بل هو منهج النحاة العرب عموما، والكثير من عمل

---

(١) المطالع ص ٣٥١
(٢) سورة الحجر آية ٤
(٣) سورة الدخان آية ٥٤
(٤) سورة فصلت آية ١٠

السيوطى هو النقل، حيث لم تنقش فى عصره ظاهرة نقد النحو العربى كما هو فى العصر الحديث، فما يورده فى باب الفاعل الذى يظل فاعلا على المحل، أى يعد فاعلا من حيث الوظيفة النحوية وذلك إستنادا إلى المعنى، لكنه فى الحقيقة، أى الفاعل، مجرور بحرف جر وعلامته المصاحبة هى الكسرة بالفعل، لكنهم يلجأون إلى تفسير وتعليل، أو بمعنى أصح مخرج يخرجون عليه الشواهد، فيورد السيوطى جامعا بين النحو والدلالة شأنه شأن النحاة العرب السابقين والمعاصرين فى المطالع(١) فى باب "الفاعل": قد يجر الفاعل بالباء الزائدة أو "من" الزائدة نحو "ما يأتيهم من ذكر"(٢) أى ذكر، فيجوز الإتباع بالرفع والجر مراعاة للمحل واللفظ وغلبت زيادة الباء فى فاعل كفى نحو قوله تعالى: "وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا"(٣).

ومن ضروب جمع السيوطى بين التركيب والدلالة فى التصنيف، ايراده فى باب المفعول به صورا لتقديم المفعول به على الفاعل تتضمن التركيب والدلالة معا فيقول:(٤)

الأصل فى المفعول به التأخير عن الفعل والفاعل، وقد يقدم على الفاعل جوازا ووجوبا كما تقدم فى بابه، وقد يقدم على الفعل جوازا كما تقدم هناك أيضا، وقد يجب تقدمه عليه وذلك فى صور: أحدها: أن يتضمن شروطا نحو: من تكرم أكرمه، وأيهم تضرب أضرب، وثانيهما أن يتضمن استفهاما نحو من رأيت؟ ومتى قدمت؟ وأين أقمت؟ وغلام من رأيت؟....."

---

(١) المطالع ص ٢٥٧
(٢) سورة الأنبياء آية ٢
(٣) سورة النساء آية ٤٥
(٤) المطالع ص ٢٦٩

٣- والحقيقة أن الاستناد إلى المعيار الدلالى فى التناول فيه مزج بين المعيارين البنيوى والدلالى، فإذا اشترط أن يرد المكون المدروس فى تركيب شرط أو إستفهام أو نفى، فهو غالبا ما يستند إلى مكون تركيبى بعينه، وهو أداة الإستفهام أو الشرط أو النفى، لكننا صنفنا الظاهرة وحددنا معيار التناول بأنه دلالى وذلك لأن بعض التراكيب قد ترد بدون أداة كالشرط، خصوصا عندما يكون مضمرا، والاستفهام، ومن هنا فاننا نلمس تداخل معايير التناول، فتداخل معيار البنية والدلالة ينتجان لنا المعيار الاستعمالى والمعيار اللغوى يعتمد اعتمادا اساسيا على المعيار البنيوى والإستخدام، الذى يستند بدوره إلى المعيار الاستعمالى.

ففى اطار الاتساع فى الإستخدام يورد السيوطى الحرف ثم يعقب بوظائف هذا الحرف وأمثلته فى التراكيب العربية(١): حروف الجر محصورة بالعد فلا تحتاج إلى حد والمذكور هنا منها ثلاثة عشر حرفا سوى أحرف القسم، أحداها"إلى" ولها معان: أحداها: انتهاء الغاية مطلقا زمانا أو مكانا نحو: "أتموا الصيام إلى الليل"(٢). الثانى: الظرفية كـ "فى" فى قوله تعالى: "ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه"(٣) الثالث: المعية وذلك إذا ضممت شيئا إلى آخر فى الحكم به أو عليه أو التعلق كقوله تعالى "من أنصارى إلى الله"(٤)، وقوله "وأيديكم إلى المرافق"(٥).

ثم يستعرض السيوطى بعد ذلك التوسع فى الاستخدامات التركيبية حيث يؤدى المكون "إلى" وظائف مكونات اخرى من احرف الجر فى تراكيب مختلفة يؤدى فيها

---

(١) المطالع ص ٣٩٣
(٢) سورة البقرة آية ١٨٧
(٣) سورة النساء آية ٨٧
(٤) سورة الصف آية ١٤
(٥) سورة المائدة آية ٦

المكون نفسه وظائف أخر يمكن تفسيرها دلاليا، على حين اننا لو وضعنا المكونات الأخر مكان المكون "إلى" لعد التركيب غير جار على سنن الاستخدام العربى وخارجا عن العرف النحوى فيورد(١): الرابع: مرادفة "من" كقوله:

تقول وقد عاليت بالكور فوقها أيسقى فلا يروى إلى ابن أحمرا

أى "منى"

الخامس مرادفة "عند" كقوله:

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره أشهى إلى من الرحيق السلسل

أى أشهى عندى.

ويستخدم السيوطى الدلالة جنبا إلى جنب مع الفروق التركيبية فى بيان أداء حرف للوظيفة الدلالية لحرف آخر، السادس: التبيين: وهى المبنية لفاعل مجرورها بعدها يفيدها حبا أو بغضا من فعل تعجب أو أفعل تفضيل، نحو: "قال رب السجن أحب إلى"(٢).

ويتناول السيوطى بقية الأحرف بالترتيب فيصنع الصنيع نفسه مع كل حرف بان يورد معانيه الأصلية ثم الوظائف الدلالية التى يؤديها فى تراكيب أخر نيابة عن أخوته من حروف الجر الأخرى، وسنجتزئ هنا مكتفيين بما أوردناه فى الحرف "إلى" من شواهد وأمثلة ونقتصر حديثنا على الحرف ووظائفه وملاحظاتنا.

---

(١) المطالع ص ٣٩٤

(٢) سورة يوسف آية ٣٣

ويستخدم السيوطى الأساليب مميزات للوظائف النحوية والدلالية، مفرقا بين المكون الصالح لوظيفة دلالية محددة وبين ما لا يصلح لها، نحو: كتبت بالقلم ونجرت الباب بالقدوم، وبريت القلم بالسكين وخضت الماء برجلى، إذ لا يصح جعل القلم سببا للكتابة بل السبب غير هذا.

ونلاحظ أن السيوطى لا يورد الحرف البديل فى المعنى فحسب، بل يورد المكون البديل للجار والمجرور معا فيؤوله بحال، فتؤددى الباء وظيفة المصاحبة وهى التى لا يصلح موضعها "مع" ويغنى عنها وعن مصحوبها الحال نحو قوله تعالى: "اهبط بسلام" أى مع سلام، لكن الشئ الغريب أن يعد السيوطى عدم الوظيفة وظيفة، فهو يجعل الوظيفة الحادية عشر لحرف الباء إحدى الوظائف بالرغم من حديثه عنها بأنها حرف زائد، ولكن يمكننى تلمس العذر له فى أنه يقصد الإتساع فى الإستخدام بالمعنى الاستعمالى(١) فيورد(٢) الحادى عشر: الزيادة نحو قوله تعالى "وكفى بالله وليا"(٣) و "بحسبك درهم".

واتضح لنا مما سبق أن السيوطى بحسه اللغوى الدقيق وإدراكه للفوارق بين التراكيب العربية والأساليب، قد فرق بين الوظيفتين النحوية الخاضعة للإعمال النحوى والعلامة الإعرابية، والوظيفة الدلالية التى يؤدى بها المكون دلالة مكون آخر فى التركيب الواحد بغض النظر عن ذكره المصطلحين اللذين ذكرناهما واللذين إستخدمناهما ضمن الخضم الهائل من المصطلحات والمعارف التى أضفاها علم اللغة الحديث على العلوم العربية.

---

(١) R. Borthes, Introduction a L'analyse Structurale du Recit Poetique du Recit, coll. Points No, 78. Paris Eds. du Seuil, 1977 pp 7/8

(٢) المطالع ص ٣٩٧

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨

ومن الجوانب الإستعمالية فى المطالع، تناول السيوطى للمفعول معه من وجهة نظره ووجهة نظر أقرانه من النحاة، تناولا إستعماليا يعتمد على التمييز والمقارنة بالمكونات فيورد(١): قول أبى حيان: تضافرت نصوص النحويين على اشتراط المصدرية فى المفعول له، وذلك أن الباعث إنما هو الحدث لا الذوات، وشرطه أن يكون معللا بخلاف المصادر التى لا تعليل فيها "كقعد جلوسا" و"رجع القهقرى"، وشرط الأعلم والمتأخرون مشاركته لفعله فى الوقت نحو:

فجئت وقد نُضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

لأن النص ليس له وقت معلوم، أو الفاعل نحو:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

ففاعل "تعرونى" "هزة"، وفاعل "ذكرى" الشاعر، أى: لذكراى إياك فيجران باللام، ولم يشترط ذلك سيبويه ولا أحد من المتقدمين، فيجوز عندهم "أكرمتك أمس طمعا فى معروفك"، و "جئت حذر زيد"، ومنه قوله تعالى: "يريكم البرق خوفا وطمعا"(٢) ففاعل الإرادة هو الله سبحانه وتعالى، والخوف والطمع من الخلق. ومتى فقد شرط من الشروط المذكورة وجب جره باللام وامتنع النصب.

فمثال فقد المصدرية: جئتك بالماء والعشب والسمر، ومثال فقد المشاركة البيتان السابقان، وقد يجر بمن والباء لأنهما فى معنى اللام نحو قوله تعالى: "رأيته خاشعا متصدعا من خشية الله"(٣)، قيل: وقد يجر بمعنى السببية نحو: "دخلت أمرأة النار فى هرة"(٤)، ولا يتعين الجر مع "إن" و "أن"، وإن كانا غير

(١) المطالع ص ٣٠٥
(٢) سورة الرعد آية ١٢
(٣) سورة الحشر آية ٢١
(٤) حديث شريف

مصدرين وأنهما يقدران بالمصدر وأن يتحد فيهما الفاعل والوقت لأن حرف الجر يحذف معها كثيرا نحو: أزورك أن تحسن، وأنك تحسن إلى، وعلينا أن نفرق بين المعايير التى تميز بين المكونات أو الأبواب النحوية المختلفة، أهى معايير بنيوية أم دلالية أم تركيبية صرفية؟

والحقيقة أن الوصف البنيوى للتراكيب والنصوص العربية أثبت فشله خصوصا عند تحليل هذه التراكيب والنصوص إذ لابد من اشتراك عناصر أخرى كالدلالة والبنية العميقة للتركيب، وعلى هذا فالأخذ بأكثر من معيار فى التحليل لا يستوجب أيضا الأخذ بأكثر من معيار فى وضع القواعد أو وصف المكون التركيبى الذى يقع ضمن الباب النحوى المدروس.

****

الخاتمـــة

وبعد، فليس هذا البحث نقدا أو اقتراحا نبديه للنحو العربى بصفة عامة ولمنهج السيوطى بصفة خاصة، وإنما هو تسجيل أميـن لمنهـج السيوطى من منظـور حديـث، بالإضافة لما ارتأيناه من ملاحظات، وهو إضاءة نلقيها على أحـد الكتب النحويـة التى تتسم بالصعوبة من حيث أسلوب التناول بالرغم من أنها من الكتابات النحوية المتأخرة، وقد ظهر لنا من خلال التناول الإستعمالى للمطالع ما يلى:

١- أن السيوطى يصنف أبواب النحو وفقا لتنـاول سـابقيه مـع قليـل مـن التعديـل فيمـا عنونه بالفوائد والمسائل.

٢- أن السيوطى التزم بأكثر من معيار للتصنيف كالعلامـة الإعرابيـة، وأقسـام الكـلام والوظيفة.

٣- أن السيوطى مزج فى تناوله بين الوظيفة النحوية والدلالة وبعض المعايير اللغوية خصوصا بعض الخصائص اللهجية التى حشا بها بعض المسائل النحوية.

٤- ينطوى مفهوم العلامة الذى صنف السيوطى المطالع على أساسـه، علـى الوظيفـة النحوية، فالرفع يرتبط بالفاعليـة والإبتداء...إلـخ، والنصـب يرتبـط بالمفعوليـة أو الحالية...إلخ.

٥- صرح السيوطى بأنـه صنـف المطـالع وفقـا للعلامـة، لكنـه فـى الحقيقـة لـم يلـتزم بالعلامة بل تداخلت معها مقاييس أخرى أظهرها البحث.

٦- يجب أن نفصل بين دراسة المفردات ودراسة التراكيب فى التصنيف النحوى.

٧- هناك معيار استعمالى ضمن معايير التناول، لكن السيوطى أورده ضمن التصنيف النحوى وفقا للعلامة والباب النحوى خصوصـ فى باب الجر.

مصادر ومراجع عربية

١- أوزياس جان مارى وآخرون - البنيوية - ترجمة ميخائيل فحول - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - دمشق - ١٩٧٢م.

٢- د. أيوب عبد الرحمن - دراسات نقدية فى النحو العربى - القاهرة ١٩٥٧م.

٣- د. الجوارى أحمد عبد الستار: نحو التيسير - دراسة ونقد منهجى - مطبعة المجمع العلمى - العراق ١٩٨٤م.

٤- د. حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها - القاهرة ١٩٧٣م.

٥- د. الحناش محمد: البنيوية فى اللسانيات ١٩٨٠م. دار الرشاد الحديثة.

٦- د. الساقى فاضل مصطفى: أقسام الكلام العربى من حيث الشكل والوظيفة (د.ت)

٧- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

٨- د. شرف الدين محمود عبد السلام: الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة - دراسة تفسيرية ١٩٨٤م. - دار مرجان للطباعة - الطبعة الأولى.

٩- شريم جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠٤ هـ.

١٠-د. طحان ريمون: فنون التقعيد وعلوم الألسنة - دار الكتاب اللبنانى (د.ت).

١١-د. عبد الباقى محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - مطبعة الشعب- القاهرة (د.ت).

١٢-د. عبد اللطيف محمد حماسة: دراسة فى بناء الجملة العربية - الطبعة الأولى - ١٩٨٢م - دار العلم - الكويت.

١٣-المبرد (أبو العباس محمد بن مزيد) المقتضب - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - مطبعة الأهرام - القاهرة - تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة.

١٤-د. المتوكل أحمد: دراسات فى نحو العربية والوظيفة - طبعة ١٩٨٦م - دار الثقافة.

١٥-من البنية الحملية إلى البنية المكونية - الوظيفة المفعول فى اللغة العربية - طبعة ١٩٨٦م - دار الثقافة للنشر والتوزيع - الدار البيضاء.

١٦-د. محجوب بهلر فاطمة : دراسات فى علم اللغة - دار النهضة العربية - طبعة ١٩٧٦ م.

١٧- ابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف) : أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك - تحقيق محمد محيى‌الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٩٤ م.

١٨- شذور الذهب تأليف محمد محيى‌الدين عبد الحميد - نشر دار الفكر.

١٩- مغنى اللبيب عن كتاب الأعاريب، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير الحلبى - القاهرة (د.ت).

٢٠- محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسى الغرناطى) - تفسير البحر المحيط - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. دار الفكر.

****

مراجـع أجنبيــة

1- R Brothers, "Introduction a L'analyse Structurale du Recit Poetique du Recit, Coll. Points No. 78, Paris, Eds. du" seuil, 1977

2- Dick· simon: Studies in Functional Grammer - London academic press 1980

بحث بعنوان :

فَتَاوَى لُغَوِيَّة

Linguistic Rulings

فيه محاولة لإحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية

الدكتور

زين كامل الخويسكى

جامعة الأسكندرية

فَتَـاوَى لُغَوِيَّـة

فيه محاولة لإحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية

د. زين كامل الخويسكي
كلية التربية. جامعة الأسكندرية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فهذا بحث بعنوان «فَتَاوَى لُغَوِيَّة» ينهض على محاولة إحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية باعتبارها نموذجاً يمكن أن يحتذى فى معالجة العديد من ألفاظ اللغة التى شاع أنها خطأ وهى فى واقع الأمر صحيحة..

ومع ما قد يظن من أن فى العنوان شيئاً من الجرأة أو الخروج على المألوف فى مثل هذه الدراسات من مثل هذا الباحث إلا أن ابتغاء وجه الله وصدق النيّة كانتا وراء هذا العمل الذى نُقِرُّ بأنّه محاولة..

ولأنه بحث لمجلة علمية رأينا الاكتفاء بمعالجة ومناقشة عدد قليل من الألفاظ باعتبارها نموذجاً راجين الله سبحانه أن نوفق فى معالجة ما توافر لدينا من ألفاظ أشيع أنها خطأ وهى صحيحة تزيد عن مائة وثلاثين لفظة... وإنّ

أهم ما يميز هذه الألفاظ التى وقف عليها البحث هو أنها متداولة بيننا فى حياتنا اليومية...

وقد رأى البحث أن أمثل طريقة لتناول مثل هذا الموضوع يمكن أن تكون من خلال :

١ ـ العربية واللحن.

٢ ـ مناقشة ومعالجة عدد من الألفاظ التى خَطَّأها المحدثون وهى صحيحة.

٣ ـ ما يقترحه البحث من (فتاوى لغوية).

أولا ـ العربية واللحن :

لا مجادلة على الإطلاق فى أن اللغة أحد الأركان الكبرى التى تقوم عليها الحياة، حياة الأفراد وحياة الأمم... وتعد العربية من أعظم اللغات التى عرفها الإنسان ومن أوسعها، وهى من أكبرها حظاً من العناية والاهتمام اللذين تجلّيا بشكل ملموس فى تلك (المكتبة) اللغوية التى أبدعتها الحضارة الإسلامية خلال قرون متطاولة. وكانت منذ البدء دليلا جلياً على أصالة متمكنة وعمق بعيد... فتبوأت مكاناً علياً فى الدراسات اللغوية الحديثة من وصرفية ونحوية ودلالية ، ما نراه ماثلاً فى أقدم أثر لغوى عربى وصل إلينا (الكتاب) لسيبويه إمام النحاة.

كان وراء ذلك فى العربية ظاهرة طارئة عليها، هددت كيان الأمة بالتفكك والاضمحلال، لأنها هددت كيان هذه اللغة بذلك المصير، إنها ظاهرة الانحراف عن سنن الفصحى والوقوع فيما اصطلح عليه بـ (اللحن)..

ولم تكن تلك اللغة إلا لغة القرآن الكريم، وهو مدار الحضارة الإسلامية، ومحور وجودها، فلابد من النهضة بوجه هذا الخطر، وقد كان إذ أبدع النحو العربى ميزاناً للسان ، ثم قامت حركة تجرى مع النحو مسجلة فى ملاحظة ومراقبة ، مدى النجاح الذى حققه العلم الجديد فى أداء وظيفته وتوجيه الناطقين أو الكتاب ، فكان من ذلك تراث غير تراث النحو، ولكنه يسعى إلى ما يسعى إليه من الإصلاح والتنقية، ممتداً معه حيثما امتد لأن الداعى إلى هذا هو الداعى إلى ذلك.

فإذا رأينا كتاب سيبويه أو مقتضب المبرد رأينا إصلاح المنطق لابن السكيت وأدب الكاتب لابن قتيبة فى الحقبة نفسها وفى البيئة نفسها فقد أدرك أجدادنا عظم ما توارثوا فكانت للغة عندهم منزلتها العالية، وكان لنقلها عندهم شروط وللاحتجاج بها أيضاً شروط، ولروايتها صفات، فكانوا يتحرون الدقة فى كل ما يتصل باللغة، وإن أعظم ما يكشف لنا عن ذلك ما كان بينهم من تساؤلات عن كثير من مسائل اللغة.. فالبون شاسع بين ما كانوا عليه وما كانت عليه اللغة وبين ما نحن فيه... فانتشار اللحن والخطأ فى اللغة ليس بدعاً ولا جديداً، ولكن الجديد والمبتكر كما يقول مازن المبارك فى كتابه (نحو وعى لغوىّ جديد، ص ١٨٤ هو معاندة الحق والإصرار على الخطأ،... فكانوا يحتاطون للخطأ وانتشاره محللين أسبابه واصفين له العلاج.. وإلى ما سبق أن ذكرنا نضيف هنا أنه ،

ما وضع علم النحو وقواعده إلا بسبب من انتشار اللحن وشيوع الخطأ فضلا عما كان يقوم به العلماء من تصحيح لألفاظ المتكلمين على ما قدم الكسائى المتوفى سنة ١٩٢هـ وهو من أوائل من ألفوا فى لحن العامة وهو بتحقيق أ.د. رمضان عبد التواب، وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هـ حيث نبّه على كثير مما تغلط فيه العامة فى كتابه (إصلاح المنطق) وتبعه السجستانى المتوفى سنة ٢٤٨هـ فيما وضع فى كتابه (أدب الكاتب)، على بعض ما تخطىء فيه العامة... وألف أبو بكر الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩هـ كتاب (لحن العامة) وألف أبو حفص عمر بن خلف بن الصقلى المتوفى سنة ٥٠١هـ كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) وألف ابن هشام اللخمىّ

المتوفى سنة ٥٧٧ كتاب (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان)، وكانت هذه الكتب الثلاث الأخيرة بتحقيق الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز مطر..

ولم يتوقف الأمر عند لحن العامة[١] فكان هناك لحن الخاصة والذى ظهرت الحاجة إلى التأليف فيه.

ومن ذلك كتاب (لحن الخاصة) لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ وكتاب (تثقيف اللسان) لابن مكى الصقلى المتوفى سنة ٥٠١هـ وكتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى المتوفى سنة ٥١٦هـ بتحقيق المستشرق الألمانى هنريش ثوربكة، طبع ليبزج سنة ١٨٧١م، وقد أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد وكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام اللخمى المتوفى سنة ٥٧٧هـ، وكتاب (تقويم اللسان) لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ

فضلا عما قدمه ابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠هـ فى كتابه (التنبيه على غلط الجاهل والنبيه)..

وقد أخفق عصرنا فى إيصال القاعدة اللغوية إلى أبناء العربية، فلم تتبع طرائق الأقدمين وقد أثبتت نجاحاً يتمثل فى آلاف العلماء والأدباء الذين اتقنوا العربية اتقاناً حتى صار عسيراً التمييز بين رجل العلم ورجل الأدب لغة أو بياناً [٢].

(١) يحيل البحث هنا إلى الفصلين (الأول والثانى) من كتاب (لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة) للدكتور عبد العزيز مطر ـ دار المعارف ط٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م. حيث العرض والمعالجة لكل ما كان يمكن أن يرصده البحث ها هنا فضلا عما ذكره البحث..

(٢) ينظر : مدرسة البصرة النحوية (ص ٤١٢ – ٤١٧) بشأن طرائق تدريس العربية عند الأوائل مستقاة من كتاب سيبويه ومقتضب المبرد.

وكذلك أضاع المحدثون طرائق التعليم اللغوى الحديث، وقد أثبتت نجاحاً فى ديار الشرق والغرب، وصار الأمر مألوفاً هناك ، فلا استهانة باللغة ولا تملص من أصولها أو حدودها المرسومة الملزمة.

هنا ضاعت رسوم العربية على ألسنة الخاصة قبل العامة، وفى أقلام الكتاب والشعراء فاشتدت حركة الإصلاح فى مقاومة الخطأ اللغوى المستشرى، وتوغلت فى كل ميدان، وكان لها تراث عزيز غريب السعة، لا يخفف هذه الغرابة إلا سعة الخطأ واستشراؤه، غير أن بعض هذا التراث مستور غير منظور، ومطوى غير منشور لم تصل إليه يد لإخراجه من مخابئه المخطوطة، ومجاهله المطبوعة، فى آثار نادرة، ومباحث كامنة فى بطون الصحافة القديمة من الجرائد والمجلات [1].

ومن المؤلفات الحديثة التى اهتمت بالأخطاء الشائعة ومحاولة معالجتها نذكر ما يلى :

(١) من ذلك مجلة (الضياء) التى أنشأها إبراهيم اليازجى عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م وكانت حافلة بمقالات نقد فيها لغة الصحافة آنذاك وسمى مقالاته (لغة الجرائد)...

• ومن الجرائد التى اهتمت بنشر ما يتصل بالأخطاء اللغوية جريدة (الأفكار) ففى عام ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م بدأ أحمد أبى الخضرمنسى نشر مقالاته التصويبية فى هذه الجريدة، ووصل ذلك عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م فى جريدة (السفور) وعام ١٣٣٦هـ ـ ١٩١٨م فى جريدة (الأهرام) ثم فى جريدة (المقطم) عام ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠ وبعد ثلاث عشرة سنة (عام ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م جمع أحمد أبو الخضرمنسى ذلك كله إلى إضافات أخرى فى كتابه الموسوم بـ (حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب) والمنشور بالقاهرة ـ مطبعة للدنى ١٩٦٣م وقد قسمه إلى قسمين :

الأول : الخطأ والصواب ص ٧ – ص ٥٣.

والثانى : الخطأ الصحيح ص ٥٤ ـ ص ٦١.

وكان ذلك بالإضافة إلى ما سيرد ذكره فى هذا البحث إن شاء الله .

* (دفع الهجنة فى ارتضاح اللكنة)

معروف الرصافى

الآستانة (مطبعة صندای ملت) ١٣٣١هـ - ١٩١٢م.

* (رد الشارد إلى طريق القواعد)

جرجى شاهين عطية

بيروت ، مطبعة القديس جاورجيوس، ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م.

* (تذكرة الكاتب)

أسعد خليل داغر

مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة، ١٩٢٣م.

* (المنذر فى نقد أغلاط الكتاب)

للشيخ إبراهيم المنذر

مطبعة السلام بيروت ـ ١٩٢٧م جـ١.

* (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد)

محمد سليم الجندى

دمشق ـ مطبعة الترقى ـ ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م.

* (البستان)

عبد الله البستانى

بيروت ـ المطبعة الأميركانية ـ ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م

* كتاب المنذر إلى المجمع العلمي العربى بدمشق)

إبراهيم المنذر

بيروت ـ مطبعة الاجتهاد ـ ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م

* (نظرات فى اللغة والأدب)

للشيخ مصطفى الغلاييني

بيروت ـ مطبعة طبارة ـ ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م.

* (أغلاط اللغويين الأقدمين)

انستاس الكرملي

بغداد ـ مطبعة الأيتام ـ ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م.

* (أغلاط الكتاب)

كمال إبراهيم

بغداد ـ المطبعة العربية ، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م.

* (إصلاح خطأ المحدثين)

أبو سليمان الخطابي

القاهرة ـ لجنة الشبيبة السورية ، ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٧م

* (أخطاؤنا فى الصحف والدواوين)

صلاح الدين الزعبلاوى

دمشق ـ المطبعة الهاشمية، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.

* (محاضرات عن الأخطاء اللغوية الشائعة)

محمد علي النجار

القاهرة ـ معهد الدراسات العربية العالمية ـ ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩م.

* (أخطاء شائعة فى ألفاظ العلوم الزراعية والنباتية وكلمات مولدة يفيد إقرارها)

مصطفى الشهابي

دمشق ـ المجمع العلمي العربي: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

* (لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة)
د. عبد العزيز مطر
القاهرة ـ الدار القومية ـ ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م
* (لغة الجرائد)
إبراهيم اليازجى
القاهرة : مطبعة مطر ـ د.ت
* (دقائق العربية ـ جامع أسرار اللغة وخصائصها)
أمين آل ناصر الدين
بيروت (مكتبة لبنان) ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، ط٢.
* (قل ولا تقل ـ حملة لمحاربة اللفظ الدخيل)
المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربى
الرباط ـ المكتب الدائم لتنسيق التعريب ـ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م
* (قل ولا تقل)
د. مصطفى جواد
بغداد د. مطبعة الإيمان ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م (طبع الجزء الأول طبعتين الثانية فيهما بغداد ـ مطبعة أسعد، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
* (أزاهير الفصحى فى دقائق اللغة)
عباس أبى السعود
القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م
* (معجم الأخطاء الشائعة)
محمد العدنانى
بيروت ـ نشر مكتبة لبنان ـ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

* (الاستدراك على كتاب قل ولا تقل)

صبحى البصام

بغداد ـ مطبعة المعارف ـ ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٧م.

* (مغالط الكتاب ومناهج الصواب)

جرجى جنن البولسىّ ـ مطبعة القديس بولس ـ د.ت.

فالحقيقة المؤكدة أن كل ما ورد عند هؤلاء المؤلفين والكتاب كان صورة واقعية لما شاع من خطأ فى الألفاظ فى عصرهم الذى عاشوا فيه ... والخطأ اللغوى الذى يقع فيه العامى هو نفس الخطأ الذى يقع فيه المثف ، فليست اللفظة المخطأة أو التركيب المخطأ إلا انحرافاً عن سنن اللغة الأم يقع فيه المثقف أو العامى ، فالتصحيح لازم فى كلتا الحالتين، وليس من دليل على هذا أوضح من وحدة حالات الخطأ اللغوى فى كل من لسان العامى وقلم الكاتب، يقول محمود تيمور [1] (الكلمة العامية التى لا نستعملها فى لغة الكتابة بين حالات ثلاث : فإما كانت صحيحة فى اللغة كما يستعملها الناس، ولكنها قابعة فى المعجمات، قلما مسها قلم إلا ذلك القلم الذى يستأمن عليها مستودعات اللغة، وإما طرأ عليها ألوان من التحريف والإبدال يسيرة أو غير يسيرة، فانتقص منها حرف أو زيد عليها حرف أو أحلت فيها حروف مكان حروف. وإما كان وجه الخلاف بينها وبين الفصحى ضرباً من التخصيص أو التعميم ، وشكلا من الإطلاق أو التقييد وشيئاً من النقل أو التوسع وسائر علاقات المجاز، إلى غير ذلك من تصرف مأنوس فى التطور الطبيعى للكلمات فى مختلف اللغات) .

(١) مشكلات اللغة العربية ص ١٨٣، ص ١٨٤.

وهذه الحالات لا ريب هى عين الحالات التى ينحرف إليها اللفظ العربى الفصيح عند الخاصة من الأدباء والخطباء والشعراء بل من اللغويين والنحاة، فالانحراف اللغوى عند الخاصة هو الانحراف اللغوى عند العامة، وليس الفارق إلا فارق الكثرة والقلة.

فالخطأ اللغوى يتخذ أشكالا مختلفة، ومظاهر شاملة، فيصيب الأصوات اللغوية، أو الصور البنيوية أو التراكيب النحوية أو الطرائق البيانية، وقد عرف هذا فى مختلف اللغات الإنسانية ومنها العربية، وكان ما تناقلته المصادر المعتمدة من أخبار بداية الانحراف عن مقاييس العربية وسننها الأصيل يعود بهذا الأمر إلى ظهور الإسلام وامتزاج العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس إذ وقع التأثير والتأثر، وزاغت الألسن عما كانت عليه من فصاحة مطلقة ، وسليقة صافية، فاضطربت أصوات العربية بارتضاخ لكنات أعجمية وحرفت الصيغة عن شكلها الحقيقى، وتخلخل التركيب، واستعمل الكلم فى غير مواضعه يقول أبو بكر الزبيدى [1] «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالا واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، ففشا الفساد فى اللغة والعربية واستبان منه فى الإعراب الذى هو جليها، والموضح لمعاينها».

ثم سجل روايات فى اللحن يرجع أقدمها إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه [2].

(١) طبقات النحويين واللغويين، ص ١١.

(٢) السابق نفسه ، ص ١٢.

غير أن بعض مصادر الدراسات اللغوية عند العرب أرجع ظهور بوادر الفساد اللغوى إلى عهد سابق عليه هو [1] العهد النبوى وذلك فيما ورد عند صاحب كتاب مراتب النحويين أو عهد لاحق هو عهد علي بن أبى طالب كرم الله وجهه [2]

وقد وقفت هذه الروايات عند هذا الحد، فلم تتوغل إلى العصر الجاهلى ولم تثبت حوادث آنذاك من هذا القبيل. ولا يعنى هذا أن أصحاب المصادر العربية ينفون عن ذلك العصر وقوع مخالفات عن الطريقة الإعرابية العامة التى سارعليها الأكثرون من عرب الجاهلية لأن ذلك قد كثرت فيه الروايات، بيد أن علماء العربية المتقدمين قد أقروا فصاحة هذا الخروج ووصفوه بالشذوذ ولم يصفوه بالخطأ، وصار عندهم « أن الشيء إذا اطرد فى الاستعمال وشذ عن القياس، فلابد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتخذ أصلا يقاس عليه غيره » [3]

ذلك بأن المتكلم آنئذ عربى فصيح وأنه إن خالف الوجه المشهور فإنما يتكلم بلغة قبيلته ولهجة قومه فلا يحمل أمره على الخطأ.

وليس من شأن هذا البحث أن يسلك ما سلكه اللغويون والأدباء فى العصر الحديث من تتبع للخطأ الشائع ومقابلته بالصحيح وإنما هدف هذا البحث هو محاولة إحياء الصواب المهجور لعدد من الألفاظ العربية التى نستخدمها فى حياتنا اليومية والتى أشيع أنها خطأ وهى فى واقع الأمر صحيحة

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى، ص ٢٣، وينظر : الخصائص لابن جنى، ج٢، ص ٨.
(٢) أخبار النحويين البصريين، ص ١٥، ص ١٦، ونزهة الألباء، ص ١٨، وانباه الرواه، ج١، ص ٤.
(٣) الخصائص، ج١، ص ٩٩.

ولا خطأ فيها لما فى ذلك من إنصاف للحق وتحبيب للفصحى فى نفوس أصحابها ... ولم يقم البحث على الاستقراء والاستقصاء ولكنه نمط من التنبيه[1] على ضرورة الوقوف على هذه الظاهرة ومحاولة معالجتها فهناك العديد من الألفاظ التى أشيع أنها خطأ وهى صحيحة فكانت مجموعة الكلمات التى تناولها البحث باعتبارها نموذجاً يمكن أن يحتذى مع غيرها من كلمات العربية والتى هى على شاكلتها ... ومن هذه الألفاظ التى يعرض لها البحث بالتحليل والمناقشة ممهورة بما أفتى به ما يلى :

---

(١) والبحث لا ينكر هنا على عدد من الباحثين جهودهم فى نفس الميدان فضلا عن المجامع اللغوية فإن نظرة إلى ما ورد فيما رصد البحث من مصادر ومراجع تؤكد ذلك كما يشير البحث فى عجالة هنا إلى ما قدمه عدد من المحدثين من نقد إلى الكتابات التى لم تخلو من انحراف وأوهام ونذكر منها :

- نقد الدكتور/ رمضان عبد التواب (مجلة الأقلام، (١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م) جـ٢، ص ١٢٧ - ص ١٥١) ونقد د. مصطفى جواد (مجلة المورد (١٣٩١هـ - ١٩٧١م) والدكتور إبراهيم السامرائى (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٤٥ (١٣٩٠هـ) تحقيق د. عبد الله درويش للجزء الأول من معجم (العين)

- فضلا عن المناظرات التى تمت بين عدد من المحدثين فى نفس الميدان .

** ومن هنا نشأت الحاجة إلى معجم يقوم على أمره مجمع يتدارسه من كل جانب قبل أن ينقد فكانت فكرة المعجم الكبير) قد ولدت مع ميلاد المجمع اللغوى المصرى (فحين أسس المجمع ألف إحدى عشرة لجنة منها لجنة المعجم ...) ينظر مجلته ٣١/١).

ثانياً من الألفاظ التى خطأها المحدثون وهى صحيحة

وقد اعتمد البحث هنا على ذكر اللفظة المعنية ذاتها محدداً ما قاله المحدثون حين تخطئتها والصواب الذى وضعوه بدلا منها مع إيراد ما اعتمدوا عليه من أدلة وشواهد تدلل على صحة ما ذهبوا إليه .. ثم ذكرنا الدليل على صحة ما ذهب إليه البحث فى تحديد وجه الصواب لهذه الألفاظ وأنها صحيحة ولا خطأ فيها وذلك من خلال ما ورد عن اللغويين والنحاة والكتاب ... ثم اختتمنا القول فى نهاية كل لفظة بما أفتى به البحث تجاهها ..

وهذه الألفاظ هى

• تأسّست

يُخطِّئ بعضُهم [1] مَنْ يقول : تأسّست هذه المدرسة فى سنة كذا. وتأسّس هذا البناء أو المسجد فى زمن فلان زاعمين أن الصواب هو :

أُسِّسَت هذه المدرسة فى السنة الأولى من حكم فلان وأُسِّس هذا المسجد على عهد فلان مستشهدين بما يلى :

بقوله تعالى : ﴿ لَمسجدٍ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أولِ يومٍ أحق أنْ تقوم فيه﴾ سورة التوبة : آية ١٠٨

وقوله تعالى ﴿أفمن أُسِّسَ بُنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم مَنْ أسّسَ بنيانه على شفا جرف هاو﴾ سورة التوبة : آية ١٠٩ [2]

وذلك لأن مسجد قباء أسّسَه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء[3].

وقرىء[4] : أسّس بنيانه ، وأسِّس بنيانه على البناء للفاعل والمفعول.

وأُسُس بنيانه جمع (أساس) على الإضافة، وأساس بنيانه بالفتح والكسر

---

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ٢٤ . وكبوات اليراع، ص ٢٤ .

(٢) والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء. وهو الباطل، والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هاو فى قلة الثبات والاستمساك (ينظر : الكشاف للزمخشرى).

(٣) وفى صحيح مسلم أن أبا سعيد الخدرى قال : سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة.

(٤) ينظر النشر ، ج٣، ص ١٠١ الاتحاف، ص ٢٤ . وإرشاد المبتدى ، ص ٣٥٦.

جمع (أس) و(آساس) بنيانه على وزن (أفعال) جمع (أس) أيضاً وفى لسان العرب [1] : قال الليث تقول أسست داراً إذا بنيت حدودها ورفعت من قواعدها.

وجاء فى القاموس [2] : والتأسيس بيان حدود الدار ورفع قواعدها وبناء أصلها.

وقال الزمخشرى [3] (من لم يؤسس ملكه بالعدل فقد هدمه) وفى إصراره على تخطئة القول بـ(تأسس) يقول مصطفى جواد [4]: وهذا الفعل وأمثاله تؤيد دعواى بأن المطاوعة المزعومة فى اللغة حديث خرافة. فإن العربى الفصيح لم تطاوعه نفسه على أن يقول : تأسس المسجد والمدرسة وإنما يقول أسس المسجد والمدرسة ... وعلى ذلك يُقاس.

وعندهم أيضاً أن الفعل (تأسس) خاص بما يقوم بنفسه والمدرسة وأشباهها من العمارات والمسجد وأمثاله من البنيان لا تقوم بأنفسها ... أى لا تكون كوناً طبيعياً كالنبات والبشر والحيوان

ويضيف أبو تراب [5] (وليس من شىء مصنوع يقوم أساسه بنفسه، لأن الأساس بعينه معمول ومصنوع أى ناشىء عن العمل والصناعة)

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (أسس)

(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادى مادة (أسس)

(٣) أساس البلاغة للزمخشرى. مادة أسس (ج١)

(٤) (قل ولا تقل لمصطفى جواد ج١ ص ١٩

(٥) كبوات اليراع . ج١ ص ٣٥. ص ٣٥

ويضيف (ولذلك لم تستعمل العرب قط الفعل (تأسس) وإنما هو من اللغة العامية، لأن اللغة العامية فقدت الفعل المبنى للمجهول منذ عصور كثيرة. فلا يقول العوام : أكل الطعام بل يقولون (اناكل. وانوكل) على اختلاف لهجاتهم . ولا يقولون أسست الدار بل يقولون (تأسست، فالصواب : أسست المدرسة وأسس المسجد)

ويرى الباحث أن الرد على هؤلاء بأن فِعْل المطاوعة من (فَعّل) هو (تَفَعّل) [1] ، لذا ينتفى الاعتراض، ويصح القول : تأسَّستِ المدرسة فى عام كذا أو أُسِّسَت فى عام كذا.

••• لذا يفتى البحث بأنه :

لما سبق يصح القول :

تأسَّستِ المدرسة فى عام كذا

أو

أُسِّسَت فى عام كذا ...

---

(١) همع الهوامع ، للسيوطى ج٤، ص ١٦١ ، شذا العرف ، للشيخ الحملاوى، ص ٤٤.

• استأنف

يُخَطِّئُ المحدثون [1] من يقول استأنف فلانٌ العمل بعد أن انقطع عنه ثلاثة أعوام، قائلين إن الصواب هو عاد فلان إلى العمل بعد أن انقطع عنه ثلاثة أعوام وحجتهم في ذلك ما ورد في معاجم اللغة من أن

استأنف الشيء واتنفه ابتدأ، أو أخذ أوَّلَهُ وقيل استقْبَلَهُ قال صاحب القاموس المحيط [2] «الاستئناف والائتناف الابتداء»

وفي (المعجم الوسيط) [3]، استأنف الشيء أخذ أوَّلَهُ

ابتدأه استقبله، وفيه أيضاً «استأنف الحُكم (في القانون) طلب إعادة النظر فيه»

وما يحملنا على قبول

استأنف العمل بمعنى عاد إليه بعد انقطاع فضلا عن ابتدأه وأخذ أوَّلَهَ واستقبله هو ما ورد في الجزء الأول من (المعجم الكبير) والصادر عن مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٠م حيث قال «استأنف العمل عاد إليه بعد انقطاع» وقوله «استأنف الحكم (في القانون) : طلب إعادة نظر موضوع الدعوى أمام هيئة أعْلَى»

---

(١) يعني بالمحدثين هنا كل من كتبوا في الأخطاء الشائعة وسبق أن ذكرناهم في بداية هذا البحث ومنهم مصطفى جواد والزعبلاوي وأبو تراب الظاهري ينظر معجم الأخطاء الشائعة ص ٣٠.

(٢) القاموس المحيط مادة (أنف)

(٣) المعجم الوسيط مادة أنف

••• ولما سبق يفتى البحث بأنّه :

يمكننا قبول استئناف العمل بمعنى: عاد إليه بعد انقطاع بالإضافة إلى المعانى الأخرى التى وردت للفظة وسبق ذكرها.

• بِشَـــارة

يخطئون [1] من يُطلق على ما يُعْطَى للمُبشِّر بخبرٍ مفرح اسم (بِشارة) بالكسر ويقولون إنه (بُشارة) بضم الباء، معتمدين على حديث توبة كعب فأعطيتُه ثوبي بُشارة . وعلى قول الحريري [2]، ويقولون أعطاه البشارة، والصَّواب فيه ضَمّ الباء، لأن البِشارة بكسر الباء ما بُشِّرت به، وبضمها حقٌ ما يُعْطَى عليها ...»

إلا أننا نستطيع أن نطلق كلمة (بِشَارة) أو (بُشارة) على ما يعطى للمُبَشِّر بخبر مُفرِح، وعلى كل خبر سارٍ أو محزن يُنْقَل إلينا وذلك لما يلى

أنه فى باب ما جاء على (فِعَالة) و(فُعَالة) نحو بِشَارة وبُشارة قال الأصمعى [3] الكسر وحده لا غير) .

وروى الكسائى [4] الزيارة والزُّوارة ودواية اللبن ودُوايته الجلدة الرقيقة التى تعلوه.

وقال ابن قتيبة [5] « أن فتح طُلاوة تحريف وذكر وقد ناقض نفسه فى قوله فى كتابه (الأبنية) (إن فى طلاوة لغتين) .

---

(١) قل ولا تقل جـ١ ، ص١٤٠ ، كبوات البراع . جـ١ ، ص ٣٨٩ ، ومعجم الأخطاء الشائعة، ج٣٨ ، كبوات البراع، جـ١ ص ٣٨٩

(٢) درة الغواص للحريرى ، ص ١٣١

(٣) كبوات البراع. جـ١ ص ٣٢٩

(٤) تقويم اللسان ص ٣٨٩

(٥) الأبنية، ص ٥٦

وذلك فضلا عما ورد فى معظم المعاجم اللغوية والتى تقول :

* البِشارة أو البُشارة . ما يعطاه المُبشِّر بأمر مفرح

• البِشارة أو البُشارة . ما بُشِّرت به من خيرٍ أو شرّ

كما يرى ابن سيده [1] أو البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وتكون بالبشّر إذا كانت مُقيَّدَة وذلك نحو قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرهم بعذابٍ أليم﴾ سورة آل عمران آية ٢١

وفى تفسيره لقوله تعالى ﴿وإذا بُشِّرَ أحَدُهم بالأنثى﴾ سورة النحل آية ٥٨

قال الفخر الرازى [2] (التبشيرُ فى عرف اللغة مُختَص بالخبر الذى يفيد السرور، إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثّر فى البَشَرة تغيراً ، وهذا يكون للحزن أيضاً .

وقال ابن منظور [3] (وأصل هذا كله أن بَشَرَة الإنسان تنبسط عند السرور، من هذا قولهم : فُلانٌ يلقانى ببِشرٍ، أى : بِوَجهٍ مُنبَسِطٍ)

أما البَشَارَةُ فهى : الجمال والحُسْنُ [4]

قال الأعشى [5] .

---

(١) المخصص ، ج١ ، ص ٢٦٤

(٢) تفسير الفخر الرازى، (مفاتيح الغيب) . جـ٤ . ص ١١٦ ، ودرة الغواص، ص ١٣١ .

(٣) لسان العرب مادة (بشر)

(٤) القاموس المحيط مادة (بشر)

(٥) ديوان الأعشى ص ٢٤٥ ، وينظر الصحاح، ج٢ . ص ٥٩١)

ورأتْ بأن الشَّيْبَ جا نَبَهُ البَشَاشَةُ والبَشَارَة

••• لما ورد فى باب ما جاء على (فِعَالَه) و(فُعَالة) ولما ورد فى قول الأصمعى وما رواه الكسائى وما ورد عند ابن قتيبة وابن سيده وما ذكر فى معظم المعاجم اللغوية وما قاله الفخر الرازى فى تفسيره لقوله تعالى ﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى﴾ سورة النحل آية ٥٨.

وأن التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور، إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشر تغيراً وهذا يكون للحزن أيضاً... ، ولما رصده ابن منظور .

لذلك كله يفتى البحث بأن:

بِشَارة (بكسر الباء)

أو

بُشَارة (بضم الباء)

هى ما بُشِّرت به من خيرٍ أو شرٍّ

• خرج فلانٌ على القانون

ويخطىء الدكتور مصطفى جواد [1] مَنْ يقول :

خرج فلان على القانون أو النظام

وقد تابعه فى ذلك أبو تراب الظاهرى [2]

ويقولان بأن الصواب هو :

خَرَج فلان عن القانون أو حاد عنه أو عدل عنه ، ونكب عنه نكوباً.

لأن الخروج يستلزم استعمال حرف المجاوزة والمجانبة والابتعاد وهو (عن) ، أما (على) فتستعمل فى نحو : خرج فلان على القوم أو الجماعة أى : ثار عليهم وأبى الانخراط فى سلكهم وألقى ربقة الطاعة، ومن ذلك اسم الخوارج وهم الذين خرجوا على الجماعة فى خلافة علي بن أبى طالب، وفى المغنى قال ابن هشام [3] فى ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على المعرب منها : الجهة الثالثة أن يخرج على عالم يثبت فى العربية وذلك إنما يقع عن جهل أو غفلة،

ومن شواهد أبى تراب فى ذلك ما جاء فى (كليلة ودمنة) من أقوال ابن المقفع [4] (وما عليه من الخروج عن العدل) فقد أتى بـ (عن) صلة

---

[1] قل ولا تقل ج1 ص ١٨ (وينظر كبوات اليراع ، ج1، ص ٣١٢).

[2] كبوات اليراع، ج1 ص ٣١٢، ص ٣١٣

[3] مغنى اللبيب ج2 ص ١٢٧

[4] كليلة ودمنة لابن المقفع ص ٦٧ (ينظر كبوات اليراع، ص ٣١٢)

للخروج حين أراد به العدول والمجاوزة كما استشهد بما ورد فى كتاب (تجارب الأمم) للفيلسوف المؤرخ الأديب ابن مسكويه [1] وهو قوله (تقدم الجيش البختيارى زحفاً بغير أمر، وفارق المصافّ وخرج عن النظام).

وقال الدكتور مصطفى جواد ولا يقتصر الخطأ فى قولهم : (خرج فلان على القانون ، على مخالفة التعبير الصحيح، بل يفيد عكس المراد، لأن معنى (خروج فلان على القانون) هو : سيره على حسب ما يوجبه القانون. قال الشريف الرضى فى الكلام على الحديث النبوى الشريف ، الخاص بالخيل ومنافعها: (ظهورها حِرز وبطونها كَنز) : وهذا القول خارج على طريق المجاز، يعنى أنه سائر فى طريق المجاز، وظاهر على طريق المجاز، وقال ابن جنى، [2] فى كلمة (ضَيْوَن) وهو السنور (إنما صح لأنه خرج على الصحة).

فاستشهاد الدكتور مصطفى جواد بقوله الشريف الرضى صحيح ولكنه يحول دون خروجه على طريق المجاز أيضاً، إذ يبيح لنا المجاز أن نقول : خرج على القانون ، لأن القانون أو النظام تضعه الدولة، وهو مُسبَّب عنها ، فهو مجاز مرسل علاقته المسببيّة كقوله تعالى ﴿وينزّل لكم من السماء رزقاً﴾ سورة غافر الآية (١٣) فالرزق لا ينزل من السماء، ولكنه الذى يُنزَّل مطر، ينشأ عنه النبات، الذى منه طعامنا ورزقنا ، فالرزق مُسبَّب عن المطر، وهو مجاز مرسل علاقته المسببيّة، مثل علاقة القانون الذى تضعه الدولة.

---

(١) كبوات اليراع، ص ٣١٢

(٢) قل ولا تقل ج١، ص ١٨ وينظر كبوات اليراع، ص ٣١٣

(٣) الخصائص، ج١ ص ١٥٦

ويكون مُسبّباً عنها . لذا يصح أن نقول :

- خرج عن القانون
- وخرج على القانون (مجاز)

••• لما سبق يفتى البحث بأنّه :

يصح لنا أن نقول :

- خرَج فلان عن القانون أو النظام

و

- خرج فلان على القانون أو النظام

• أُسْقط فى يده

ويخطئون[1] مَنْ يقول :

أُسْقط فى يده، أى

زَلَّ وأخطأ وندم وتحيرَ

ويقولون إن الصواب هو :

سُقِطَ فى يده

اعتماداً على :

• قوله تعالى ﴿ ولما سُقِط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلّوا ، قالوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنا ربُّنا ويَغْفِرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسِرين﴾ سورة الأعراف آية ١٤٩

قال الزمخشرى فى الكشاف[2] : يعنى لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل لأن من شأن مَنْ اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها و(سُقِط) مسند إلى (فى أيديهم) وهو من باب الكناية.

وقرأ أبو السميفع[3] ﴿وسَقَطَ فى أيديهم﴾ بفتح السين على تسمية الفاعل ... أى وقع العض فيها.

---

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٢٠

(٢) الكشاف للزمخشرى ج٢. ص ٩٤

(٣) السابق نفسه. جـ٢. ص ٩٤

وقال الزجاج [1] : معناه . سقَط الندم فى أيديهم أى قلوبهم وأنفسهم كما يقال : حصل فى يده مكروه ... وإن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيهاً لما يحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليد ويرى فى العين.

وفى لسان العرب [2] : سُقِط فى يد الرجل: زَلَّ وأخطأ وقيل ندم، قال الزجاج : يقال للرجل النادم على ما فعل : تحسُّراً على ما فرط منه ... قد سقط فى يده وأُسْقِط وقال أبو عمرو : لا يقال : أُسقط بالألف على ما لم يُسَمَّ فاعله وفى التنزيل ﴿ ولما سُقِط فى أيديهم ﴾

قال الفارسى [3] (ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم) فإن صح ذلك فهو إذاً من السقوط

وفى أساس البلاغة [4] سُقِط فى يده وأُسْقِط ، وسَقَط على المبنى للفاعل : ندم.. وهو مسقوط فى يده، وساقط فى يده : نادم.

=

وقد أجمع القراء كلهم على «سُقِط» بضم السين، وكسر القاف، وهو من الأفعال المبنية التى لم يُسَمَّ فاعله، مثل :
جُنَّ وزُكم
ولم يقرأ أحد «سَقَط فى أيديهم» إلا أبو السميفع فى الشواذ من القراءات ، وذلك غير معروف عند أهل اللغة . (ينظر : النشر ج٣، ص ٨١، والاتحاف ، ص ٢٣٠، وإرشاد المبتدى، ص ٣٣٨، ص ٣٣٩.

(١) السابق نفسه ، جـ٢، ص ٩٤

(٢) لسان العرب، مادة (سقط)

(٣) معجم مقاييس اللغة مادة (سقط)

(٤) أساس البلاغة مادة (سقط)، درة الغواص ، ص ١٢٩.

وفى تاج العروس[1] : ومن المجاز : سُقِط فى يده ... وأسقط فى يده مضمومتين ، أى زَلَّ وأخطأ، وقيل ندم كما فى الصحاح [2]

فالمخطئون اعتمدوا على ما ورد فى الآية القرآنية من سورة الأعراف وعلى ما ورد فى لسان العرب وعلى ما قاله كل من (أبو عمرو) و(ثعلب) و(الراغب الأصفهانى)

إلا أنه وردت آراء عدة أجازت استخدام :

أُسْقِط فى يده أيضاً

وهى لكل من :

- الفراء
- والأخفش
- والزجاج
- والجوهرى
- والحريرى
- والزمخشرى
- وابن منظور
- والفيروز أبادى
- والزبيدى
- ومعجم الوسيط

---

(١) تاج العروس، مادة (سقط).

(٢) الصحاح ، مادة (سقط).

وسبق أن ذكرنا رأى صاحبيّ أساس البلاغة وتاج العروس فى إجازة استخدام هذا التعبير ..

ونذكر هنا ما قاله صاحب درة الغواص[1] « وقد سُمع عنهم أُسْقِط إلا أنّ الأول (أى : سُقِط) أفْصَحَ لقوله تعالى ﴿ ولمّا سُقِطَ فى أيديهم ﴾

وكان الفراء [2] قد زاد قوله (سُقِطَ فى يده أكثر وأجود، وأضاف التاج فى مستدركه أن من المجاز : هو مَسْقُوط فى يده، وساقط فى يده : نادم ذليل» .

••• لذا يفتى البحث بأنّه :

يجوز لنا استخدام التعبير :

أُسْقِط فى يده بمعنى : زل وأخطأ وندم وتحيّر

كما نستخدم :

سُقِطَ فى يده

---

(١) درة الغواص، ص ١٢٩ .

(٢) معالم التنزيل للفراء ، جـ٤، ص ١١٦ .

• اسْتَلَمْتُ :

يخطئون [1] مَنْ يقول :

استلمتُ الرسالة

ويقولون الصواب هو :

تَسَلَّمْتُ الرسالة

فالاستلام لا يعنى الأخذ بل يعنى اللمس باليد والتقبيل

قال ابن منظور [2] تسلمه منى أى قبضه. وسلمت إليه الشئ فتسلمه أى أخذه.

واستلم الحجر واستلأمه قبله أو اعتنقه، وليس أصله الهمز. وله نظائر قال سيبويه [3] (استلم من السلام لا يدل على معنى الاتخاذ)

فالفعل (استلم) خاص بالحجر [4]

---

(١) قل ولا تقل ، ج١ ، ص ٢٤ ، معجم الأخطاء الشائعة، ص ١٢٠ ، ١٢١ . وكبوات اليراع، ج١ ، ص ١٧١ .

(٢) لسان العرب ، مادة (سلم)

(٣) الكتاب

(٤) ـ فى حديث ابن عمر قال : استقبل رسول الله ـ ﷺ ـ الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلا فالتفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكى فقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات، ذكره الطبرى (ينظر : كبوات اليراع، ج١ ، ص ١٧١).

ـ وروى أبو الطفيل قال : رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يطوف على راحلته يستلم بمحجنه ويقبل المحجن، قال الليث: استلام الحجر تناوله باليد وبالقبله ومسحه بالكف، قال الأزهرى وهذا صحيح.

يقول الشيخ أحمد رضا [1] (استلم الشيء وتَسَلَّمَه بمعنى واحد.

ويتفق الباحث مع محمد العدناني [2] في قوله (وعلى فرض أن (استلم) لم ترد صريحة بمعنى (تَسَلَّمَ) فالقياس لا يمنع منها ... ويؤيد ذلك ما صرح به الأزهري[3] من أنه بمعنى التناول.

••• ويفتي البحث بأنَّهُ :

يجوز لنا القول (استلمت الرسالة)

وإن لَم ترد صريحة بمعنى (تَسَلَّم) إلا أن القياس لا يمنع منها ولما صرح به الأزهري من أنه بمعنى (التناول)

---

(١) متن اللغة مادة (سلم)

(٢) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٢١.

(٣) الصحاح مادة (سلم)

• الشُّرْفة :

يخطئون [1] مَنْ يقول :

وقف فلان فى الشُّرْفة

ويقولون إن الصواب هو :

وقف فى المُسْتَشْرَف أو فى الروشَن أو الجناح

لأن الشُّرْفَة هى أجزاء متساوية من البناء ناتئة على حافة السطح بعضها متصل ببعض وهى فى الغالب محددة الأطراف ، وتعد زينة السطوح. وقد يقع عليها طائر . أما الإنسان فكيف يقف أو كيف يقعد على ناتئة من البناء فى حافة السطح.

وقد استشهدوا لوصف الشرفات ببيتين لابن الرومى ، يصف بهما شُرفات بعض القصور التى كانت على دجلة فقال [2] :

تَرَى شُرَّفاتِه مثلَ العَذارى خَرَجْنَ لِنُزْهَةٍ، فَقَعَدْنَ صَفَّا

عليهنَّ الرَّقيبُ أبو رياح فَلَسْنَ لِخَوْفِه يُبْدِينَ حَرْفا

(١) معجم الأخطاء الشائعة، ص ١٢٩

(٢) ديوان ابن الرومى، ص ١١٩ .

فالمراد إذاً (المستشرف) وهو الموضع الذى يشرف منه الإنسان على ما حوله ، أو الروشن، وهو المعروف عند الغربيين (بالبالكون)

وجاء فى لسان العرب : الشرفة أعلى الشيء، وكذلك الشرف، والجمع : أشراف قال الأخطل :[1]

وقد أكل الكيران أشرافها العلا وأبقيت الألواح والعصب السمر

وقال الجوهرى فى الصحاح [2] :

الشرف العلو والمكان العالى قال الشاعر [3]:

أتى الندى فلا يقرب مجلسى وأقود للشرف الرفيع حمارى

وفى أساس البلاغة[4] مدينة شرفاء ومدائن شرف أى ذوات شرف

ولكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة استعمل كلمة الشُّرْفَة التى لم يرتضها الدكتور مصطفى جواد وأبو تراب ففى المعجم الوسيط [5] الذى

---

(١) ديوان (الأخطل) ، ص ١٩٧، الكيران: جمع كور وهو : رحل الناقة. أراد أنه من طول الاحتكاك فى الأسفار أكل ظهرها.

(٢) الصحاح للجوهرى، مادة (شرف)

(٣) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٢٩ (وينظر : لسان العرب لابن منظور، ومعنى البيت كما فسره ابن منظور أنه يقول : إنى خرفت فلا ينتفع برأى وكبرت فلا أستطيع أن أركب من الأرض حمارى إلا من مكان عال.

(٤) أساس البلاغة للزمخشرى، مادة (شرف).

(٥) المعجم الوسيط، مادة (شرف)

أخرجه إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار: الشرفة بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله وقال المعجم إنها محدثة، وأصلها ما يوضع في أعلى البناء يحلى به وأطلق الروشن على الرف، والكوه والشرفة بمعناها المحدث وجمعه رواشن وأما الجناح فهو الجانب ومنه جناح الفندق والروشن وفى محيط المحيط لبطرس البستانى [1] : الجناح الروشن والمنظر يقال: (شرع فلان جناحاً إلى الطريق أى رَوْشَنا ومنظراً)

وليس فى لسان العرب [2] : الروشن بمعنى المشرف أو الشُّرفة

أو الجناح أو المنظر وإنما فيه الروشن بمعنى الرف وبمعنى الكوة.

••• فاعتماداً على ماورد فى المعجم الوسيط بشأن لفظة (الشُّرْفة) فإن البحث يفتى بأنه :

يجوز لنا أن نقول :

وقف فلان فى الشُّرْفة

(١) محيط المحيط، مادة (شرف)

(٢) لسان العرب ، مادة (شرف).

• الاشْتِرَاك :

يخطئون [1] مَنْ يقول :

هذا بدل الاشتراك فى الجريدة

ويقولون إن الصواب هو :

هذا بدل المشاركة فى الجريدة

وذلك لأن الفعل (اشترك) كالفعل (تشارك) لا يصح أن يكون من جهة واحدة، بل يكون من جهتين فاعلتين أو أكثر منهما . يستشهد الدكتور مصطفى جواد [2] على ذلك قائلا : «ألا ترى أنه لا يجوز لك أن تقول (اعتنوت) وتكتفى ولا (افتشلت) وتسكت ولا (ائتمرت) وتدعى الإفادة فلابد لك من أن تقول (اعتنوت أنا وفلان) أى (تعاونتما) و(اقتتلت أنا وعدو الوطن أى تقاتلتما و(ائتمرت أنا وفلان بالخائن أى تآمرتما به فكذلك اشتركت أنا والقوم فى المجلة، فإذا لم يكن معك واحد معلوم رجعت إلى المفاعلة فقلت شاركت فى المجلة كما تقول : عاونت وقاتلت وآمرت ، ويؤيد ذلك أن الفصحاء منذ وجدت العربية إلى اليوم لم يقل أحد منهم فلان متشارك ولا مشترك بل قالوا :

هو شريك ومشارك ولا قال أحد هو متعاون بل معاون ولا قال أحد هو

(١) معجم الأخطاء الشائعة، ص ١٣٠.

(٢) قل ولا تقل ، ج١ ، ص ٢٥ ، وينظر : كبوات اليراع، ج١ ، ص ١٥٢.

متقاتل بل قالوا مقاتل إلا المتآمر فإن من الذين لا يعلمون من العربية شيئاً جليلا قالوا فلان متآمر والصواب مؤامر كمشارك ومقاتل ومحاسب،

ويتفق الباحث مع محمد العدنانى [1] فى أنه يجوز أن تقول :

اشتركتُ فى الجريدة

لأنك اشتركت وصاحبها فى إصدارها، هو بمادته اللغوية وثمن الورق والطباعة، وأنت بما تدفعه له سنوياً ثمناً لجزء من نفقاته، ولولا ما يدفعه القراء من مالٍ، وما يبذُلُه صاحب الجريدة من مال وجُهد لغويّ، متعاونينَ بالمال والمعرفة، لما صدرت الجريدة.

وهذا يرينا أن القراء يشتركون مادّيًا مع صاحب الجريدة فى إصدارها ، مما يُجيزُ لنا أن نقول :

دفعنا بدل الاشتراك فى الجريدة أو بدل المشاركة فيها.

••• لذا يفتى البحث بجواز قولنا :

هذا بدلُ الاشتراك فى الجريدة.

وهذا بدل المشاركة فى الجريدة.

---

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٣٠.

• صَمَدَ له :

يخطئون [1] مَنْ يقول :

فلان صَمَدَ له صموداً

ويقولون إن الصواب هو :

فلان ثبت له

فعندهم كلمة الثبات خير من الصمود ..

وقد استندوا فى ذلك إلى ما يلى :

• أن الفعل (صَمَدَ) لم يرد ذكره فى القرآن الكريم وأن الفعل (ثبت) هو الذى ورد به مع مشتقاته ثمانى عشرة مرة منها قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقِيتم فئةً، فاثبتوا﴾ سورة الأنفال آية ٤٥ .

وقد جاء فى تفسير الجلالين [2] : إذا لقيتم جماعة كافرة، فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا.

• أن ابن السكيت فى كتابه (الألفاظ) ذكر فى باب (القصد والاعتماد) صَمَدَ له : قَصَدَ له .

---

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣

(٢) تفسير الجلالين ، ج٥، ص ١١٩

• أن (صَمَدَ) قد جاء عند الصحاح [1] بمعنى قَصَدَ فقال : صَمَدَه يَصْمِدُه صَمْداً : قَصَدَه

• أن (صَمَدَه، أو صَمَدَ له أو صَمَدَ إليه بمعنى : قَصَدَه أو قَصَدَ له أو وقف إزاءه وذلك فى المواطن التالية: فى (المحكم) وفى (مفردات الراغب)، وفى (مقامات الحريرى) وفى (أساس البلاغة) وفى (مُغْرِب المطرِّزى) وفى (القاموس المحيط) وفى (محيط المحيط) وفى (متن اللغة)

• ما جاء به الدكتور مصطفى جواد فى الجزء الأول من كتابه (قل ولا تقل) حيث قال : وأن استعمال (صَمَدَ له) بمعنى : ثبت ، هو خطأ ، وأن الصواب هو : ثبت له ، وأن مصدر (صَمَدَ) هو (الصَّمْد) لا (الصمود).

وقد استند بدوره إلى ما يلى :

• أن (صَمَدَ) هو فِعْلٌ تحرك وسير ومشى إلى أمام ولا يجوز إطلاق فعل من أفعال الحركة، ولا اسم من أسمائها على السكون والوقوف واللبث. لأن ذلك ضد المعنى المراد، فإذا أريد الوقوف فى الحرب على سبيل المقاومة والموافقة والمناهضة قيل :

ثبت فى الحرب والقتال والمقاومة ثباتاً قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تُفلِحُون﴾ سورة الأنفال آية ٤٥

---

(١) الألفاظ (تهذيب التبريزى) لابن السكيت، ج١، ص ٣٢٩

(٢) الصحاح مادة (صمد)

• ما ورد فى مختار الصحاح [1] من أن (الصَّمَد : السيد، لأنه يُصْمَدُ إليه فى الحوائج ، أى يُقْصَدُ : يقال : صَمَدَهُ يَصْمُدُهُ، أى : قَصَدَهُ) .

• استشهاده بقول ابن فارس فى كتابه (مقاييس اللغة) [2] والصاد والميم والدال أصلان، أحَدُهما القَصْدُ) والآخر الصلابة فى الشىء »

• ما قاله الزمخشرى فى كتابه (الفائق) [3] فى قصة بدر عن معاذ ابن عمرو بن الجموح أنه قال : فنظرت إلى أبى جهل فى مثل الحَرَجه (الشجر الملتف) فَصَمَدتُ لَهُ، حتى إذا أمكنتنى منه غِرَّةٌ حملت عليه» ، قال الزمخشرى (الصَّمْدُ : القَصْدُ) .

• استشهاده بحديث المقداد[4] ، ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ صلّى إلى عُودٍ أو عَمُودٍ إلا جعله على حاجبه الأيمن، أو الأيسر ، ولا يصمُدُ له صَمْداً، أىْ : لا يُقابله مُسْتوياً مستقيماً ، بل كان يميل عنه ، وفى الكتاب : يميل منه .

• استشهاده بما جاء فى كتاب صفين لنصر بنْ مزاحم المنقرى [5] «وبَعَثَ إلى عليّ بالفتح والسير، ثم صَمَدَ لبناتِ كسرى، فزلنَ على أمانٍ»

---

(١) مختار الصحاح ، مادة (صَمَدَ) .

(٢) مقاييس اللغة مادة (صمد)

(٣) الفائق للزمخشرى، ص ١١٩ ، وينظر : لباب الآداب، ص ١٧٥ .

(٤) الفائق للزمخشرى، ص ١٢٠ .

(٥) كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقرى، ص ١١ ، ص ٩٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٣٣١ .

• بما جاء [1] فيه أيضاً من أنه : بعث علي بن أبى طالب إلى حنظلة الكاتب وهو من الصحابة فقال يا حنظلة : أعلىٌ أم لى ... قال لا عليك ولا لك .. قال : فما تريد ؟

قال : اشخص إلى الرُّها .. اسم موضع .. فإنه مزج من الفروج اصمد له حتى ينقضى هذا الأمر .

• كما استشهد بعبارة جاءت فى نفس الكتاب [2] وهى (ولم يبق مع ابن بديل إلا نحو مئة إنسان من القراء ... فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم ... ولجج ابن بديل فى الناس.. وصمم على قتل معاوية وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إلى عبد الله بن عامر واقفاً) .

• كما استشهد بعدد من الجمل قالها البلاذرى فى كتابه (أنساب الأشراف) [3] فى حصار مُسْلِم بن عُقبة المدينة المنورة، ومعقل ابن قيس الرياحِيّ فى كتاب بعث به إلى الإمام علي ـ رضى الله عنه ـ وزياد بن خصفة فى كتاب بعث به إلى الإمام أيضاً ، وهاشم بن عتبة بن أبى وقاص يحث على القتال، واستشهد بأمر مروان لحُبَيش بن دَلَجَة القينى وكان مروان أمره أن لا يعرض لأهل المدينة ... وأن لا يكون صمده وقصده إلا لمن يوجهه ابن الزبير للمحاربة

• كما استشهد بما ورد فى كتاب (الكامل) للمبرد [4] من أنه : روى عن

(١) السابق نفسه
(٢) السابق ، نفسه
(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى، ج١، ص ١٥١.
(٤) الكامل للمبرد، ج٣، ص ١٢٩.

النبى ـ ﷺ ـ أنه نظر إلى رجل ساجد إلى أن صلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : ألا رجل يقتله فحسر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصمد نحوه، ثم رجع إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : أقتل رجلا يقول : لا إله إلا الله.

• وبما ورد فى تاريخ الطبرى [1] فى أخبار الفتوح ناقلا : ولما توجه علقمة إلى غزة ... وتوجه معاوية إلى قيسارية صمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون ومرّ بإزائه.

• وبما ورد فى صبح الأعشى للقلقشندى [2] فى كتاب عبد الحميد الكاتب إلى بعض قادة مروان : متوكلا على الله فيما صمدت له ... واثقاً بنصره ... ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام.

ثم يقول مصطفى جواد (فهذه شواهد ليست بقليلة تدل على أن الصَمْد هو القصد لا الثبات والصمود ليس مصدراً، والصمد هو حركة على خط مستقيم نحو :

المصمود أى المقصود والمصادن التى تعنى هذا المعنى تكون قصيرة لتمثل السير فى أقصر الخطوط وهو الخط المستقيم ، ولذلك قالت العرب :

قصد قصداً

ومع إقرارنا بأن جميع هذه الشواهد تدل على أن (الصَّمْد) هو القصد

---

(١) تاريخ الطبرى، ج٤، ص ١٥٧.

(٢) صبح الأعشى، للقلقشندى، ج١، ص ٢٠٩.

لا الثبات إلا أننا نرى أن صَمَدَ جاءت أيضاً بمعنى ثبت واستمر ويمكننا أن نعرض لبيان ذلك من خلال ما يلى :

• أن كلمة لم ترد فى القرآن الكريم ليس دليلا على عدم وجودها فى اللغة ... فالقرآن الكريم ليس معجماً من شأنه إيراد جميع ألفاظ العربية.

• أن الفعل (صَمَدَ) وإن جاء فى جميع الشواهد التى سبق ذكرها عن عدد كبير من اللغويين والصحابة والأدباء بمعنى (قَصَدَ) لا يعنى أن غيرهم لم يستعمله بمعنى (ثبت)

• كون الفعل (صَمَدَ) فعل حركة ، وعدم جواز استعماله فعلا للسكون، ينقضه ما يأتى :

• قول ابن فارس نفسه [1] ، الذى استشهد به الدكتور مصطفى جواد، لأنه يقول : إن الأصل الثانى للضاد والميم والدال هو الصلابة فى الشىء، وأين الحركة من الصلابة ؟ وهل الصلابة غير الثبات ؟

• إذا كان (الصَّمَدُ) هو السيد الذى يُقصَدُ فى الحاجات، فكيف نجده إذا كان متحركاً ؟ وهل للمتحرك مكان خاص به ، يثبت فيه ؟

• إن ما قاله الزمخشرى فى (الفائق) ، قال ابن الأثير بعده فى (النهاية) [2] ما يناقضه (فى حديث معاذ ابن الجموح فى قتل أبى جهل: «فَصَمَدت له حتى أمكنتنى منه غِرَّة » أى : ثَبَتُ له ، وقَصَدْته، وانتظرت غفلته»

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (صمد)

(٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر، ج٢، ص ٣١٥.

• حديث المقداد يدل على أن رسول الله ـ ﷺ ـ ثابتٌ فى مكانه ، لا يمكنه الانتقال منه، لأنه كان يصلى، والصلاة تفرض على المصلى البقاء فى مكان واحد لا يريمه.

• استشهد لسان العرب [١] بتفسير ابن الأثير، دون إبداء أى شك فى صحته.

• جاء فى لسان العرب [٢] أيضاً (وفى حديث علىٍّ ، فصَمْداً صَمْداً، حتى يتجلىّ لكم عمودُ الحقّ .

• ثم قال لسان العرب [٣] ، اصْمَدَ إليه الأمر : اسنده والمفروض فى المُسْنَد إليه أن يكون ثابتاً.

• قال ابن الأعرابى [٤] : (الصِّمَادُ سدادُ القارورة) ، وسدادُ القارورة فائدته فى ثباته مكانه ، لأنه إذا زُحزِح عنه أصبح بلا فائدة.

• وقال أبو عمرو [٥] (الصَّمْدُ من الرجال : الذى لا يَعْطَشْ ولا يجوع فى الحرب، وفى هذا نوع من أنواع الصَّبرِ والثبات على العطش والجوع.

• استشهد تاج العروس [٦] بتفسير ابن الأثير ، دون أن يُبدى أى شك فى صحته، وهو الذى عوّدنا أن لا يُحجم عن ذكر أى شىء شك فيه .

---

(١) لسان العرب ، مادة (صمد)

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

(٥) السابق نفسه.

(٦) تاج العروس، مادة (صمد).

• ويقول تاج العروس [1] : «والصَّمْدُ : المكان المرتفع الغليظ من الأرض، لا يبلغ أن يكون جبلًا، وهذا ثابت مكانه.

• والصَّمْدَةُ أو الصُّمْدَةُ : صَخْرَةٌ راسِيَةٌ فى الأرض. مَنْ يحركها ؟

• والصِّمَاد : ما يُلَفُّه الإنسان على رأسه من خِرْقَةٌ أو منديل، أو ثوب (دُونَ العِمامة) ، والصِّمادُ لا يظلُ مكانه إلا إذا ثُبِّت على الرأس.

• والصَّمُودَ: اسم صنم كان لعادٍ ويروى ليزيد بن سعد المؤمن بهود عليه السلام [2] :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشى لا تمسهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والبغاء

ونحن إذا أردنا أن نصف إنساناً بالجمود وعدم الحركة، قُلنا : وقف كالصنم.

• الناقة (المصَّمادُ) : الباقية على القُرِّ والجَدْبِ. وهل تعنى كلمةُ (باقية) هنا إلا (ثابتة) ؟

• وقال الصَّاغانى [3] : «الصَّمَدُ: هو الشىء الصُّلْبُ الذى ليس فيه خَوَرٌ، وهل نجد الصَّلابة فى الثبات أم فى الحركة ؟

---

(١) تاج العروس، مادة (صمد).
(٢) السابق نفسه.
(٣) وهو مذكور فى السيرة ... ولم يذكره ابن الكلبى فى الأصنام، وذكره المسعودى فى مروج الذهب ، ج٣، ص ٣٩٥.

• قال دُوزى [1] (الصُّمُودية : الصَّلابة، صامِدٌ: ثابتٌ صُلْب) . فإذا كان الصامدُ هو الثابتُ، فلابد أن يكون اسم الفاعل (الصامدُ) قد أتى من الفعل (صَمَدَ) الذى لم تذكره جُلُّ المعاجم، كما أتى اسم الفاعل (الثابت) من الفعل (ثبت).

• قال المعجم الوسيط والذى أصدره مجمع اللغة العربية القاهرى: صَمَدَ يَصْمُدُ صَمْداً وصُمُوداً: ثبت واستمر ومنه قول الإمام علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ (صَمْداً صَمْداً حتى يتجلىّ لكم عمودُ الحق، : ثباتاً ثباتاً .

فهذه البراهين الكثيرة تجعلنا نؤيد :

• استعمال (صَمَدَ) بمعنى (قصدَ)

• واستعمال (صَمَدَ) بمعنى (ثبت)

••• ومن خلال ما تقدم من أدلة وبراهين يفتى البحث بتأييد استعمال لفظة (صَمَدَ) بمعنى (قصد) وبمعنى (ثبت).

---

(١) تاج العروس، مادة (صمد).

• اعْتَذَرَ عَنْ :

ويخطئون [1] مَنْ يقول:

اعتذر فلان عن التقصير

ويقولون إن الصواب هو :

اعتذر فلان من التقصير

وذلك لأن جُلّ المعاجم اقتصرت على ذكر حرف الجر (من) بعد الفعل (اعتَذَرَ) من ذلك .

• ما جاء فى لسان العرب[2] (اعتذر من ذنبه : تنصل)

• وما جاء فى مختار الصحاح [3] (اعتذر من الذنب)

• وما جاء فى شرح نهج البلاغة [4] فى كتاب لعلي بن أبى طالب بعث به إلى قثم بن العباس (فأُهم على ما فى يديك قيام الحازم الطبيب والناصح اللبيب، التابع لسلطانه المطيع لإمامه. وإياك وما يعتذر منه) .

• وما جاء فى (الأغانى) [5] و(أمالى المرتضى) [6] : قال ابن أبى عقيق

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٦٥.
(٢) لسان العرب، مادة (عذر)
(٣) مختار الصحاح ، مادة (عذر)
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج٤، ص ٥٢.
(٥) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، ج١، ص ٢٢٣.
(٦) أمالى المرتضى، ج٢، ص ٢٢.

للثريا (هذا عمر قد جشمنى السفر من المدينة إليك ... فجئتك معترفاً بذنب لم يجنه معتذر إليك من إساءته إليك).

• وما جاء فى (الأغانى) [1] غَنّى الدلال أبو زيد ناقد المدنى مولى عائشة بنت سعيد بن العاص :

طربت وهاجك من تَذَكّر [2] ومن لست من حبه تعتذر

• وما جاء فيه أيضاً قال بشر بن برد :

قلت إذ شاع ما اعتذارك مما ليس لى فيه عندهم عذر

• وما جاء فى (أنساب الأشراف) [3] قال ابن عرادة السعدى فى مدح سلم بن زياد ابن أبيه :

يقولون اعتذر من حب سَلْمٍ إذاً لا يقبل الله اعتذارى

• وفيه أيضاً [4] : مدح الراعى عبيد بن الحصين سعيد ابن العاص بن سعيد ابن العاص قال المفضل الضبىّ: قال لوكيله كم عندكم ؟ قال : ثلاثة آلاف دينار ... قال : ادفعها إليه واعتذر من قلتها.

---

(١) الأغانى، ج٤، ص ٢٩٨.

(٢) اذّكره وادّكره واذدكره بمعنى ذكره...
﴿وادّكر بعد أمة﴾ أى نسيان قال تعالى ﴿فهل من مُدّكر﴾ سورة القمر آية ٢٢.
وهو من باب الافتعال من التركيز فلما اجتمعت الذال والتاء أبدلت التاء دالا ثم اجتمعت الذال والدال أبدلت الذال دالا فاجمعت دالان فادغمت إحداهما فى الأخرى فصار ادّكر وأصله (اذتكر، على وزن (افتعل).

(٣) الأغانى، ج٣، ص ٣٨٣.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج٢، ص ٧٢.

• وما جاء فى (كليلة ودمنه)[1] فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه.

• وما جاء فى (مجالس العلماء) [2]: وقال عبد الله بن محمد البواب خليفة الفضل بن الربيع فى حجبه الهادى بن المهدى فى أمر وقع له مع الأسود بن عمارة النوفلىّ:

«فدنوت منه وأخبرته خبر الهادى واعتذرت من مراجعتى إياه».

• وما جاء فى (تاريخ الوزراء) [3]: وقال أبو الحسن بن حمدون: وكتب يوسف بن دياداذ إلى الوزير أبى الحسن على بن الفرات يعرف الخبر ويعتذر إليه من تأخير المال الذى واقفه عليه.

• وما جاء فى (إعتاب الكتاب) [4] و (كتاب الوزراء والكتاب) [5] قال ابن عبدوس الجهشيارى:

حكى لنا أن موسى الهادى سخط على بعض كتابه فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال له: يا أمير المؤمنين إن اعتذارى مما تُقرِّعنى به ردٌّ عليك.

ولكن:

• جاء فى (المصباح المنير): اعتذر عن فعله: أظهر عُذْرَه.

(١) كليلة ودمنة، ص ٣٧٧.
(٢) مجالس العلماء، للزجاجى، ص ٢١٥.
(٣) تاريخ الوزراء لابن الصابى، ص ٢٤٠.
(٤) إعتاب الكتاب لابن الأبار، ص ٧٥.
(٥) كتاب الوزراء والكتاب، ص ١٦٩.

• نقلَ (مدُّ القاموس) [1] قول المصباح المنير وأقوال المعجمات الأخرى.

• قال المعجم الوسيط : اعتذر من ذنبه واعتذر عن فعله: تنصّل وأصبح لنفسه

• يُضاف إلى هذه المصادر الثلاثة أنّ كثيراً من الأدباء يقولون :

اعتذر عن ذنبه

• تُجيزُ لنا المعاجم كلها أن نقول : اعتذرْ لفلانٍ عنّي، أى : نيابة عَنّ ، ولا يَحدُثُ لبس فى المعنى إذا قلنا : اعتذرتُ لزيدٍ عن عمرو، واعتذرتُ لزيدٍ عن ذنبى.

وقد ذكر اللغويون والنحاة أنه يجوز إنابة حروف الجر بعضها عن بعض من ذلك ما أورده ابن جنى فى كتابه (الخصائص) حيث أفرد بحثاً فى باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض [2]

لذلك يرى البحث أنه يجوز لنا :

• قول : اعتذر من التقصير

واعتذر عن التقصير

• • • لذا يفتى البحث بجواز القول:

اعتذر فلان من التقصير

واعتذر فلان عن التقصير

---

(١) المصباح المنير، مادة (عذر)

(٢) مد القاموس، مادة (عذر)

(٣) المعجم الوسيط، مادة (عذر)

• تعَرَّض:

يخطئون [1] مَنْ يقول :

تَعَرَّض فلانٌ للتعذيب

ويقولون إن الصواب هو :

عُرِّضَ فلان للتعذيب وجُعِل عُرْضَه له ..

قال أسعد داغر [2] (ويعدون الفعل (تعرض) بـ (إلى) : فيقولون (لم يفكروا أن يتعرضوا إلى أحد، وهو بهذا المعنى إنما يتعدى باللام: تقول: تعرض له إذا تصدّى وطلبه)

وكان الدكتور مصطفى جواد [3] قد خطأ الدكتور طه حسين الذى قال فى كتابه الأيام :

(وكان ذكاؤه واضحاً، وإتقانه للفقه بيّناً) وحسن تَصرُّفِه فيه لا يتعرَّضُ للشك).

وقال (وكان الأزهر قد تَعرَّضَ لألوان مختلفة من النظام، ويقول مصطفى جواد (والسبب فى غلط الاستعمال أن (تَعَرَّض يدل على رغبة

---

(١) قل ولا تقل ، ج١، ص ٤٦، معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٦٦ .

(٢) تذكرة الكاتب، ص ١٢٩ .

(٣) قل ولا تقل، ج١ ، ص ٤٦

الفاعل فى الفعل والمفعول به إن وجد ... والمعذب أو المعاقب أو المؤذى كائناً ما كان الأذى لم يرغب فى العذاب والعقوبة والأذى ... وإنما قهر وأجبر على مكابدتها ... ولو صح أن الذى عرض لهذه البلايا راغب فيها وتائق إليها لم يكن معذبه أو معاقبه أو مؤذيه ملوماً)

ثم يأتى مصطفى جواد بعدد من الشواهد من أمهات كتب اللغة والأدب والتاريخ تؤيد رأيه منها :

• ما جاء فى (الأغانى) [1] قال رجل من قيس عيلان : كان الأعشى يوافى سوق عكاظ، وكان المحلق الكلابى مثنانا مملقاً. فقالت امرأته : يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر؟

• وما جاء فى (شرح البلاغة) نقلا من كتاب الواقدى فى خبر هبار بن الأسود : فقال رسول الله ﷺ ـ وهبار يعتذر إليه ـ اسم الإسلام ما ذلك ونهى عن التعرض له .

• وما جاء فى (الحيوان) [2] وسأضرب لك مثلاً قد استوجبت أغلظ منه، وتعرضت لأشد منه ولكنا نستأنى بك وننتظر أوبتك.

• وما جاء فى (وفيات الأعيان)[3] فى ترجمة الوزيرى يحيى ابن هبيه قول سبط ابن الجوزى: وقال جدى الشيخ أبو الفرج فى كتابه المنتظم : وكان الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض لأسبابها.

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، ج٢، ص ١١٣.
(٢) شرح البلاغة لابن أبى الحديد، ج٤، ص ٢١٧.
(٣) الحيوان للجاحظ، ج١، ص ٢١٨.

فهو يرى أن هذه الشواهد من الواقع اللغوى للفعل (يتعرض)، ومصدره (التعرض) تؤكد أن التاء تفيد رغبة الفاعل فى الفعل..

لكنَّ الجوهرى قال فى (الصحاح) [1] (وَعَرَّضْتُ فُلانًا لكذا: فَتَعَرَّض هو له :

وقال الرازى فى (مختار الصحاح) [2] وعرَّضَه لكذا فَتَعَرَّضن لَهُ)

ونقله منهما صاحب (لسان العرب)[3] ثم نقل (تاج العروس) [4] فى مستدركه عبارة (الصحاح) وفَعَل (مَـدُّ القاموس)[5] مثله ثم جاء (المعجم الوسيط)[6] فقال (تَعَرَّضَ فلانٌ لكذا: صار عُرْضَةً وهدفًا لَهُ)

وإن كان مصطفى جواد قد اعتبر أن ما ورد فى (الصحاح للجوهرى) و (مختار الرازى)، و(لسان العرب) وهى جميعها من أصح معجمات العربية وأعلاها... مؤكداً على أن ما ورد فى (الصحاح) مخالف للواقع اللغوى... فإن الباحث ـ مع اختلافه معه فيما ذهب إليه ـ لا يجد هنا خيراً من موقف البصام [7] وهو تلميذ قديم لمصطفى جواد ، إذ يقول «معلوم أنه لا يعزى غلطٌ إلى معجم من معجماتنا القديمة بغير نصوص قوية تقطع بغلطه، فكيف

(١) الصحاح مادة (عرض)

(٢) مختار الصحاح مادة (عرض)

(٣) لسان العرب مادة (عرض)

(٤) تاج العروس مادة (عرض)

(٥) مدُّ القاموس مادة (عرض)

(٦) المعجم الوسيط مادة (عرض)

(٧) الاستدراك على كتاب قل ولا تقل لصبحى البصام، ص ١٩.

يعزى الغلط إلى ثلاثة معجمات قديمة اتفقت على حقيقة معينة هذه المعجمات حجة ظاهرة عليه، عدا ما أنا محتج به من شواهد»

وبعد أن رد عليه إنكاره (المطاوعة) بالحجة البينة من أقوال أئمة اللغة والتصريف[1] قال «فلك أن تقول : عُرِّض فلان للأذى أو تَعَرَّض له لأنهما بمعنى. فإن قيل : ألا لبس في استعمال تعرض ولها معنيان متضادان ؟ قلت: سياق الكلام يدفع اللبس، ولولا سياق الكلام لخفي علينا معنى كثير من كلام العرب» [2]

وإن كان أبو تراب الظاهري[3] قد اتفق مع مصطفى جواد فإن الباحث يتفق مع البصام ومحمد العدناني[4] في أن جملة (تَعَرَّض فلان لكذا) صحيحة مثل جملة (عُرِّض فلان للتعذيب) التي اقترحها الدكتور مصطفى جواد ..

• • • لذا يفتي البحث بصحّة استعمال :

تعرَّض فلان للتعذيب

عُرِّض فلان للتعذيب

---

(١) السابق نفسه جـ ١ ص ١٠٣، «أما تفعل، فإنه وأن وضع لمطاوعة (فعل) كما ذكرنا لكنه إنما جاز نحو فهمته فتفهم وعلمته فتعلم لأن التكرير الذي فيه كأنه أظهره وأبرزه حتى صار كالمحسوس» .

(٢) الاستدراك للبصام ص ٢٢، ص ٢٣.

(٣) كبوات اليراع جـ ١ ص ٢٣٠.

(٤) معجم الأخطاء الشائعة، جـ ١ ص ٢٣٠.

• نوادٍ

ويخطئون[1] من يجمع النادى على نوادٍ

ويقولون إن الصواب هو :

أَنْدِيَة وجمع الجمع : أَنْديات

ويجمع لسان العرب[2] (النادى) على : أَنْدِية وأَنداء قال كثير[3] :

لهم أَنديات بالعشى وبالضحى
بها ليل يرجو الرغبون نهالها

ولكنّ

• المعجم الوسيط[4] يجمع النادى على أَنْدية ونَوادٍ ، وبذلك ساير مُعْظم العامة فى البلاد العربية الذين يجمعون النادى على نوادٍ.

• ويجيز الشيخ مصطفى الغلاييني[5] أن نجمع الأندية على نوادٍ، ويقول إنه مطابق للقياس، كما قالوا، جامع وجوامع، وطابق وطوابق وسالف، وسوالِف، وسابق وسوابق.

---

(١) معجم الاخطاء الشائعة ص ٢٤٤.

(٢) لسان العرب مادة (ندى) (وينظر: درة الغواص، ص ٧).

(٤) ديوان كثير عزة، ص ١١٧.

(٥) جامع الدروس العربية، ص ٢٣٤.

ثم يستشهد بقول صاحب القاموس المحيط[1] في أوائل خُطْبَة كتابه (محمد خيرُ مَنْ حضر النَّوادى) وفى (النحو الوافى) يقول عباس حسن[2] (والحق أن صيغة (فَاعِل) تجمع قياساً على (فَواعِل)، سواءٌ أكانت صيغة (فاعل) صفة) للمذكر العاقل أم غير العاقل . ولكنها إن كانت وصفاً لمذكر غير عاقل، كانت أقوى.

والنادى هو المجلس والقوم المجتمعون فيه ولا يُسَمَّى نَادياً حتى يكون فيه أهله. ويطلق النادى على أهل المجلس مجازاً.

ومن معانى النادى : الشخص أو الشَّبح

أما قوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ سورة العلق آية ١٧

فمعناه : فليدع عشيرتَهُ، وهم أهل النادى، والنادى مكانه ومجلسه، فسماه به (مجاز مرسل علاقته المحليه)

والنَّدِىّ، والنَّدْوة، والمُنْتَدَى تعنى (النادِى) أيضاً.

أما النوادى فمن معانيها[3] ما يلى :

- الحوادث والخطوب تقول :

رمتهم النوادى بسهامها

- الأشياء المبتلَّة

---

(١) القاموس المحيط مادة (ندى)

(٢) النحو الوافى، ج٣، ص ١٩٧.

(٣) معجم الاخطاء الشائعة ص ٢٤٤، وينظر كبوات اليراع ص ٤١٨، ١٩

• النوق المتفرقة فى النواحى، أو الشاردة تقول:

إبل نوادى أى شاردة، لأن جمع التكسير على فواعل إنما يأتى جمعاً لفاعله وجمعاً لفاعل على شرط أن يكون وصفاً لمذكر عاقل فنقول :

جواد صاهل، وخيل صواهل

•• النواصى

• نوادى الكلام : ما يَتَفَوَّه به الإنسان وقتاً بعد آخر .

• نوادى النَّوَى (جَمْع نواه) : ما تَطَايَر منها عند كَسْرِها

أما مفرد النَّوادِى فهو : المَنَّادِية.

وقد تجمع النادية على ناديات.

••• لما سبق يفتى البحث بصحة جمع النادى على نَوادٍ كما يجمع على أندية.

• هام :

ويخطئون [1] من يقول :

أمرٌ هـــام

ويقولون إن الصواب هو :

أمرٌ مهم، وقد أهمه الأمر مستشهدين بما ورد عند الراغب الأصبهانى[2]

(وأهمنى كذا: أى حملنى على أن أهم به قال تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ سورة آل عمران آية ١٤٥

فالأنفس مهمة إذاً لا هامة فالشىء المهم هو الذى يبعث الهمة فى الإنسان ويجعله يهم ويقلقه أحياناً . ونقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية فقيل له : المهم وجمع على المهام تكسيراً وعلى المهمات تصحيحاً. وهو (بالبداية) اسم فاعل من أهمّه يُهمه (هماما) .

والهام هو المحزن . وهو من همه أى أحزنه حزناً يذيب الجسم ولا محل له فى تلك الجملة. ذكره الدكتور مصطفى جواد فى كتابه متأيداً بكلام الراغب [3]

• وما جاء فى لسان العرب [4] : ويقال : همك ما أهمك. جعل (ما) نفياً

(١) معجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٩.

(٢) مفردات غريب القرآن ج١، ص ٢١٠.

(٣) قل ولاتقل جـ ١ ص ٩٠.

(٤) لسان بوب مادة (همم)

فى قوله : ما أهمك . أى لم يهمك همك، ويقال : معنى ما أهمك أى ما أحزنك. أو ما يقلقك أو ما أذابك يريد أن (ما) فى الوجه الثانى تكون اسماً موصولا..

ويرى الباحث أنه لا خطأ فى استخدام أمر هام لأن هناك فعلين : هَمَّهُ الأمرُ يُهِمُّهُ، هَمّاً، ومَهَمَّةً : أقلقه وحزَنَه، فهو هامٌ، وهنالك أيضاً : أَهَمَّ الأمرُ فلاناً: أقلقَهُ وحزَنَه، فهو مُهِمٌّ وكلتا الكلمتين صحيحة.

جاء فى المصباح[1] : أَهَمَّنى الأمرُ : أَقْلَقَنِى، وهَمَّنى هَمّاً (مِنْ باب قتل) مِثْلُه.

• • • لذا يفتى البحث بصحة استخدام :

أمرٌ هامٌ

أمرٌ مُهِمٌّ

---

(١) المصباح المنير مادة (همم)

وينظر (معجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٩).

• تَوَفّـى :

ويخطئون [1] مَنْ يقول :

تَوَفّى فلانٌ

ويقولون إن الصواب هو :

تَوَفّى الله فلانًا أو

تُوُفّى فُلانٌ والله

هو المُتَوَفّى ، وفلانٌ هو المُتَوَفّى

معتمدين فى ذلك على :

• ماجاء فى المعاجم كلها ومن ذلك مثلا :

• ما جاء فى لسان العرب [2] وتاج العروس [3] مثلا :

تُوُفّى فلانٌ إذا مات، وتَوَفّاه اللهُ إذا قَبَضَ نَفْسَهُ .

وما جاء فى (الصحاح)[4] (رُوحَهُ)

• وما روى من أن عَلِيًّا بن أبى طالب ـ كرم اللهُ وجهه ـ سأله عامِيٌّ ، وهو يمشى وراء جنازة :

ـ مَنِ المُتَوَفّى ؟

ـ الله

ـ كيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟

---

(١) لسان العرب مادة (وفى)

(٢) تاج العروس مادة (وفى)

(٣) تاج العروس مادة (وفى)

(٤) الصحاح مادة (وفى)

ـ أما سمعت قوله سبحانه : ﴿الله يَتَوَفَّى الأنفس حين موتها﴾ سورة الزمر آية ٤٢ .

ـ قل من المُتَوَفَّى ؟

وما ورد فيما يراه الشهاب الألوسى [١] أن الإمام علياً نفسه (كرم الله وجهه) يقرأ الآية ٢٣٤ من سورة البقرة ﴿والذين يَتَوَفَّون منكم﴾ بالبناء للفاعل كما يقرأها ﴿والذين يُتَوَفَّون منكم﴾ بالبناء للمفعول..

فالوجه فى تخطئة العامى أنه ليس من أهل القصد والتأويل [٢] ، أى أن الإمام حدث السائل بما يقتضيه الحال، وما يستوعبه لُبُّه.

وقد جاء فى كلٍ من (لسان العرب) [٣] و(تاج العروس)[٤] أيضاً (تَوَفَّى المَيِّت : استيفاء مُدَّته التى وُفِيَتْ له، وعددُ أيامه وشهوره وأعوامه فى الدنيا. أمّا فعل المصدر (تَوَفَّى فلانٍ) فهو: (تَوَفَّى فلانٌ) تَوَفِّياً ، أى : استوفى المدة المقدرة لبقائه حيّاً

لذا نستطيع أن نقول : تَوَفَّى اللهُ فُلاناً، أو تَوُفِّىَ فُلانٌ أو تَوَفَّى فُلانٌ ، فالباحث يتفق مع صاحب معجم الأخطاء الشائعة . فى إيثار استعمال الجملتين الأوليين اللتين تُوردهما المعجمات العربية والمصادر اللغوية كُلُّها دون أن يخطئ من يقول (تَوَفَّى فلانٌ) .

••• لذا يفتى البحث بإيثار استعمال الجملتين :

تَوَفَّى اللهُ فُلاناً

تُوُفِّى فُلانٌ.

---

(١) كشف الطره لشهاب الألوسى، ص ٢٧ ، ص ٢٨.

(٢) السابق نفسه.

(٣) لسان العرب مادة (وفى)

(٤) تاج العروس مادة (وفى).

ثالثاً : ما يقترحه البحث من فتاوى لغوية :

يرى البحث أن الارتقاء بالعربية والاهتمام بألفاظها وإعادة النظر فيما شاع من تخطئة لبعض الألفاظ وهى صحيحة أصبح ضرورة لا مناص منها ... ولما كان ذلك واحداً من أهم الدوافع وراء هذا البحث فضلا عن محاولة تلمس الصواب وطرقه محافظة على العربية وألفاظها فإن البحث ـ وبعد وقوفه على مناقشة ومعالجة عدد من الألفاظ الصحيحة والتى أشيع أنها خطأ ـ يرى ـ على استحياء ـ التقدم بعدد من الفتاوى اللغوية ـ والتى يرجو الله القدير أن تنال رعاية القائمين على اللغة العربية والمهتمين بها فهى لغة النّص الذى ﴿لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه﴾

وهذه الفتاوى هى :

(١) لما كانت الضرورة متوجهة إلى تعليم الفصيحة وتغليبها على اللهجات العامية لما تمثله من تخلف وتحريف ... فإن الباحث يمكن أن يقترح الإفتاء بما يلى :

أ ـ بضرورة إشاعة العربية فى المجتمع وذلك بنشر رايات العلم والثقافة والأدب مع الاهتمام بالمطبوعات جميعها وبخاصة (المجلات والجرائد) شريطة أن تكون هذه المطبوعات جميعها مضبوطة بالشكل ، صحيحة الطباعة ولا غرابة فى ذلك فإن معظم ما يرد من مطبوعات عن بيروت وبخاصة ما تقدمه المطبعة الكاثوليكية منذ أكثر من مائة عام يكون مشكولا وعلى أحسن ما يكون الشكل.

ب ـ وكذلك الاهتمام بالإذاعتين المسموعة والمرئية فضلا عن (السينما) والمسرح والأندية والمحافل وقصور الثقافة وغيرها شريطة

أن يراعى الناطق فى هذه الحالات جميعاً صِحَّةَ النطق بالألفاظ والتراكيب العربية صوتاً وبناء وتأليفاً.

هذا فضلا عن المدارس والجامعات فعليها المعول الأكبر فى تغذية المجتمع بالعلم عامة وعلم اللغة بشكل خاص.

٢ـ ولما كانت قضية البحث مرتبطة بمحاولة إحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ العربية فإن البحث يفتى بما يلى :

أ ـ بضرورة إتقان اللغة وذلك بالدراسة على أصولها المقررة وقواعدها الأساسية وقد أثيرت فى العصر الحديث عاصفة شديدة بوجه القواعد العربية ، واتخذت مسالك شتى وطرائق مختلفة للعبث بأصولها أو إبطال رسومها [١] . والذى يطمئن إليه البحث هنا هو الاعتماد على تلك القواعد والاعتداد بها . فقد برهنت القرون على صلاحها ، ولنا أسوة فيمن مضوا من أسلافنا حيث انتفعوا بها الانتفاع الكامل حين أحسنوا التهذيب والانتقاء فوضعوا النحو وفق المراحل التدريسية وطبيعة أحوالها وإن أصدق مثال على ذلك فى ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١هـ على ما قدم فى كتابيه (شذور الذهب) و(قطر الندى وبل الصدى) ...

(١) * فى الدفاع عن قواعد العربية (ينظر : بحث : محمد عبد الخالق عضيمة بعنوان : «النحو بين التجديد والتقليد» ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ الرياض ٦/١١ – ١٠٦.

* أما عن الدعوة إلى تيسير النحو فى العصر الحديث فلم تصل إلى الصورة التى يمكن أن تكون البديل الصحيح عن مناهج الأقدمين.. وقد ورد لمجمع اللغة العربية القاهرى عدد غير قليل من الردود لكثير من العلماء بهذا الصدد نشير إلى واحد منها وهو : «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة» لمحمد أحمد عرفة ... وهو ردّ خاص على إبراهيم مصطفى فى كتابه « إحياء النحو» .. (وينظر : إلى الفصل الأول من كتابنا : ظاهرة الاستغناء فى قضايا النحو والصرف» دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٩٩٣م.

وليس عسيراً علينا اليوم أن ننتقى النحو بما داخله من مؤثرات فلسفية ليست من طبيعته، أو تعليلات كلامية ليس لها وظيفة حقيقية فى رسم القاعدة أو أحكامها .

٣ ـ ولما كانت القاعدة اللغوية لا تغنى عن مادة اللغة ـ ولما كان البعدُ عن الارتشاف من مناهل البيان والفصاحة مورثًا للركاكة والسقم والانحراف ... فإن البحث يفتى بـ :

أ ـ ضرورة الوقوف على عيون الأدب العربى وعلى رأسها النَّصُ القرآنىّ المعجز فى مرحلة تتحقق فيها ملكة التعبير قبل الولوج فى مساحة القواعد والضوابط المستنبطة لأن القواعد لاحقة للنص لا سابقة عليه فتأخيرها عنه أولى، وقد أدرك ابن خلدون المتوفى سنة ٨٢١هـ هذه الحقيقة فقال يصف الطريق إلى العربية فى اطمئنان العالم صاحب النظر النافذ والتجربة المحققة [١] «إن اللغات لما كانت ملكات ـ كما مر ـ كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضاً فى سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم» ..

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٩.

ثم وصل ابن خلدون كلامه بالتنبيه على أمر لا تتحقق الملكة بغيره، ولا تتم فائدة ذلك الحفظ والتمثيل إلا بوجوده، وهو التطبيق العملى فى ممارسة التعبير ، وإبداع التراكيب اهتداء بما وعى المتدرب، واقتداء بما حفظ، فقال [1] «ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخاً وقوة» .

ذلك هو أسلوب الأسلاف فى التعليم، مكنهم من هذه اللغة وملكهم أمرها، فأحرى بنا أن نفطن إليه ونوليه من الرعاية والعناية ما هو أهله.

ب ـ ضرورة الاهتمام بطرائق التعليم اللغوى الحديثة من مثل الطريقة التركيبية القائمة على[2] «الممارسة المتكررة» ، بل التكرار المفرط أحياناً لنماذج الجمل والتراكيب اللغوية بشكل يحولها إلى عادات تترسخ لدى المتعلم من خلال الممارسة والتدريب المستمر .

على أن يعنى بانتقاء تلك النماذج، فهى الدليل على جلال العربية وجمالها..

٤ ـ ونظراً لما تمثله دراسة اللغة ـ وبخاصة فى مجالى النحو والصرف باعتبارهما أساس معرفة العربية ـ أهمية خاصة للألفاظ فإن البحث يفتى بـ :

ضرورة أن تشارك الجامعات العربية فى دراستها واشتراع مناهجها يقول الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين[3] «وكان المفروض أيضاً أن تشارك

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) عن مقال للدكتور/ عبد القادر محمد سعيد البيطار بعنوان: النظريه اللغوية الجديدة وتعليم اللغات، نشر فى – مجلة المعلم الجديد ٣٩ (١٣٩٧هـ– ١٩٧٧م) ط ص ٥٠ .
وينظر: كتاب: خليل السكاكينى اللغوى، ص ٥٩–٦٠.

(٣) المنهج الصوتى للبنية العربية ـ رؤية جديدة فى الصرف العربىّ للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ص ٧.

الجامعات الرائدة فى توجيه عملية التعليم فى المدارس طبقاً لأحد المناهج المقترحة ، وأن تكون معاهد العلم مجالات تجريبية لبحوث العربية ، قبل أن تكون حقول تجارب للعلوم الأخرى، كالرياضيات واللغات الأجنبية والفيزياء» .

٥ ـ يؤيد البحث ما قرره الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين [١] حيث قال «ولا مناص من الربط بين النحو والصرف وبين اللغة الجديدة، المتجددة، وإلا فلسوف نفتح أعيننا ذات صباح على مشهد الفرقة بين الأقدمين ولغة العصريين ، وهو مشهد يعد له منذ بعيد دعاة العامية ومدنتها. وفى الأجيال القادمة رقة دين، ووهن إيمان بالتراث ، وميل إلى التملص من قيوده ،أكثر مما فى جيلنا على ما فيه ».

٦ـ وعن تلك المجموعة من الألفاظ الواردة فى البحث والتى حاول تجلية الحقيقة نحوها إذ هى صحيحة وقد أشيعت تخطئتها ... فإن البحث قد أفتى فيها بما يلى [٢] :

أ ـ عند كلمة (تأسَّسَتْ) :

قال البحث (لذا يفتى البحث بأنه ... لما سبق يصح القول :

تأسَّسَتِ المدرسة فى عام كذا

أو أُسِّسَت المدرسة فى عام كذا.

ب ـ وعن كلمة (استأنَفَ) :

قال البحث (ولما سبق يفتى البحث بأنَّهُ : يمكننا قبول (استأنف العمل)

---

(١) السابق نفسه ص ٩.

(٢) تفصيل القول فى هذه الألفاظ – مناقشة ومعالجة – فى مكانها من هذا البحث.

بمعنى : عاد إليه بعد انقطاع بالإضافة إلى المعانى الأخرى التى وردت للفظة وقد رصدت فى مكانها من هذا البحث ..

جـ ـ وعن كلمة (بشَارة) :

قال البحث بأن :

(بِشَاره (بكسر الباء) أو

(بُشَاره (بضم الباء) .

همى ما بُشِّرتَ به من خير أو شرّ

د ـ وعن كلمة (خَرَجَ) فى عبارة :

(خَرَجَ فلانٌ على القانون) :

قال البحث :

(لما سبق يفتى البحث بأنه : يصح لنا أن نقول :

- خَرَج فلان عن القانون أو النظام و
- خرج فلان على القانون أو النظام ،

هـ ـ وعن كلمة (أُسْقِط) فى عبارة :

(أُسْقِط فى يده)

قال البحث (كذا يفتى البحثُ بأنه :

يجوز لنا استخدام التعبير :

أُسْقِط فى يده بمعنى : زَلّ وأخطأ

وندم وتَحَيَّر ، كما نستخدم :

سُقِطَ فى يده ...

و ـ وعن كلمة (اسْتَلَمْتُ) :

قال البحث : (يفتى البحث بأنَّهُ :

يجوز لنا القول (استلمت الرسالة) ، وإن لم ترد صريحة بمعنى (تَسَلَّم) إلا أن القياس لا يمنع منها ولما صرح به الأزهرى من أنه بمعنى (التناول) ..

ز ـ وعن كلمة (الشُّرْفَة) :

قال البحث :

(فاعتماداً على ما ورد فى، المعجم الوسيط) بشأن لفظة (الشُّرْفة) فإن البحث يفتى بأنَّهُ : يجوز لنا أن نقول :

وقف فلانٌ فى الشَّرْفة) ...

ح ـ وعن كلمة (الاشتراك)

قال البحث :

(لذا يُفتى البحث بجواز قولنا :

هذا بدل الاشتراك فى الجريدة

و هذا بدل المشاركة فى الجريدة،.

ط ـ وعن كلمة (صمد) فى عبارة :

(صَمَدَ له)

قال البحث :

(ومن خلال ما تقدم من أدلة وبراهين يفتى البحث بتأييد استعمال لفظة:

(صَمَدَ) بمعنى (قَصَدَ)

وبمعنى (ثَبَتَ)

ى ـ وعن كلمة (أعتَذَرَ) فى عبارة :

(اعتذر عَنْ)

قال البحث :

(لذا يفتى البحث بجواز القول :

اعتَذَرَ فلانٌ من التقصير

اعْتَذَرَ فلانٌ عن التقصير

ك ـ وعن كلمة (تَعَرَّض) :

قال البحث :

(لذا يفتى البحث بصحّة استعمال :

تَعَرَّض فلان للتعذيب

عُرِّض فلان للتعذيب،

ل ـ وعن كلمة (نوادٍ) :

قال البحث :

(لما سبق يفتى البحث بصحة جمع :

(النادى) على (نوادٍ) كما يجمع على (أندية)

م- وعن كلمة (هام)

قال البحث (لذا يفتى البحث بصحّة استخدام أمْرٌ هام، وأمْرٌ مُهِمٌّ) ..

ن ـ وعن كلمة (تُوُفِّي) :

قال البحث (لذا يفتى البحث بإيثار استعمال الجملتين :

تَوَفَّى اللهُ فُلانًا

تُوُفِّى فُلانٌ

ويكرر الباحث هنا أن ما ذكر من (كلمات) هو بمثابة نماذج لعلها أن تكون بداية لإعادة النظر فى معظم ما يماثلها من كلمات فى لغتنا العربية ..

والباحث إذ يضع هذا البحث أمام أستاذنا الأفاضل يُقِرُّ بأنها محاولة والكمال للّهِ وحده ؛

د. زين كامل الخويسكي

كلية التربية ـ جامعة الأسكندرية

أهم مصادر البحث ومراجعه

• بالإضافة إلى ما ورد فى (أولا) من هذا البحث من مصادر ومراجع نذكر هنا ما يلى :

• أحمد رضا / الشيخ
١ـ «متن اللغة»، بيروت، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

• الأخطل/
٢ـ «ديوان الأخطل» رواية المبرد عن ابن الأعرابى، تحقيق ، الأب أنالون اليسوعى ـ بيروت.

• ادوارد وليم لانى
٣ـ «مدّ القاموس»، معجم من العربية إلى الإنجليزية، بيروت ـ مكتبة لبنان ـ ١٩٦٨م.

• الأصفهانى / الراغب
٤ـ «المفردات فى غريب القرآن» نشر مصطفى البابى الحلبى وأخويه بمصر ـ الميمنية، ١٣٢٤هـ.

• الأصفهانى / أبو الفرج
٥ـ «الأغانى» ـ بولاق ـ ١٢٨٥هـ

• الألوسى/ أبو الثناء
٦ـ «كشف الطُرّة عن الغرّة» دمشق، الحنفية ١٣٠١هـ ـ ١٨٨٣م.

• ابن الأنبارىّ/ أبو البركات
٧ـ «نزهة الإلباء فى طبقات الأدباء»، القاهرة، ١٢٩٤هـ.

• البستانى/ بطرس
٨ـ «محيط المحيط»، بيروت : ١٢٨٦هـ.

• البلاذرىّ/
٩ـ «أنساب الأشراف» نشر : هلورت ـ ليزج ١٨٨٣م.

• أبو تراب الظاهرى
١٠ـ «كبوات اليراع» ـ جده ـ دار البلاد ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

• الجاحظ/
١١ ـ «الحيوان» ـ القاهرة ـ ١٣٢٣م.

• ابن جنى / ابو الفتح ١٢ ـ «الخصائص» القاهرة، تحقيق : محمد علي النجار، ١٣٧١ - ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٢م-١٩٥٦م.

• الجوهرى/ اسماعيل بن حماد ١٣ ـ «الصحاح» القاهرة، دار الكتاب العربى، تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطا ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

• ابن الجوزى/ عبد الرحمن ١٤ ـ «تقويم اللسان» القاهرة، دار المعرفة، تحقيق د. عبد العزيز مطر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

• الحريرى/ أبو محمد ١٥ ـ «درة الغواص فى أوهام الخواص» تحقيق : ثور بيكه ـ ليبسك، ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧١م.

• الحملاوى / الشيخ أحمد ١٦ ـ «شذا العرف» طبعة مصطفى البابى الحلبى العشرون ، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

• ابن خلكان/ ١٧ ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» بيروت ـ دار الثقافة ـ تحقيق د. إحسان عباس ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

• دوزى / رينهارت ١٨ ـ «تكملة المعاجم العربية» بغداد ـ وزارة الثقافة والفنون ، نقله إلى العربية ذ. محمد سليم النعيمى، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

• الزجاجى/ ١٩ ـ «مجالس العلماء » الكويت، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٩٦٢م.

• الزبيدى/ أبو بكر ٢٠ ـ «طبقات النحويين واللغويين » ، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٢١ ـ «لحن العوام» القاهرة ـ الكمالية ـ تحقيق د. رمضان عبد التواب، ١٩٦٤م.

• الزبيدى/ مرتضى

٢٢ ـ «تاج العروس من جواهر القاموس» ، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ ـ ١٣٠٧هـ / ١٨٨٨ - ١٨٨٩م.

• الزمخشرى/ جار الله

٢٣ ـ «أساس البلاغة» بيروت ـ دار صادر ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

٢٤ ـ «الكشاف » كلكتا، ١٨٥٦م.

٢٥ ـ «الفائق فى غريب الحديث والأثر» حيدر آباد، الدكن ، الهند ١٣٢٤هـ.

• ابن السكيت/

٢٦ـ «الألفاظ بتهذيب التبريزى» بيروت ١٨٩٥م.

٢٧ ـ «إصلاح المنطق» مصر، دار المعارف، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ١٩٧٠م.

• السيوطى/

٢٨ـ «همع الهوامع» ، القاهرة، ط السعادة، ١٣٢٧هـ.

• ابن الصابى/

٢٩ ـ «تاريخ الوزراء » ليبزج، نشر متشك، ١٩٢٦م.

• الصقلى/ أبو حفص

٣٠ ـ «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحقيق د. عبد العزيز مطر ، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

• الطبرى/ ابن جرير

٣١ ـ «تاريخ الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك» ، مطبعة الحسينية، ١٣٢٦هـ.

• أبو الطيب اللغوى
٣٢ ـ «مراتب اللغويين» ، القاهرة، مطبعة نهضة مصر ، د.ت (تاريخ مقدمة التحقيق، محمد أبى الفضل إبراهيم، ١٣٩٤-١٩٧٤م.

• عباس حسن/
٣٣ ـ «النحو الوافى» ، القاهرة، دار العارف، ط٣، أربعة مجلدات، ١٩٦٦م.

• عبد الرحمن السيد/ دكتور
٣٤ ـ «مدرسة البصرة النحوية ـ نشأتها وتطورها» ، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

• ابن فارس/ أحمد
٣٥ ـ «معجم مقاييس اللغة» ، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٣٨٩هـ ـ ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩م-١٩٧٢م.

• الفراء/ أبو زكريا
٣٦ ـ «معانى القرآن» ، القاهرة، مطبعة دار الكتب، تحقيق: أحمد يوسف نجاتى وآخرين، ١٣٧٤هـ ـ ١٣٩٣هـ/ ١٩٥٥م ـ ١٩٧٣م.

• الفيروز أبادى
٣٧ ـ «القاموس المحيط» القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

• الفيومىّ / أحمد بن محمد
٣٨ ـ «المصباح المنير» ، تصحيح الشيخ محمود العالم والشيخ نصر الهورينى ١٢٧٨هـ.

• ابن قتيبة / أبو محمد
٣٩ ـ «أدب الكاتب» القاهرة، مطبعة السعادة، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

• القفطى / جمال الدين
٤٠ ـ «أنباه الرواه على أنباه النحاة» القاهرة، دار الكتب، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٦٩ - ١٣٩٣هـ/ ١٩٥٠ - ١٩٧٣م.

• القلقشندى / أبو العباس
٤١ ـ «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، القاهرة، دار الكتب ١٣٣١ - ١٣٣٨هـ/ ١٩١٣ - ١٩٢٠م.

• كثير عزة/
٤٢ ـ «ديوان كثير عزة»، الجزائر، نشر بريس ١٩٢٨ - ١٩٣٠م.

• الكسائى/
٤٣ ـ «ما تلحن فيه العامة»، القاهرة، نشر مكتبة الخانجى، تحقيق د. رمضان عبد التواب ١٤٠٣- ١٩٨٢م.

• ابن كمال باشا
٤٤ ـ «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» دمشق ـ مطبعة الترقى، تحقيق: عبد القادر المغربى ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

• اللخمى/ ابن هشام
٤٥ ـ «المدخل إلى تقويم اللسان» مخطوط : مصورة طبع منه (كتاب الرد على الزبيدى) بتحقيق : د. عبد العزيز مطر نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية م١٢، ج٢، ص ٢١ ـ ص ١١٢.

• مازن المبارك/ دكتور
٤٦ ـ «نحو وعى لغوى جديد» ، دمشق، مكتبة الفارابى ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠

• مجمع اللغة العربية
٤٧ ـ «المعجم الوسيط» أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، القاهرة، المجمع اللغوى ١٣٨٠ - ١٣٨١هـ/ ١٩٦١ - ١٩٦٢م.

• المبرد/ أبو العباس

٤٨ ـ «المقتضب» القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة ١٣٨٥ – ١٣٨٨هـ

٤٩ ـ «الكامل فى اللغة والأدب» ليبزج ـ نشر ـ ١٨٦٤ – ١٨٩٢م

• محمود تيمور/

٥٠ ـ «مشكلات اللغة العربية»، القاهرة، المطبعة النموذجية، د.ت.

• المرتضى/ الشريف

٥١ـ «أمالى المرتضى» بيروت ـ لبنان، دار الكتاب العربى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

• ابن مزاحم/ نصر

٥٢ ـ (وقعة صفين)، القاهرة، مطبعة المدنى، بتحقيق عبد السلام هارون، ١٣٨٢هـ.

• ابن منظور/

٥٣ـ «لسان العرب»، بيروت، دار صادر، ١٣٧٥ – ١٣٧٦هـ ١٩٥٥ – ١٩٥٦م.

• ابن هشام / جمال الدين

٥٤ـ «مغنى اللبيب» ، القاهرة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدنى.

معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى

إعـــداد

د . ابراهيم خميس ابراهيم سلامه

استاذ التاريخ الوسيط المساعد بكلية الآداب

جامعة الأسكندرية

معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى

تتمثل فى مبادىء الدين الإسلامى كل معانى المودة والسلام ، ويحوى سجل المسلمين على امتداد تاريخهم الطويل مجموعة متعددة من نماذج المهادنة التى تحقن الدماء ، وتقد رواق الأمان ، وتغمد سيوف الحرب ، وتكف السهام الراشقة وتعقل الرماح الخطاره ، وذلك أنقياداً لأمر المولى عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بالمطاوعه على الصلح ، والإجابه إلى السلم (وأن جنحوا للسلم فاجنح لها توكل على الله) . [1]

ويمكن أن تنتخب من السجل الإسلامى مايدل على هذا دلالة واضحة فى هذا البحث المعنون " معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى/ الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى " . ولا أدعى أن هذا الموضوع الذى انتقيته من صفحات التاريخ الإسلامى بالغ الأهمية لأن موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الأموية والدوله البيزنطية من أكثر الموضوعات التى تصدى لها المؤرخون القدامى والحديثون بالكتابة . بيد أن المهادنات بين الفريقين فى القرن الأول والهجرى / القرن السابع الميلادى تعتبر من أكثر الموضوعات الشائكة التى اختلفت حول تاريخها وترتيب احداثها المصادر التاريخية

واذا قصرنا النظر على دائره أضيق وانتقلنا من التعميم إلى التخصيص وجدنا ان كتابات المؤرخين القدامى قد اختلفت حول المعاهدات التى عقدها معاوية بن ابى سفيان بصفه خاصة مع البيزنطيين .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المصادر العربية ، نلحظ أن الروايات التى أشارت إلى تلك المعاهدات يمكن أن تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى تتضمن ما أورده كلّ من ابن قتيبه [2] والطبرى [3] والدينورى [4] إذ يشيرون إلى أن " قيصر الروم " زحف بجنده لمقالتة

---

(١) سورة الأنفال ، آيه ٦١ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ٢ج (فى مجلد واحد) مصر ١٩٠٤م ، جـ١ ، ص١٦٠ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ١٠ج ، بيروت ١٩٧٩م ، جـ٦ ، ص١٨٦ .

(٤) الدينورى : كتاب الأخبار الطوال ، بغداد ١٩٥٩م ، ص١٥٧ .

المسلمين أثناء فترة النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية ، وأن عمرو بن العاص قدم النصيحة لمعاوية بضرورة موادعة قيصر الروم فى تلك الفتره بإعطائه المال والحلل ، واطلاق سراح الأسرى. وبذلك لم تحدد تلك الرواية التاريخ الدقيق لتلك المعاهدة ، وأنما اكتفت بالإشارة إلى أنها كانت أثناء فتره النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية .

أما المؤرخ ابن كثير فكان اكثر تحديداً ، وأشار إلى أن " ملك الروم " قد طمع فى معاوية بعد أن كان يخشاه . فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين ، عندئذ أرسل إليه معاوية كتاباً يتوعده ، فبعث يطلب المهادنة ، ثم كان من أمر التحكيم " [1] وبذلك يحدد ابن كثير تاريخ المهادنة ويجعلها قبل أمر التحكيم بين على ومعاوية .

أما عن المجموعة الثانية فتضم رواية كل من خليفة بن خياط ، واليعقوبى . إذ يشير الأول إلى أن معاوية قد " صالح الروم " فى عام ٤١ هـ / ٦٦١ م [2] . أما اليعقوبى فيورد أن معاوية قد بلغه فى عام ٤١ هـ / ٦٦١ م أن " طاغية الروم قد زحف فى جموع كثيرة وخلق عظيم فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار " [3] .

وبالنسبة للمجموعة الثالث وتتضمن إشارات عابرة لكل من ابن سلام [4] والبلاذرى [5] والشيبانى [6] ، وابن الطقطقى [7] ، تفيد أن مهادنة تمت بين معاوية وبين الروم .

---

(١) ابن كثير : البدايه والنهاية ، ١٤ج فى ٧ مجلدات ، ط٣ ، بيروت ١٩٨٠م ، جـ٨ ، ص١١٩ .

(٢) خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د . اكرم ضياء العمرى ، الرياض ١٩٨٥ م ، ص ٢٠٥ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣ج ، النجف ١٣٥٨ هـ ، جـ٢ ، ص١٩٣ ، ٢١٣ .

(٤) ابن سلام : كتاب الأموال ، مصر ، (د . ت) ، ص١٦٢ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦ م ، ص ١٥٩ .

(٦) الشيبانى : شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق عبد العزيز أحمد ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص١٧٥٣ .

(٧) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ، مصر (د. ت) ، ص ٥٩ - ٦٠ .

اما المسعودى والنويرى فقد أشارا فى رواية مختصرة إلى أن معاوية بن أبى سفيان قد هادن كل من الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى[1] Constans 11 (٦٤١ - ٦٦٨م / ٢١- ٤٨ هـ) ، وابنه الإمبراطور قنسطنطين الرابع [2] Constantine IV (٦٦٨ - ٦٨٥م / ٤٨ - ٦٥ هـ) [3] .

وأهم ما نلحظه فى الكتابات العربية حول تلك المعاهدات أنها جميعا لم تحدد بنود الصلح التى اتفق عليها الجانبان ، وأنها - فيما عدا ما أورده كل من خليفة بن خياط واليعقوبى - لم تحدد التاريخ الدقيق لتلك المهادنات .

أما عن المصادر البيزنطية فتبدأ بروايات ثيوفانيس Theophanes والتى تشير الى أن معاوية بن ابى سفيان قد عقد ثلاث معاهدات مع البيزنطيين . الأولى كانت فى العام الخامس من حكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) وفى اثناء الفترة الممتده من أول سبتمبر عام ٦٥٠ م / ٢٨ ذى الحجة عام ٢٩ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٥١ م / ٨ المحرم عام ٣١ هـ عندما كان معاوية أميراً على الشام . إذ أرسل الإمبراطور قنسطانز الثانى رسولاً يدعى بركوبيوس Prokopios لعرض رغبة الإمبراطور فى عقد اتفاقية للسلام بينهما . وتشير الرواية إلى أن المعاهدة قد أبرمت بالفعل فى تلك الفترة وكانت لمدة عامين ، وأن معاوية قد أحتجز بعض الرهائن البيزنطيين فى دمشق ومن بينهم جريجورى [4] Gregory ابن ثيودور Theodore . [5]

---

(١) يطلق عليه المسعودى اسم « مورق بن مورق » والنويرى اسم « فرق بن مورق »

(٢) يطلق عليه المسعودى اسم « قلفط بن مورق » والنويرى اسم « فلقط بن مورق »

(٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ ج ، بيروت١٩٨٣م ، جـ١ ، ص٣٢٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٢٧ ج ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، جـ١٥ و ص ٢٨٠ .

(٤) Theophanes , The Chronicle of Theophanes (A.D 602 - 813) Tran . By Harry Turtledove , U. S. A., Pensylvania , 1982 , p . 44 .

(٥) ثيودور هو شقيق الإمبراطور قنسطانز الثانى . انظر : Theophanes , op . cit , p 47

ونلحظ فى هذه الرواية أن مبادرة السلام جاءت من جانب الإمبراطور البيزنطى ، وأنها لم تشر إلى بنود اتفاقية السلام بين الجانبين ، وأن هذا الاتفاقية عقدت بين الإمبراطور البيزنطى وبين معاوية رغم كونه والياً على الشام ، وأن الرواية لم تشر إلى قيام الخليفة عثمان بن عفان بالتوقيع على تلك الاتفاقية .

أما عن المعاهدة الثانية التى يشير إليها المؤرخ ثيوفانيس فكانت فى العام الثالث بعد مقتل الخليفة عثمان [1] بن عفان وفيما بين عامى ٦٥٨ - ٦٥٩م/ ٣٨ - ٣٩هـ بعد أن أرسل معاوية لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين ، وتنص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع الف نوميسماتا Nomismata [2] ، وحصاناً ، واطلاق سراح اسير بيزنطى كل يوم [3] .

وأهم ما يسترعى الانتباه فى تلك المعاهدة انها عقدت فى الفترة التى نشب خلالها النزاع بين معاوية وعلى بن أبى طالب ، وأن الرواية لم تشر إلى تبادل الرهائن بين الجانبين ، ولم تحدد مدة المعاهدة بينهما .

وبالنسبة للمعاهدة الثالثة ، فقد أورد ثيوفانيس أنها عقدت فى العام التاسع من حكم الإمبراطور قنسطنطين الرابع فيما بين عامى ٦٧٧ - ٦٧٨م/ ٥٧ - ٥٨هـ ، وفيها تعهد معاوية بدفع اتاوة سنوية للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة الاف نوميسماتا وخمسين حصانا أصيلاً، وأطلاق سراح خمسين أسيراً من الأسرى البيزنطيين ، وأن تكون مدة المعاهدة ثلاثين عاما[4]. وتوضح الرواية أسباب أنعقاد تلك المهادنة فتشير إلي أن المردة [5] قد ثاروا فى منطقة جبل

(١) كان مقتله فى يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة عام ٣٥ هـ/ ١٧ يونيو عام ٦٥٦م . انظر: الطبرى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٤١١ - ٤١٢ .

(٢) عمله بيزنطية تساوى $\frac{1}{72}$ من الرطل ذهباً - انظر محمود سعيد عمران : ادارة الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ٨٥ ، ح١١) .

(٣) Theophanes , op Cit . p . 45 .

(٤) I bid . p . 54

(٥) هم الجراجمة ، واطلق عليهم أسم المردة لكثرة عصيانهم . ولمزيد من التفاصيل عن الجراجمة . أنظر البلاذرى . المصدر السابق ، ص ١٥٩ -١٦٣ ؛ وايضا : فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى . الاتصال الحضارى ، ٢ج ، القاهرة ١٩٦٦م، جـ١ ، ص ٣٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ٢ج ، القاهرة ١٩٧٩م جـ٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

لبنان ، وانضم اليهم كثير من العبيد والاسرى والاهالى ، فزاد عددهم إلى الوف كثيرة مما أزعج معاوية ومستشاريه ، فأرسلوا سفارة إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى لطلب عقد المهادنة فى مقابل دفع إتاوة سنوية . ولقد أستقبل الإمبراطور البيزنطى رسل معاوية بالترحاب والتكريم، وعند عودتهم الى الشام أرسل فى صحبتهم رسولاً يدعى حنابتزيجودس John Ptzigaudis الذى وصفه ثيوفانيس بانه «مكث فترة طويلة يعمل فى الجهاز الادارى ، ويتصف بالفطنة والحكمة » ، وكان الغرض من بعثته الاتفاق مع العرب على شروط السلام . وقد استقبله معاوية فى مدينة دمشق بكل الإعزاز .

وبعد مداولات طويلة بين الجانبين تم الاتفاق علي عقد معاهدة السلام بينهما علي ان تذيلها صيغة اليمين المعهود لدى الطرفين . وبعد تدوين بنود المعاهدة ، وتوقيع الجانبين على نسختين منها ، وبعد اداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من تلك المعاهدة ، وعاد المبعوث الإمبراطورى إلى موطنه محملاً بكثير من الهدايا النفيسة (١) .

وتتفق رواية المؤرخ موناخوس همرتولوس Monachus Hamartolus مع رواية ثيوفانيس بشأن المعاهدة الأولى التى كانت بين معاوية وبين الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى فى عام ٦٥١م/٣١هـ ، ويشير إلى أن الأتفاقية بينهما أنتهت بهاجمة معاوية لجزيرة رودس عام ٦٥٣م/ ٣٣ هـ (٢) كما تتفق ايضا رواية كل منهما حول المعاهدة التى كانت بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى فى عام ٦٧٨م/٥٨ هـ ، ويحدد موناخوس تاريخ الهجوم الذى قام به المردة على لبنان بعام ٦٧٧م/٥٧ هـ .والأختلاف الوحيد بين الروايتين ينحصر فى أن موناخوس قد أورد ضمن بنود هذه المعاهدة أن العرب تعهدوا بتقديم مائة من الجياد الأصيلة كل عام (٣)، بينما يحددها ثيوفانيس بخمسين فقط .

---

(١) Theophanes , op . cit ., pp. 53 - 54 .

(٢) Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed . Migne , Patrologia Greaca , Tome , cx , Paris , 1863 , 1863 , CoL . 862 .

(٣) Hamartolus , op . cit ., col . 895 .

ويتفق ما أورده كل من جوزيف جنزيوس Joseph Genesus ونقفور-Nicephorus . Patri archae مع رواية ثيوفانيس بشأن معاهدة عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهما لم يذكرا أنها كانت بسبب المردة . (١)

ويشير من جورج كدرينوس(٢) Georguis Cedrenus وحنا زوناراس (٣) Joannes Zonatas ، وليوجراما تيكوس Leo Grammaticus (٤) إلى المعاهدة التى عقدت بين معاوية وبين الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهم لم يحددوا بنود تلك المعاهدة .

أما عن المصادر الأرمينية ، فيورد المؤرخ سبيوس Sebeos أن الاتفاقية التى كانت بين العرب وبين البيزنطيين . انتهت فى العام الثانى عشر من حكم الإمبراطور قنسطانز الثانى (٥) (فى عام ٦٥٣ م / ٣٣ هـ) . وإذا أخذنا هذه الرواية بعين الاعتبار وجدنا أنها تتفق مع رواية كل من ثيوفانيس ، ومونا خوس همرتولوس بشأن المعاهدة الأولى عام ٦٥١م / ٣١ هـ .

وبالنسبة للمصادر السريانية ، يشير المؤرخ ميخائيل السريانى Michel le Syrien إلى أن معاوية عقد الهدنة مع الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى اثناء النزاع مع على بن أبى

---

(١) Genesus , J ., Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed . Migne , Patrologia Greaca , Tome CIX , Paris , 1863 , CoL . 13 ;
Nice phrus patriarchae , Breviarum Historicum , Ed. Migne Patrologia Greaca , Tome C , CoLs ., 930 , 936 .

(٢) Cedrenus , G., Historiarum Compendium , Ed . Migne , Patrologia Greaca , Tome CXXI - CXXII , Paris , 1864 - 1894 , Tome CXXI , CoL . 843 .

(٣) Zonaras ,. J., Epitome Historriarum , Ed . Pender , M. 3 vols , Bonne , 1841 - 1892 , vol . , p. 321 .

(٤) Leo Grammaticus , Chronogaphia , Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Bonne , 1892 , p. 162 .

(٥) Sebeos , Histoire d'Herclius , Tr . Macler , F., Paris , 1904 , p. 137 .

طالب ، كما عقد معاهدة مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ [١] . ومن المؤرخين النصارى الذين دونوا كتابتهم باللغة العربية يشير أجابيوس بن قسطنطين المعروف بالمنبجى Agapius إلى أنه فى العام الثالث من عهد الخليفة عثمان بن عفان وجه ملك الروم " قسطوس "[٢] رسلا إلى معاوية يسأله الصلح ، وكان الرسول " منويل " ومنه بعض الروم ، " فأجابه معاوية إلى ذلك على أن يترك عنده عده من أهل بيته رهائن [٣] ". ونلحظ أن هذه الرواية تتفق مع ماأورده ثيوفانيس عن المعاهدة التى عقدت بين الإمبراطور البيزنطى وبين معاوية عندما كان الأخير والياً على الشام ، وأن الاختلاف بين الروايتين ينحصر فى تاريخ المعاهدة ، واسم الرسول الذى أورده كل منهما .

ومن خلال العرض السابق للروايات العربية وغير العربية للمعاهدات التى أبرمها معاوية مع البيزنطيين يتضح أن المؤرخين القدامى قد حددوا أربعة تواريخ لهذه المعاهدات : الأول فى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثانى يحددها فى فترة النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية ، والثالث يشير إلى أنها كانت فى عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، والرابع يحددها فى عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

وعند مقارنة هذه الروايات لاستقصاء الوقائع وربط بعضها ببعض للوصول الى نتيجة محددة نلحظ أن الذين قالوا أن ثمة معاهدة عقدت عام ٦٥١ م / ٣١ هـ هم المؤرخون الغربيون، بينما أنفرد بعض المؤرخين المسلمين بالقول أنها عقدت عام ٦٦١م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، وأن هناك تشابهاً بين الروايات العربية وغير العربية فيما يتعلق بمعاهدتين كانت الأولى منهما فى أثناء الصراع بين على ومعاوية ، والثانية فى عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

ولما كان تحديد تاريخ هذه المعاهدات على جانب كبير من الأهمية لتوضيح التسلسل التاريخى ، وتقويض الأسس التى أدت إلى الأخطاء التاريخية فينبغى استعراض هذه الروايات ومناقشتها .

(١) Michel le Syrien , Chronique , Texet Syriaque et Trad . Fr . Par J.B. Chabot , 4 vals , Paris , 1899 , Val 11 , p. 450 , 469 .

(٢) المقصود الإمبراطور قنسطانز الثانى

(٣) المنبجى : المنتخب من تاريخ المنبجى ، انتخبه وحققه أ . د . عمر عبد السلام تدمرى ، لبنان ١٩٨٦ م، ص ٥٧ .

أن الرواية التى تشير الى أن ثمة معاهدة عقدت بين المسلمين والبيزنطيين عام ٦٥١ م / ٣١ هـ بمبادره من جانب البيزنطيين ، وهى التى اشارت إليها المصادر غير العربية . يرى الباحث ان هذه المبادرة جاءت نتيجة انتصارات المسلمين المتلاحقه [١] على البيزنطيين [٢] . وعلى الرغم من أن تلك المصادر لم تشر إلى بنود هذه المعاهدة ، واكتفت بالإشارة إلى أمدها ، وأنها كانت لمدة عامين ، فمن المرجح أن بنود هذه المعاهدة كانت فى صالح المسلمين [٣] .

أما عن الرواية الثانية ، والتى أوردتها المصادر العربية وغير العربية . وعلى الرغم أنها أتفقت على أن المعاهدة أبرمت اثناء فترة النزاع بين على ومعاوية إلا أنها اختلفت فى التحديد الدقيق لتاريخها . فيذكر ابن كثير أنها حدثت قبل التحكيم [٤] .فى الوقت نفسه يشير خليفة بن خياط إلى أن التحكيم بين على ومعاوية حدث فى صفر عام ٣٧ هـ / يوليو عام ٦٥٧م[٥] . وعلى هذا يكون ابن كثير قد أومأ إلى أن هذه الاتفاقية عقدت قبل يوليو عام ٦٥٧ م / صفر عام ٣٧ هـ .

غير أن المؤرخ ثيوفانيس وهو من الذين قالوا أيضا بعقدها خلال فترة النزاع بين على ومعاوية فقد جاء فى عرضه لهذه الاتفاقية بعض الاضطراب فقد أورد هذه الاتفاقية ضمن احداث الفترة الممتدة من أول سبتمبر ٦٥٨ م / ٢٥ ربيع الأول عام ٣٨ هـ - حتى ٣١ أغسطس عام ٦٥٩ م / ٦ ربيع الثانى عام ٣٩ هـ فى الوقت الذى دون فيه تلك المعاهده بعد اشارته إلى خروج قوات كل من على ومعاوية للقتال ولمحاربة بعضهما فضلا عن اشارته إلى أن هذه الاتفاقية عقدت فى نفس العام الذى توفى فيه البابا مارتن الأول Martin I (٦٤٩ - ٦٥٦ م / ٢٩ - ٣٦ هـ) . وهكذا اشار ثيوفانيس مرة الى عقدها قبل التحكيم بين على ومعاوية ومرة بعد هذا التحكيم .

---

(١) عن تلك الأنتصارات انظر : نتحى عثمان : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٢٢ - ٢٩ .

(٢) Vasiliev , A.A., History of the Byzantine E mpire (324 - 1453) , 2 Vols , Madison 1958 - 1961 , Vol . I , p. 212 .

(٣) Lot,F., L'art Militaire et les Armee au Moyen Age en Eurpe et dans le Proche Orient , Paris , 1946 , p. 61 .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص ١١٩ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ١٩١ .

ولما كانت قوات على بن أبى طالب ومعاوية قد خرجت للقتال فى معركة صفين فى ذى الحجة عام ٣٦ هـ / مايو ٦٥٧ م [١] ، وكانت وفاة البابا مارتن الأول فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ [٢] . بذلك يمكن القول أن هذه المعاهدة قد أبرمت فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ .

أما الراوية الثالثة التى ترى أن المعاهدة بين معاوية بن ابى سفيان والإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى قد عقدت فى عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو فى عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، فهذا الرأى يحتاج إلى مناقشة خاصة وأننا نعلم جيداً أن الاضطرابات الداخلية التى واجهت معاوية فى بداية عهده كادت أن تنتهى ، بعد أن خمدت الفتنة [٣] وبالتالى لم يكن معاوية بحاجة ماسة إلى مهادنة بيزنطية وتهدئة الأمور معها لاسيما أن المصادر لم تشر إلى قيام الإمبراطور البيزنطى بمهاجمة المسلمين فى الشام فى تلك الفترة كما أشار اليعقوبى [٤] . وبذلك لم تكن ثمة اسباب قاهرة تجعل معاوية بن ابى سفيان يضطر لدفع مبلغ كبير للبيزنطيين خاصة أن هذا الصلح لم يستمر سوى عاماً واحداً حسبما اكد أصحاب هذه الرواية [٥] . كما أن أحوال الدولة العربية الإسلامية فى تلك الفترة كانت اكثر استقراراً إذا قورنت بالأوضاع فى الدولة البيزنطية. فقد أورد ثيوفانيس أن الإمبراطور البيزنطى قام بنفى البابا مارتن الأول حتى مات فى منفاه ، كما قام الإمبراطور قنسطانز الثانى أيضا عام ٦٦٠ م / ٤٠ هـ بقتل أخيه ثيودور [٦] مما عرضه للكراهية من جانب رجال الدين [٧] ، والسخط من جانب سكان العاصمة البيزنطية [٨] ، هذا فضلاً عن تعرض أملاك الدولة البيزنطية فى جنوب ايطاليا للهجمات من

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ج ، بيروت ١٩٧٩ م ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) Ostrogorsky , G. History of the Byzantin state , tr . J. Hussey , Ox ford , 1956 , p. 106 .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ، جـ١ ، ص٢٧٢ .

(٤) انظر مامبق ص ٣ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، اليعقوبى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢١٣ .

(٦) Theophanes , op. cit ., p. 47 .

(٧) Paul the Deacon , History of the Lombards , Ed . W.D. Foulkf , Phhaldelphia , 1907 , p. 235 .

(٨) Ostrogorsky , op . cit ., p. 109 .

قبل اللومبارديين [١] . لكل هذه الأسباب ، ترك الامبراطور قنسطانز الثانى العاصمة القسطنطينية ، واتجه إلى صقلية عام ٦٦١ م / ٤١ هـ ، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام ٦٦٨ م / ٤٨ هـ . [٢]

نخلص من العرض السابق أن أحوال الدولة البيزنطية كانت قد اضطربت فى الداخل وتعرضت أملاكها فى الغرب الأوربى للتهديد من جانب اللومبارديين الأمر الذى جعلها لا تمثل خطراً على الدولة الإسلامية وقتذاك ، أو ترغم معاوية على دفع الإتاوه لهم .

وعلى عكس ذلك أشار اليعقوبى إلى أن الامبراطور البيزنطى الذى كان يتلقى الأموال من معاوية قد تغيرت أحواله ، فأرسل الى معاوية يطلب الصلح على أن يدفع لمعاوية أضعاف ما كان يتلاقاه من المسلمين من قبل . فلم يوافق معاوية على طلبه [٣] .

ويفسر اليعقوبى أسباب هذا التحول فى موقف البيزنطيين بالإشاره إلى أن الأمور قد استقامت لمعاوية بعد مرور عام واحد على الصلح ، فأصدر معاوية أوامره لأمراء الشام بغزو الأراضى البيزنطية ، " فقام بسر بن أرطأه بغزو أرض الروم عام ٤٣ هـ / ٦٥٣ م" [٤]

واكد كل من المنبجى ، وثيوفانيس ، وابن العبرى هذا الأمر فأشاروا فى كتاباتهم إلى أن أهل أرمينيه استغلوا حالة الاضطراب التى تعانى منها الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك فرفعوا راية العصيان على البيزنطيين [٥] ، وأرسل الحاكم الأرمينى سابور Saborios رسولا يدعى سرجى Sergios إلى معاوية فى أواخر عام ٦٦٧ هـ / أواخر عام ٤٦ هـ ، يطلب منه العون ضد البيزنطيين . فلما علم قنسطنطين [٦] ابن الإمبراطور قنسطانز الثانى

---

(١) Paul Deacon , op . cit ., p. 234 .

(٢) Theophanes , op . cit ., pp. 50 - 51 .

(٣) اليعقوبى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٩٣ .

(٤) اليعقوبى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢١٣ .

(٥) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦) هو قنسطنطين الرابع الذى كان يتولى ادارة الحكم فى القسطنطينية نيابة عن ابيه الإمبراطور الذى كان وقتذاك فى صقلية .

بذلك ، أرسل رسولاً إلى معاوية يدعى أندرو Andrew يطلب عدم تأييد الأرمن فى موقفهم ضد البيزنطيين [١] . فلما أستمع معاوية إلى طلب الرسول البيزنطى رد عليه قائلاً : " إن اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقى لكم اسم المملكة وإلا أزحناكم عنها " [٢] . فعاد الرسول البيزنطى دون تحقيق الهدف الذى جاء من أجله [٣] .

وتعتبر الرواية التى أوردها كل من المنبجى وثيوفانيس وابن العبرى هى الأرجح لأنها تتفق مع أحوال الدولة البيزنطية وقتذاك . وعلى ضوء ماسبق يمكن القول أن رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبى التى تشير إلى أن معاوية قد عقد الصلح مع البيزنطيين عام ٦٥١ م / ٤١ م أو عام ٦٥٢ م / ٤٢ هـ ، لا تستند إلى دعائم قوية ولا تقدم تبريرا كافيا لقيام معاوية بدفع مائه ألف دينار للبيزنطيين فى مثل تلك الظروف ولهذا فإن هذه الرواية - فى رأينا - مشكوك فى صحتها ولا يمكن قبولها فى ضوء ما قدمناه من دلائل .

أما عن الرواية الرابعة التى تشير إلى عقد معاهدة بين معاوية بين أبى سفيان وبين الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، فالملاحظ أن المصادر غير العربية هى التى اتفقت على هذا التاريخ ، بالإضافة إلى اشارة كل من المسعودى والتويرى التى يمكن اعتبارها تتفق مع ما أوردته تلك المصادر رغم أنهما لم يحددا تاريخاً لتلك المعاهدة [٤] . ونظراً إلى أنه لم يرد فى المصادر المتاحة تاريخاً مغايراً لما جاء فى المصادر الغربية ، فإننا نوافق بحذر على ما جاء فى هذه الرواية .

وفى ضوء ماسبق ، نستطيع القول أن معاوية بن أبى سفيان قد أبرم ثلاث معاهدات مع البيزنطيين الأولى فى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثانية فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ ، والثالثة فى عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

---

(١) Theophanes , op . cit ., p. 48 .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ م ، ص ١٠٩ .

(٣) Theophanes , op . cit ., p. 351 .

(٤)

أما عن الروايات التى وردت فى المصادر العربيه بشأن المعاهده التى كانت بين الخليفه الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع وابنه الإمبراطور جستنيان الثانى Justinian 11 (٦٨٥ - ٦٩٥ م / ٦٥ - ٧٥ هـ ، ٧٠٥ - ٧١١ م / ٨٦ - ٩٢ هـ)[١] فيمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات .

المجموعة الأولى : تتضمن رواية المؤرخ المسعودى . إذ أشار إلى أنه فى عام ٦٦ هـ/ ٦٨٥ - ٦٨٦ م وفى الليله التى أتى فيها لعبد الملك خبر مقتل قائده عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان ، جاءه أيضا أن الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى [٢] " قد نزل المصيصة [٣] بريد الشام " ، وعلم فى الوقت نفسه أن مصعب بن الزبير قد خرج من المدينة المنورة إلى فلسطين ، وأن " عبيد دمشق وأوباشها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل " ، وأن السجناء فى دمشق قد فروا من السجن " وخرجوا فى مكابره " وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع . ولكن عبد الملك واجه تلك المصاعب بالتجلد والثبات ، فبعث بأموال وهدايا إلى الإمبراطور البيزنطى كى يثنيه عن مهاجمه المسلمين فى الشام ، كما عقد الهدنه معه.[٤]

وأهم ما نلحظه من هذه الروايه ، أن الإمبراطور البيزنطى هاجم المصيصة عام ٦٦ هـ / ٦٨٦ م ، وأن الهدنة التى عقدت بين عبد الملك والبيزنطيين كانت بعد مقتل عبيد الله بن زياد. كما نلحظ أن رواية المسعودى لم تشر إلى بنود الصلح مع البيزنطيين ولم تحدد مقدار المال الذى أرسله عبد الملك إلى الإمبراطور البيزنطى .

وتتفق رواية اليعقوبى مع رواية المسعودى فى الإشاره إلى مهاجمه الإمبراطور البيزنطى للمصيصة ، وأن عبد الملك لم يحاربه " لا ضطراب البلدان ، فصالحه ، وحمل إليه أموالاً كثيرة حتى عاد إلى بلاده " [٥] .

---

(١) ينقسم عهد الإمبراطور جستنيان إلى فترتين .

(٢) يطلق عليه المسعودى اسم " لارى بن تلفط " .

(٣) المصيصة : ثغر من ثغور الشام ، وتقع بالقرب من مدينه أنطاكيه ، وبينها وبين ساحل البحر اثنا عشر ميلاً . أنظر : الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ١٩٧٥ م ، ص ٥٥٤ .

(٤) المسعودى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) اليعقوبى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٥

كما تتفق أيضا روايه السيوطى مع ما أشار إليه المسعودى فى أن عبد الملك واجه - فى الليله التى قتل فيها عبيد الله بن زياد - خطراً آخر ، عندما " إنتقض ملك الروم " ما كان بينه وبين عبد الملك . (١)

ورغم أن اليعقوبى والسيوطى لم يحددا تاريخ الهجوم البيزنطى ، إلا أن إشاره السيوطى تعتبر على جانب كبير من الأهميه ، وتبين أن هناك معاهده سابقه بين المسلمين والإمبراطور البيزنطى ، إنتقضها الأخير عندما هاجم المصيصة . وهكذا تمثلت هذه المجموعة فيما رواه كل من المسعودى واليعقوبى والسيوطى الذين اتفقت رواياتهم فيما يختص بالمهادنة ، وإن اضاف السيوطى أن ثمة هدنة كانت بين الطرفين نقضها الإمبراطور فى السنة المذكوره .

اما المجموعة الثانية : فتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمة الجراجمه للمناطق القريبه من لبنان . إذ أورد ابن الأثير أنه فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م خرج " قائد من قواد الضواحى " فى جبل اللكام ، وأتبعه خلق كثير من الجراجمه والعبيد وغيرهم ، واتجهوا إلى لبنان ، فلما فرغ عبد الملك من عمرو بن سعيد ، " أرسل إلى هذا الخارج " الف دينار تدفع كل جمعه ، مما جعل القائد الثائر يركن إلى الهدوء ويكف عن الفساد ، ثم أصدر عبد الملك الأوامر لقائده سحيم بن المهاجر لمواجهه هذا القائد الخارج ومن أعانه من الروم ، ونجح سحيم فى مهمته، ولجأ إلى الحيله فقتل الخارج وأعوانه . (٢)

ونلحظ من روايه ابن الأثير أن القائد الثائر من قاده منطقه الثغور الإسلاميه وانه تلقى العون والتأييد من جانب البيزنطيين ، وأن هذا الثائر بدأ يعيث الفساد فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م .

وتختلف رواية البلاذرى عما أورده ابن الأثير ، إذ يشير إلى أن هذه الأحداث كانت فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، وأن " خيل الروم " هى التى خرجت إلى جبل اللكام " وعليها قائد من قوادهم " ، وذلك فى الوقت نفسه الذى كان عبد الملك يستعد فيه للزحف إلى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٢٥١ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٣٠٤ .

العراق لمواجهه مصعب بن الزبير . وتتفق الأحداث الباقية من روايه البلاذرى مع ما أورده ابن الأثير بشأن موادعة عبد الملك للروم فى جبل لبنان ، ومنحهم ألف دينار كل جمعه مما جعلهم لا يعبثون الفساد . كما تتفق الروايتان فى أن سحيم بم المهاجر قد نجح بالحيله فى القضاء على هذا الخطر [١] .

وبالنسبة للمجموعة الثالثة : فتتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمه البيزنطيين للشام . فيروى كل من الطبرى وابن الاثير ، وابن كثير إلى أنه حدث فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩-٦٩٠ أن " ثار الروم واستجاثوا على من بالشام [٢] من المسلمين [٣] ، واستضعفوهم لما يرون من الأختلاف بين بنى مروان ، وابن الزبير " [٤] فعقد عبد الملك الصلح مع الإمبراطور البيزنطى [٥] وهادنه [٦] على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه ألف دينار خوفا منه على المسلمين [٧] .

أما البلاذرى فيشير إلى أن الخليفه الأموى عبد الملك بن مروان بعدما صالح الروم الذين هاجموا لبنان عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، أرسل كل من حميد بن حريث بن نجد الكلبى ، وكريب بن ابراهه بن الصباح الحميرى [٨] كرسولين إلى الإمبراطور البيزنطى يحملان الهدايا والألطاف ، وكتاب من عبد الملك يسأل فيه الإمبراطور الموادعه على أن يدفع إتاوه وهو " مال

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٠ ؛ أنساب الأشراف ، تحقيق د. إحسان عباس ، ٥ج ، بيروت ١٩٧٩ ، جـ٥ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٧٠ .

(٣) الطبرى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص١٨١ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٣١٣ .

(٥) الطبرى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص١٨١ .

(٦) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٣١٣ .

(٧) الطبرى : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص١٨١ .

(٨) كان من أشراف مصر ، وأحد القاده فى جيش مروان بن الحكم : البلاذرى : أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص١٤٩ ؛ الكندى : الولاه وكتاب القضاه ، بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص٤١ .

يؤديه " ، فقبل الإمبراطور البيزنطى الهدايا ، ووافق على " ما بذل له الخليفه الأموى من الإتاوه ، وأرسل رهائن من البيزنطيين إلى عبد الملك ، فأرسلهم الأخير إلى بعلبك [1] .

ونلحظ مما سبق ، أن هذه الجزئية من رواية البلاذرى تتفق مع رواية كل من الطبرى وابن الأثير وابن كثير فى أن عبد الملك بن مروان صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٧٠ هـ / ٦٩٠م، وإن لم يحدد مقدار المال الذى أرسله عبد الملك للإمبراطور ، كما أنه ينفرد عن الروايات السابقة بالإشارة إلى إرسال الإمبراطور البيزنطى رهائن من الروم إلى عبد الملك ضماناً لعدم إنتقاض المعاهده من جانبه بعد حصوله على أموال الإتاوه .

أما ابن العماد ، فيذكر أن الروم قد ثاروا " وقووا على المسلمين " لأختلاف كلمتهم ، فصالح عبد الملك الإمبراطور البيزنطى على أن يؤدى له " كل جمعه الف مثقال من الذهب " ، ويشير ابن العماد إلى أن هذا الصلح يعتبر " أول وهن دخل على المسلمين والأسلام " . [2] وبهذه الرواية اختلف ابن العماد مع الروايات السابقة فى مقدار المال الذى كان عبد الملك يرسله إلى الإمبراطور البيزنطى كل أسبوع .

أما عن قول ابن العماد بأن الصلح كان أول وهن دخل على الأسلام والمسلمين . فنرى أن هذا الكلام لا تمليه الحكمه وفيه تجاوز كبير ، ويختلف أيضا مع ما قال به الفقهاء . إذ يشير ابن الحسن الشيبانى إلى قول الأمام أبى حنيفه بأنه " لا بأس بالموادعه بين المسلمين وبين أهل دار الحرب أن لم يكن بالمسلمين قدرة عليهم ، ولا بأس من إعطاء المال إليهم حتى لا يظهروا على نفوس المسلمين " [3] . وفى ضوء هذا فان مصالحه عبد الملك للبيزنطيين حسبما أشار مؤرخى تلك المجموعة لا يمثل نوعاً من الوهن ولا يعتبر دليلاً على الدعة وايثار العافيه ، كما أن عبد الملك ليس أول من صالح البيزنطيين وهادنهم فقد سبق وأن أشرنا فى الصفحات السابقة إلى قيام معاويه بعقد صلح مع البيزنطيين ودفع لهم أموالاً كثيره .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ج فى ٤ مجلدات ، بيروت ، دار الأفاق الجديده ، (د . ت) ، جـ١ ، ص٧٧ .

(٣) الشيبانى : المصدر السابق ، ص١٦٨٩ ، ١٩٩٢ .

وبالنسبة للمجموعة الرابعة : وتتضمن الروايات التى تشير إلى المفاوضات والمراسلات بين عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى . فيروى محمد بن سعد أن " صاحب الروم " كتب إلى عبد الملك يهدده بأنه قد جمع له جموعاً كثيره ، فكتب إليه عبد الملك يقول : " اولا تدرى أن لله فى كل يوم ثلاثمائه وستون لحظه فى كل لحظه ثلاثمائه وستون قضيه . فلعله يكفيناك فى قضيه من قضاياه " [١] .

أما ابن قتيبه فيشير إلى أنه عندما انشغل عبد الملك بمحاربة مصعب بن الزبير أجتمع " وجوه الروم " وأشاروا على الإمبراطور بغزو الأراضى الإسلامية بعد أن واتتهم الفرصه بانشغال المسلمين بعضهم ببعض فنهاهم الإمبراطور عن ذلك ، وبين لهم أن المسلمين فى وقت الخطر يمكن أن يطرحوا نزاعهم جانباً ، ويتحدون لمواجهه الأخطار [٢] .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد روايه تتشابه مع روايه ابن سعد فى أن الإمبراطور البيزنطى كتب إلى عبد الملك بن مروان يهدده بأنه سوف يغزوه بمائه الف من الجنود. فكتب إليه عبد الملك رساله تتفق فى دلالتها [٣] مع اشار إليه ابن سعد .

كما أورد المسعودى روايه تتفق مع الروايات السابقة بشأن مكاتبة عبد الملك للإمبراطور البيزنطى ، ولكنه ينفرد بالإشاره إلى أن الرسل الذين أرسلهم معاويه إلى الإمبراطور البيزنطى، كانوا لا يمكثون فتره طويلة فى العاصمة البيزنطية فيما عدا رسولاً واحداً [٤] .

تلك كانت أهم الروايات التى تضمنتها المصادر العربيه بشأن المعاهده بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطى ، وأهم ما نلحظه من هذه الروايات العربيه أنها حددت تاريخ هذه المعاهده فى الفتره ما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٨ج ، بيروت ١٩٥٧ - ١٩٨٠ ، جـ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) ابن قتيبه : عيون الأخبار ، ٢ج ، القاهره ١٩٢٥ م ، جـ١ ، ص١١٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٦ج + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٢ م ، جـ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٤) المسعودى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٢٣ - ١٢٤ .

اما عن المصادر البيزنطية ، فيشير المؤرخ ثيوفانيس إلى عقد معاهده بين عبد الملك والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع فى الفتره الممتده من أول سبتمبر عام ٦٨٤ م / ١٤ المحرم عام ٦٥ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٥ هـ / ٢٤ المحرم ٦٦ هـ ويقول : " فى الوقت نفسه الذى تفش فيه الوباء ، وعمت المجاعه فى الشام ، ووصل فيه الوباء إلى عنفوانه وقمة فتكه ، قام المرده بمهاجمه لبنان " عندئذ أرسل عبد الملك سفاره إلى الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع يطلب منه تجديد المعاهده التى سبق أن عقدها مع معاويه [١] على أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين ثلاثمائه وخمس وستين الف نوميسماتا ، ويرسل إليهم ثلاثمائه وخمسة وستين حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائه وخمس وستين اسيراً من البيزنطيين [٢] .

ويتفق ما أورده كل من ليوجراماتيكوس [٣] ، ومونـاخوس هموتولس من بنود هذه المعاهده مع رواية ثيوفانيس ، على الرغم من أنهما لم يحدداً تاريخ هذه المعاهده . ويشير موناخوس إلى أن أمد هذه المعاهده كان عشر سنوات ، وأن الإمبراطور البيزنطى تعهد بإيقاف هجمات المرده على الأراضى الإسلاميه [٤] .

ويشير جوزيف جنزيوس إلى أن هذه المعاهدة كانت فى السابع من يوليو عام ٦٨٥ م / الثامن والعشرين من ذى القعده عام ٦٥ هـ ، وأن أمد هذه المعاهدة كان ثلاث سنوات [٥] .

اما عن المعاهدة الثانية ، فيشير ثيوفانيس إلى أنها كانت فى الفترة من أول سبتمبر عام ٦٨٦ م / ٥ صفر عام ٦٧ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٧ م / ١٥ صفر عام ٦٨ هـ ، عندما أرسل عبد الملك بن مروان سفاره إلى الإمبراطور جستنيان الثانى لعقد اتفاقيه سلام بينهما تنحصر بنودها فى أن يقوم الإمبراطور البيزنطى بترحيل قوات المرده من لبنان بعد أيقاف هجماتهم ، وفى مقابل ذلك يدفع عبد الملك للبيزنطيين كل يوم الف نوميسماتا ويرسل

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٤

(٢) Theophanes , op. cit ., p. 59 .

(٣) Leo Grammaticus , op. cit ., p. 162 .

(٤) Hamartolus , op . cit . col . 898 .

(٥) Genesus , op . cit ., col . 31 .

لهم حصاناً أصيلاً كل يوم ، ويطلق سراح أسير واحد منهم كل يوم أيضا . كما يقوم الجانبان الأسلامى والبيزنطى بأقتسام الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينيه وأيبيريا [١] .

وبعد أن أستمع الإمبراطور لعرض السفاره الإسلاميه ، ووافق عليه ، أرسل مندوباً يدعى بولس Poul إلى عبد الملك لتدوين بنود معاهدة السلام بينهما وتذيلها بشهادة الشهود . وعاد المندوب الإمبراطورى بعد أن أستقبل وودع بكثير من الحفاوة والتكريم . [٢]

ويتفق المؤرخان كدرينوس وزوناراس مع ما أوردة ثيوفانيس بشأن بنود هذه المعاهدة ، ولكنهما يختلفان معه فى تحديد تاريخها ، فيشيران إلى انها كانت فى السنة الأولى من حكم الإمبراطور جستنيان [٣] اى فى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ .

أما المؤرخان ليوجراماتيكوس ومونـاخوس همرتولس فيشيران إلى أن الإمبراطور جستنيان الثانى هو الذى أرسل وفداً إلى عبد الملك بن مروان لتأكيد أتفاقية السلام التى عقدت مع أبيه الإمبراطور قنسطنطين الرابع [٤] .

واكتفى المؤرخ نقفور بالإشاره إلى أن جستنيان الثانى قد نقض فى عام ٦٨٨ م / ٦٨-٦٩ هـ " المعاهده التى عقدها والده مع العرب " [٥] .

---

(١) أيبيريا : مملكه مسيحيه تقع فى منطقه جبال القوقاز بين البحرين الأسود وقزوين .

أنظر : وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الإمبراطور البيزنطية والدوله الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ ، ص٤٢ ، ح (٣) .

(٢) Theophanes , op . cit ., p. 61 .

ويلاحظ حرص عبد الملك على أن يجرى دفع هذه الإتاوة مجزأة وعلى مدى الأيام ضمانا لاستمرار سريانها فى المدة المتفق عليها خوف من أن ينقضها الإمبراطور إذا حصل على الإتاوة دفعة واحدة وقبل انقضاء امد الهدنة .

(٣) Cedrenus , op . cit ., col . 642 ; Zonaras , op . cit ., p. 321 .

(٤) Leo Grammaticus , op . cit ., p. /163 ; Hamartolus , op . cit ., col . 898

(٥) Nicephrus , op . cit ., col . 936 .

ويتفق المؤرخ جوزيف جنزيوس مع المؤرخ نقفور فى أن هذه المعاهدة كانت فى عام ٦٨٨م/ ٦٨ - ٦٩ هـ ، ويشير إلى أن أمدها كان عشر سنوات ، ثم يبدى تردده فيما يتعلق بالبنود الخاصه بالمال والجياد والأسرى ويقول كانت : تدفع كل يوم ، وقيل كل اسبوع " (١)

وفى ضوء ما سبق يتضح أن هناك شبه اتفاق بين المصادر البيزنطيه فى تحديد تاريخ أتفاقية السلام بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥م/ ٦٥ - ٦٦ هـ . بينما أختلفت روايات المصادر البيزنطية فى تحديد تاريخ المعاهده التى عقدت بين العاهل الأموى (عبد الملك) والعاهل البيزنطى (جستنيان الثانى) ، وجعلتة ينحصر فى الفتره ما بين عامى ٦٨٥ - ٦٨٨ م / ٦٥ - ٦٩ هـ .

أما عن المصادر السريانية فتتفق رواية ميخائيل السريانى مع الروايات البيزنطية التى تحدد المعاهده الأولى بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ، ويرى ان أمدها كان عشر سنوات كما تتفق أيضا مع تلك الروايات فى تحديد عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ تاريخا للمعاهده بين عبد الملك والإمبراطور جستنيان الثانى ، وتشير إلى أن أمد هذه المعاهده كان أيضا عشر سنوات . وتتفق البنود التى أوردها ميخائيل السريانى للمعاهده الثانية مع ما أورده ثيوفانيس (٢) .

أما ابن العبرى فينفرد بالإشاره إلى أن الإمبراطور " يوسطنيانوس (٣) استجاش على من بالشام من المسلمين " عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، فصالحه عبد الملك على أن يؤدى إليه كل جمعه الف دينار ، " وقيل كل يوم الف دينار وفرساً وعلوكا " (٤) .

ومن المصادر اللاتينيه ، يشير بولس الشماس Paul the Deacon إلى أن الإمبراطور جستنيان الثانى عقد أتفاقية سلام مع المسلمين " تشمل البر والبحر (٥) " . ولم يحدد بولس

---

(١) Genesius , op . cit ., col . 31 .

(٢) Michel le Syrien , op . cit ., Vol . 11 , p. 469 .

(٣) المقصود جستنيان الثانى .

(٤) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) Paul the Deacon , op . cit ., pp. 258 - 259 .

الشماس تاريخ وبنود تلك الأتفاقية .

اما المنبجى ، فيشير إشاره عابره إلى المعاهدة بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع فى العام الذى تفشى فيه الوباء ، ويقول : " وفيه صالح عبد الملك الروم " . كما يتفق المنبجى مع ميخائيل السريانى على أن أمد المعاهده بين عبد الملك وجستنيان الثانى كان عشر سنوات ، وعلى الرغم من أنه لم يحدد تاريخاً لتلك المعاهده ، واكتفى بالإشاره إلى أنها كانت فى عهد الإمبراطور جستنيان إلا أن البنود التى أوردها لهذه المعاهده تتفق مع ما أورده ثيوفانيس ، ولكنه ينفرد بالإشاره إلى أن هذه البنود الزمت الإمبراطور " أن يخرج الروم فى جبل لبنان ويردهم إلى بلد الروم " ، وعلى هذا فإن المنبجى يعتبر الجراجمة فى لبنان من الروم . كما أنه يكتفى بالإشاره إلى أقتسام المسلمين والبيزنطيين جزيره قبرص [1] ، ولم يقرن بهذا الإقتسام كل من أرمينيه وأيبيريا حسبما أشارت بعض المصادر البيزنطيه .

أما المؤرخ الأرمينى جيوفوند Ghevond فيشير إلى أن أقتسام أرمينيه كان من بين بنود المعاهدة بين عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور جستنيان الثانى عام ٦٨٩ م / ٦٨ - ٦٩هـ[2]

وفى ضوء العرض السابق للرويات العربية وغير العربية عن المعاهدات بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد عبد الملك بن مروان نلحظ أن الروايات العربية حددت تاريخ هذه المعاهدات فيما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م ، كما حددتها الروايات غير العربية فى الفتره نفسها . كما نلحظ أن الروايات غير العربية أشارت إلى أن عبد الملك عقد معاهدتين مع البيزنطيين : الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، والثانية فيما بين عامى ٦٨٥- ٦٩٠ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، بينما تعددت الروايات العربية فى هذا الشأن .

وإذا أنتقلنا من التعميم إلى التخصيص ، فى محاوله لمقارنة هذه الروايات بعضها ببعض، نجد أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطية [3] ، وروايه المجموعة الأولى من المؤرخين

---

(١) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢) Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie , Tr . G.V. Chahnazarian Paris , 1856 , pp. 65 - 97 .

(٣) انظر ما سبق ص ١٧ - ١٨ .

المسلمين [1] بشأن المعاهده الأولى التى عقدت بين الخليفه الأموى عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع فى ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، على الرغم من أن المصادر البيزنطية قد أغفلت الإشاره إلى أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع قد هاجم المصيصة . كما يمكن أن نفسر إشاره السيوطى بأن الإمبراطور قد انتقض ما كان بينه وبين عبد الملك بالهجوم على المصيصة ، بأن المؤرخ السيوطى كان يعنى بهذه الإشاره المعاهدة التى سبق أن عقدها معاوية مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، والتى كان أمدها ثلاثين عاماً ، وعلى ذلك كانت المعاهدة سارية فى عهد عبد الملك بن مروان ، وإنتقضها الإمبراطور قنسطنطين الرابع عندما هاجم المصيصة . فاضطر عبد الملك إلى عقد المعاهده معه ليتفرغ لمواجهه ابن الزبير .

ويشير ثيوفانيس إلى أن المعاهده التى عقدت بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع كانت بمثابة تجديدٍ للمعاهده التى سبق أن عقدها الأخير مع معاوية وبالبنود نفسها . ولكن إذا أمعنا النظر فى بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك - حسبما أوردتها المصادر البيزنطية [2] - نجد أن الأختلاف واضح للغايه بين بنود المعاهدتين [3] . مما يجعلنا نستنتج أن عبد الملك عقد مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع معاهده أخرى ، ولها بنود مختلفة عن معاهده معاوية مع البيزنطيين .

أما عن تاريخ هذه المعاهده ، فتتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية على أنه كان بعد مقتل عبيد الله بن زياد [4] ، وكان مقتل ابن زياد حسبما اشار خليفه بن خياط فى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ - ٦٨٦ هـ [5] ، ويرى ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٤ -

---

(١) انظر ما سبق ص ١٢ - ١٣ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) عن المعاهده بين معاويه والإمبراطور قنسطنطين الرابع انظر ما سبق ص٤ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٥) خليفه بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

٦٨٥ م [١] / ٦٥ - ٦٦ هـ ، ويشير جنزيوس إلى انها فى ٧ يوليو عام ٦٨٥ [٢] / ٢٨ ذى القعده عام ٦٥ هـ ، وعلى هذا تكون بدايه الفتره التى حددها ثيوفانيس ، والتاريخ الذى أورده جنزيوس قبل مقتل ابن زياد ، وليس بعده حسبما أشارت المصادر الأسلاميه . ويجب أن نلحظ أيضا أن هذه المعاهدة كانت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور قنسطنطين الرابع كما أشارت إلى ذلك الروايه البيزنطية ، ومن المسلم به أن يكون عقد هذه المعاهدة بعد تولى عبد الملك الحكم فى رمضان عام ٦٥ هـ . أبريل عام ٦٨٥ [٣] ، وقبل وفاه الإمبراطور قنسطنطين الرابع فى سبتمبر عام ٦٨٥ م / صفر عام ٦٦ هـ [٤] وعلى هذا يكن القول أن تاريخ هذه المعاهدة كان فى الفتره بين أبريل وسبتمبر ٦٨٥ م / (رمضان عام ٦٥ - صفر عام ٦٦ هـ) ولما كان هذا التحديد يتفق مع التاريخ الذى اشارت إليه روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية . نرى أن الروايتين البيزنطية والعربية قد اتفقتا حول تاريخ هذه المعاهده . أما عن أسباب هذه المعاهدة وبنودها ، والشخصية التى عقد معها عبد الملك هذه الأتفاقية وأمدها ، فنلاحظ :

أولاً : فيما يتعلق بأسباب هذه المعاهدة اتفقت المصادر البيزنطية على أن هجوم المرده على لبنان كان من أهم الأسباب التى دفعت عبد الملك إلى عقد هذه الهدنه مع الإمبراطور قنسطنطين [٥] بينما تشير روايه المجموعة الأولى [٦] من المصادر العربية إلى أن هجوم الإمبراطور على المصيصة كان هو الدافع لعقد المعاهدة . واتفقت روايه المجموعة الثانية من المصادر العربيه مع الرواية البيزنطية فى أن هجوم الجراجمه على لبنان هو الذى دفع عبد الملك إلى مصالحتهم .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٤) Hamartolus , op . cit ., Col . 898 .

(٥) انظر ما سبق ص ، ١٧ .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٣ .

ثانيا : أوجزت المصادر البيزنطية بنود هذه المعاهدة ، إذ تعهد الإمبراطور البيزنطى بايقاف هجمات المرده على لبنان ، وهى إشاره واضحه إلى أن الإمبراطور كان هو المحرض على تلك الهجمات . مقابل أن يدفع عبد الملك ثلاثمائه وخمس وستين الف نوميسماتا ، ويرسل ثلاثمائه وخمسه وستين حصاناً أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائه وخمس وستين أسيراً بيزنطياً كل عام . وهكذا إذا جرى تقسيم ماتعهد بإرساله عبد الملك على أيام السنه لكان الناتج الف نوميسماتا ، وحصانا ، وأسيراً كل يوم .

واذا أمعنا النظر فى هذا الناتج ، نجد أنه يتفق مع ما جاء فى البنود التى أشارت إليها بعض المصادر البيزنطية عندما تحدثت عن المعاهده التى عقدها فيما بعد عبد الملك بن مروان مع جستنيان الثانى [1] ، وهذا يعنى بعباره واضحه أن المصادر البيزنطية أشارت إلى البنود نفسها فى المعاهدتين ، فأشارت إلى أنها تدفع كل عام فى المعاهده الأولى ، وكل يوم فى المعاهده الثانيه .

وفى الوقت نفسه نجد هذا التكرار فى روايات المصادر العربية . فتشير روايه المجموعة الثانية إلى أن عبد الملك صالح الجراجمة فيما بين عامى ٦٩ - ٧٠ هـ / ٦٨٨ - ٦٩٠ م على أن يدفع لهم كل جمعه الف دينار [2] ، وفى الوقت نفسه تشير رواية المجموعة الثالثة من المصادر العربية إلى أن عبد الملك صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٧٠هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه الف دينار [3] .

هذا التكرار هو الذى جعل كل من جنزيوس وابن العبرى يتأرجحان فى الإشاره إلى هذه البنود ، فذكرا أنها تدفع " كل يوم أو كل جمعه " [4] .

---

(١) أنظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) أنظر ما سبق ، ص ١٣ .

(٣) أنظر ما سبق ، ١٤ .

(٤) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ولقد حسم المنبجى الأختلاف بين الرواية العربية ، والرواية البيزنطية عندما أشار إلى أن بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع جستنيان الثانى كانت " تدفع كل يوم عوضا عن إخراج الروم الذين كانوا فى جبل لبنان " [١] .

ونميل إلى ترجيح رواية المنبجى ، لأن إجلاء الجراجمه من المناطق التى عاشوا فيها فتره طويله [٢] ، ونقلهم بكل أمتعتهم إلى مناطق أخرى كان يحتاج إلى أموال كثيره تعهد بدفعها عبد الملك حتى يكسر شوكتهم ، ويهدم هذا السور النحاسى ، حسبما أشار المؤرخ ثيوفانيس [٣] .

وفى ضوء ما سبق نرى أن رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية هى أقرب إلى الحقيقه ، وهى التى أشارت إلى أن ما تعهد به عبد الملك طبقا لشروط المعاهده التى عقدها مع البيزنطيين – عام ٦٥٨ م / ٦٦ هـ – كانت تدفع كل جمعه .

ونرجع أيضا أن هذه البنود كانت تنص على أن يدفع الف دينار رومى للبيزنطيين ، ويرسل حصانا أصيلاً لهم ، ويطلق سراح أسير واحد من البيزنطيين .

ثالثاً : تتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن عبد الملك قد صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ هـ . فى الوقت الذى اشارت فيه رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية إلى أن الصلح كان مع الروم والجراجمه فى لبنان ، ولا يمثل ذلك أختلافا جوهرياً مع رواية المجموعة الأولى طالما أن الإمبراطور هو المحرض الأساسى للروم والجراجمه فى لبنان كما سبق أن أشرنا .

رابعاً : لم تشر المصادر العربيه إلى أمد المعاهده التى عقدها عبد الملك مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٧٦ هـ . بينما أشار المؤرخ جنزيوس إلى أن أمدها كان ثلاث

---

(١) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٢) Theophanes , op . cit ., p . 62 .

سنوات [1] ، ويرى المؤرخ ميخائيل السريانى [2] أنها كانت لمده عشر سنوات . ولا نرى أن هذا يمثل أختلافا كبيراً أيضا ، فربما كان أمد المعاهده عشر سنوات ولكن الإمبراطور نقضها بعد مرور ثلاث سنوات من توقيعها .

وهكذا ، يمكن القول أن ثمه تشابة بين الرواية البيزنطية وكل من روايه المجموعة الأولى والمجموعة الثانية من المصادر العربيه بشأن المعاهده التى عقدت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ .

أما عن المعاهده التى عقدها عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثانى ، فقد أختلفت الروايات حول تاريخها ، فيشير كل من كدرينوس زوناراس إلى أنها كانت فى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ ، ويذكر ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٦ - ٦٨٧ م / ٦٧- ٦٨ هـ ، ويرى ميخائيل السريانى أنها عقدت فى عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ ، بينما أشار كل من جتزيوس ونقفور إلى أنها كانت فى عام ٦٨٨ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ، ويرى جيوفوند أنها فى عام ٦٨٩ م / ٦٩ - ٧٠ هـ ، ويشير كل من البلاذرى ، والطبرى ، وابن الاثير ، وابن العبرى إلى أنها جرت فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٠ - ٦٩٠ م ، أما ليو جراماتيكوس ومونخوس وبولس الشماس والمنبجى فقد أشاروا إلى هذه المعاهده دون تحديد تاريخ لها .

ويمكن أن نستبعد رأى كل من كدرينوس وزوناراس لأنهما يتفقان مع تاريخ المعاهده التى سبقت الإشاره إليها بين عبد الملك والإمبواطور قنسطنطين الرابع . ونلحظ من روايه ثيوفانيس أن الاتفاق النهائى وبدايه تنفيذ المعاهده كان فى العام التالى لأرسال عبد الملك الرسل إلى الإمبراطور البيزنطى للتشاور على عقد أتفاقيه السلام بينهما [3] . ونلحظ أيضا أن هناك تشابه بين الروايه الأرمينية لجيوفوند ، والسريانية لابن العبرى ، والعربية للبلاذرى ، والطبرى،

---

(١) Genesus , op . cit ., Col . 31 .

(٢) Michel le Syrien , op . cit ., Vol . 11 , p. 469 .

(٣) Theophanes , op . cit ., pp. 61 - 62 .

وابن الاثير فى تحديد عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ وإذا أعتبرنا أن هذا العام يمثل تاريخ الاتفاق النهائى على هذه المعاهده ، فيكون العام السابق - حسبما أشار ثيوفانيس - هو العام الذى بدأ فيه الرسل فى التفاوض بشأن المعاهده ، ونضم بالتالى رأى كل من جتزبوس ونقفور إلى اتفاق هؤلاء المؤرخين .

وعلى هذا يمكن القول أن عبد الملك بن مروان أرسل سفاره إلى الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى للتفاوض على عقد الصلح بينهما فى أواخر عام ٦٨٨ م / أوائل عام ٦٩ هـ ، وأن الجانبين تبادلاً أرسال السفراء ، وأستمرت المفاوضات إلى أن تم توقيع المعاهده بينهما فى منتصف ٦٨٩ م / أوائل عام ٧٠ هـ .

أما عن بنود تلك المعاهده ، وحسبما اتفقت المصادر غير العربيه ، فتنحصر فى أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين الف دينار رومى ، ويرسل إليهم حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح أسير منهم كل يوم ، ويقتسم الجانبان الأسلامى والبيزنطى الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينيه وأيبيريا ، على أن يقوم الإمبراطور البيزنطى بترحيل الجراجمه من الشام إلى الأراضى البيزنطيه ، وأن يكون أمد هذه المعاهده عشر سنوات .

ونستنتج من العرض السابق ، أن المسلمين عقدوا مع البيزنطيين خمس معاهدات سلام فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى / الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى ، عقد معاويه منها ثلاث معاهدات : الأولى مع الإمبراطور قنسطانز الثانى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ، وكان معاويه والياً على الشام حينذاك ، والثانية مع الإمبراطور نفسه فى عام ٦٥٦ م / ٣٦هـ اثناء النزاع على بن ابى طالب ، والثالثة مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع فى عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، بعد أن صارت له الخلافه . أما عبد الملك بن مروان فقد عقد معاهدتين مع البيزنطيين الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع ، والثانية عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ مع الإمبراطور جستنيان الثانى .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية والمعربه

ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) عز الدين ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى :

" الكامل فى التاريخ) ٩ج ، بيروت ١٩٧٩ م .

ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ - ٨٤٥ م) محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدى :

" الطبقات الكبرى " ٨ج ، بيروت ١٩٥٧ م .

ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ ٨٣٩٠ م) ابو عبيد القاسم :

" الأموال " مصر (د. ت) .

ابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ - ١٣١١ م) محمد بن على بن طباطبا :

" الفخرى فى الآداب السلطانية " مصر (د . ت)

ابن العبرى (ت ٦٨٥ م / ١٢٨٦ م) ابو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطيب :

" تاريخ مختصر الدول " بيروت (د . ت) .

ابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :

" شذرات الذهب فى أخبار من ذهب " ٨ج ، بيروت (د . ت) .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) ابو عمر أحمد بن محمد القرطبى الأندلسى :

" العقد الفريد " ١٦ج + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٢ .

ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) ابو محمد بن عبد الله بن مسلم

" الأمامه والسياسة ٢ج (فى مجلد احد) ، مصر ١٩٠٤ م .

" عيون الأخبار " ٢ج ، القاهرة ١٩٢٥ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفد اسماعيل بن عمر :

" البداية والنهاية " ١٣ج ، بيرت ١٩٧٤م .

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ابو الحسن احمد بن ريحيى بن جابر البغدادى :

" أنساب الأشراف " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ م

" فتوح البلدان " ليدن ١٨٦٦ م .

الحميرى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى / أو اخر القن الخامس عشر الميلادى) ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم :

" كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابى هبيره العصفرى :

" تاريخ خليفة بن خياط " تحقيق د . أكرم ضياء العمرى ، الرياضى ١٩٨٥ م .

الدينورى (ت ٨٨٢ هـ / ١٨٩٥ م) ابو حنيفه احمد بن داود :

" كتاب الأخبار الطوال " بغداد ١٩٥٩ م .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر :

" تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين " تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥ م .

الشيبانى (ت ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م) محمد بن الحسن الشيبانى :

" شرح كتاب السير الكبير " تحقيق عبد العزيز احمد ، القاهرة ١٩٧٢ م .

الطبرى (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) ابو جعفر محمد بن جرير :

" تاريخ الأمم والملوك " ١٠ج ، بيروت ١٩٧٩ م .

الكندى (ت ٣٥٠ م / ٩٦١ م) ابو عمر محمد بن يوسف المصرى :

" كتاب الولاء وكتاب القضاة" بيروت ١٩٠٨ م .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) ابى الحسن على بن الحسين بن على :

" مروج الذهب ومعادن الجوهر " ٤ ج ، بيروت ١٩٨٣ م .

المنبجى (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أغابيوس بن قسطنطين المنبجى :

" المنتخب من تاريخ المنبجى " انتخبه وحققه أ . د عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت ١٩٨٦ م .

النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب :

" نهاية الأرب فى فنون الآدب " ٢٧ج ، القاهرة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م .

اليعقوبى (ت بعد عام ٢٩٢ هـ / بعد عام ٩٠٤ م) أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب لمعروف بابن واضح الكاتب :

" تاريخ اليعقوبى " ٣ج ، النجف ١٣٥٨ هـ .

ثانيا : المصادر الأجنبية

Cedrenus , G., Historiarum Compendium , Ed . Migne Patrologia Graeca , Tome Cxx1 - Cxx11, Paris 1964 - 1894 .

Genesius , J. Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed. Migne Patrologia Graeca ,. Tome C1x , Paris , 1963 .

Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed.Migne Patrologia Graeca ,Tome Cx , Paris , 1863 .

Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie , Tr. G.V. Chahnazarian , Paris , 1856 .

Leo Grammaticus , Chronographia ; Ed . Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Bonn , 1892 .

Michel le Syrien , Chronique , Texet Syriaque et Trad . Fr . Par Chabot , 4vols , Paris , 1899 .

Nicephrus Patriarchae , Breviarum Historicum , Ed . Migne Patrologia Graeca , Tome C, Paris , 1860 .

Paul the Deacon , History of the Lombards , Tr . By , W.D. Faulke , Phhaldelphia , 1907 .

Sebeos , Histoire d'Heraclius , Trad . F. par, F. Macler, Paris , 1904 .

Theophanes , The Chronicle of Theophanes , (A.D. 602 - 813) Tr. by, H. Turthedove, U.S.A., Pensylvania , 1982 .

Zonaras , J., Epitome Historriarum , Ed . M.Pender, 3 Vols , Bonne , 1841 - 1892 .

ثالثا : المراجع العربية

فتحى عثمان (دكتور) :

" الحدود الاسلامية البيزنطية بين الأحتكاك الحربى والأتصال الحضارى " ٢ج ، القاهرة ١٩٦٦ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

" التاريخ السياسى للدولة العربية " ، ٢ج ، القاهرة ١٩٧٩ م

محمود سعيد عمران (دكتور) :

" ادارة الإمبراطوريه البيزنطية " بيروت ، ١٩٨٠ م .

وسام عبد العزيز فرج (دكتور) :

" العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن السابع الميلادى " الاسكندرية ، ١٩٨١ م .

رابعاً : المراجع الأجنبية

Lot, F. L'art Militaire et les Armees , Paris , 1946 .

Ostrogorsky , G., History of the Byzantin State , Tr., J.Hussey , Oxford , 1956 .

Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453) , 2 Vols , Madisom , 1958 - 196 .

التاريخ السياسى
لقلعة رباح ودورها فى حوادث
الصراع بين المسلمين والنصارى

دكتور
حمدى عبد المنعم محمد حسين
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

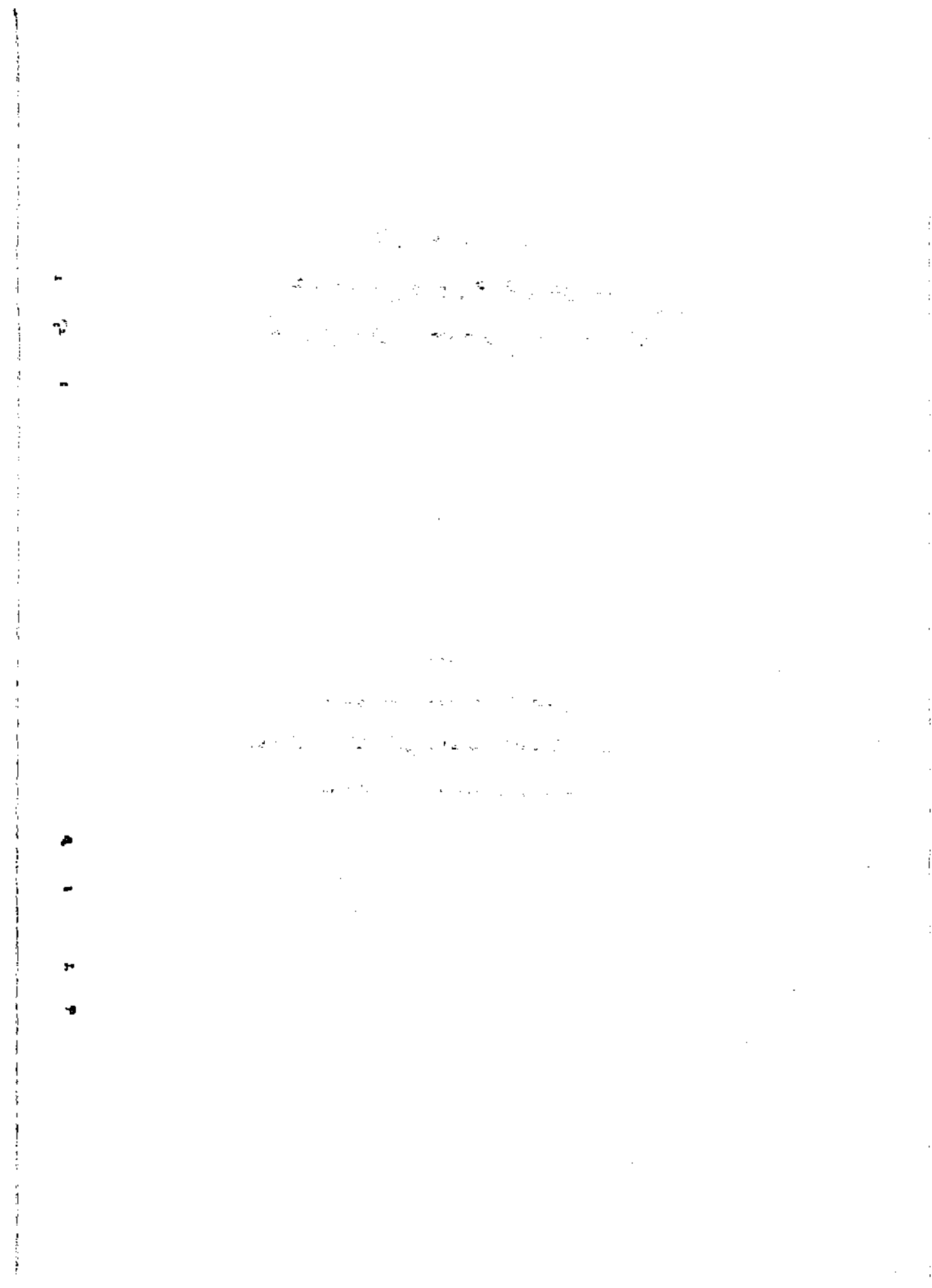

يتناول موضوع البحث دراسة للتاريخ السياسى لقلعة رباح (بالأسبانية calatrava)[١] ودورها فى حوادث الصراع بين المسلمين والنصارى فى الأندلس. والواقع أن الذى دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع هو أحساسى بأهمية الدور الذى لعبته هذه القلعة على مسرح الأحداث السياسية فى الأندلس لاسيما خلال عصرى المرابطين والموحدين، اذ كانت محورا للصراع بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية من جهة فضلا عن قلة ما كتب فى هذا الموضوع الأمر الذى شجعنى على اختياره والبحث فيه عسانى ان اتوصل الى حقائق جديدة تلقى الضوء على جانب من أهم جوانب الصراع بين المسلمين والنصارى وهو الحروب الصليبية فى الأندلس.

(١) التاريخ السياسى لقلعة رباح من الفتح الأسلامى الى نهاية العصر الآموى.

تقع قلعة رباح على ضفة وادى آنة شمال مدينة قرطبة.(Cordoba) وجنوب مدينة طليطلة (Toledo)[٢] وهى مسماه على الأغلب باسم التابعى

---

(١) قلعة رباح Calatrava هى التى يقوم فى مكانها الآن حصن يعرف باسم قلعة رباح القديمة Castillo de Calatrava la Vieja إذ أن هناك إلى جوارها مدينة أخرى تعرف باسم قلعة رباح الجديدة la nueva وكانت قلعة رباح تتبع فى العصر الاسلامى مدينة جيان إلا أنها تتبع الآن المدينة المستحدثة المعروفة باسم المدينة الملكية Ciudad real فى إقليم لامانشا La Mancha وقلعة رباح القديمة تبعد اليوم عن هذه المدينة باثنى عشر كم إلى الشمال منها.
راجع:
The Encyclopedia of islam, vol, 11, Holland 1927, p. 846 - 847.

(٢) الادريسى (الشريف ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز): صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق دى غوية ودوزى، ليدن ١٨٦٤م ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ابن غالب (الحافظ محمد بن ايوب الاندلسى): قطعة من كتاب "فرحة الانفس فى تاريخ الأندلس"==

على بن رباح اللخمى[1] الذى اشترك فى فتح الأندلس. وكانت قلعة رباح من أهم المراكز الحربية التى تتوجه منها الحملات العسكرية الأموية الى مدينة طليطلة، وقد جاء ذكرها لأول مره فى المصادر التاريخية الأندلسية فى حوادث عام ٢١٩هـ (٨٣٤م) عندما أرسل الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) جيشا بقيادة أخيه أميه بن الحكم صوب مدينة طليطلة[2] فحاصرها، وقطع أشجارها وأهلك زروعها ولكن أهلها لم يذعنوا للطاعة، فاضطر أمية بن الحكم الى رفع الحصار عنها وأبقى بقلعة رباح بعض قواته بقيادة ميسرة الفتى للاستمرار فى مضايقة أهل طليطلة،

== تحقيق د.لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م ،ص٢٨٩، الحميرى (ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجى، الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠ ص ٤٦٩.

(١) عن على بن رباح اللخمى ودوره فى فتوحات الاندلس وكيف ارسله موسى بن نصير مع مغيث الرومى الى دمشق لابلاغ الخليفة الوليد بن عبد الملك أخبار الفتوحات. راجع المقرى (احمد بن محمد التلمسانى). نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد فى عشرة أجزاء، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٤٩م، ج١ ، ص ٢٦٠ ج٤، ص٧، مؤنس (د. حسين)، فجر الاندلس، دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الاموية، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٥٩م ، ص ٨٩ ، ٩٩

(٢) كانت مدينة طليطلة قد عادت للثورة فى عهد الامير عبد الرحمن بن الحكم ففى عام ٢١٤هـ(٨٢٩م) اندلعت الثورة بها وتزعمها هاشم الملقب بالضراب، فسير اليه الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشا بقيادة محمد بن رستم عامله على الثغر الأدنى الاندلسى، الا أن محمد بن رستم فشل فى إخماد ثورة الضراب، بل إمتد نفوذه حتى هدد الثغر الادنى كله. مما اغضب الامير عبد الرحمن وكتب إلى محمد بن رستم يعنفه ويتهمه بالتقصير فى محاربة الضراب. وفى عام ٢١٦هـ(٨٣١). جهز عبد الرحمن جيشا كبيرا أمد به محمد بن رستم، وأمره بالزحف الى هاشم الضراب وإخضاعه، والتقى ابن رستم بهاشم الضراب وبعد =

مما دفع سكانها إلى الخروج من مدينتهم ومهاجمة قلعة رباح، فلما علم ميسرة الفتى الصقلبى بتحركاتهم أعد لهم الكمائن، فلما أقتربوا من قلعة رباح خرجت عليهم الكمائن من كل جانب، فأوقع بهم، وقتل عددا كبيرا من رجالهم فلما رأى ميسرة الفتى الصقلبى رؤوس القتلى إرتاع وداخله الندم ولم يلبث إلا قليلا حتى مات ندما وأسفا[1] وفى العام التالى (٢٢٠ هـ/٨٣٥م) خرج الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) من قرطبة غازيا، فيمم وجهه أولا صوب مدينة طليطلة،

===معارك عنيفة إستمرت عدة ايام دارت فيها الدائرة على هاشم الضراب الذى سقط صريعا هو وكثير ممن كانوا يشايعونه. ومع ذلك واصلت طليطلة ثورتها، فأرسل إليهم الأمير عبد الرحمن الأوسط هذا الجيش بقيادة أخيه أمية بن الحكم.

راجع:

ابن الاثير (ابو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ، طبعة القاهرة، ١٣٥٣هـ، ج٥، ص ٢١٩، ابن عذارى المراكشى (ابو عبد الله محمد): البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الاول والثانى والثالث، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، الجزء الرابع خاص بتاريخ المرابطين، نشر وتحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧ والقسم الخاص بالموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتانى، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن تاويت ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الاولى، الدار البيضاء ١٩٨٥م ، ج٢ ، ص٨٣ ، عنان(أ. محمد عبد الله): دولة الاسلام فى الاندلس، فى جزئين، القاهرة ١٩٦٠ ، ق١ ، ص٢٥٨

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٥ ، ص ٣٣٢ ، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢، ص٨٤ ، النويرى (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى التميمى القرشى): نهاية الارب فى فنون الادب، الجزء الثانى والعشرين، نشر جاسبار راميرو، غرناطة ١٩١٦ – ١٩١٧م، ص١٩٨،١٩٩ عنان، المرجع السابق، ق٢ ،ص٢٥٨ ، ٢٥٩ سالم (د. السيد عبد العزيز) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس الطبعة الاولى، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٣٠ ، ٢٣١.

Levi Provencal : Histoire de l'Espagne Misulmane, 3 vols, Leiden 1950 - 1954, vol 1, p. 201

وولى أبا الشماخ اليمانى[1] قلعة رباح خلفا لمسيرة الفتى الصقلبى وأبقى معه جيشا للتضييق على أهل طليطلة، بينما سار عبد الرحمن بن الحكم الى مدينة ماردة لاخضاعها[2] وفى عام ٢٢١هـ (٨٣٦م) خرج جماعة من أهل طليطلة يتزعمهم

---

(١) ابو الشماخ اليمانى كان زعيم اليمنية فى مدينة تدمير، وفى أوائل عصر الامير عبد الرحمن الاوسط نشبت فتنة فى تدمير بين اليمنية والمضرية، وكان سبب هذه الفتنة ان أحد المضريين المقيمين بتدمير انتزع ورقة دالية من جنات يمانى، فقتله اليمانى، فقامت الحرب بين العصبيتين المضرية واليمنية، وقتل كثير من الفريقين، فبعث الأمير عبد الرحمن اليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله وعينه واليا على تدمير فألتقى معهم فى موقعة تعرف بوقعة المصارة بلورقة قتل منهم نحو ثلاثة آلاف ولكنه لم يفلح فى اخضاع الولاية الثائرة، واستمرت الفتنة على اشدها، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية. وفى سنة ٢٠٩هـ (٨٢٥م) ارسل الأمير عبد الرحمن قائده امية بن معاوية بن هشام الى تدمير واشتبك مع اليمنية بقيادة ابى الشماخ فقضى على عدد كبير منهم، ولكن ابو الشماخ لبث بضعة أعوام يتحدى سلطة الحكومة المركزية فى قرطبة، والبعوث تتردد اليه فى كل عام دون أن تنال منه منالا، ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) حيث خضع ابو الشماع وغيره من الزعماء، وطلبوا الأمان، وعادوا الى الطاعة، ومن المرجح أن الامير عبد الرحمن بن الحكم قد استعان بابى الشماخ ليكسب وده فعينه واليا على قلعة رباح.

راجع : ابن القوطية (ابو بكر محمد بن عمر القرطبى): تاريخ إفتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٦٧ ، ٦٨ عنان دولة الاسلام، ق١ ، ص ٢٥٥، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١،

Levi provenca, Histoire, vol, 1,p. 198 - 199.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٥ ، ص٢٣٧ ، ابن عذارى، البيان المغرب جـ٢ ، ص٨٤ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٢ ص ١٩٩، عنان دولة الاسلام، ق١ ، ص ٢٥٩، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١،

Levi provenca, Histoire, vol, 1,p. 201.

مهاجر بن القتيل[1] الى قلعة رباح، وانضموا الى جيش الأمير عبد الرحمن بن الحكم واتفقوا جميعا على حصار طليطلة فضيقوا على أهلها، واستمر حصارها لها الى العام التالى (٢٢٢هـ/ ٨٣٧م)، فسير اليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم جيشا بقيادة أخيه الوليد بن الحكم، فرأى الوليد أهلها وقد بلغ بهم الجهد والأعياء كل مبلغ، وأشتدعليهم الحصار وضعفوا من القتال، ففتحها الوليد بن الحكم عنوة يوم السبت الثامن من رجب سنة ٢٢٢ هجرية (الخامس عشر من يونيو سنة ٨٣٧م)[2].

ظلت قلعة رباح على ولائها لسلطة الاماره الأموية، الى عام ٢٣٩هجرية (٨٥٣م) ففى هذا العام سير الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ هـ - ٢٧٤هـ/٨٥٢-٨٨٦م) جيشا بقيادة أخيه الحكم بن عبد الرحمن الى قلعة رباح وكان أهل طليطلة قد خربوا أسوارها، فأعاد من فارقها من أهلها اليها وأصلح أحوالها وترك بها حامية

---

(١) عقب فشل ثورة الربض التى أندلعت فى قرطبة عام ٢٠٢هـ (٨١٨م) خرجت طائفة كبيرة من أهل قرطبة الى مدينة طليطلة واستقروا بها. وقد اشار ابن سعيد المغربى الى هذه الطائفة التى لحقت بطليطلة وذكر أنهم كاتبوا مهاجر بن القتيل الذى كان قد لحق بدار الحرب وولوه عليهم. ومن المرجح أن مهاجر بن القتيل قد عاد الى طاعة الحكومة المركزية فى قرطبة ولاسيما بعد اصدار العفو عن جميع من اشترك فى ثورة الربض، بدليل انضمامه الى جيش الامارة الاموية الذى كلف باخماد ثورة طليطلة.
راجع: ابن سعيد المغربى (ابو الحسن على ابن موسى): المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د. شوقى ضيف، فى جزئين. دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥، ج١ ، ص ٤٢ ؛ Levi Provencal, Histoire, vo, 1 , p. 169.

(٢) ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، ج٥ ، ص ٢٤٥ ، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢ ، ص٨٤ ، ٨٥ ، النويرى، نهاية الارب، ج٢٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩، عنان، دولة الاسلام، ق١ ، ص ٢٥٩، سالم، تاريخ المسلمين، ٢٣١؛
Dozy R. Historie des Musulmanes d'Espagne, Leiden, 1932, Vol, 1,P. 250, 251; Levi Provencal Historie, Vol, 1, P. 201, 202.

كبيرة للدفاع عنها[1] وفى عام ٢٤١هـ (٨٥٥م) اضطر الأمير محمد بن عبد الرحمن الى تحصين قلعة رباح وشحنها بالجند وعين عليها حارث بن بزيع[2]

---

(١) ابن حيان (ابو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى): المقتبس من انباء أهل الاندلس، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ابن الأثير الكامل فى التاريخ، ج٥ ، ص ٢٩٣، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٢ ، ص ٩٤ ، عنان، دولة الاسلام، ق١ ، ص٢٩٢، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٥.

R. Dozy, Histoire, Vol; 1, p. 260;
Aguado Bleye: Manual de la Historia de Espana,
T, 1, Madrid, 1947. p. 322,323
Levi provencal, Histoire, Vol, p. 292.

(٢) الحارث بن بزيع كان من كبار قواد الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) وقد تحدث صاحب أخبار مجموعة عن أولية أبية بزيع وصلته بعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) فقال أنه لما قام حيوة بن ملامس بالثورة فى اشبيلية وثار معه عبد الغافر اليحصبى ودارت الهزيمة على هذين فى عام ١٥٤هـ(٧٧١م) قام عبد الرحمن بشراء عدد من العبيد ممن حسن بلاؤهم فى المعركة وكان من بينهم بزيع والد الحارث بن بزيع. أما الحارث فقد ظهر أمره أيام الامير عبد الرحمن الاوسط فقد عهد اليه بقيادة الجيش الذى توجه من قرطبة الى الثغر حينما أعلن موسى بن موسى العصيان سنة ٢٢٧هـ(٨٤٢م) فالتقى به فى برجه وظهر الحارث بن بزيع على موسى بن موسى ثم فتح برجه واسر فيها لب بن موسى وحاصر تطيلة بعد ذلك حتى أخرج موسى عنها، ثم انصرف الحارث بن بزيع الى سرقسطة مقر ولايته، وكان يخرج بعد ذلك الى ارنيط المرة بعد المرة لكى يرهق موسى بن موسى، غير أن هذا تمكن أخيرا من تدبير كمين له فى موضع بلمة على نهر ابرة، فأوقع به هناك وأسره، وأقام الحارث أسيرا لديه مدة تسعة أشهر، فغزا الامير عبد الرحمن الاوسط الى بنبلونة فى نفس السنة لكى يقتص من فعل موسى بقائده حارث بن بزيع. وفى السنة التالية (٢٢٨ هـ/٨٤٣م) غزا الامير عبد الرحمن الاوسط موسى غزوة أخرى، فصالحه موسى واطلق سراح الحارث بن بزيع، ثم ولاه على طليطلة وعزله عنها سنة ٢٣٢هـ(٨٤٧م) ثم ولاه الامير محمد بن عبد الرحمن على قلعة رباح
راجع: مؤلف مجهول(كتاب أخبار مجموعة فى فتح الاندلس، نشرة دون ===

للتضييق على أهل طليطلة(١).

وفى العام التالى (٢٤٢هـ/٨٥٦م) بعث الأمير محمد بن عبد الرحمن انه المنذر بالصائفة فاحتل قلعة رباح فى طريقه الى طليطلة التى حاصرها وانتسف ماحولها.(٢) وينفرد ابن حيان فى سياق تاريخه لحوادث عام ٢٥٩هـ (٨٧٣م) بالاشارة الى تمرد أحد زعماء البربر ويدعى ابن يامين البربرى وامتناعه بجبل البرانس، وأن مسعود بن عبد الله العريف قائد طلبيرة(٣) وامر حارث بن بزيع عامله على قلعة رباح باخماد ثورة ابن يامين البربرى، والقاء القبض عليه وتسليمه للأمير محمد بن عبد الرحمن، فلما جاء الامير محمد الى طلبيرة (Talavera) أمر بصلب ابن يامين وأصحابه على

=== لافونتى القنطرة، مدريد، ١٨٦٧م ص٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابن الاثير الكامل فى التاريخ، ج٥ ، ص٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ابن عذارى البيان الغرب، ج٢ ، ص ٩٥ النويرى، نهاية الارب، ج٢٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١؛

Levi provencal, Histoire, vol 1, p. 208, 216, 257 . 290, 292

(١) ابن عذارى ، نفسه، ج٢ ، ص٩٥، النويرى، نفسه، ج٢٢ ص ٢٠٦

(٢) ابن حيان المصدر السابق، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ابن عذارى المصدر السابق،ج٢، ص٩٦ ، عنان، دولة الاسلام، ق١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، سالم تاريخ المسلمين، ٢٤٥؛

Levi-proven cal, Ibid . p. 294

(٣) طلبيرة Talavera مركز من اعمال مدينة طليطلة، وكانت من أقصى ثغور المسلمين وأهمها وتقع فى هضبة تتوسط شبة الجزيرة وتعتبر لذلك بابا من الابواب التى تتوجه منها الجيوش الاسلامية الى ارض قشتالة وجليقية وتطل طلبيرة على نهر تاجة Eltajo وتبعد عن طليطلة بنحو ثمانين كيلو مترا الى غربها مع بعض الانحراف تجاه الشمال. وقد وصفها الحميرى بقوله."وهى مدينة كبيرة وقلعتها ارفع القلاع حصنا ومدينتها اشرف البلاد حسنا، وهو بلد واسع الساحة كثير المنافع، به أسواق وديار حسنه، ولها على نهر تاجه ارحاء كثيرة ولها عمل واسع ومزارعها زاكية.

راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ، وانظر ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود على مكى، تعليق رقم ٥٤٣ ص ٦١٤ ، ٦١٥ ، الادريسى صفة=

أسوار مدينة طليطلة[1]. وفى نفس العام سار الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط بجيشه غازيا الى مدينة طليطلة، فنازلها فى شهر شعبان (٢٥٩هـ/٨٧٣م) وحاصرها وقاتله أهلها قتالا عنيفا، حتى إذا ما أشتد عليهم الحصار استأمنوه، فعقد لهم الامان وأخذ رهائنهم وفى نفس الوقت أمر الامير محمد باعادة بناء ماتهدم من قلعة رباح وأعاد اليها ما كان تفرق من أهلها.[2]

ظلت قلعة رباح على ولائها للحكومة المركزية فى قرطبة حتى اندلعت الثورة فى انحاء الاندلس فى عصر الامير عبد الله بن عبد الرحمن الاوسط (٢٧٥ - ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م) ولا سيما ابان ثورة سوار بن حمدون المحاربى القيسى[3] فى مدينة البيرة[4].

===المغرب وارض السودان ومصر والاندلس، ١٨٧.

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكى، ص ٣٣٠.

(٢) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٣٣٤.

(٣) هو سوار بن حمدون بن عبده بن زهير بن زهير بن ديسم بن قديره بن هنيده. وهو من بنى محارب بن خصفة بن قيس عيلان وكان جده الاعلى قد نزل فى قرية قربسانة الواقعة الى الغرب من مدينة غرناطة. عن سوار بن حمدون.
راجع: ابن حزم (ابو محمد على بن احمد بن سعيد): جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ابن الابار(ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) الحلة السيراء تحقيق د. حسين مؤنس. الطبعة الاولى، فى جزئين، القاهرة ١٩٦٣م ج١ ، ص ١٤٧ ، ابن الخطيب الاحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، اربعة مجلدات القاهرة ١٩٧٣ - ١٩٧٩م، ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٤) البيرة Elvira كانت من كبريات حواضر جنوب شرق الاندلس وأصل أسمها ايبيرى قديم مركب من Berri – ili اى المدينة الجديدة وبها نزل جند دمشق حينما فتح العرب أسبانيا، وبساحل البيرة كان نزول الامير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حين عبوره الى الاندلس سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م)، ثم خربت البيرة فى الفتنة القرطبية وانتقلت عاصمة اقليمها الى غرناطة وأصبحت البيرة تابعة لها.

ولقد عرف سوار بشجاعته وجرأته فى الحرب وقدرته على تأليف القلوب، وقد بولغ فى اعلاء شأنه والثناء عليه فقيل "لولا أن الله من على العرب بسوار ونصره لما أبقى العجم والمولدون منهم أحد"(١). وبعد أن ولى سوار رئاسة عرب البيرة خاطب زعماء العرب فى الكور المجاورة يدعوهم الى نصرته، فانضوى اليه العديد من البيوتات العربية، وعندما رأى سوار من نفسه القوة توجه بمجموعة لاسترداد حصن منت شاقر الواقع الى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة، وكان قد اجتمع فيه من المولدين والنصارى حوالى ستة الاف رجل، فحاصرهم وضيق عليهم الخناق الى ان خرجهم قسرا منه، ثم استمر فى تطهير الحصون التابعة للمولدين وحلفائهم النصارى، ولذا حشد المولدون حشودهم ضد العرب، كما نجحوا فى تأليب جعد بن عبد الغافر عامل الامارة الاموية على البيرة ضد العرب فبادر باجابتهم الى طلبهم، وخرج على رأس جيش كبير من المولدين وحلفائهم، وقصد بهم سوار وحلفاءه من العرب،فاصطدم الفريقان بعنف، وانتهى الامر بانتصار سوار، أما جعد فقد وقع فى الاسر. وقد سميت هذه المعركة "بوقيعة جعد" وقد ارتفع نجم سوار بعد انتصاره على المولدين وحلفائهم وكاتبه عرب النواحى وامتدت رياسته حتى قلعة رباح التى أعلنت الولاء والخضوع له(٢) وقد خلف سوار بن حمدون فى رئاسة عرب البيرة سعيد بن سليمان بن جودى،

راجع: ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١ ، ص ٩٩ – ١٠٠ الحميرى، الروض المعطار ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١) ابن الابار، الحلة السيراء، ج١ ، ص ١٤٨ ، ابن الخطيب، الاحاطة فى اخبار غرناطة، ج٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) بن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس، نشرة الأب ملشور انطوانية باريس ١٩٣٧م. ص٥٥ ،٥٦ ، ٦٢٠ ، ابن الأبار، الحلة السيراء ج١، ص١٤٨ ، ١٤٩ ، ابن عذارى، البيان المغرب،ج٢ ص١٣٣ ،ابن الخطيب الاحاطة،ج٤ ، ص٢٧١.
Levi Peovencal, Histoire, Vol, 1, P . 354.

وكان من قبيلة هوازن التى تعد احدى القبائل القيسية، وسجل له الامير عبد الله على كورة البيرة بكاملها،[1] وقد استمر على سياسة سلفة فى التعصب للعرب ومحاربة اعدائهم: "حتى هوت اليه افئدتهم وقصدوه من كل كورة"[2] ويشير ابن حيان الى ان أهل قلعة رباح استمروا على ولائهم لسعيد بن جودى عقب وفاة سوار بن حمدون[3] يؤكد ذلك ما رواه ابن حيان فى تاريخه لحوادث عام ٢٩٨هـ (٩١٠م) اذ يشير الى قيام القائد الاموى عباس بن عبد العزيز بغزو قلعة رباح "اذ كان اهلها على خلاف وشقاق فافتتحها"[4] وفى عام ٣٠٠هـ (٩١٢م) انترى الفتح بن موسى بن ذى النون[5] ومعه

---

(١) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٢٣ ، ابن الأبار المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٧٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور انطونية، ص ٢٩.

(٣) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٥) ينتسب بنوذى النون الى ذى النون بن سليمان بن طوريل بن الهيثم بن اسماعيل بن السمح بن ورد بن حيقن الهوراى اى انهم من قبيلة هواره البربرية. وكان أول من دخل الاندلس منهم هو اسماعيل بن السمح. اما عن ذى النون فقد كان زعيما لشنت برية(santaver) وقد مر به الامير محمد ابن عبد الرحمن الاوسط فى بعض غزواته الى الثغر وقد مرض خصى من أكابر فتيانه الصقالبة، فتركه عند ذى النون يقوم برعايته ففعل ذو النون ما أراده من ذلك، وبالغ فى الاهتمام بالفتى الى أن برأ من علته، ولم يكتف بذلك، بل جاء بنفسه الى قرطبة بصحبة الفتى فكافأه الامير محمد ابن عبد الرحمن بأن ولاه على ناحيته وقدمه على قومه وارتهن منه بعض ولده، فأعترف ذو النون بفضل الامير عليه وشكر نعمته وظل على طاعته الى أن توفى فولى مكانه ابنه موسى بن ذى النون الذى كان رهينة عند الامير محمد الا انه نبذ الطاعة وأخذ فى توسيع منطقة نفوذه، فأستولى على طليطلة سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م)، ولكن أهل طليطلة استدعوا أسرة بنى قسى من الثغر الأعلى الاندلس وفتحوا لهم ابواب مدينتهم سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧م) وتخلصوا بذلك من بنى ذى النون وقد توفى بن ذى النون سنة ٢٩٥هـ (٩٠٧م) وتوزعت السلطة بين ابنائه الثلاثة: يحيى والفتح والمطرف.

محمد بن ادريس الرباحى المعروف بابن ارذبلش[1] بقلعة رباح وأحوازها، فسير اليهما الامير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢-٩٦١) جيشا بقيادة الوزير القائد عباس بن عبد العزيز القرشى حيث دارت بينهما معارك شديدة هزم فيها الفتح وقتل الكثير من رجاله وفر الى معاقله، بينما تمكن عبيد الله بن فهر عامل الامير عبد الرحمن بن محمد على قلعة رباح من قتل ابن ارذبلش، وبعث برأسه الى مدينة قرطبة فرفعت فوق باب السدة[2] وذلك فى العاشر من ربيع

===راجع: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ابن حيان ، المقتبس، تحقيق محمود مكى، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، تحقيق ملشور انطونية، ص ١٧ ، ١٨ .

(١) هو محمد بن ادريس البكرى الرباحى وقد عرف بابن ارذبلش كان يسكن قلعة رباح، فأخرجه الاهالى منها، وعندئذ لجأ الى حصن ملقون الواقع الى الشمال من قلعة رباح، وبدأ يشن الغارات عليهم منه، ثم تحالف مع الفتح بن موسى بن ذى النون.
راجع: ابن حيان، المقتبس. نشر ملشور أنطوني، ص١٧. وعن حصن ملقون راجع الأدريسى، صفه المغرب، ص١٨٨ - ١٨٩.

(٢) يعتبر باب السدة الباب الرئيسى لقصر الخلافة بقرطبة. وكان يقع على مقربة من الرصيف ويعلوه السطح المشرف. ولعل شهرة هذا الباب راجعه الى كونه مخصصا لشنق أو صلب الخارجين عن الطاعة وتعليق جثثهم عليه، فرفعت عليه رأس فضل بن سلمه المنتزى بحصن أشر الواقع على مقربة من قلعة رباح عام ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١م) ورأس محمد بن ادريس الرباحى المعروف بابن ارذبلش المشار اليه فى المتن وهى اول رأس رفعت على باب السدة فى عصر الامير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) كما صلب على باب السدة فى جمادة الآخرة عام (٣٠٠هـ / يناير ٩١٣م) محمد بن يوسف، الجيانى، وكان من أهل الفساد والقدح فى الخلافة. وفى عام ٣١٣هـ/٩٢٥م صلب على باب السدة أحد اصحاب الثائر الاندلسى عمر بن حفصون وهو الرامى الاندلسى المعروف بابى نصر، وفى عام ٣١٤هـ/٩٢٧م صلب على باب السدة سليمان بن عمر بن حفصون، وفى عام ٣١٦هـ/٩٢٨م علقت جثة عمر بن حفصون على باب السدة، وفى عام ٣٦٨هـ/٩٧٩م صلب عبد الملك بن المنذر بن سعيد البلوطى على باب=

الآخر سنة ٣٠٠ هـ (يناير ٩١٢م) وتم تطهير قلعة رباح واحوازها من الثورة[١].

ومن المرجح ان قلعة رباح قد عادت الى طاعة وولاء الحكومة المركزية فى قرطبة وتولاها عمال لبنى أمية، فقد اشارت المصادر التاريخية الى عدد من هؤلاء منهم: شبيب بن أحمد سنة ٣١٧هـ[٢] (٩٢٩م) وعبد الله بن عبد المالك فى ربيع الآخر سنة ٣١٨هـ (٩٣٠م)[٣] ومحمد بن حمدون بن بسيل عام ٣٢١هـ (٩٣٣م)[٤] وعبد الملك بن عبد الله سنة ٣٢٢هـ (٩٣٥م)[٥]. واحمد بن محمد بن مبشر وعبد الله بن محمد بن مبشر مضمومة لها طليطلة سنة ٣٢٥هـ (٩٤٧م)[٦] وعبد الله بن درى

===السدة، وفى رجب عام ٣٩٩هـ/مارس ١٠٠٩م صلب عبد الرحمن شنجول بن المنصور محمد بن ابى عامر على باب السدة.
راجع: ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور انطونيه، ص ٣٣ ، ١٣٧ ، المقتبس ج ٥ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٠٢ ، ٤٤٤ ، ابن عذارى، البيان المغرب ج٢ ، ص ١٤٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ .

Balbas : Bab Al sudda Y los zudas de la Espana
Oriental, Al Andalus; fasc 12, vol, Xvll, 1952, p. 165-175

(١) ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور انطونيه، ص ٣٧٥. ابن حيان، المقتبس نشر بدور شالميتا، ص ٥٣ ، ٥٤ ، عنان ، دولة الاسلام ، ق٢ ، ص ٣٧٥ ، مؤلف مجهول: مدونة تاريخية من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، نشرها ليفى بروفنسال وغريسه غومث تحت عنوان:

Una Cronica anonime de abd Al Rahman 111, Al NASIR,
Por Levi Provencal, Emilio Garcia Gomez,
madrid, Granada, 1950. p 32-33

(٢) ابن حيان ، المقتبس، نشر شالميتا، ص ٢٥٤.
(٣) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥.
(٤) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٣١.
(٥) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥.
(٦) ابن حيان ، المقتبس ، نشر شالميتا ، ص ٤١٧.

سنة ٣٢٦ هـ (٩٤٨م)[١] وهشام بن جهور سنة ٣٢٨هـ (٩٥٠م)[٢] وعيسى وسليمان ابنى محمد بن عيسى مضمومة لها طليطلة سنة ٣٢٩هـ (٩٥١م)[٣] والياس بن سليمان سنة ٣٣٠هـ (٩٥٢م)[٤].

لم تشر المصادر التاريخية الى قلعة رباح منذ أن انضوت تحت السيادة الاموية الا فى أخريات القرن الرابع الهجرى ابان الفتنة القرطبية عندما فر اليها سليمان بن الحكم،[٥] وكذلك عندما غادر البربر قرطبة فى أعقاب تحريض الخليفة

---

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٤٢٩.
(٢) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٦٢.
(٣) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٧١.
(٤) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٨٩.
(٥) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وكان قد فر الى قلعة رباح عقب وفاة الرشيد المروانى، فلما اضطر البربر الى الخروج عن قرطبة لسوء معاملة الخليفة المهدى اتجهوا الى قلعة رباح ووقع اختيارهم على سليمان بن الحكم كخليفة ولقبوه بالمستعين بالله، وعقب انتصار البربر على جنود الخليفة المهدى بالقرب من جبل قنتيش فى (١٣ ربيع الاول ٤٠٠هـ/١٥ نوفمبر ١٠٠٩م) ودخلوا قرطبه، أعلن سليمان نفسه خليفة للمرة الاولى فى ١٦ ربيع الاول ٤٠٠هـ/١٨ نوفمبر ١٠٠٩م، ولكن المهدى سرعان ما أسترد قرطبة للمرة الثانية عقب هزيمة سليمان فى عقبة البقر فى شوال سنة ٤٠٠ هـ(مايو ١٠١٠م)، الا أن سليمان وجنوده البربرية نجحوا فى دخول قرطبة فى ٢٦ شوال ٤٠٣ هـ (٩/مايو ١٠١٣م) وأعلن سليمان خلافته للمرة الثانية وتلقب بالظاهر بحول الله، الى أن دخل على بن حمود قرطبة فى ٢٢ من المحرم سنة ٤٠٧ هجرية (الاول من يوليو ١٠١٦م) وأمر بقتل سليمان المستعين.
راجع: ابن بسام(ابو الحسن على الشنترينى) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م القسم الاول المجلد الاول، ص ٢٤ ، ٢٥، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٧٨-٨٠ ، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٠ - ٩٣ ، ٩٥-١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤-١١٣، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٣٤٨-٣٥٥، عنان، دول الاسلام، ق٢ ، ص ٥٨٣-٥٩٩.
Arellano : Historia de Cordoba, ciudad real; 1915 - 1919 p. 303 - 344.

المهدى[1] على قتلهم، فغادروها وساروا الى قلعة رباح حيث التفوا حول سليمان بن الحكم وولوه على انفسهم وعقدوا له بها الخلافة وتسمى بالمستعين بالله.[2] وفى قلعة رباح ارسل الخليفة المهدى عباسا البرزالى[3] يحمل امانا للبربر ويطلب منهم العودة الى مدينة قرطبة فرفضوا قائلين: "ليس الى رجوعنا من سبيل لأنه أن أمننا لم تؤمننا

---

(١) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذى ثار على عبد الرحمن بن محمد بن ابى عامر الملقب بشنجول فى أول امارته وفى اثناء غيابه عن قرطبة فى غزوته الوحيدة ضد اسبانيا النصرانية وذلك فى جمادى الاولى سنة ٣٩٩هـ (فبراير ١٠٠٩م) معلنا نفسه خليفة للأندلس، على أنه لم يلبث قليلا حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، وقد انضم اليه البربر، والتقى المهدى والمستعين فى معركة قنتيش التى انتصر فيها سليمان المستعين وقواته البربرية – كما سبق الاشارة – وهرب المهدى الى مدينة طليطلة، حيث جمع له قائده واضح الفتى العامرى قوات جديدة، ثم التقى بسليمان المستعين مرة أخرى فى عقبة البقر – كما سبق الاشارة، وانتصرت قوات البربر المناصرة لسليمان المستعين مرة ثانية، الا أن سليمان–وكان يظن الهزيمة قد لحقت به– لاذ بالفرار وهكذا دخل المهدى قرطبة واعلنت خلافته للمرة الثانية، غير ان دولته الثانية لم تطل اذا ان قائده واضحا غدر به، فدبر مؤامرة لاغتياله فى الثامن من ذى الحجه سنة ٤٠٠ هـ(الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٠١٠م).
راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص٤٩–١٠٠ ، ابن الخطيب (لسان الدين ابو عبد الله محمد): اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، القسم الثانى الخاص بالاندلس، تحقيق ليفى بروفنسال الرباط، ١٩٣٤م، ص ١٠٩–١١٦.

Levi Provencal, Histoire, Vol, 11, p. 298-315.

(٢) ابن عذارى. البيان المغرب، ج٣ ، ص ٨٢.

(٣) بنو برزال–أو البرازلة– ينتسبون الى قبيلة زناته البربرية وكانوا ينزلون بالمغرب فى منطقة الزاب الاسفل حول مدينة المسيلة. وقد أعلنوا خضوعهم لفاطميين ودخلوا فى طاعة على بن حمدون المعروف بالاندلسى، ثم عبروا الى الاندلس بعد أن اشتدت وطأة صنهاجة على المغرب الاوسط، ورحب بهم الخليفة المستنصر وأحسن استقبالهم، وعقب وفاة الحكم المستنصر وقفوا موقف التأييد من المنصور محمد بن ابى عامر فأستعملهم المنصور فى الولايات النبيهة ===

رعيته وأن أمنتنا رعيته لم يؤمننا جنده"[1] وفى عهد الخليفة القاسم بن حمود الادريسى[2] اقطع زهيرا الفتى العامرى قلعة رباح[3].

===والاعمال الجليلة فولى احدهم حاكما على قرمونة واعمالها وعقب سقوط الدولة العامرية تحول البرازلة بولائهم الى الخليفة المهدى ثم ساندوا ايضا الخليفة سليمان المستعين - شأنهم فى ذلك شأن البربر فى الاندلس- وظل بنوبرزال يحكمون قرمونة الى ان سقطت دولتهم سنة ٤٥٩ هـ(١٠٦٦-١٠٦٧م).
راجع: حمدى عبد المنعم محمد، دولة بنى برزال فى قرمونة، الطبعة الاولى، الاسكندرية، ١٩٩٠م.

(١) ابن عذارى البيان المغرب، ج٣ ، ص٨٤.

(٢) هو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الادريسى الحسنى ولد فى سنة ٣٤٨هـ(٩٦٠م) وكان هو وأخوه على من جملة قواد سليمان بن الحكم المستعين حينما ولى الخلافه للمرة الاولى فى سنة ٤٠٠هـ(١١٠٩م) اذ كانا من امراء المغاربة الذين شايعوه، ثم قدم سليمان على بن حمود على سبته وولى القاسم على طنجة وأصيلا، على أنه يبدو انه ظل بقرطبة، ثم انتقل منها الى اشبيلية بعد أن جاز أخوه على من سبته الى قرطبة، وقتل سليمان المستعين واستأثر بالخلافة، فلما قتل على بن حمود فى أول ذى القعدة سنة ٤٠٨هـ(٢١مارس سنة ١٠١٨م) توجه الى قرطبة من اشبيلية وبويع فيها بالخلافة ثم ضعف أمره وثار عليه أبناء أخيه يحيى بن على القائم بسبته وادريس بمالقه، وجاز يحيى البحر، فلما رأى القاسم عجزه عن مقاومته فر الى اشبيلية فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١٢هـ (١٥ أغسطس ١٠١٢م) وأعلن يحيى نفسه خليفة بقرطبة ثم ضعف أمر يحيى فأضطر للفرار واستدعى أهل قرطبة القاسم مرة ثانية، فعاد الى قرطبة وولى الخلافة للمرة الثانية حتى ثار عليه القرطبيون مرة أخرى فهرب الى اشبيلية فى الحادى والعشرين من جمادى الثانية سنة ٤١٣هـ (٩ سبتمبر سنة ١٠٢٣م) فمنعه أهلها من دخولها بتدبير من القاضى ابن عباد، فانصرف منها الى شريش وتوفى بها محبوسا عند ابن أخيه ادريس بن على سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م).
راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص١١٩-١٣٥ ، ابن الخطيب، اعمال الاعلام القسم الاندلسى، ص ١٣٠-١٣٥، النويرى، نهاية الارب، ج٢٢ ، ص ٢٣٣-٢٣٤.

Levi Provencal, Histoire, Vol 11, P. 323 - 333.

(٣) زهير الفتى العامرى ويكنى ابا القاسم من أهم الفتيان العامريين واشدهم بأسا، ==

قلعة رباح فى عصرى الطوائف والمرابطين:

خضعت قلعة رباح خلال عصر ملوك الطوائف لبنى ذى النون اصحاب طليطلة[1] ومن أبرز من تولاها

===وكان من اخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة، ثم ولاه القاسم بن حمود ولاية جيان وقلعة رباح محاولا بذلك ان يعقد السلم مع الفتيان العامريين وان يأمن خصومتهم وكيدهم، ثم ولى حكم المرية بعد وفاة صاحبها الفتى خيران سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨م)، وامتد سلطانه شرقا حتى شاطبة وشمالا حتى بياسة وقرطبة. وكان يرتبط بعلاقات المودة مع جيرانه الاقربين بنى حمود اصحاب مالقة وبنى زيرى اصحاب غرناطة، ولكن سرعان ماتحولت علاقته مع اصحاب غرناطة الى علاقات عدائية ونشبت بينهما معركة انتهت بهزيمة زهير ومقتله فى اواخر شهر شوال ٤٢٩هـ (١٠٣٨م).

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص١٦٨ - ١٧٢، ابن الخطيب اعمال الاعلام، ج٢، ص٢١٢ ، ٢١٣ ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج١، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، عنان، دول الطوائف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٩م.

Prieto y Vives - Antonio -, Los Reyes de Taifas,
estudio Historico Muslmanes Espanoles, en
Elsiglo v de La Hegria, Madrid, 1926, P. 61 - 62.

(١) ظلت أسرة بنى ذى النون فى خدمة الدولة الاموية الى أيام المنصور محمد بن ابى عامر عندما ظهر عبد الرحمن بن مطرف بن اسماعيل بن ذى النون ودخل فى خدمة الدولة العامرية وعقب سقوط الدولة العامرية واندلاع الفتنة القرطبية أعلن بنوذى النون دخولهم فى طاعة سليمان المستعين الذى منح اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن ذى النون ولاية اقليش ثم اضاف اليها كونكة ثم أخذ يفرض سلطانه على كورة شنتبرية، وفى نفس الوقت احتاج اهل طليطلة الى من يقوم بأمرهم فخاطبوا اسماعيل ابن ذى النون، فأقبل بجنده ودخل طليطلة واستبد بأمره واعلن انفصاله عن قرطبة والجماعة، وحكم طليطلة من سنة ٤٢٧ - ٤٣٥هـ (١٠٣٦ - ١٠٤٤م) ثم خلفه ابنه ابو الحسن يحيى بن اسماعيل وتلقب ==

حريز بن حكم بن عكاشة(١) وقد ظلت قلعة رباح خاضعة لبنى ذى النون الى أن

== بالمأمون وكان من أعظم ملوك الطوائف وأطولهم عهدا، اذ حكم ثلاثة وثلاثين عاما (٤٣٥ – ٤٦٧هـ / ١٠٣٦ – ١٠٧٥م) وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر الذى ظل يحكم طليطلة وقلعة رباح الى أن سقطت طليطلة فى ايدى القشتاليين سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م).

راجع: ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الاول، المجلد الاول، ص ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ والقسم الرابع المجلد الاول ص ٩٩ – ١٠٤، ١١٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص٢٧٨، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٣٠٣، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ق٢ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤، ص ١٦١ ، ١٦٢، أشباخ (يوسف) تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة أ. محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨م، ص٤٩ ، ٥٠ ، ٥١.

Vives : Los Reyes de taifas, p, 53, 54.

(١) حريز بن حكم بن عكاشة كان والده حكم بن عكاشة من أصحاب الوزير ابى الحسن ابراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء وزير ابى الوليد بن جهور زعيم قرطبة، فلما قتل ابن السقاء قبض على حكم بن عكاشة وزج به السجن ولكنه فر من سجنه ولحق بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة فولاه بعض الحصون القريبة من قرطبة، وكان المأمون يتحين الفرصة للاستيلاء على قرطبة، فوضع له حكم بن عكاشة خطة انتهت بنجاحه فى دخول قرطبة وقتل أميرها يومئذ عبادا الملقب بسراج الدولة بن المعتمد محمد بن عباد، ودعا الناس الى بيعة المأمون بن ذى النون وبعث اليه برأس سراج الدولة، وكان المأمون يومئذ فى بلنسية وذلك سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥م)، فقدم الى قرطبة ودخلها فى موكب ضخم، ولكنه توفى بعد قليل وتولى حكم بن عكاشة من بعده حكم قرطبة نائبا عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون، ولكن وفاة المأمون شجعت المعتمد بن عباد على الزحف الى قرطبة ودخلها بعد أن فر عنها حكم بن عكاشة، ولكن المعتمد بن عباد بعث فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته وجىء به فصلب مع كلب، بينما فر ولده حريز بن حكم الى طليطلة، فولاه القادر بن ذى النون حاكما على قلعة رباح وظل عليها حتى سقوطها فى ايدى القشتاليين، وقد قتل حريز بن حكم سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م).

راجع: ابن الابار، الحلة السيراء، ج٢ ، ص ١٧٦ – ١٧٩ ، عنان دول الطوائف، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

سقطت طليطلة فى ايدى الفونسو السادس ملك قشتالة[١] الذى لم يقنع بالاستيلاء على طليطلة ولكنه استولى ايضا على جميع الاراضى الواقعة على ضفتى نهر التاجة وعلى القلاع المجاورة ومنها قلعة رباح[٢].

---

(١) الفونسو السادس ابن فرنندو الاول fernando 1 الابن الاكبر لسانشو العظيم Sancho El Mayor وكان فرناندو الاول قد قسم مملكته قبيل وفاته سنة ١٠٦٥م بين اولاده الثلاثة فخص ولده الكبير سانشو الثانى(شانجة) بمملكة قشتالة، وخص ولده الثانى الفونسو السادس (الفنش) بمملكة ليون، وخص أصغرهم غرسية بجليقية. أما ابنتاه دونيا اوراكا Urraca ودونيا البيرة Elvira فقد منحهما حق الاشراف على الاديرة فى سائر مملكته، كما منح الاولى حصن سمورة Zamora والثانية حصن تورو Toro وقد أدى تفتيت المملكة الاسبانية الى قيام حرب أهلية بين هؤلاء الاخوة، ولقد استطاع الاخ الاكبر سانشو (شانجة) فى بادىء الامر ان ينتصر على أخويه ويستولى على بلادهما ليون وجليقية سنة ١٠٧١م، بينما فر الفونسو السادس الى طليطلة حيث أكرمه ملكها المأمون بن ذى النون، وكذلك فر غرسية الى اشبيلية، ولكن سانشو تعرض للقتل سنة ١٠٧٢م واستدعى الفونسو السادس من طليطلة ونصب ملكا على قشتالة وليون وجليقية فى نفس السنة (١٠٧٢م) ولا سيما بعد القبض على الاخ الثالث غرسية وزج فى احدى القلاع سجينا حتى مات سنة ١٠٩٠م.
راجع: عنان، دول الطوائف، ص٣٧٥ - ٣٨٠ .

Lafuente : Historia general de Espana
Madrid 1861 , Vol , 11, P. 382-383: 385-389-485-488.
Pidal : La' Espana del cid Madrid, 1947
P. 122-123-135-145-149-176-177

(٢) عن أحداث سقوط طليطلة فى ايدى النصارى.
راجع: ابن بسام الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الاول، ص١٢٧، ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، ج٣ ، ص١٣٨ ، ١٣٩، المقرى، نفح الطيب، ج٢ ، ص٨٤ ، ٨٥ سالم، المغرب الاسلامى، الطبعة الاولى الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٧١٨ ، ٧١٩ ، عنان، دول الطوائف ١١٠ - ١١٥

Mirianda. Historia general de Espana, Madrid
1955 , p. 16 - 18 ; Dozy , Histoire.
Vol , 111 p. 121 - 122.

جاء سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة نذيرا بما يترصد الإسلام فى الأندلس من أخطار، وارتج الأندلس كله لهذه الحادثة رجة عنيفة، وشعر الاندلسيون أن أمر الاندلس الى ضياع، وقد كان من الضرورى فى تلك الظروف العصيبة أن تتحد القوى الاسلامية فى الاندلس لمواجهة هذا الخطر النصرانى، فكان من الطبيعى الاستعانة بأقرب وأكبر قوة اسلامية مجاهدة وهى القوة المرابطية الفتية التى تمكنت من الظهور حديثا فى المغرب الأقصى فلبى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين نداء الجهاد، وعبر على رأس جيوشه المرابطية المجاهدة الى الاندلس سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) وأحرز انتصاره العظيم على جيوش النصارى بقيادة الفونسو السادس ملك قشتالة فى معركة الزلاقة الشهيرة فى الثانى عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ (الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٠٨٦م)(١).

ولقد كان لانتصار الزلاقة عدة نتائج كان من أبرزها أنه أسقط من قدر ملوك

---

(١) عن قيام دولة المرابطين فى بلاد المغرب واستصراخ ملوك الطوائف فى الاندلس بهم، والدور الاسلامى الذى قام به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وعبوره الى الاندلس وانتصاره الرائع فى معركة الزلاقه.
راجع: ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، ج٨ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ مؤلف مجهول الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية، عنى بنشره السيد البشير الفورتى، تونس: ١٣٢٩ ، ص٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الابار، الحلة السيراء، ج٢ ، ص٩٩ ، ١٠٠، المراكشى (عبد الواحد بن على): المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، نشر الاستاذان محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٣١ ، ١٣٢، ابن ابى زرع (ابو الحسن على بن عبد الله الفاس): الانيس المطرب بروض القرطاس، طبعة فاس، ١٣٠٥هـ ص١٠٠ ، ١٠١ ابن الخطيب، اعمال الاعلام ق٢، ص ١٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، الاحاطة فى اخبار غرناطة، ج٢ ، ص١١٠ ، ١١١
Dozy , Histoire, Vol, 111, p. 124, 125, 127, 129.
Miranda: La invasion de lose Almoravides y la Batalla de Zalaca, Hesperis, 1953, Tome, XI . Paris, p. 26 - 28.

الطوائف فى نظر رعيتهم، ومهد السبيل الى اسقاط دويلات الطوائف وسيطرة المرابطين على الاندلس. ففى عام ٤٨٤هـ (١٠٩٠) سير امير المسلمين المرابطى يوسف بن تاشفين اربعة جيوش الى الاندلس للقضاء على ملوك الطوائف منفردين منهم القائد بطى بن إسماعيل الذى إفتتح مدينة قرطبة يوم الاربعاء الثالث من شهر صفر سنة ٤٨٤هـ (السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٠٩١م) ثم بعث بطى قائدا على رأس حملة من الف فارس الى قلعة رباح، فحاصرها وإستولى عليها(١).

أصبحت قلعة رباح منذ أن افتتحها المرابطون عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) محورا للصراع بين المسلمين والنصارى، ففى عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) قام القشتاليون بغزوة واسعة النطاق فى بلاد الاندلس وتوغلوا حتى وصلوا على مقربة من قلعة رباح بهدف الإستيلاء عليها، فتصدى لهم تاشفين بن على ابن يوسف بن تاشفين(٢) وتمكن من ردهم على اعقابهم. وفى شهر ربيع الأول عام ٥٢٦هـ (يناير ١١٣٢م) بلغ تاشفين بن على أن القشتاليين قد خرجوا من مدينة طليطلة فى حملة عسكرية صوب مدينة قرطبة فاستنفر تاشفين جيوشه وبادر بالسير نحو مدينة قرطبة، ثم نهض للقاء القشتاليين فى

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس، ١٥٤ ، ١٥٥ ، عنان، دول الطوائف، ص ٣٤٨، ٣٤٩، اشباخ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين، ص٩٥. كان امير المسلمين يوسف بن تاشفين وقيل ولده على بن يوسف يصف الاندلس بقوله انها تشبة عقابا مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح، ورأسة جيان ومنقاره غرناطة وجناحه الايمن باسط الى المغرب وجناحه الايسر باسط الى الشرق. راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٦٩، المقرى، نفح الطيب ج١ ص ١٩١،١٩٢.

(٢) تاشفين بن على بن يوسف، تولى شؤون الاندلس نيابة عن ابيه امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وكانت للامير تاشفين بن على فى مدافعة النصارى فى الاندلس صولات وجولات وفق فيها كل التوفيق واحرز انتصارات رفعت مكانته فى نظر اهل الاندلس، وفى عام ٥٣٢هـ (١١٣٨م) صدرت اليه الاوامر بالعوده الى ==

قواته الخفيفة، وكان القشتاليون قد أكتسحوا حصن شنت اشتيبين Sanesteban (١) الواقع بالقرب من مدينة جيان(٢) واستولوا عليه، كما اجتازوا

= المغرب، ثم صدر مرسوم سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م) بتوليه ولاية عهد المرابطين، ثم تولى امارة المسلمين سنة ٥٣٧هـ (١١٤٣م) عقب وفاة والده على بن يوسف حيث تحمل عبء الحروب ضد الموحدين وعلى الرغم من ضروب الشجاعة والاقدام التى اتصف بها فى معاركه التى خاضها ضد الموحدين، إلا انه خر صريعا فى السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (الثانى والعشرين من فبراير سنة ١١٤٥م).
راجع: البيذق (ابو بكر بن على الصنهاجى): اخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفى بروفنسال، باريس ١٩٢٨،ص٢٩٨ ، ٢٩٩ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص١٠٠ ، ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الرابع الخاص بعصر المرابطين، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١ ، ص٩٧ -١٠٠.

(١) ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١، ص٤٥٠ ، ٤٥١، عنان عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٣٣.

(٢) جيان(Jean) مدينة اندلسية قديمة من بنيان الاول وهى تقع الى شرق قرطبة وتبعد عنها بنحو مائة كيلومترا، والى شمال غرناطة وتبعد عنها بمثل هذه المسافة. يصفها الادريسى بقوله:" ومدينة جيان كثيرة الخصب رخيصة الاسعار كثيرة اللحوم والعسل ولها زائد على ثلاثة الاف قرية كلها يربى فيها دود الحرير وهى مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها ولها قصبة من امنع القصاب وأحصنها" ويصف الحميرى مسجدها بقوله." وجامع جيان مشرف يصعد اليه على درج من جميع نواحيه، وهو من خمس بلاطات على اعمدة رخام وله صحن كبير حوله سقائف، وهو من بناء الامام عبد الرحمن بن الحكم على يد مسره عامل جيان".
راجع: الادريسى، صفة المغرب، ص٢٠٢، ابن غالب فرحة الانفس، ص٢٨٤، الحميرى، الروض المعطار ص١٨٣ وانظر ايضا: مؤلف مجهول ذكر بلاد الاندلس، ص٤٦، محمد الفاسى، الاعلام الجغرافية الاندلسية مجلة البينة، السنة الاولى، العدد الثالث، الرباط، ١٣٨٢هـ (يوليو١٩٦٢م).

الوادى الاحمر(١)، فبادر تاسفين بن على للقائهم وملاحقتهم واشتبك معهم فى قتال عنيف انتهى بهزيمة القشتاليين، وأتى القتل عليهم، واستولى المسلمون على أمتهم وأسلحتهم، وسار تاشفين بن على بالاسرى والغنائم الى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها وترك الاسرى لدى أهلها ليفتدوا بهم من ارادوا من اسراهم(٢). وفى عام ٥٣٦هـ (١١٤٢م) استولى المرابطين على قلعة مورة الحصينة فقام القشتاليون فى العام التالى (٥٣٧هـ/ ١١٤٣م) بقيادة مونيو الفونسيز حاكم قلعة مورة السابق بغزو قرطبة كرد فعل لتفريطه فى الدفاع عن قلعة مورة، فانتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف نهر الوادى الكبير فى نواحى قرطبة، وتمكن من ايقاع الهزيمة بقوة من المرابطين يقودها واليا قرطبة واشبيلية لذين استشهدا فى ساحة المعركة، واستشهد معهما عدة آلاف من المسلمين(٣). وفى العام التالى (٥٣٨هـ/١١٤٤م) قامت حملة قشتالية جديدة بقيادة كل من مارتن فارناندیث ومونيو الفونسير لتحول دون قيام المسلمين بتحصين قلعة مورة، فخرج والى قلعة رباح فى قواته – وتسميه المصادر النصرانية فرج – واشتبك مع القشتاليين فى معركة هزم فيها القشتاليون وقر مارتن فرناندیث جريحا بينما سقط مونيو الفونسيز

---

(١) الوادى الاحمرهو المعروف اليوم باسمCuadalimar نهير من نهيرات الوادى الكبير ينبع من جبال شقورة، وهذا النهر يتكون من نهيرات صغيرة arroyos تمتلىء بالماء بعد المطر وتصبح مخاضات.

Diccionario Geogra Fico Espanol, X, 420 - 421.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٤ ، ص٨٥ ، ٨٦ ، ابن الخطيب، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج١ ، ص٤٥١، عنان المرابطين والموحدين ص ١٣٤ ، ١٣٥.

(٣) ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامى): نظم الجمان فى اخبار الزمان، نشر وتحقيق د. محمود مكى: الرباط ١٩٧٤م، ص ٢٤٤ عنان، المرجع السابق، ٥٠٧، اسباخ، تاريخ الاندلس، ص ١٨٣ ، ١٨٤.

صريعا وفصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده، وارسلت الى قرطبة واشبيلية لكى تعرض على زوجى الواليين القتيلين عزاء لهما، ثم حملت بعد ذلك الى أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف بمراكش، ثم ارسلت بقية جثة مونيو الفونسيز الى القشتاليين مقابل ارسالهم لرأس الواليين المسلمين(١).

ظل الصراع بين المرابطين والقشتاليين محتدما حول قلعة رباح الى ان تمكن الفونسو السابع(٢) ملك قشتالة من الاستيلاء عليها فى أواخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م)،

---

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص١٨٤ ، ١٨٥، عنان عصر المرابطين والموحدين ص ٥٠٧.

Lafonte: historia general de Espana, p. 291 - 292.

(٢) الفونسو السابع هو الفونسو (اذفونش) بن رمند Alfonso raimundez وأمه هى أراكه Urraca أبنة الفونسو السادس ملك قشتالة. وكانت اراكه قد تزوجت من كوند (كندسبينا) Condespina المسمى Gomes Gonzales وأنجبت أذفونس بن رمند Alfonso, Raimundes ثم مات هذا الكوند. وبعد موت الفونسو السادس ١١٠٩م سعى النبلاء حتى زوجوا أراكه هذه من الفونسو الأول ملك أراغون المعروف بالمحارب حتى تتحد أراغون وقشتالة، وقد تم الزواج فى سبتمر ١١٠٩م، وأصبح الفونسو الأول بالفعل ملك أراغون وقشتالة فأضاع هذا الزواج حق الفونسو ريموندس ابن أراكه وولى عهدها الشرعى ووريث الفونسو السادس الشرعى فقام أنصاره يطالبون بحقه وتم الانفصال بين الزوجين سنة ١١١٤م، وتم الاتفاق على أن يكون الفونسو المحارب ملكا على أرغون وقشتالة وتكون أراكه ملكة على ليون وجليقية وذلك بعد حروب طويلة، فلما ماتت أراكه خلفها أبنها الفونسو ريموندس بأسم الفونسو السابع، وقد سماه أهل الأندلس بالسليطين لأنه ولى عرش قشتالة صغير السن.

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين ص ٦٥ ابن الخطيب اعمال الأعلام، ق٢ ، ص ٣٣١، اشباخ، تاريخ الأندلس ص ٢٣١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ :

Dozy, Recherches sur L'histoire etlitterature de L'espagne pendant le Moyen age, Leiden 3 eme ed. ,p. 115-116

Aguado Bleye, Manual de la Historia de Espana, P. 617-619.

Miranda : Historia Politica del imperio Almohade, Tetuan 1957 p. 179, 183, 235.

فأحدث ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع الاندلسية، يخرج منها لمهاجمة المسلمين فى قلب الاندلس(١).

قلعة رباح فى عصر الموحدين:

سقطت دولة المرابطين على ايدى الموحدين سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م)، وفرض الموحدون سيادتهم على الاندلس وورثوا عن المرابطين عبء الجهاد ضد القوى النصرانية فى الاندلس، وقد تجدد الصراع الاسلامى النصرانى حول قلعة رباح، اذ كانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بهجماتها العنيفة، وكان الفونسو السابع ملك قشتالة قد عهد الى فرسان الداوية(٢) بالدفاع عنه، ولكنهم عندما ايقنوا بعجزهم عن الاحتفاظ بها ازاء تفوق القوات الموحدية، غادروها وردوها الى الفونسو السابع ملك قشتالة، وكان يوجد وقتئذ فى مدينة طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس ديرفيترو ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث وكان

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص٢٢٣، عنان، عصر المرابطين، ص ٣٧١ .

(٢) فرسان الداوية أو فرسان المعبد Templares تعتبر من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية. وقد أنشأت جماعة فرسان الداوية سنة ١١١٩م فى بيت المقدس عقب سقوطها فى يد الصليبيين وذلك لحماية الحاج الى قبر المسيح عليه السلام، وأفراد ملك بيت المقدس جناحا فى قصره ثم سلم اليهم المعبد المجاور له، ومنه استقوا اسمهم "فرسان المعبد" ونمت هذه الجماعة بسرعة واشتد ساعدها بمن انضم اليها من النصارى، ولعبت دورا هاما فى حوادث الحروب الصليبية سواء فى المشرق او فى الاندلس.
راجع: د.ابراهيم خميس سلامة "الداوية ودورهم فى الحروب الصليبية" رسالة ماجستير، نوقشت بكلية اداب اسكندرية ١٩٨٠م.

فارسا ظهر فى ميدان الحرب وربى فى البلاط، فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك الفونسو السابع لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح فى يد الموحدين، اعتزما ان يتوليا الدفاع عنها، وطلبا من الملك أن يعهد بها اليهما، فأجابهما الملك لما كان يعلمه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الناس، وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين والقى عظات دينية وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح، ولم يمضى سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين الف مقاتل، وامده كثيرون ممن لم يشتركوا فى الدفاع عن قلعة رباح باشخاصهم بالخيل والدواب والسلاح والمؤن والمال، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضرورى للدفاع عنها، ولذا وجد الموحدون انه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة قلعة رباح بعد تلك الاجراءات الى اتخذت للدفاع عنها(١).

رأى الراهب ريموند ان يكون من هؤلاء المقاتلين الذين دافعوا عن قلعة رباح وكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية ضد الاسلام جمعية اطلق عليها "جماعة فرسان قلعة رباح" وتألفت نواتها الاولى من رهبان ديرفيتور والذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم الى اللحاق برئيسهم ريموند بقلعة رباح وهم يحملون معهم كل ما فى الدير من متاع ومؤن وافره وطبقت على هؤلاء الفرسان النظم الحربية وانتخب الراهب ريمـوند كأول استاذ للجماعة وقد صادق البابا اسكندر الثالث(٢) على قيامها وتوالت

---

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٥١٩.

(٢) توفى البابا ادريان الرابع فى عام ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى لقب باسم اسكندر الثالث والذى ظل فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ – ١١٨١م) وحرص طولها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف. وقد كان البابا ==

عليها الهبات الضخمة من الملوك والامراء والافراد من انحاء الغرب الاوربى(١).

ظلت قلعة رباح محورا للصراع بين الموحدين والقشتاليين ففى شهر شعبان سنة ٥٦٨هـ (مارس ١١٩٣م) قام حاكم آبلة الكونت خمينو (المعروف بالاحدب)(٢) بعدة غارات مخربة ضد اراضى المسلمين حتى وصل الى احواز مدينة قرطبة، فأمر الخليفة الموحدى ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن على (٥٥٨-٥٨٠ هـ/١١٦٣-١١٨٤م) جيوش الموحدين بمطاردة الجيوش القشتالية التى كانت قد وصلت الى مكان يسمى فحص كركوى(٣) فى طريقهم الى قلعة رباح، فأحاطت بهم الجيوش الموحدين وألحق بهم هزيمة كبيرة وقتلوا الكونت خمينو واحتزوا رأسه وقتلوا جميع من كان معه ولم ينج الا نحو مائتى فارس.(٤)

= اسكندر الثالث وراء تحويل الصراع بين المسلمين والنصارى الى حروب صليبية تعتبر امتدادا للحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى.
راجع: عاشور (د.سعيد عبد الفتاح): اوربا العصور الوسطى الجزء الاول، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨م ، ص٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٥٣٧.

(١) اشباخ،تاريخ الاندلس،ص٢٦٨،عنان،عصر المرابطين والموحدين ص٥١٩،٥٢٠.
Montero : Laorden de calatrava 1959 p. 8, 15, 16-18.

(٢) الكونت خمينو ويعرف احيانا بالقومس الاحدب واحيانا بأبى برذعه واحيان شان منوش Sancho Jimeno ولقب بالاحدب اما انه كان كذلك أو من قبيل النبز بالالقاب، ولقب بأبى برذعه لأن له – على ما قيل برذعه من الحرير منسوجه بالذهب مكلله بأصناف الجوهر.
– ابن صاحب الصلاه، المن بالامامة، ص ٢٩٨، ابن ابى زرع، روض القرطاس ص ١٨٧، ابن خلدون، العبر، ج٦ ، ص ٥٠٠ – ٥٠١.

(٣) يقع حصن كركوى فى جنوب طليطلة وهو الذى يسمى الآن بـ Caracuel

(٤) ابن صاحب الصلاه، المن بالامامة، ص ٥١٨-٥٢٢، ابن عذارى، البيان المغرب،ج٥ ،ص١٢٤-١٢٦،عنان،عصر المرابطين والموحدين،ص ٨٧– ٨٨.
Miranda, Las Grandas Batallas de la Reconquista, Madrid 1956 P. 160 .

فى اوائل عام ٥٩١ هـ (١١٩٥م) خرج الخليفة ابو يوسف يعقوب المنصور(٥٨٠ - ٥٩٥ هـ/١١٨٤-١١٩٩م) للجهاد ضد القوى النصرانية، فعبر مضيق جبل طارق ووصل الى مدينة اشبيلية ومنها الى مدينة قرطبة فوصلها يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رجب سنة ٥٩١ هـ (الثلاثين من شهر يونيو سنة ١١٩٥م) ثم خرج من قرطبة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رجب (الرابع من شهر يوليو ١١٩٥م) متجها صوب قلعة رباح فأرسل فرقة من الجند لاستطلاع أحوال قلعة رباح، فخرج إليهم بعض فرسانها فأوقع الموحدون بهم هزيمة مريرة وتركوها على حد قول ابن عذارى ولائم للنسور والعقبان(١).

كان الفونسو الثامن(٢) ملك قشتالة قد علم بانباء عبور جيوش الموحدين الـــى

(١) راجع البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين، ص ٢١٨ ،٢١٩.

(٢) توفى القيصر الفونسو ريموندس فى اغسطس ١١٥٧م فقسمت مملكته بين ولديه، أختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية واشتوريش مع حق السيادة على مملكة البرتغال. مما ادى الى نشوب الحرب بين الاخوين ملكى قشتالة وليون وتمكن سانشو من ان يرغم اخيه على الاعتراف بسيادته وان يؤدى له الجزيه. وكان سانشو الثالث يطمح فى تكوين حلف من الممالك الاسبانية لمحاربة الموحدين، ولكن هذه الاحلام تحطمت بوفاة سانشو فى اواخر اغسطس ١١٥٨م، ولم يترك لوراثه عرشة سوى طفل فى الثالثة من عمره هو الفونسو الملقب بالنبيل وترك فى وصيته ان تقوم اسرة كاسترو الشهيرة بالوصاية عليه ولكن فرناندو الثالث ملك ليون سار الى قشتالة فى جيش ضخم كى يحمى ابن اخيه، واحتل قشتالة وأعلن انه يتولى الحكم والوصاية على ابن اخيه، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالى وذلك سنة ١١٩٥م، مما ادى الى حدوث صراع دموى عنيف بين اسرتى كاسترو ولارا

الاندلس، فحشد حشودا ضخمة، وارسل الى جميع ملوك وامراء اوربا يطلب سرعة ارسال الامدادات اليه وظل فى مدينة طليطلة حتى وصلت الامدادات اليه فاخترق وادى آنه متجها صوب قلعة رباح ومنها الى حصن الارك(Alarcos) الذى كان قد ابتناه النصارى على مقربة من قلعة رباح ليكون خط الدفاع الاول عن قلعة رباح ومدينة طليطلة.(١)

استمر الخليفة يعقوب المنصور فى سيره مخترقا قلعة رباح دون أن يستولى عليها حتى وصل الى المعسكر النصرانى عند حسن الارك، حيث دارت يوم الاربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (التاسع عشر من شهر يوليو ١١٩٥م) معركة الارك الشهيرة التى احرز المسلمون فيها انتصارا عظيما على الجيوش النصرانية ويصف ابن عذارى ما حدث للنصارى يوم الارك وصفا رائعا بقوله:"وأجلت الحرب عن حصيلة من القتلى كالزرع المحصود والصخر المنضود كابين على الوجوه لغير سجود ومستقلين على الجنوب دون هجود وكما يحشرون يوم النشور اذا بعثر ما فى القبور".(٢) وكان من أهم نتائج معركة الارك استيلاء الموحدين على قلعة رباح، اذ

===فانضم فرناندو الى اسره كاسترو، ولكن الامر انتهى بانتصار اسرة لارا التى تمكنت من اقتحام طليطلة ودعت جميع القشتاليين الى الالتفاف حول الملك الشرعى (الفونسو الثامن النبيل) وذلك سنة ١١٦٦م.

راجع : Dozy, Rech., p. 115-116; Huici Miranda, Historia, Politico 1 , p. 240 , 255 , 363.

(١) يصف الحميرى الارك بقوله:"هو حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون اذفونشى بالأندلس" ويسمى اليوم Santa Maria de Alarcos.

راجع: الروض المعطار، ص ٢٧ وهامش (٣) من نفس الصفحة.

(١) البيان المغرب، الجزء الخاص بالموحدين، ص٢١٩ ، ٢٢٠ وراجع ايضا ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٢٩ ، الحميرى، الروض المعطار، ص٢٧

هاجمها الموحدين وانتزعوها بعد قتال عنيف من ايدى فرسان قلعة رباح وقتل اثناء القتال استاذ الجماعة نونيودى فونتيس، وكان استرداد المسلمين لها بعد أن ظلت فى ايدى النصارى احدى وخمسون سنة وعشرة اشهر، وقد أمر الخليفة يعقوب المنصور بتطهير مسجدها الجامع الذى كان قد حول الى كنيسة، وادى شعائر الصلاة فيه، وقدم على قلعة رباح يوسف بن قادس(١).

معركة العقاب واستيلاء النصارى على قلعة رباح

توفى الخليفة يعقوب المنصور فى الثانى والعشرين من ربيع الاول عام ٥٩٥ هـ (الثانى والعشرين من شهر يناير عام ١١٩٩م) وتولى الخلافة الموحدية ولده محمد الملقب بابى عبد الله الناصر لدين الله (٥٩٥- ٦١٠ هـ/١١٩٩-١٢١٣م) فى نفس الوقت الذى أخذ الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة يتأهب لمحاربة المسلمين، فبدأ بتحصين قلعة مورة الواقعة على الحدود الاسلامية القشتالية تحصينا قويا سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) ثم سار فى جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح(٢) الى اراضى

===اشباخ، تاريخ الأندلس، ص ٣٣٣ - ٣٣٧ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢٠٠ - ٢١٤.

Miranda : Las Grandas Batallas Ip. 137 - 169

(١) ابن ابى زرع روض القرطاس، ص ٢٢٩؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٢٧؛ اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٣٦ ،٣٣٧ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢١٤؛

Miranda : Las Grandas Batallas, P. 171 - 172.

(٢) كان فرسان قلعة رباح قد احتشدوا فى قلعة شلبطرة الواقعة على مقربة من قلعة رباح، وكانوا قد لجأوا اليها منذ ان انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من ايديهم عقب معركة الارك، وكانت قلعة شلبطرة المنيعة فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل اراضى ==

المسلمين، فانتسف الحقول ونهب القرى وقتل السكان وسبى منهم جموعا كبيرة ثم عاد الى طليطلة، فالتقى مع ملكى نافار وأراجون ووثق معهما عهود الصلح وحصل منهما على وعد بتأييده لمواجهة المسلمين، واعتزم محو وصمة هزيمة الارك باحراز نصر كبير على جيوش الموحدين فى الاندلس، ولذا غزا فى عام ٦٠٧ هـ (١٢١٠م) اراضى الاندلس ووصل الى احواز مدينة مرسية(١). ثم عاد الى طليطلة مثقلا بالغنائم.(٢)

أعلن الخليفة محمد الناصر لدين الله الجهاد، وحشد حشودا ضخمة ثم عبر على رأس هذه الحشود الى الاندلس فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٦٠٧ هـ

===المسلمين، ومن ثم فقد آل الناصر على نفسه أن يفتتح غزاته بالاستيلاء على قلعة شلبطرة الحصينة.

راجع: ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٦.

(١) مرسية Murcia مدينة فى جنوب شرق الاندلس، تبعد عن البحر بنحو ٦٤ كم وميناؤها عليه تسمى قرطاجنة Cartagena واسم مرسية القديم هو تدمير نسبة الى تيودومير حاكم هذه المنطقة ايام الفتح العربى لاسبانيا وهو الذى عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى بن نصير احتفظ فيها بشىء من الاستقلال بهذه المنطقة الشرقية. وفى عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) تحولت هذه المنطقة الى كورة عادية قاعدتها اوريولة Orihuela وفى عام ٢١٦هـ (٨٣١م) اختطت مدينة مرسية أيام الامير عبد الرحمن الاوسط على يد جابر مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسية ان صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميث الكورة كلها باسمها. وبعد سقوط الخلافة الاموية بقرطبة استقل بحكم مرسية وكورتها المولیان العامريان الصقلبيان خيران وزهير ثم ضمت الكورة الى بلنسية ثم انفصلت عنها بعد ذلك على ايام المرابطين. وفى اواخر ايام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل واصبحت تسمى باسم مملكة مرسية. واخيرا سقطت فى يد ملك اراجون خايمى الاول سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م).
العذارى، ترصيع الاخبار، ص ١٠؛ ابن الابار، الحلة السيراء، ج١ ص ٦٣ ، ج٢ ، ص ٣١٦؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ١٨١-١٨٣.

(٢) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٥٤ - ٣٥٦، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(اوائل مايو ١٢١١م)، فنزل على الساحل الجنوبى للأندلس ثم اتجه صوب مدينة اشبيلية حيث استراح قليلا، ثم خرج من اشبيلية فى اوائل عام ٦٠٨ هـ (يوليو ١٢١١م) الى حصن شلبطرة الجبلى الحصين، ولبث الجيش الموحدى أمام هذا الحصن ثمانية أسابيع وهو ممتنع عليه، حتى اضطرت الحامية النصرانية المدافعة عنه الى التسليم وذلك فى اوائل ربيع الاول سنة ٦٠٨ هـ (اغسطس سنة ١٢١١م).(١)

ارسل الفونسو الثامن (النبيل) الى البابا انوسنت الثالث(٢) وسائر ملوك وامراء اوربا يدعوهم للاشتراك فى الحرب الصليبية ضد المسلمين فقد دعا الفونسو الثامن الى عقد مؤتمر فى مدينة طليطلة شهده بعض ملوك وامراء اوربا للدعوة الى اعلان الحرب المقدسة ضد المسلمين، فاجتمعت فى مدينة طليطلة حشود ضخمة من جميع

---

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٧، الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٤٤، اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٥٨،٣٥٧، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢٩١،٢٩٢.

(٢) تولى انوسنت الثالث الكرسى البابوى سنة ١١٩٨م، وقد امتاز بشخصية قوية مكنته من تحقيق كاما كانت تطمع فيه البابوية من سمو. وقد شبه انوسنت الثالث البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس، ولذا نادى بسيادة البابوية على الامبراطورية وعلى ايامه استولى الصليبيون على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، كما وضع مشروع الحملة الصليبية الخامسة على مصر كما بلغ نفوذ البابوية الروحى والفكرى والدنيوى ذروته فى عهد انوسنت الثالث فقد استطاع ان يلعب دوره بمهاره فى السياسة العالمية لغرب اوربا وان يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب - بل الشرق - المسحيين، كما كان صاحب الدور الكبير فى اثارة الحماسة الصليبية فى اسبانيا، وتشجيع جماعات عديدة من انحاء غرب اوربا لعبور جبال البرانس والمشاركة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين.
راجع: سعيد عاشور، اوربا العصور الوسطى، ج١ ، ص ٣٧٩، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٩٤، ٥٣٧، ٥٤٩.

انحاء اوربا، وليس أدل على الاهمية التى كان يعلقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الاندلس من اشتراك تلك الحشود الضخمة، وكون الالاف منهم كانوا يتقلدون الصليب بل ان البابا انوسنت الثالث امر بالصوم ثلاثة ايام والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش الصليبية، بل واقيمت الصلوات العامة، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات الى ارتداء السواد والسير حفاة، كما القى البابا انوسنت الثالث بنفسه موعظه صليبية طلب فيها الى النصارى أن يضرعوا الى الله التماسا لنصر النصارى(١).

سارت الجيوش الصليبية صوب اراضى المسلمين، فوصلت طلائعهم فى الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٩ هـ (الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٢١٢م) الى حصن مجلون فاستولوا عليه بعد أن قتلوا جميع افراد الحاميه الاسلامية المدافعه عنه، ويبدو أن الجيوش الصليبية أخذت تعانى من نقص المؤن فضلا عن ارتفاع درجة الحرارة، ففكر الكثير منهم فى العودة الى بلادهم، ولكن وصول الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة الى قلعة مجلون فى اليوم التالى للاستيلاء عليها، فهدأ من روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع ان يقنعهم بالمسير صوب قلعة رباح.(٢)

لقيت القوات الصليبية فى عبور نهر وادى آنه الذى يقع عليه قلعة رباح صعابا فادحة، اذ كان المسلمون قد احاطوها من ثلاثة جوانب بسلسلة حصينة من الخوازيق الحديدية، كما كانت القلعة مجهزة بالابراج العالية والاسوار المنيعة، فتكبدت القوات الصليبية افدح الخسائر خلال هذا الهجوم الصليبى، وقبل ان يعاود الصليبيون الهجوم

---

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص٣٦٠ ، ٣٦١.
(٢) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص٣٦١.

مرة اخرى عقدوا مجلس حرب للبحث فيما اذا كان من الافضل ان تقتصر الجيوش لصليبية على تطويق القلعة دون محاولة افتتاحها الا بعد خوض المعركة الحاسمة مع الجيوش الاسلامية، ولكن غلب الرأى بوجوب مهاجمة قلعة رباح، اذا كان من المعروف انها تحتوى اموالا طائلة وكميات كبيرة من المؤن والعتاد.(١)

كان ابو الحجاج يوسف بن قادس على رأس المدافعين عن قلعة رباح فى سبعين فارسا من انحاء المسلمين، فلما شددت القوات الصليبية حصارها لقلعة رباح، صمد يوسف بن قادس، وكان يرسل فى كل يوم كتابا الى امير المؤمنين محمد الناصر لدين الله يخبره بسوء احوال المدافعين عن القلعة ويستمده ليواصل صموده ضد الصليبيين، فكانت كتب ابن قادس اذا وصلت الى المعسكر الاسلامى منعها الوزير ابن جامع(٢)

---

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص٢٣٧، اشباخ، المرجع السابق، ص٣٦١ ، ٣٦٢، عنان، عصر المرابطين، ص٢٩٦.

(٢) بنو جامع أسرة خدمت الموحدين، واصلهم القديم من مدينة طليطلة، واول ما نسمع به منهم ابراهيم بن جامع، فقد نشأ بضيعة تسمى روطة Rota بساحل مدينة شريش على المحيط الاطلسى ثم انتقل ابراهيم هذا الى بلاد المغرب فتعرف بمحمد بن تومرت (مهدى الموحدين) فكان من اصحابه، وظل فى خدمة محمد بن تومرت ثم عبد المؤمن بن على حتى كان يعيش فى قصر عبد المؤمن وفيه ولد له ابنه ادريس الذى استوزره ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وكان لادريس هذا أخ يسمى عبد الله بن ابراهيم كان يتولى مدينة سبتة وجهاتها وقيادة الاسطول وفى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٦م) غضب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على ادريس واولاده ونفاهم الى مدينة ماردة الى ان صفح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠هـ (١١٨٣م). وقد انجب عبد الله ابن ابراهيم عددا من الاولاد كان ابرزهم ابو سعيد عثمان الذى تولى الوزارة للخليفة الموحدى محمد الناصر ثم لابنه أبى يعقوب يوسف الذى تلقب بالمستنصر بالله الى ان عزل سنة ٦١٥ هـ (١٢٢٨م) وقتل سنة ٦٢١هـ (١٢٢٣م).

ولا يطلع عليها الخليفة محمد الناصر فلما يئس ابن قادس من شدة الحصار ونفذت المؤن والعتاد وخشى ان يقتحم الصليبيون القلعة ويستولون عليها عنوة، ارسل سرا وتحت جنح الظلام الى الفونسو الثامن ملك قشتالة يعرض عليه تسليم القلعة مقابل منح الامان للحامية الاسلامية والسماح لها بالانسحاب بسلاحها. وكان الفونسو الثامن يميل الى هذا الحل السلمى كى يستولى على قلعة رباح دون اراقه دماء، ولكن حلفاءه من الارجونيين والمحاربين الوافدين رفضوا هذا العرض السلمى، ولكنهم اضطروا الى قبول هذا العرض السلمى عندما ابدى المسلمون عزمهم على الصمود والمقاومة، وقد تم الاتفاق على انسحاب الحامية الاسلامية دون سلاح، فدخلها النصارى وسلمت الى جمعية فرسان قلعة رباح(١).

سار ابو الحجاج يوسف بن قادس بحامية قلعة رباح وبصحبته صهره الى الخليفة محمد الناصر لدين الله، وطلب يوسف بن قادس من صهره الرجوع قائلا: "ارجع فانى والله مقتولا لا محالة، ولا أعيش بعدها ابدا، لكنى بعت نفسى من الله تعالى بسلامة من كان فى الحصن من المسلمين" فأبى صهره الرجوع، فلما وصلا الى معسكر الخليفة محمد الناصر لدين الله، اقبل عليهما قواد الاندلس مرحبين ومهنئين ولكن الوزير ابو سعيد عثمان بن جامع أمر بسرعة القبض عليهما واغرى الخليفة محمد

===عن اسرة بنى جامع راجع: حمدى عبد المنعم محمد حسين، اسرة بنى جامع ودورها فى عصر الموحدين فى المغرب والاندلس، مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية، العدد (٤١) سنة ١٩٩٢م.

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص٢٣٧ ، المراكشى، المعجب، ص٢٨٥ ، ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين، ص ٢٣٥، الحميرى الروض المعطار، ص ٤١٦، اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ عنان عصر المرابطين والموحدين، ص٢٩٦-٢٩٧؛

Miranda : Las grandas Batallas , P. 242 - 245.

الناصر بهما حتى أمر بقتلهما، فقتلا فى الحين دون سماع دفاعهما مما ادى الى انتشار السخط بين قواد الاندلس، فلما علم الوزير ابو سعيد عثمان بن جامع بذلك استدعى هؤلاء القواد وطلب منهم اعتزال الجيش الموحدى وقال لهم قول الله تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولا وضعوا خلالكم" كما أن الخليفة محمد الناصر لدين عندما علم بسقوط قلعة رباح وهى امنع ثغور المسلمين فى مواجهة النصارى، شق عليه ذلك حتى امتنع عن الطعام والشراب مما ادى الى اصابته بالمرض.(١)

كما كان لسقوط قلعة رباح فى ايدى الصليبيين تأثيره البالغ على المعسكر النصرانى، وذلك ان المحاربين الوافدين غضبوا لخروج الحامية الاسلامية دون اراقه دماء، وحقدوا على الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة لأنه حرمهم من الغنائم ولاسيما أنه عندما دخل قلعة رباح وجد كميات كبيرة من المؤن فوزعها بالتساوى على جميع المحاربين الصليبيين وقد زعموا أن الفونسو الثامن استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس التى عثر عليها بقلعة رباح، فأعلنوا رغبتهم فى العودة الى بلادهم متعللين بارتفاع درجة الحرارة فى أسبانيا وبأنهم اوفوا بعهدهم فى قتال المسلمين بما خاضوه من معارك أمام اسوار ملجون وقلعة رباح وقد ايدهم فى ذلك اعظم احبارهم مطران بوردو، فتركوا المعسكر الصليبى عائدين الى بلادهم ولم يبق منهم سوى ارنولد آسقف اربونة، والكونت تيوبولد بلاسكون وهو اسبانى المولد، وكانا قد أتيا الى اسبانيا على رأس مائة وخمسين فارسا وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل غاضبين، وقد خشى النصارى عواقب اعتدائهم ونهبهم فأغلقوا فى وجههم جميع المدن الاسبانية.(٢)

---

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٢) المراكشى، المعجب، ص٢٨٦، الحميرى، نفسه، ص ٤١٦، أشباخ، نفسه ص٣٦٣ ، ٣٦٤، عنان، نفسه، ص٢٩٧.

وعلى أثر سقوط قلعة رباح غادر الخليفة محمد الناصر على رأس جيشه مدينة جيان وسار الى الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير نحو مدينة بياسة بينما احتلت سريات من خيرة جنده ممرات جبال الشارات (سييرامورينا) ومنها ممر لوسا الوعر حيث نزلت الجيوش الموحدية وقد دارت معركة من أهم معارك الصراع بين المسلمين والصليبيين تسمى فى المصادر العربية باسم معركة العقاب(١) بينما تسمى فى المصادر النصرانية باسم معركة ناڤاس دى تولوسا Navas de tolose وذلك يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ (السادس عشر من شهر يوليو ١٢١٢م) انتهت بهزيمة مريرة للمسلمين(٢). وقد اجمع المؤرخون على أن سقوط قلعة رباح فى ايدى النصارى كان من أهم أسباب نكبة العقاب لأن قواد الاندلس الذين غضبوا لما حدث ليوسف بن قادس وموقف الوزير ابى سعيد عثمان بن جامع وتوبيخه لهم قد تخاذلوا خوفا من أن يحدث لهم ما حدث لابن قادس(٣) كما كان لسقوط قلعة رباح

---

(١) العقاب قرية من قرى الاندلس تقع بين جيان وقلعة رباح وتعرف اليوم باسم لاس ناڤاس دى تولوسا، Las Navas de Tolosa وسمى هذا الموضع باسم حصن العقاب الذى اقامه الامويون فى نفس الموضع، وقيل سمى بهذا لوقوعه بين التلال والربى المانعه.
راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٤١٦.

(٢) عن معركة العقاب راجع:
ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٨ - ٢٤٠، الحميرى، الروض المعطار، ص٤١٦، اشباخ، تاريخ الاندلس، ٣٦٥، ٣٦٦، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص٢٩١ - ٣٢١، العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص١٧٣ - ١٧٧.
Miranda Historia politica. vol. 11, po 101 - 110 .
Las Grandas Batallas p. 265 - 278

(٣) أما اسباب هزيمة العقاب فمنها ما يلى:
١-تغير قلوب الموحدين وسخطهم على الوزراء لتأخر صرف رواتبهم وأعطياتهم، اذ كان المتبع منذ ايام الخليفة ابى يعقوب المنصور أن يمنح

أكبر الاثر فى سيطرة النصارى على اهم الثغور الاسلامية المدافعة عن الاندلس، ولم يكتب لقلعة رباح أن تعود مرة أخرى للسيادة الاسلامية.

=== العطار للجند كل اربعة اشهر دون تأخير، ولكن العطار اصبح يتأخر فى عهد الخليفة محمد الناصر، فنسب الجند ذلك الى الوزراء، فخرجوا للغزو وهم كارهون وقد ضعفت روحهم المعنوية.

راجع: المراكشى، المعجب، ص٣٢١ ، ٣٢٢، الحميرى، الروض المعطار ص١٧٤ ،١٧٥، عنان، عصر الموحدين، ص ٣١٨، العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، ص ١٧٤ ، ١٧٥.

٢-اختلال نظام الامدادات نظرا لابتعاد الجيوش الموحدية عن قواعدها مسافات طويلة، فضلا عن اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد، وعدم اتساق تنظيماتها وتنافر العناصر المكونة منها، وعدم توحيد قيادتها بايدى قادة يتسمون بالبراعة العسكرية.

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص٢٦٠ ، ٢٦١.

٣-حركة التطهير الشاملة التى اجراها الناصر قبيل معركة العقاب ضد الفساد وسوء الادارة واقصاء العمال الظلمة والمرتشين فى جميع انحاء دولته. وقد نكب فى هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها على يد صاحب الاشغال ابو محمد ابن ابى على بن مثنى.

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣ ، ص٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ : العبادى، دراسات، ص١٧٥.

٤-ارتفاع الروح المعنوية للجند النصرانى واتحاد كلمتهم وتلقيهم البركة والغفران البابوى على يد الأساقفة ورجال الدين، فقد حشدت قوى النصرانية كلها ضد اسبانيا المسلمة واتخذت الحرب الصليبية شكلها الحقيقى.

راجع: اشباخ تاريخ الاندلس، ص٣٦١ ، ٣٦٢.

٥-استبداد الناصر بالامر، وعدم استرشاده بآراء اشياخ الموحدين فى تسيير شئوون الدولة الكبرى، حتى انه رفض نصح الشيخ ابى محمد عبد الواحد حينما استشاره فى شئوون الاندلس، بألا يسير الى غزوته الكبرى التى انتهت بنكبته فى موقعة العقاب.

راجع: ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ١٥٧ ، السلاوى، الاستقصاء ج٢، ص١٩٧ ، ١٩٨، اشباخ، تاريخ الاندلس ص٣٥٠، العبادى، دراسات، ص١٧٤.

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر العربية

(١) ابن الأبار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى)

ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م

-الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس

الطبعة الاولى، فى جزئين، القاهرة ١٩٦٣م.

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الجزرى)

ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م

-الكامل فى التاريخ، طبعة القاهرة ١٣٥٧هـ .

(٣) الادريسى (ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف)

ت حوالى ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤م

-صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الافاق، نشره وترجمه الى الفرنسية دوزى ودىغوية ليدن ١٨٦٦م.

(٤) ابن بسام (ابو الحسن على الشنترينى)

ت ٥٤٣ هـ/١١٤٧م

-الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د.إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩م.

(٥) البيذق (ابو بكر بن الصنهاجى)

ت فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر ١٩٧٤م.

(٦) ابن حزم (ابو محمد على بن أحمد بن سعيد)

ت ٤٥٦ هـ/١٠٦٤م

-جمهرة انساب العرب، وتحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.

(٧) الحميرى (ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجى)

ت بعد عام ٨٦٦ هـ (١٤٦١م)

الروض المعطار فى خبر الاقطار

تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.

(٨) ابن حيان (ابو مروان حيان بن خلف)

ت ٤٦٩ هـ (١٠٧٩م

-المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس

نشرة الاب ملشور انطوانية، باريس ١٩٣٧م

المقتبس فى أخبار بلد الاندلس

نشر وتحقيق د. عبد الرحمن الحجى، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥.

-المقتبس من انباء أهل الاندلس.
نشر وتحقيق د. محمود على مكى، بيروت ١٩٧٣م
-المقتبس (الجزء الخامس)
نشر بدرو شالميتا وكورينطى ومحمود صبح، نشر المعهد الاسبانى العربى للثقافة بالاشتراك مع كلية الاداب بالرباط، مدريد ١٩٧٩م.

(٩) ابن الخطيب (لسان الدين عبد الله محمد)
ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م.
-اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام.
-الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشره ليفى بروفنسال باسم تاريخ اسبانيا الاسلامية، الرباط ١٩٣٤م.
-اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام.
-الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، نشرة د.احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤م.
-الاحاطة فى اخبار غرناطة.
نشر أ.محمد عبد الله عنان، فى اربعة اجزاء القاهرة ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ م.

(١٠) ابن خلدون (ابوزيد عبد الرحمن بن محمد)
ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م
العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٦٨م.

(١١) ابن ابى زرع (ابو الحسن على بن عبد الله الفاسى)

ت ٧٢٦ هـ /١٣٢٥ م.

الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نسخة حجرية، طبعة تونس ١٣٢٩ هـ

(١٢) ابن سعيد المغربى (ابو الحسن على بن موسى)

ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٢٥م

: المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د.شوقى ضيف فى جزئين، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٥٣ – ١٩٥٥م.

(١٣) ابن صاحب الصلاة (عبد الملك)

كان حيا سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م)

–كتاب المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين.

السفر الثانى، تحقيق عبد الهادى التازى، بيروت ١٩٦٤م

(١٤) ابن عذارى المراكشى (ابو العباس احمد بن محمد)

كان حيا ٧١٢هـ/١٣١٢م.

–البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب.

–الجزء الاول والثانى، نشر كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

-الجزء الثالث، نشر ليفى بروفنسال، دار الثقافة بيروت، بدون تاريخ.

-الجزء الرابع الخاص بتاريخ المرابطين، نشر احسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.

-الجزء الخامس، الخاص بعصر الموحدين وبداية عهد بنى مرين، نشر وتحقيق محمد ابراهيم الكتانى ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر، وعبد القادر زمامة، دار الثقافة الدار البيضاء، الطبعة الاولى ١٩٨٥م.

(١٥) العذرى (ابو العباس احمد بن عمر بن انس المعروف بأبن الدلائى)

ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.

- نصوص من الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك. تحقيق د.عبد العزيز الاهوانى، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥م.

(١٦) ابن غالب (الحافظ محمد بن ايوب الاندلسى)

عاش فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)

:قطعة من كتاب فرحة الانفس فى تاريخ الاندلس تحقيق د. لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية. المجلد الاول الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م.

(١٧) ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامى)

ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م

-نظم الجمان فى أخبار الزمان نشر وتحقيق د. محمود على مكى، الرباط ١٩٦٤م.

(١٨) ابن القوطية (ابو بكر محمد بن عمر القرطبى)

ت ٣٦٧هـ/ ١٩٧٧م

-تاريخ افتتاح الاندلس. تحقيق عبد الله انيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م.

(١٩) ابن الكردبوس (ابو مروان عبد الملك التوزرى)

:تاريخ الاندلس، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء فى اخبار الخلفاء، تحقيق د. احمد مختار العبادى، مدريد ١٩٧١م.

(٢٠) المراكشى (عبد الواحد بن على)

ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م

-المعجب فى تلخيص أخبار المغرب.

نشر الاستاذان محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، القاهرة ١٩٤٩ م.

(٢١) المقرى (شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد التلمسانى)

ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م.

-نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق الاستاذ محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩

(٢٢) مؤلف مجهول (عاش فى القرن الرابع الهجرى)

-اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، نشره دون لافونتى القنطرة، مدريد ١٨٦٧م.

(٢٣) مؤلف مجهول

-الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية.

-عنى بنشره السيد البشير الفورتى، تونس، ١٣٢٩هـ

(٢٤) مؤلف مجهول

-مدونة تاريخية من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر نشرها ليفى بروفنسال وغرسية غومس تحت عنوان:-

Una cronica anonima de ABD- Al - Rahman 111, Al- Nasir, Por Ievi Provencal, Emillio Garcia Gomez Madrid, Granada, 1950

(٢٥) النويرى (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى)

ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.

-نهاية الأرب فى فنون الأدب - الجزء الثانى والعشرين نشر جاسبار راميرو، غرناطة ١٩١٦ - ١٩١٧م.

ثانيا : المراجع العربية الحديثة:

(١) إشباخ (يوسف)

-تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨م.

(٢) حسين (د. حمدى عبد المنعم محمد)

-دولة بنى برزال فى قرمونة مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٠م.

-اسرة بنى جامع ودورها فى عصر الموحدين فى المغرب والاندلس.

-مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية . العدد( ) ١٩

(٣) سالم (د. السيد عبد العزيز)

-تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس، بيروت ١٩٦٢م.

-قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس، جزءان، بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٢م.

(٤) عاشور (د. سعيد عبد الفتاح)

-اوربا العصور الوسطى، الجزء الاول.

-التاريخ السياسى، الطبعة السابعة ١٩٧٨م.

(٥) العبادى (د.احمد مختار)

: دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس،

الطبعة الاولى، الاسكندرية ١٩٦٨م.

(٦) عنان (أ. محمد عبد الله)

-دولة الاسلام فى الاندلس، فى قسمين،

الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٠م.

-دول الطوائف

الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٩م.

-عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس الطبعة الاولى،

القاهرة ١٩٦٤م.

(٧) مؤنس (د.حسين)

-فجر الاندلس، دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى الى قيام

الدولة الاموية، الطبعة الاولى القاهرة ١٩٥٩م

ثالثا : المراجع الاوربيـــة:

Aguado Bleye:

Manual de la historia de Espana T, I, Madrid, 1947

Arellano - R.Ramirez de :-

Historia de cordoba, ciudad real, 1915 - 1919.

Dozy- R.

Histoire des Musulmans d'Espagne, 3, vols, Leyden 1932

Recherches Sur l'Histoire et Litteratur de l'Espagne pendant le Moyen age, leyden, 1886.

Lafuente-M.

Historia general de Espana, Barcelona, 1899.

Levi-Proencal

Histoire de l'Espagne Musulmanes 3 vols, Pais, 1950.

Miranda-Ambrasio Huici

la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, Annee, 1953, tome, XL, Paris.

Las Grandas batallas de la Rwconquista, Madrid, 1956.

Political del imperio Almohade-tetuan 1957 Historia.

Prieto y vives-Antonio:

Los reyes de taifas, Estudio Historico Musulmanes espanoles en el siglo v de la hegria, Madrid, 1926.

Pidal-Ramon Menendez:

Espana del cid, Madrid, 1947.

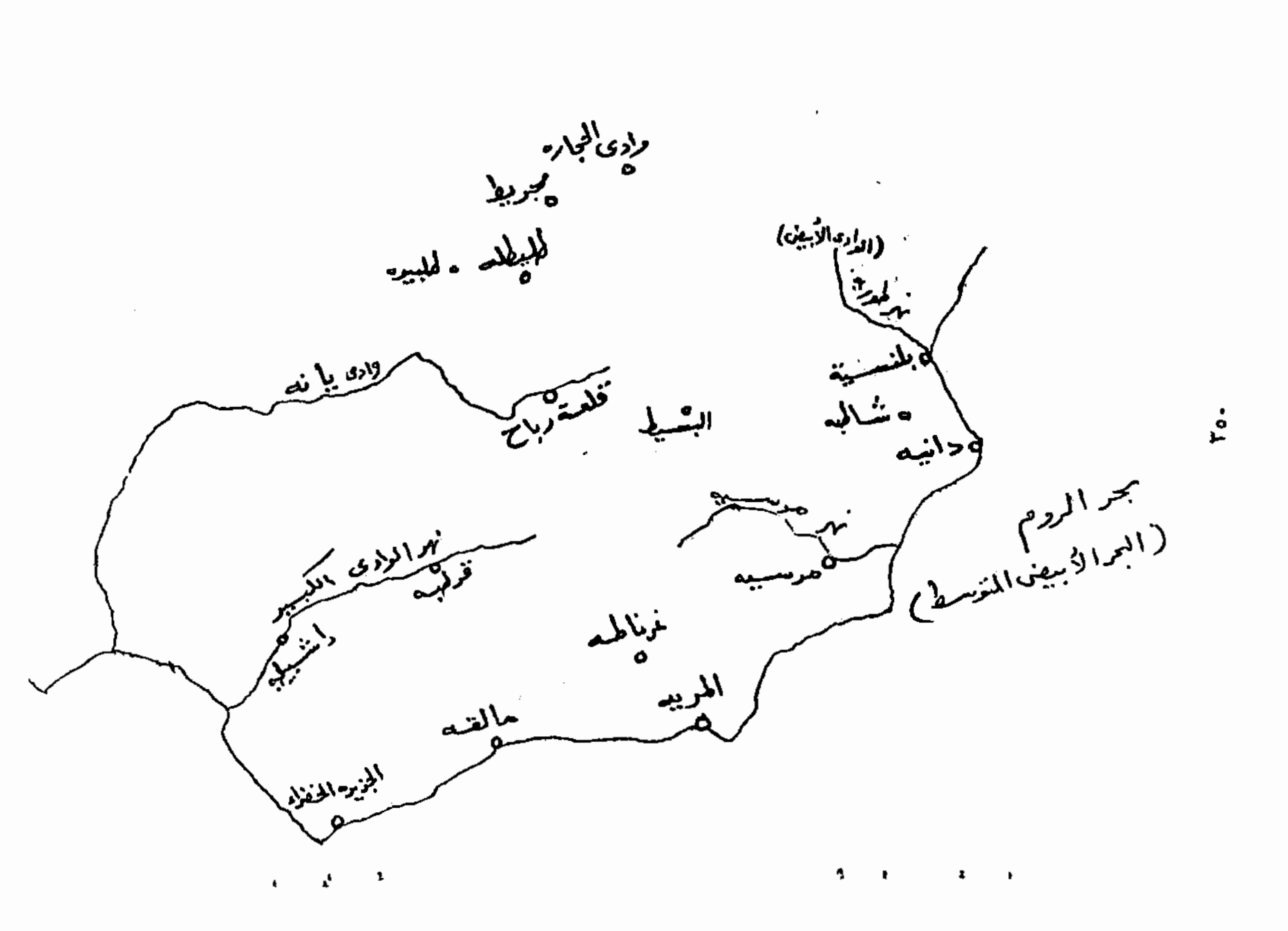
وادى الحجاره
مجريط
طليطله
طلبيره
(الوادى الأبيض)
نهر طوريه
بلنسية
شاطبه
دانيه
وادى يانه
قلعة رباح
البسيط
نهر مرسيه
مرسيه
بحر الروم
(البحر الأبيض المتوسط)
نهر الوادى الكبير
قرطبه
اشبيليه
غرناطه
المريه
مالقه
الجزيره الخضراء

الصراع الزيدى العثمانى فى اليمن
(١٥٣٨-١٥٧٤م)

د. هانى مهنا
أستاذ مساعد فى التاريخ الحديث
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الآداب - قسم التاريخ

الصراع الزيدى العثمانى فى اليمن
(فى الفترة ١٥٣٨ - ١٥٧٤ م)

إن إستقراءنا لحقيقة الصراع الزيدى العثمانى فى الفترة ١٥٣٨/١٥٧٤م من مراحل التاريخ اليمنى الحديث، يوضح لنا أنه كان صراع مصالح وإستراتيجيات أكثر منه صراعا عقديا مذهبيا. فعلى الرغم من الإختلاف المذهبى بين العثمانيين الأحناف الزيديين الشيعة، إلا أن هذا الاختلاف لايمثل عاملا جوهريا من عوامل الصراع الدموى الذى كان محتدما بين الطرفين فى هذه الفترة. ولتوضيح ذلك نرى انه من المفيد فى دراستنا هذه أن نلقى بعض الضوء على ما حققه الزيديون قبيل فتح العثمانيين لبلاد اليمن سنة ١٥٣٨م. فقد نجح الإمام شرف الدين وأبناؤه، وفى مقدمتهم المطهر بن شرف الدين من أن يسيطروا على أغلب المناطق اليمنية مستغلين بذلك تضعضع القوتين الأخرتين اللتين كانتا قائمتين فى البلاد ألا وهما قوة الطاهريين فى عدن والمناطق الجنوبية، وقوة المماليك فى زبيد وما حولها[١]. فما أن أعلن فى صنعاء عن سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧م فى مصر على يد العثمانيين، حتى سارع زعيم المماليك فى بلاد اليمن الاسكندر بن محمد باعلان دخوله تحت التبعية العثمانيةالأسمية[٢] وانسحب بقواته من صنعاء متجها إلى زبيد مخلفا وراءه حامية صغيرة بها[٣]. ومن الطبيعى أن ينتهز الإمام شرف الدين هذه الفرصة ليوسع ممتلكاته، فسارع بإرسال قواته إلى صنعاء، حيث نجحت هذه القوات فى السيطرة عليها سنة ١٥١٧م[٤]. وأخذت المناطق اليمنية الأخرى تتساقط تباعا، ففى سنة ١٥٢٠م سيطر الإمام على ذى مرمر بعد أن سلمها عامل الطاهريين بها، وفى سنة ١٥٢٢م سقطت منطقة عمران وبعض مناطق بلاد همدان وفى سنة ١٥٢٨م سقطت

كل من خولان والمقرانه والفارد ووررداع. وفى سنة ١٥٣٤م سيطرت جيوش الإمام بقيادة المطهر على مدينة تعز. بل إن قوات الإمام حاولت إسقاط كل من زبيد آخر معاقل المماليك فى بلاد اليمن، وعدن مرتكز الطاهريين الحصين، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل لإحكام المماليك خطة دفاعهم عن زبيد باغراق السبل المؤدية إليها بالماء وذلك لإعاقة حركة الجيوش الزيدية، وجعلها هدفا سهلا للقوات المملوكية المدافعة. كما فشلت محاولات الزيديين فى اسقاط عدن لمناعة هذه المدينة الطبيعية، وسهولة الدفاع عنها لمن فى داخلها(٥).

ولم تقتصر حروب الإمام شرف الدين وابنائه على المماليك والطاهريين، بل تعدتها إلى بعض الزعامات المحلية المناوئة لحكم الإمام كحربهم للسيد عز الدين بن الحسن المؤيدى صاحب مدع وكحلان، وحربهم للأمير عبد الله الشويع أحد أمراء منطقة الجوف(٦) وحربهم للداعى حسين بن إدريس بن عبد الله زعيم طائفة الإسماعيلية ببلاد اليمن(٧)، وقد أسفرت جميع هذه الحروب – فى محصلتها النهائية – لصالح الإمام شرف الدين.

فما أن وصلت حملة سليمان باشا الخادم إلى أرض اليمن سنة ١٥٣٨م، إلا وكان الإمام شرف الدين وأبناؤه يسيطرون فعليا على معظم مناطق اليمن. ومن البديهى إذا أن يقف الإمام شرف الدين ومن خلفه أبناؤه والزيديون – من القادمين الجدد (العثمانيون) – موقف المعادى المتربص حيث أن قدوم العثمانيين هذا من شأنه أن يحرم الإمام شرف الدين وأبناؤه بصفة خاصة من حلم إنشاء دولة تحت زعامتهم تشمل معظم المناطق اليمنية، كما أنه من شأنه أن يحرم الزيديون بصفة عامة من حلم طالما داعب مخيلتهم، ألا وهو السيطرة على المناطق الجنوبية والتهائم الأكثر غنا وثروة من مناطق سكنى الزيديين(٨).

وفى المقابل، كان العثمانيون قد قدموا إلى بلاد اليمن لخدمة غرض أكبر من مجرد السيطرة على هذه البلاد وجعلها إحدى إيالات الدولة المترامية الأطراف. فقد كان هاجس العثمانيين مواجهة الغزو البرتغالى للبحار الشرقية، وحماية الأماكن المقدسة التى كانت عرضة لتهديدات متكررة من السفن البرتغالية[٩]. والأمر كذلك كان لابد للعثمانيين بعد سيطرتهم على السواحل اليمنية من الإطمئنان على سلامة الجبهة الداخلية لبلاد اليمن، والعمل على إستئصال كل ما يعوق تحقيق هذا المطمح، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت أنذاك فى عنفوان قوتها، وليس أضمن للعثمانيين من تحقيق وحدة الجبهة اليمنية إلا إحكام السيطرة الفعلية على كافة المناطق اليمنية. ولتحقيق هذا الغرض انتهج العثمانيون سياسة يمكن لنا أن نصفها تجاوزا بسياسة المراحل. وقد تناغمت هذه السياسة مع الإستراتيجية العسكرية – كما نتصورها – التى إنتهجها العثمانيون لمواجهة أخطار تغلغل البرتغاليين داخل البحر الأحمر.

فالمرحلة الأولى

كانت تقضى بأن يكتفى العثمانيون بإحكام السيطرة على أهم المناطق الساحلية اليمنية، وتثبيت دعائمهم فيها، مع إشعار البرتغاليين بمدى حجم القوة العثمانية فى بلاد اليمن، وهذا بدوره سيؤدى إلى رفع معنويات المسلمين فى المناطق المتأثرة بالوجود البرتغالى.

والمرحلة الثانية

كانت تقضى بتصفية القوى السياسية المحلية فى المناطق اليمنية الداخلية، حتى لا تشكل هذه القوى أى خطر مستقبلى على نفوذ العثمانيين فى المناطق الساحلية. ولما كان الزيديون الممثلون بأسرة الإمام شرف الدين هم القوة السياسية المحلية ذات الوجود السياسى الملموس، كان لابد للعثمانيين من الدخول فى صراع حتمى معها.

على ضوء هذا التصور أجدنى منساقا نحو الإعتقاد بأن هدف الحملة العثمانية سنة ١٥٣٨م الأساسى لم يكن من قبيل منازعة البرتغاليين السيطرة على البحار الشرقية أو الدخول معهم فى حروب تصفية وإزاحة بقدر ما هو إحكام لسيطرة العثمانيين على بلاد اليمن بما يعنيه ذلك من تصفية للكيانات السياسية المحلية القائمة آنذاك. وذلك لاتساق هذا العمل – كما ذكرنا سابقا – مع غيره من الأحداث التى تمثل الإستراتيجية العسكرية العثمانية لمواجهة البرتغاليين فى البحار الشرقية.فقد كانت هذه الإستراتيجية – كما أحسبها – تقضى بأن ينتهج العثمانيون سياسة دفاعية فى صراعهم مع البرتغاليين يدفعهم إلى ذلك أن القوة العثمانية فى أساسها قوة برية(١٠)، مع الاعتراف بأنه قد كان للعثمانيين أساطيل قوية فى حوض البحر المتوسط، وأنها نجحت فى تحقيق العديد من الإنتصارات البحرية(١١)، إلا أن الأمر يختلف كثيرا إذا ما سُلطت الأضواء على البحار الشرقية، حيث إن الوجود العسكرى البحرى العثمانى محدود جدا، فى المقابل كان البرتغاليون – وهم فى أساسهم بحريو القوى – قد نجحوا منذ سنة ١٥٠٥م فى تأسيس مستعمرة لهم بساحل المليبار، مع ما يعنيه ذلك من وجود عسكرى بحرى قوى(١٢). لذا فإن السيطرة العثمانية على بلاد اليمن، ومن ثم السيطرة على سواحل افريقيا الشرقية المطلة على البحر الأحمر من شأنه أن يحول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية(١٣)، وهذا ما شرع العثمانيون فى تحقيقه منذ السنوات الأولى لإستيلائهم على بلاد اليمن.

ولتحقيق المرحلة الأولى من هذه السياسة العثمانية، غادرت حملة سليمان باشا الخادم السويس سنة ١٥٨٣م بعد إكمال الترتيبات اللازمة فى طريقها إلى اليمن(١٤). ونجح الخادم فى السيطرة على عدن بعد اعماله الحيلة حيث غدر بسلطان الطاهريين عامر بن داؤود فقتله مع بعض من وزرائه(١٥). وبعد أن إطمئن الخادم إلى استتباب

الأمر له فى عدن ترك بها حامية تقدر بنحو ٥٠٠ جندى وعين لها حاكما عثمانيا ثم إتجه إلى الهند. وفى الهند ساهمت الحملة فى محاصرة حصن ديو الذى كان تحت سيطرة البرتغاليين، إلا أنه قبل سقوط الحصن عاد إلى السواحل اليمنية، حيث أكمل سيطرة العثمانيين على هذه السواحل فدانت الشحر لهم حيث أعلن حاكمها بدر بو طويرق دخوله تحت التبعية العثمانية، فى المقابل تم تعيينه حاكما على المنطقة الممتدة من حضرموت إلى ظفار. ثم سقطت منطقة المخا فى يد العثمانيين بعد أن غدر الخادم بأميرها المملوكى الناخوده أحمد فقتله مع بعض عبيده. كما سيطر الخادم على جيزان بعد طرده لعامل شريف مكة أبو نمى عليها، وتعيين عامل لها من قبله، وجعلها تابعة لمنطقة زبيد تأتمر بأمر حاكمها، وقبل ارتحال الخادم عن بلاد اليمن، أوصى نائبيه فى زبيد وعدن بضرورة اخضاع منطقة تعز للحكم العثمانى(١٦)، لتكتمل بذلك المرحلة الأولى من مراحل سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المرحلة من مراحل السيطرة العثمانية على بلاد اليمن لم تخل من الإحتكاك العسكرى مع قوة الزيديين المسيطرة على منطقة تعز. فقد حاول العثمانيون عملا بتعليمات الخادم إسقاط بعض الحصون القريبة من زبيد كحصن قوارير، كما عملوا على إسقاط منطقة تعز، إلا أن الزيديين نجحوا فى الدفاع عن ممتلكاتهم هناك وتكبيد العثمانيين خسائر فادحة إضطرتهم للإنسحاب إلى زبيد مخلفين ورائهم بعض المدافع والأثقال(١٧).

لقد ظل العثمانيون يتحينون الفرص لإخضاع ما تبقى من بلاد اليمن تحت سلطانهم، والإجهاز على القوة الزيدية القائمة فى المناطق الداخلية. وقد تهيأت لهم الظروف فى سنة ١٥٤٦م حينما دب النزاع داخل أسرة الإمام شرف الدين، وتفاقم للدرجة التى دفعت المطهر بن شرف الدين لأن يكاتب القبائل الموالية للإمام يخبرها

بخلع عصى الطاعة عن والده. وكانت ثالثة الأثافى استدعاء المطهر أويس باشا الوالى العثمانى فى زبيد ليحثه على مهاجمة صنعاء، ويعده بالمساعدة لتحقيق ذلك. ومن الطبيعى أن ينتهز اويس باشا هذا الظرف، فزحف بقواته نحو صنعاء عن طريق ذمار، وبعد قليل من المعوقات نجح العثمانيون بقيادة ازدمر – الذى تولى قيادة القوات العثمانية بعد مقتل اويس باشا – فى السيطرة على مدينة صنعاء(١٨)، ليمد بذلك سلطان العثمانيين إلى المناطق الداخلية، وليقلص من أملاك الزيديين فى البلاد لتنحصر فى المناطق الجبلية الوعرة كثلا وكوكبان وغيرهما. ومن المفارقات الغريبة أن المطهر بن شرف الدين هو الذى تولى أمر الدفاع عن صنعاء أمام الزحف العثمانى، وذلك بعد أن تنازل له والده وأخوته عنها مقابل توليه أمر هذا الدفاع، وأبرم بين الطرفين إتفاق بهذا المعنى(١٩) إلا أن هذا الإتفاق حمل فى طياته بذور الخلاف والشقاق. فما أن بدأ المطهر فى إعداد العدة لمواجهة الزحف العثمانى حتى أخذ إخوته بالفشل والتخاذل.

ولم يكتف على بن شرف الدين بالإنسحاب إلى حصنه فى ذى مرمر، بل عمل على إستمالة القبائل التى كانت قد دخلت تحت طاعة المطهر للخروج على هذه الطاعة، بل وتحريض العثمانيين أنفسهم المتربصين فى ذمار للتقدم لحرب المطهر. بل إن سقوط صنعاء نفسها تم عن طريق خيانة أحد القائمين على حماية مداخلها الأساسية، بالسماح للعثمانيين بالدخول من ذلك المدخل إلى داخل المدينة. كذلك إنسحب شمس الدين بن شرف الدين إلى حصن كوكبان مضعفا بذلك فرص حماية صنعاء من مهاجميها(٢٠).

أمام هذا التخاذل من قبل إخوة المطهر، وأمام ثقل الحصار العثمانى للمدينة، آثر المطهر الإنسحاب من صنعاء إلى منطقته الحصينة ثلا. فسقطت صنعاء بعد سبعة

أيام من الحصار الشديد. وقد آثر إزدمر باشا متابعة المطهر إلى ثلا وحصاره لإخضاعه لسلطان العثمانيين، إلا أن المطهر نجح فى الصمود أمام القوات العثمانية المحاصرة، مما إضطر إزدمر لإنهاء الحصار والعودة إلى صنعاء بعد إبرامه إتفاقا مع المطهر(٢١).

كان هذا الإتفاق أشبه ما يكون بهدنة مؤقتة بين الطرفين، فقد إستشعر إزدمر مدى خطورة بقاء المطهر بن شرف الدين مسيطرا على منطقة ثلا دون إلحاق هزيمة ما به، لذلك ما لبث أن راسل السلطان العثمانى يطلب منه مددا عسكريا لتحقيق غرض إخضاع المطهر للسلطة العثمانية، أو إزاحته كلية من مسرح الأحداث. وقد أجابه السلطان العثمانى بذلك فأمده بثلاثة آلاف بندق وألف فارس من مصر، على رأسهم أمير الحج المصرى مصطفى باشا النشار الذى حمل معه إلى بلاد اليمن خطابا من السلطان العثمانى إلى المطهر يحمل فى طياته تهديدا وترغيبا للمطهر لإعلان طاعته للعثمانيين. ولما لم تؤد المراسلات التى تمت بين مصطفى النشار وبين المطهر إلى نهاية يرتضيها الطرفان، زحفت القوات العثمانية مرة أخرى إلى منطقة ثلا، وبعد حصار شديد لها، أدرك كل من إزدمر باشا ومصطفى النشار عدم إمكانية إسقاط هذا الحصن ، فآثرا عقد صلح مع المطهر. وعقد الصلح بين الطرفين على أن يسلم المطهر للدولة العثمانية منطقة الطويلة وحصونها، مقابل أن يحافظ المطهر على بقية ممتلكاته، ويعقد له لواء شريفا(٢٢).

لقد نجح العثمانيون فى هذه المرحلة من مراحل سيطرتهم على بلاد اليمن من إحكام السيطرة على صنعاء وأغلب المدن والمناطق الهامة الداخلية، عدا تلك التى تدخل تحت سيطرة المطهر، وقد هيأت لهم الهدنة مع المطهر إنتزاع أحد الحصون

المهمة داخل أراضى المطهر، ألا وهو حصن الطويلة، بما يعنيه هذا من دخول منطقة المطهر إسميا تحت سلطانهم.

ومما يلاحظ على الصراع الزيدى العثمانى فى هذه المرحلة من مراحل حكم العثمانيين لبلاد اليمن أن الجبهة الزيدية المتمثلة فى الإمام شرف الدين وأبنائه كانت جبهة قوية متماسكة فى بداية الصراع، أى فى مرحلة سيطرة العثمانيين على السواحل اليمنية ١٥٣٨ - ١٥٤٦م. وأن هذه الجبهة إعتراها الضعف والتفكك إبتداء من سنة ١٥٤٦م حينما دعا المطهر العثمانيين للقدوم إلى صنعاء وإسقاط حكم أبيه فيها. بل أن هذا الضعف والتفكك إستمر بعد ذلك، على الرغم من إبرام الصلح بين المطهر ووالده لمواجهة الزحف العثمانى على صنعاء. فنجد أن الإمام شرف الدين وإبنه شمس الدين أصبحا مؤيدين ومؤلبين لأزدمر فى حربه مع المطهر ففى ١٥٤٩م طلب شمس الدين من ازدمر مهاجمة مواقع المطهر، فقام ازدمر بمحاصرة منطقة بيت عز القريب من كوكبان لموقعها ضمن مناطق المطهر بن شرف الدين. وقد مكن هذا الخلاف ازدمر من أن يتعامل مع الخارجين على طاعة العثمانيين من الأمراء الزيديين بصفة منفردة فهذا عز الدين بن شرف الدين يلقى القبض عليه بعد أن تهاجم منطقة نفوذه، ويرسل أسيرا إلى الأستانة دون أن ينهض أحد من إخوته لنجدته، كذلك ترك المطهر قبيل عقد الصلح مع العثمانيين وحيدا فى مواجهة العثمانيين، إلا من بعض الخلصاء من أبناء أسرته كمحمد بن شمس الدين وبعض زعماء القبائل الموالية له.

من هذا يمكن لنا أن نخلص إلى أن النظرة إلى هذا الصراع على أنه صراع عقدى مذهبى قد تكون نظرة جانبها الصواب والأولى أن يدرس هذا الصراع على أنه صراع دولة تريد التوسع على حساب أمراء محليين يرغبون تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من سلطان، سواء كان ذلك تحت تبعية الدولة العثمانية أم كان غير ذلك.

ومما لا جدال فيه أن المطهر بن شرف الدين كان أبرز الأمراء الذين شكلوا خطرا حقيقيا على النفوذ العثمانى فى بلاد اليمن. فعلى الرغم من أن العثمانيين فى عهد أزدمر باشا كانوا قد نجحوا فى فرض سلطانهم على بعض من بلاد المطهر – منطقة الطويلة – وإبرام صلح معه تعهد فيه بعدم الخروج على الطاعة، إلا أن سوء سياسة الولاة العثمانيين الذين خلفوا أزدمر باشا كان دافعا للمطهر لأن يعد العدة لقيادة الزيديين خاصة واليمنيين بصفة عامة ضد الوجود العثمانى فى بلاد اليمن. ولعل الشرارة التى أشعلت تمرد القبائل اليمنية على العثمانيين كانت تولى الوالى رضوان باشا أمور ولاية اليمن. فعلى غير ما جرت عليه عادة من سبقوه من ولاة، لم يعمل رضوان باشا على تجديد أو إقرار الصلح المقصود بين العثمانيين والمطهر، بل على العكس من ذلك أرسل رسوله إلى المطهر ليخبره بتغييره للقواعد التى بنى عليها الصلح بين الطرفين(٢٣). الأمر الذى أدى إلى توتر العلاقات بين المطهر وبين رضوان باشا. فأخذ المطهر بن شرف الدين فى إرسال رسله إلى شيوخ القبائل اليمنية وبعض وجهاء اليمن يزكى فيها أحاسيسهم بمدى الظلم الذى يمارسه العثمانيون عليهم(٢٤) وكان رضوان باشا، بضغط من الأوضاع الإقتصادية التى واجهته، قد قام بزيادة الضرائب على بعض الفئات اليمنية التى كانت تعامل معاملة خاصة من الولاة الذين سبقوه، وعلى رأس هؤلاء طائفة الإسماعيلية(٢٥).

وقد دفعت هذه السياسة بعض هؤلاء الإسماعيليين للتحالف مع المطهر ضد العثمانيين. يضاف إلى هذا أن الممارسات العثمانية الخاطئة من بعض الجند وبعض الولاة كشرب الخمر والزنا والسرقات والغدر بالوعود إلى غير ذلك من الممارسات التى تتنافى مع الإسلام وتقاليد المجتمع اليمنى، أثارت شعورا عاما من السخط والإستياء لدى اليمنيين من الوجود العثمانى فى بلادهم.

ومما زاد إضعاف سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن، السياسة التى إنتهجها العثمانيون بدءا من سنة ١٥٦٤م – وعملا باقتراح والى مصر محمود باشا – بتقسيم ولاية اليمن إلى قسمين منفصلين، وتخصيص وال مستقل لكل قسم، الأمر الذى أدى إلى فرقة الصف العثمانى فى الولاية وتزعزع ولاء الجند العثمانى ما بين وال وآخر(٢٦).

ففى سنة ١٥٦٦م أعلن المطهر خروجه على طاعة العثمانيين، فأرسل الرسل إلى جميع البلاد يخبرهم بذلك ويحثهم على مناصرته ضد الوالى العثمانى. كما أنه وجه إبن أخيه الحسين بن شمس الدين على رأس قوة إلى بلاد الظاهر، نجحت فى إلحاق الهزيمة بقوات العثمانيين هناك وأضطرتهم للإنسحاب إلى عمران. كذلك سير المطهر قوة بقيادة كل من السيد أحمد بن الحسين المؤيدى والأمير محمد بن ناصر الحمزى، حيث نجحا فى السيطرة على صعدا، كما نجح محمد بن شمس الدين بإيعاز من عمه المطهر فى التصدى لمحاولة العثمانيين السيطرة على جبل بيت خولان، بل إن محمدا أحرز نصرا على العثمانيين حين سيطر على حراز وأجبر الحامية العثمانية على الجلاء إلى صنعاء(٢٧). إزاء هذه الإنتصارات الزيدية طالب رضوان باشا المطهر بعقد هدنة بين الطرفين، ووافق المطهر على طلب رضوان هذا، حيث عقدت الهدنة، أجاز فيها رضوان باشا المطهر بن شرف الدين بالحفاظ على ما سقط تحت يديه فكان أن دخلت كل من نهم وخولان، والحدا وذى مرمر، والخشب والظواهر، وحراز، وحفاش، وملحات، تحت سيطرة المطهر، كما أطلق العثمانيون – كتعبير على حسن نواياهم تجاه المطهر – بعض الرهائن المحتجزين فى سجون العثمانيين(٢٨). وقد انتهز المطهر فرصة إرتحال رضوان باشا إلى الأستانة فزحف على صنعاء وحاصرها. وعندما هب مراد باشا – الوالى العثمانى على الجزء الأسفل من بلاد

اليمن – لفك الحصار عن صنعاء، منيت قواته بهزيمة ماحقة فتت من عزم القوات العثمانية، وشجعت اليمنيين بمختلف طوائفهم للمجاهره بمناصرة المطهر(٢٩). وتفاقم الأمر على العثمانيين لدرجة أن الوالى العثمانى مراد باشا قد لاقى حتفه حينما حوصر بجيشه من قبل رجال القبائل اليمنية وأجتز رأسه وأرسل إلى المطهر(٣٠). وبمقتل مراد باشا أستسلمت الحامية العثمانية فى صنعاء، فدخلها المطهر منتصرا سنة ١٥٦٧م(٣١).

وقد عمد المطهر إلى استكمال سيطرته على بعض المناطق الهامة، فسير الأمير قاسم بن الشويع إلى عدن فسيطر عليها، كما سيطر على ريمه، ووصاب وبرع، واكثر تهامة وجازان وبيت الفقيه(٣٢). ولم يبق فى يد العثمانيين إلا منطقة زبيد حيث نجح الوالى العثمانى حسن باشا فى الدفاع عنها ضد هجمات القوات الزيدية(٣٣).

لقد اعقب هذا المد الزيدى مدا عثمانيا بدأ بنجاح حسن باشا، كما ذكرنا آنفا فى الدفاع عن الوجود العثمانى فى مدينة زبيد، وتلاه وصول المدد من السلطان سليمان القانونى قوامه ثلاثة آلاف جندى بقيادة عثمان باشا إبن ازدمر باشا. وقد نجح العثمانيون بفضل هذا المدد من السيطرة على مدينة تعز ومحاصرة الحامية الزيدية فى حصن القاهرة، وإلحاق الهزيمة بجيوش المطهر التى أرسلها لفك الحصار عن هذا الحصن(٣٤) وكان فى وصول الوزير سنان باشا على رأس قوة كبيرة إلى اليمن سنة ١٥٦٨م، نهاية للسيطرة الزيدية على جميع المناطق التى كانوا قد انتزعوها من أيدى العثمانيين. فكان أن عادت كل من عدن، وجازان، وذى جبله إلى طاعة العثمانيين فى سنة ١٥٦٨م، وفى سنة ١٥٦٩م سقطت مدينة اب، وبعدان، وغيرها من المناطق. وانحصرت المقاومة الزيدية على الغالب فى منطقتى ثلا، وكوكبان، وعلى الرغم من أن محاولات سنان باشا المتكررة إسقاط هاتين المنطقتين، إلا إنهما إستعصتا عليه

لحصانتهما الطبيعية، ولتمكن المطهر من مباشرة قيادة المقاومة فى ثلا، والاتصال والتنسيق مع ابن أخيه محمد بن شمس الدين فى كوكبان. إلا أن الأخير بعد أن إشتد عليه الحصار آثر عقد هدنة مع سنان باشا، وتم الصلح بين الطرفين سنة ١٥٦٩م. وقد كان هذا الصلح تمهيدا للصلح بين المطهر وبين سنان باشا الذى أنهى حالة الحرب بين الطرفين، وقد بدا هذا الصلح أن اليد العليا كانت للعثمانيين حيث أن المطهر أذعن لشرطهم فى أن تظل قوة عثمانية فى منطقة الطويلة التى هى من ضمن أملاك المطهر، فى مقابل أن يحتفظ بما تحت يديه فى ثلا(٣٥).

مما سبق يمكن لنا أن نخلص إلى أن الزيديين كانوا قبيل مقدم العثمانيين جبهة موحدة تحت لواء الإمام شرف الدين، ثم ما لبث وأن دب الانقسام فى صفوفهم، وقد يكون هذا من نتائج التفوق العثمانى العسكرى، ثم ما لبث وأن نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تخبط السياسة العثمانية فى بلاد اليمن لتحقيق بعض المصالح الشخصية التى اتفقت مع مصالح القبائل اليمنية فى التمرد على الحكومة القائمة، والسؤال الذى يتبارد إلى ذهن الباحث فى هذا المجال هو: **ما مدى تفاعل القبائل اليمنية عامة مع أهداف القيادة الزيدية ؟**

وكما رأينا فإن الزيديين نجحوا – قبيل قدوم العثمانيين – من فرض سلطانهم بقوة السلاح على أغلب المناطق اليمنية. إلا أن قدوم العثمانيين سنة ١٥٣٨م إلى اليمن قد حرمهم من هذه الهيمنه، وصعب معه مهمة الباحث فى الحكم على مدى تقبل اليمنيين كافة لحكم الزيديين وذلك لقصر فترة حكم الأخيرين على المناطق الشافعية وغيرها مما وقع تحت حكم العثمانيين. غير أنه يمكن لنا الزعم بأنه على ضوء العلاقات الزيدية – اليمنية على مر التاريخ الحديث، يمكننا الذهاب مطمئنين إلى الإعتقاد بأن الحكم الزيدى فى مناطق الهيمنة الشافعية والإسماعيلية لابد وأن يكون

مرفوضا إعتبارا من سياق الأحداث التاريخية إبان سيطرة الزيديين عليها فى تالى العهود (الإمام إسماعيل بن القاسم ومن خلفه)، ولعل الإختلاف المذهبى فى هذا الإطار لعب دورا رئيسيا فى رفض المناطق الشافعية أو الإسماعيلية للهيمنة الزيدية.

من هذا المنطلق يمكن لنا الزعم أن المطهر بن شرف الدين قد نجح باقتدار مشهود له فى توظيف التمرد المعتاد للقبائل اليمنية على الحكومات إبان فترات الضعف أو التخبط السياسى لخدمة مصالحه الخاصة، فالقبائل اليمنية فى معظمها تعودت خوض الحروب لتحقيق مكاسب مادية آنية، وفى المقابل فالمطهر بن شرف الدين كان يهدف ويتوق إلى مد سلطانه وتوسيعه إلى أكبر مدى ممكن، ولن يتأتى له ذلك إلا على حساب العثمانيين. إذن لم يكن هدف القبائل الثورة على العثمانيين لتخليص بلاد اليمن من حكم العثمانيين، بقدر ما هى الرغبة فى ترجمة المصالح الخاصة. ولا يستطيع الباحث الإطمئنان كثيرا إلى أن دوافع المطهر لحرب العثمانيين كانت دوافع قومية أو وطنية قدر ما هى قنص فرص لاحت لتحقيق كسب سياسى أو عسكرى بتوسيع أرجاء ممتلكاته الخاصة.

وقد نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تمرد القبائل هذا ليبدو وكأنه ثورة عارمة من جموع اليمنيين ضد الحكم العثمانى حتى تأتمر القبائل بأمره فتثور إن ثار وتخمد إن أمر بذلك!!.

ولعله من الإنصاف أن نقول أن هذا يمثل جزءا من حقيقة التمرد على الحكم العثمانى، إذ أن كثيرا من القبائل الزيدية كانت ترى فى المطهر بن شرف الدين خير من يقودها لتحقيق ما تصبو إليه من مكاسب مادية، فلماذا لا تأتمر بأمره؟ كذلك الحال مع القبائل اليمنية غير الزيدية والتى لا ترى فى أئمة الزيديين وأمرائهم قادة لها، وإنما قد تدفع المصالح الخاصة هذه القبائل والجماعات للتغاضى عن هذا الأمر، فاندفعت

معظم هذه القبائل فى نفس الإتجاه الذى إندفع إليه المطهـر، إلا أنهـا كـانت تختلـف فـى أهدافها. وبدا وكأن هذا التمرد ثورة عارمة من اليمنيين لتصفيـة الوجـود العثمـانى فـى بلاد اليمن. ولعل عدم الإشتراك فى الأهداف يفسر السرعة التـى نجـح بهـا العثمـانيون فى إستعادة ما سلب منهم، وذلك لتقاعس القبائل وتشرذم القيادات اليمنية.

* * *

الهوامش:

١- سيد مصطفى سالم: الفتح العثمانى الأول لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م). ط٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ١٣١-١٤٢.

٢- المرجع نفسه ص ١١١.

٣- عيسى بن لطف الله: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة فى اليمن من الفتوح، مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز رقم ١٨٤٢ ص ٢٠.

٤- يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثانى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٦٥٧.

٥- المصدر نفسه، ص ص ٦٦٣-٦٨١.

٦- المصدر نفسه، ص ص ٦٥٨-٦٥٩.

٧- R.B. Serjeant and Lewcok, eds. Sana: an Arabian Islamic City, London, 1983, p:69

٨- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٤٠.

٩- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٦٥٨.

١٠- يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثانى. ترجمة: عدنان سليمان ومنشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استنبول، ١٩٩٠ و ص ٣٧٤.

١١- المرجع نفسه، ص ص ٤٢٠-٤٣٤.

١٢- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ص ٦٧-٦٨.

١٣- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: "النشاط التجارى فى البحر الأحمر": فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة. القاهرة. جامعة عين شمس، سمنار، الدراسات العليا للتاريخ الحديث ١٩٨٠، ص ص ٢٤١-٢٦٠، ص ص ٢٤٦-٢٤٨.

١٤- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٦٠.

١٥- عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان، تحقيق: عبد الله محمد الحبشى، ص ص ٢٥،٢٦.

أنظر أيضا:

١٥- R. playfair, A history of Arabia Felixor Yemen, Amsterdam, 1970, p112

١٦- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٣٧.

١٧- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٦٨٥،٦٨٦.

١٨- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٤١.

١٩- المصدر نفسه ص ٤٢.

٢٠- R.B. Serjeant and LEWCOCK, OP-CIT. P : 70

أنظر أيضا:

J.R.Bgackburn, "The Ottoman Penetrtion of Yemen", Archiveem ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-110.

٢١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٧٠٣-٧٠٤.

٢٢- المصدر نفسه، ص ص ٧٠٤-٧١٢.

٢٣- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦١.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٦٢.

٢٥- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٤.

٢٦- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور, ص ص ٢٣٢-٢٣٣.

٢٧- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ص ٦٢-٦٣.

٢٨- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٦.

٢٩- يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ص ص ٧٢٦-٧٢٧.

٣٠- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦٤.

٣١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٨.

٣٢- المصدر نفسه، ص ٧٢٩.

٣٣- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.

٣٤- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.

٣٥- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ١٠٤.

المصادر العربية والأجنبية

أولا: المخطوطات:

- الجرموزى، المطهر: تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار.

مخطوط، مكتبة الجامع الكبير، الغربية، رقم ٧٣ تاريخ.

- الكبسى، محمد بن إسماعيل: اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية.

مخطوط، جامعة الملك سعود، رقم ١/٣٨٤، الرياض.

- المطهر، عيسى بن لطف الله: تاريخ روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة فى اليمن من الفتن والفتوح.

مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز، رقم ١٨٤٢، جدة.

ثانيا: المصادر العربية:

- ابن الديبع، عبد الرحمن بن على: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون.

تحقيق: محمد بن على الأكوع، القاهرة.

- الجرافى، عبد الله بن عبد الكريم: أبناء اليمن ونبلاؤه. الجزء الأول من القسم الرابع، مكتبة الجامع الكبير، الغربي، رقم ٣٤٤، صنعاء.

- الحسين، يحيى: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى.

تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثانى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

- النهروالى بن محمد بن أحمد: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. دار اليمامة، ١٩٦٧.

ثالثا: المراجع العربية:

- اوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثانى، ترجمة عدنان محمود سلمان، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٩٠.
- البحراوى، محمد عبد اللطيف: فتح العثمانيين عدن وإنتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر. دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩م.
- بومخرمه، أبو محمد عبد الله الطيب إبن أحمد: تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٣٦.
- الحداد، محمد يحيى: تاريخ اليمن السياسى، ج٤، دار الهنا للطباعة، ١٩٧٦م.
- الحيمى، الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة. تحقيق: مراد كامل. ط٢، دار العالم العربى، القاهرة.
- الرمال، غسان على محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجرى – السادس عشر الميلادى. دار العلم، ١٩٨٥.
- سالم، سيد مصطفى: الفتح العثمانى الأول لليمن. ط٣، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨.
- شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ. ط٢، القاهرة، ١٩٦٤.

- عبد الرحيم، عبد الرحمن: النشاط التجارى فى البحر الأحمر: فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (أبحاث الإسبوع العلمى الثالث ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩، فى سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٠.
- العبدلى، أحمد فضل بن على: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن. دار العوده، بيروت، ١٩٨٠.
- العرشى، حسين بن أحمد: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام. تحقيق: انستاس الكرملى..مطبعى، القاهرة، ١٩٣٩.
- العقيلى، محمد بن أحمد عيسى: تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ. مطابع الرياض، ١٩٥٨.
- كامل، محمود: اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨.
- الموزعى، عبد الصمد بن إسماعيل: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان. تحقيق: عبد الله محمد الحبشى. منشورات المدينة، صنعاء، ١٩٨٦.
- الواسعى، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

رابعا: المصادر الأجنبية:

- Blackburn, J.R. The Ottoman Penetration of Yemen, Archiveem Ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-1110
- Playfair, Robert, A history of Arabia Felix or Yemen, Amsterdam, 1970.
- Searjeant, R.B. & Lewcock, eds, Sana: an Arabian Islamic City, London, World of Islam Festival trust, 1983.
- Serjeant, R.B., The portuguese of South Arabian Coast, Beirut, Lirairie Duliban, 1944.

وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم

وأضواء جديدة على تاريخ عمارته

د. محمد عبد الستار عثمان

تعتبر وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم (١) من أهم المصادر التي يمكن في ضوئها دراسة تاريخ عمارة الجامع المذكور دراسة متكاملة (٢) تصحح ما وقع في دراسات سابقة من هنات، وتضيف إلى معرفتنا بتاريخ منشئي هذا الجامع وتاريخ عمارة الجامع نفسه وعناصره ووحداته المعمارية. كما أنها تعتبر المصدر الأساس للتعرف على ما يؤدى بالجامع من نشاطات دينية وعلمية تجد دور المسجد الجامع في الأقاليم في العصر العثماني، ذلك الدور الذي يعتبر كما - ستوضح الدراسة - استمرارا لما كان عليه الحال في العصور الإسلامية السابقة، مع إضافة ما يتميز به العصر العثماني من نشاطات دينية معينة.

وتنظم هذه الأهمية منهج البحث الذي يقوم على محورين أساسين، المحور الأول: يشمل الدراسة التاريخية التي تتضمن من النقاط البحثية ما هو متصل بتاريخ الواقفين، وتاريخ الجامع نفسه، بالإضافة إلى ما ورد في الوثيقة من نصوص تتصل بتاريخ نظام الواقف في هذا العصر. والمحور الثاني هو المحور الأثري المعماري الذي يتضمن دراسة ما يتصل بالجامع من الناحية المعمارية الإنشائية والوظيفية في ضوء ماورد من نصوص في الوثيقة موضوع البحث وتعرض بصفة خاصة للجوانب التي لم ترد في أي دراسة سابقة.

الدراسة التاريخية:

أشارت الدراسات السابقة إلى أن منشئ الجامع هو الأمير محمد (٣) اعتمادا على ما تم قراءته من كتابات أثرية على الجانب الشرقي لواجهة المحراب الرئيسي الأوسط للجامع (٤). وورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - ما يؤكد أن إنشاء الجامع كان على يد كل من الأميرين «محمد وأحمد ولدا المرحوم حسن بن الأمير حمد بن المرحوم الأمير يونس من أولاد الأمير عمر عين أعيان الأمراء بولاية الصعيد الأعلى سابقاً» (٥)، وهكذا يتضح أن هذا الجامع لم يكن من إنشاء الأمير محمد وحده كما أشارت الدراسات السابقة ولكن شارك في بنائه ووقفه أخوه الأمير أحمد،

واشتراك أميرين في بناء جامع ووقفه ووقف الأوقاف عليه، مثال قل وروده، حيث جرت العادة بأن يتولى بناء المنشأة الدينية ووقف الأوقاف عليها شخص واحد. وربما كان لذلك دلالاته المرتبطة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالأميرين والتي أدت إلي اشتراكهما في بنائه ووقفه.

نسب الأميرين محمد وأحمد:

يكشف نص الوثيقة عن نسب الأميرين منشئآ الجامع، فهما من أولاد الأمير حسن بن الأمير حمد بن المرحوم الأمير يونس بن عمر بن عبد العزيز الهواري. وهما بذلك ينتسبان إلى قبيلة هوارة (٦) تلك القبيلة التي يشير ليو الأفريقي إلى أن «نزوحها إلى بلاد الصعيد يرجع إلي العصر الفاطمي، عندما منحهم الخليفة الفاطمي إخميم مكافأة لهم على معاونتهم لجوهر، ورغبوا عن اعادة بنائها وبنوا المنشية (٧) واستقروا بها لتحاشي الخلاف مع العرب»(٨).

وفي العصر المملوكي أقطع السلطان برقوق «اسماعيل بن مازن» من هوارة جرجا، وكانت خرابا فعمروها، وأقام بها حتى قتله علي بن غريب منهم، فولى من بعده الأمير عمر بن عبد العزيز الهواري (٩) الجد الأعلى للأميرين محمد وأحمد المذكورين، والذي كان له دور بارز في إعمار جرجا وإزدهارها هو وأبناؤه الذين تولوا الحكم من بعده، وهكذا يتضح دور الهوارة في إعمار المنشاة وجرجا وإخميم، وهذه الأخيرة ازدهر عمرانها وذاع صيت أميرها حسن الاخميمي (١٠) الذي ورد في الكتابات الأثرية بجامعه أنه ابن الأمير محمد (١١). وإذا كان الأمير محمد كان حيا على الأقل حتى سنة ١٠٩٥هـ تاريخ تسجيل وثيقة الوقف (١٢) -موضوع البحث- وأن الأمير حسن أنشأ الجامع المذكور سنة ١١١٦هـ فإن في ذلك ما يشير إلى الترجيح بأن الأمير حسن هو ابن الأمير محمد بن الأمير حسن بن الأمير حمد بن الأمير يونس بن الأمير عمر بن عبد العزيز الهواري. وإن صح ذلك فإن الأمير حسن الاخميمي يكون في هذه الحالة هواريا. (١٣)

ومن جهة أخرى تشير المصادر والدراسات التاريخية إلى أن أمراء الهوارة في العصر العثماني كانت لهم علاقة طيبة بالعثمانيين لدرجة ان هؤلاء الأمراء كانوا يرسلون الهدايا للسلاطين العثمانيين ومن بينهم السلطان سليم والسلطان سليمان. لكن العلاقات ساءت بعد ذلك بين الهوارة والعثمانيين فعزل العثمانيون الهوارة من حكم الصعيد سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٦م وعهد بالحكم في الصعيد إلي أحد بكوات المماليك وهو سليمان جنبلاط (١٤).

وعند إدخال نظام الإلتزام إلي الصعيد في الربع الأول من القرن السابع عشر سيطر الهوارة

على مساحات واسعة من أراضي الصعيد بحكم ما كان لهم من مكانة، وكانوا ايضا من الفئات التي سمح لها بأخذ التزام الأراضي الزراعية منذ بداية ادخال هذا النظام الى مصر. وبسيطرة الهوارة على معظم اراضي الصعيد بالالتزام عادت لهم السلطة على الصعيد ولكن في ظل الإدارة المملوكية العثمانية (١٥).

وإذا كان هذا هو حال العلاقة بين أمراء هوارة والسلطة العثمانية في ضوء ماورد في المصادر والدراسات التاريخية، فإن ما ورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - يشير إلى أن الامارة ظلت متوارثة في بعض أحفاد عمر بن عبد العزيز الهواري وظلوا يحكمون في بعض ولايات الصعيد كولاية الاخميمية التي كانت قاعدتها إخميم حتى سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م تاريخ قتل أو وفاة الأمير حسن الاخميمي.

وتسجل وثيقة الوقف ايضا مظهرا من مظاهر اقرار الديوان في جرجا لامارة امراء إخميم من أحفاد عمر بن عبد العزيز الهواري ممثلا في الأميرين محمد وأحمد صاحبا الوقف حيث أقر ديوان جرجا وحاكمها المراسيم الشاهدة بملكيتهما للرزق الأحباسية التي وقفاها بعد ذلك على الجامع الذي أنشآه في إخميم (١٦).

تاريخ إنشاء الجامع:

لم تحدد الدراسات السابقة تاريخا معينا لإنشاء الجامع، وأرجعت تاريخ عمارته - على وجه العموم - إلى العصر العثماني بناء على دراسة عناصره المعمارية والزخرفية (١٧).

وورد في الوثيقة - موضوع البحث - ما يشير إلى أن اعتمادها رسميا كان «في سابع من شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعين وألف» (١٨) وهو ما يعني أن عمارة هذا الجامع قد تمت بالفعل قبل اتمام إصدار كتاب وقفه بمدة يسيرة.

ولم يستطع القائمون بالدراسات السابقة للجامع قراءة كل ما نقش من كتابات تأسيسية على الجانب الشرقي لواجهة المحراب الرئيسي قراءة متكاملة لما اعتراها من تآكل وما أصابها من دهانات في العصر الحديث، كما لم يكن بالامكان في غياب المعلومات الصحيحة عن منشئي الجامع تفسير ما أمكن قراءته. ولكن الآن في ضوء توفر هذه المعلومات، وفي ضوء ما تم قراءته من كلمات لم تتم قراءتها من قبل، يمكن تحديد تاريخ إنشاء الجامع.

وبعد أن تم تفكيك الأحجار التي نقش عليها نص الإنشاء في الجهة الشرقية من المحراب وتنظيفها أمكن قراءة نصها على النحو التالي:

١ - أنشأ هذا المسجد ..... الكبير.

٢ - العالي الأمير .....

٣ - محمد ..... (أ) حمد .....

٤ - الأمير حسن .....

٥ - سنة ٩٤ [.] ١ (١٩).

وبالربط بين ماورد في الوثيقة عن نسب الأميرين وماتم قراءته بصورة صحيحة من هذا النص سيما السطور من (٣-٥) يتضح تطابق الاسم الاول من اسمي المنشئين وهو «محمد» مع الاسم الاول الوارد في وثيقة الوقف، ويتضح في ضوء ماورد في نص وثيقة الوقف عن الواقف الثاني أن الاسم الثاني في السطر الثالث والذي بقي منه الحروف الحاء والميم والدال وفقد الحرف الاول منه وهو الألف يتضح ان منطوق هذا الاسم هو «أحمد» وهو اسم الامير الثاني الذي شارك في البناء والوقف وهو أخو الأمير محمد، وعليه فإنه يمكن الترجيح بأن لقب «الأمير» كان يسبق اسم «احمد» المذكور كما يمكن الترجيح بأن الكلمة التالية لكلمة أحمد كانت «ولدا» أو «ابنا» ثم يلي ذلك نص السطر الرابع مكملا لاسمي الاميرين بذكر اسم والدهما الأمير حسن، وهي ايضا تكملة متوافقة مع ورد في وثيقة الوقف حيث اشار نص الوثيقة الي ان الأميرين» «محمد وأحمد ولدا الأمير حسن ...» (٢٠)

وفيما يتعلق بالتاريخ المذكور في السطر الخامس فإن هذا التاريخ بقي واضحا منه رقم الآحاد ورقم العشرات،ورقم الآلاف وتآكل رقم المئات، وبالمقابلة بين هذا التاريخ وتاريخ اعتماد وثيق الوقف في شهر رجب سنة ٩٥٠١هـ/١٦٨٤م، يتضح ان الرقم المتآكل «صفر» وبذلك يمكن تحديد عام ٩٤٠١هـ/١٦٨٣م كتاريخ لإنشاء الجامع.

وبالربط بين هذا التاريخ وبني تاريخ وقف الجامع في شهر رجب سنة ٩٥٠١هـ/١٦٨٤م، يمكن ان يكون إنشاء الجامع قد تم في نهاية سنة ٩٤٠١هـ، كما يمكن ان تكون أعمالا معمارية اخرى قد تمت في المدة المحصورة بين هذا التاريخ وتاريخ الوقف وبخاصة وان نص الإنشاء منقوش

على جدار القبلة اي في موضع كان بناؤه في الغالب قبل إتمام عمارة عناصر أخري تم إنشاؤها بعد إنشاء هذا الجدار كالسقف وغيره، ويمكن ايضا ان تكون إجراءات تسجيل الوقف قد استغرقت بعض الوقت حتى تمت في ١٧ رجب سنة ٩٥ . ١هـ/١٦٨٤م.

الأحداث التاريخية المصادقة لتاريخ إنشاء الجامع :

ورد في متن الوثيقة إشارة متكررة إلى أن السلطان العثماني المعاصر كان في حالة حرب مع خصوم الدولة العثمانية، فاتحا لبلاد جديدة، فعند سرد الوثيقة للوظائف المقررة وبخاصة وظائف قراء القرآن شرط الواقفان أن يهدي ثواب القراءة في «صحائف النبي ﷺ وأصحابه والمسلمين ثم في صحائف مولانا السلطان نصره الله والغزاة المجاهدين في البر والبحر من المسلمين ثم في صحائف الواقفين...» (٢١)

وفي إطار ما سبقت الإشارة إليه عن تاريخ إنشاء الجامع سنة ٩٤ . ١هـ/١٦٨٣م يتضح أن السلطان المقصود في نص الوثيقة هو السلطان محمد الرابع (٥٧ . ١-٩٩ . ١هـ/١٦٤٧-١٦٨٨م) وهو السلطان الذي وصلت في عهده الجيوش العثمانية الفاتحة إلى فينا، وتمت محاصرتها في نفس العام التي كان فيه إنشاء الجامع وهو سنة ٩٤ . ١هـ/١٦٨٣م. وهكذا يتضح إن كتابة نص الوثيقة كانت معاصرا لهذه الأحداث فوردت الإشارة الضمنية إليها متمثلة في الدعاء للسلطان وجيوشه الغازية بالنصر.

ملامح نظام الوقف في العصر العثماني من خلال الوثيقة :

تلقي الوثيقة - موضوع البحث - بعض الأضواء المهمة على ملامح نظام الوقف في العصر العثماني. وسنعرض فيما يلي لبعض الجوانب التي تجسد بعض هذه الملامح حسب وردها في سياق نص الوثيقة.

أولا: وقف الرزق الأحباسية:

تضمنت الوثيقة نصا مهما يفيد أن الأراضي التي وقفها الواقفان على الجامع كانت من الرزق الأحباسية (٢٢) الخاصة بهما وأنها كانت عبارة عن «ثلاث قطع أرض طين سواد صالحة للزرع والزراعة ملكا مجاورة لبعضها أحباسية محـــــدّدة محجزة كائنة ذلك الرزق بولاية الاخميمية بموجب الاقراجـات الديوانية والتذكرة المسطرة باللغة التركية والمراسيم المترجم عليها

بالعربية المسطرة من ديوان مصر المحمية بالتقرير في ذلك وبموجب مراسيم شاهدة لهما من ديوان محروسة دجرجا من حكام الولاية عوضا في ذلك عن من يذكر فيه بموجب مرسوم كريم مؤرخ تاريخ رابع عشر محرم الحرام افتتاح ستة تسعين وألف سطر ذلك المرسوم من ديوان الأرزاق بمصر المحروسة، وبموجب التذكرة المسطرة باللغة التركية في تاريخه المذكور حسب البيورلدي الشريف الصادر في التاريخ المنا بذكره (٢٣)»

ويكشف هذا النص عن بعض الجهات الإدارية في الدولة والتي كانت تتولى تنظيم الرزق الأحباسي وتسجيلها والاشراف عليها.

ومن الجدير بالذكر ان العثمانيين بدأوا بتنظيم مصر إداريا باصدار قانون نامه مصر للأوقاف سنة ٩٣١هـ/١٥٢٥م، وكان من بين ما نظم هذا القانون الأوقاف والرزق، وفيما يختص بالرزق الأحباسية التي بأيدي الأشخاص فإنه وفق هذا القانون لم يكن يتم الافراج عنها قبل عرض أمرها على الوالي والدفتر دار للتأكد من نوع الرزقة والمتحصل منها، ومدي صلاحية الحجج التي بأيدي أربابها من عدمه، ومن ثبت صلاحية سنده يعطي «إفراج» أي سند بصلاحية الوقف، وعند ثبوت عكس ذلك كان يتم ضمها إلى أراضي الميري، تحفظ صورة من دفتر الأراضي المرتجعة إلى الدولة في ديوان مصر وترسل صورة أخرى إلى الآستانة. وفي محاولة لوضع هذا القانون موضع التنفيذ كان الكشف عن الأوقاف والرزق وبيان مدى صلاحية الرزق والأوقاف من عدمه، وكان يتم التسجيل في دفاتر خاصة عرفت فيما بعد «دفتر إفراجات زمني سليمان وداود» وأصبحت هذا الدفاتر فيما بعد المرجع حين البحث عن مدى مصداقية وقف أو رزقة ما. وبعد البحث والمراجعة تصدر الافراجات عن ديوان مصر بعد عرض نظام الأوقاف وأرباب الرزق المسوغات الشرعية لهم على الديوان. ولذلك كان يطلق على الافراج احياناً «إفراج ديواني» وأحياناً أخرى «الافراج الباشوي المسطر من ديوان مصر المحروسة» (٢٤) وطبق هذا النظام على الرزق الأحباسية التي وردت الاشارة اليها في وثيقة وقف الاميرين محمد وأحمد - موضوع البحث - حيث ثبتت ملكيتهما لها «بموجب الافراجات الديوانية والتذكرة المسطرة باللغة التركية والمراسيم المترجم عليها باللغة العربية المسطرة من ديوان مصر المحمية بالتقرير في ذلك» (٢٥)

وكان الديوان العالي ايضا سلطة إشرافية وتنظيمية تتصل بالرزق، حيث أن قاضي الديوان كان ينظر في أمر القضايا التي يحيلها إليه الباشا وبعض منها يتعلق بأمور الأوقاف والرزق، وكان الباشا يحضر جلسات الديوان التي تعرض فيه أمور هامة وتصدر الأوامر من هذا الديوان

بفض النزاعات حول الرزق والأوقاف أو المحافظة على بعض الأوقاف وعدم التعرض لأوقاف بعض الفئات المتميزة وهو ما كان يسمى «بيورلدي» (٢٦)

ويتضح من خلال نص الوثيقة عن افراجات الرزق الاحباسية الخاصة بالواقفين الأميرين محمد وأحمد والوارد ذكرها في الوثيقة - موضوع البحث - أنها مرت بالإجراءات التي كانت تتم من خلال هذا الديوان حيث صدر بشأنها «البيورلدي الشريف» (٢٧) اي الأمر الشريف المقر بكونها خاصة بالأميرين المذكورين، كذلك كان لديوان الرزق دور واضح في إدارة الرزق، بل إنه الديوان المختص بتسجيل الرزق المرصدة من جانب الدولة على أوجه البر المختلفة، وعلى بعض العلماء، بعض الأفراد والفئات المختلفة، في سجلات مختلفة حسب الولايات وكانت دفاتر الرزق تحفظ بالروزنامة للرجوع إليها وكان يشرف على هذا الديوان كاتب الرزق أو أفندي الرزق (٢٨)

وسجلت الرزق الخاصة بالأميرين في هذا الديوان حيث صدر عنه مرسوم «كريم مؤرخ تاريخه رابع عشر محرم الحرام افتتاح سنة تسعين وألف مسطر ذلك المرسوم من ديوان الأرزاق (٢٩) بمصر المحروسة «يقر بملكية الأميرين لهذه الرزق».

وكذلك كان لديوان جرجا الذي يمثل الادارة المحلية التابع لها الاميرين دوره في تنظيم إدارة الرق. حيث أشارت الوثيقة إلى ان من بين المستندات الصادرة لاثبات ملكية الواقفين لرزقهما «مراسيم شاهدة لهما من ديوان محروسة دجرجا من حكام الولاية» (٣٠)

ويكشف هذا التتابع الدقيق لاعتماد الجهات الادارية والقضائية ملكية الأميرين لهذه الرزق عن دقة نظام متابعة الأوقاف والرزق في العصر العثماني. كما يكشف من جهة أخرى عن مكانة هذين الأميرين تلك المكانة التي تقوم في الأساس على كونهما ينتسبان إلى قبيلة هوارة التي كان لها شأنها في إدارة الصعيد. إبتداء من عصر المماليك الجراكسة واستمرارا في العصر العثماني. ومن جهة أخرى يتضح أنه بالرغم من انتزاع العثمانيين حكم الصعيد من الهوارة وتعيين حكام له من بين البكوات المماليك فإن العلاقة بين هؤلاء الحاكم وأمراء الهوارة م جهة والعلاقة بين الباشا أيضا وهؤلاء الأمراء كانت تقوم على تقدير مكانة هؤلاء الأمراء وسطوتهم في بلاد الصعيد.

ومن الناحية التنفيذية فإن اعتماد دواوين الدولة المختصة لملكية الأميرين وكذلك صدور البيورلدي الشريف بالافراج عنها، كان من شأنه تسهيل اعتماد الجهات لوقف أراضي هذه الرزق بعد ذلك على الجامع دون البحث في إثبات الملكية (٣١).

مشكلة تسجيل الوقف وعزل المتولي :

ورد في وثيقة الوقف موضوع البحث - نص مهم يسجل ظاهرة تكررت الاشارة إليها في بعض وثائق الوقف العثمانية، وناقشتها المصادر الفقهية العثمانية باعتبار شيوعها. وتتمثل هذه الظاهرة في أمر تعيين متول شرعي للوقف ثم عزله بحكم قضائي ليتولى الواقف التصرف في أمور وقفه حسب ما وضعه من شروط. وجاء نص الوثيقة - موضوع البحث - في ذلك أكثر وضوحا من وثائق أخرى تضمنت هذا الإجراء فقد جاء بها ما نصه «... ورفع الواقفان عن هذا الوقف يدي الحيازة، ووضعا عليه يدي النظر والولاية، وسلماه لمتول شرعي إلى أن يتم أمر التسجيل، وتسلم المتولى المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة التسليم شرعا، ووقع الأجر في ذلك على الله الكريم، وثبت الاشهاد على الواقفين المذكورين بما نسب إليهما من الوقف والشرط على الشرح والنمط المبسوط بشهادة شهوده ثوتا شرعيا محررا مرضيا ثم عن للواقفين المذكورين الرجوع عن هذا الوقف ورده إلى التصرف كما كان، متمسكين في ذلك بعدم اللزوم على قول الامام الأعظم والمجتهد المقدم صاحب الأقوال الشريفة والشيم المرضية المنيفة الامام أبي حنيفة بن ثابت الكوفي، جوزي بكل خير وكوفئ، فعارضه المتولي المذكور في ذلك متمسكا بالصحة والزوم على قول الامامين الصاحبين الامام أبي يوصف يعقوب والامام محمد بن الحسن الشيباني، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين، وتنازعا في ذلك، ورافعا لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه، فنظر بينهما نظرا دقيقا، وتأمله تأملا شافيا حقيقا، فعاين في جانب الوقف رجحانا قويا وبرهانا واضحا جليا، فاستخار الله، وحكم بصحة الوقف ولزومه وخصوصه وعمومه، عالما بالخلاف الواقف بين الأئمة والأسلاف في شأن الأوقاف، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك، وعزل المتولى المرقوم على هذا الوقف، وأبقاه تحت يدي الواقفين المذكورين، ينظران بأنفسهما على الوجه المشروح، وبمقتضى ذلك صادر وقفا محبسا مسبلا من أوقاف الله الأكيدة..» (٣٢)

ويكشف هذا النص عن أمور مهمة تتصل بتسجيل الأوقاف في هذا العصر، فقد كان من الاجراءات الأساسية في ذها التسجيل أن يسلم الوقف إلى متول شرعي. وتعارض هذا التسليم فيما يبدو مع رغبة بعض الواقفين في ان يتولوا هما بأنفسهم أمر الوقف وفق الشروط التي يضعوها، ومن ثم كان الرجوع في أمر تولية المتولي الشرعي هو المخرج بعد تسجيل الوقف بتوليته. وقد وقع خلاف بين فقهاء المذهب الحنفي - مذهب الدولة الرسمي - في هذا الأمر، فبينما يري بعضهم عدم جواز الرجوع يرى آخرون إمكان ذلك، وصار الرجحان فيما يبدو لهذا الرأي

الأخير، حيث أصبحت القاعدة لدى أصحابه هي إمكان الرجوع في التولية» (٣٣)

وقد ورد بنص الوثيقة السابق ذكره – أن الواقفين عن لهما الرجوع عن الوقف ورده إلى التصرف اعتمادا على رأي المذهب أبي حنيفة. فعارض المتولي ذلك متمسكا باصحة واللزوم، اعتماذا على رأي كل من الامامين أبي يوسف يعقوب ومحمد بن الحسن الشيباني، وهما من أعلام المذهب الحنفي ايضا. وتسجل المصادر الفقهية الحنفية في العصر العثماني هذه الظاهرة ومن أهمها كتاب «حاشية رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين (١٩٨-١٢٥٢هـ/١٧٨٤-١٨٣٦م) حيث يعرض ابن عابدين آراء فقهاء الحنفية في هذه المشكلة وما يتصل بها، ويتفق ما قال به مع ما ورد في نص الوثيقة بخصوص آراد الفقهاء الأوائل في المشكلة، كما انه يقرر ايضا ان «القاضي الحنفي إذا حكم بما ذهب إليه يوسف ومحمد لم يكن حاكما بخلاف المذهب، لأنهما يتبعان المذهب وهم فروع منه» (٣٤). وهذا يعني ان هناك إمكانية بأن يحكم القاضي بعدم الرجوع استنادا لرأي كل من يوسف ومحمد. وهو ما كان – على ما يبدو – في حسبان الواقفين حيث ورد في الوثيقة ان المتولي تسلم المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة السليم شرعا»(٣٥) حتى يكون تحت أيديهما ما يستطيعان به ان ينقضا صحة الوقف إذا حكم القاضي لصالح المتولي بعدم الرجوع في الوقف مستندا الى رأي كل من الامامين يوسف ومحمد، وهكذا يبدوا م خلال دراسة هذا النص، المناخ الذي كانت تتم فيه اجراءات توليه متولي شرعي ثم الرجوع عن الوقف لعزله ليتولى الواقف. فقد تسلم المتولي كتا بالوقف «فارغا غير مشغول بما يمنع من صحة التسليم شرعا» رغم اجراءات التسجيل رغم ذلك، ثم عادا الواقفان رغم اجراءات التسجيل رغم ذلك، ثم عادا الواقفان ورجعا عن الوقف وحكم القاضي بعزل المتولي الشرعي معتمدا على رأي أبي حنيفة، بل إن الموثق أثبت بالوثيقة علم القاضي برأي كل من الامامين يوسف ومحمد وهو حكم تكرر بنفس الصورة في وثائق وقف أخرى سابقة لهذه الوثيقة (٣٦) بما يشير إلى أنه هذا الأمر أصبح في حكم التقليد.

الدراسة الأثرية المعمارية:

موقع الجامع :

يقع الجامع في القطاع الشرقي من مدينة إخميم، يحده من الجهة الشرقية شارع التيسارية، ومن الجهة الجنوبية شارع الأمير حسن، ومن الجهة الشمالية شارع الأشراف والمشنب ويجاوره من

الجهة الغربية مساحة فضاء تابعة للجامع كان بها ملحقاته لمجاورها من الغرب مبان حديثة.

وورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - اشارة موجزة عن موقع الجامع تشير إلى انه الجامع «الكائن بناحية إخميم من جهتها الشرقية المجاور إلى سوق الناحية». (٣٧)

ويتطابق الوصفان في الاشارة إلى أن سوق الجامع أنشئ مجاورا لسوق إخميم أو «قيسارتها» (٣٨) ويفسر هذا سبب تسمية الشارع الذي يحد الجامع من الجهة الشرقية بشارع القيسارية، ومازالت بالموضع الذي يقع على الجانب الشرقي لشارع القيسارية بقايا من بعض حوانيت كانت ضمن احدى الوكالات التي ضمها سوق إخميم المشار إليه.

وقد انسحبت ظروف هذا الموقف - فيما يبدو - مع تسمية العامة للجامع «بجامع السوق»(٣٩). ولاشك أن بناء الجامع في هذا الموضع كان من شأنه ان يخدم بالاضافة إلى المنطقة السكنية المجاورة، المنطقة التجارية ممثلة في القيسارية التي كانت تشغل المنطقة التي تقع الى الشرق منه.

الوصف المعماري للجامع (٤٠) :

تعرضت الدراسات السابقة لوصف الجامع وصفا معماريا يسجل الحالة التي بقى عليها قبل ازالته سنة ١٩٩٣م فيما عدا المئذنة لإعادة بنائه. مقارنة بين هذا الوصف وبين الوصف الذي ورد في الوثيقة بصورة مباشرة وما ورد فيها ضمنا في مواضع أخرى من إشارات لبعض الوحدات غير الموصوفة تكشف عما يلي:-

١ - أن تخطيط الجامع في الأصل كان يشتمل على ثلاثة مداخل، مدخل بكل واجهة من الوجهات الشمالية والشرقية والغربية (٤١) ويشير هذا الوصف إلى حدوث تعديل في الواجهة الغربية التي تضم مدخلين في كل من طرفيها (٤٢)

٢ - أن هذه المداخل وقت إنشاء الجامع كانت مرتفعة عن مستوى أرضيتي الشارعين اللذين يطل عليهما الجامع من الجهتين الشمالية والشرقية، وكذلك كان المدخل الغربي مرتفعا عن أرضية ملحقات الجامع في هذه الجهة. وكان يصعد إلى هذه المداخل من خلال درج أمامي يأخذ الشكل نصف المستدير، وكان هذا الدرج المؤدي إلى كل من المدخلين الشرقي والشمالي يتكون من أربع درجات بينما كان الدرج المؤدي إلي المدخل الغربي يتكون من ثلاث درجات،

وتبين أثناء الأعمال المذكورة. ويسجل هذا الشكل المعماري للدرج الخارجي مثالا مهما لاشكال الدرج الخارجي، تناسب مع اتساع الطريقين اللذين يطل عليهما الجامع، وبخاصة وأن امتداد الدرج في عرض الطريق لم يكن كبيرا لقلة عدد الدرجات التي لم تزد عن أربع الرابعة الأخيرة «نائمها» عبارة عن جزء من أرضية دخلة المدخل. ولاشك ان تصميم الدرج بهيئة نصف مستديرة كان هو الآخر ليقلل من تأثير إعاقة الدرج للفريق.

واستخدم هذا النمط النصف مستدير من أشكال الدرج الخارجي في هذا الجامع يأتي في اطار تقليد استخدام هذا الشكل في المساجد القاهرية العثمانية الكبرى التي استخدم فيها هذا النمط ولكن بهيئة ضخمة فخمة تأثرت بالتخطيط المعماري من حيث كون هذه المساجد معلقة كمسجد الملكة صفية (١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) (٤٣).

٣ - حددت الوثيقة نوعية الأحجار المستخدمة كأعتاب للمداخل الثلاثة للجامع، سواء كانت أعتابا سفلية أو علوية، وكذلك حددت نوعية الأحجار التي بنيت بها واجهات الجامع، وعند هدم الجامع لإعادة بنائه ثبتت دقة الوصف الوثائقي، وثبت ايضا ان بعض الأحجار الجرانيتية، مجلوبة من عمائر أثرية سابقة.

واتضح من مطابقة الوصف الوثائقي مع ما كشف عنه من أعتاب وأعمدة جرانيتية أن الموثق يطلق مصطلح «الحجر العدسي» على حجر الجرانيت.

٤ - أكد الوصف الوثائقي أن جدار القبلة به ثلاثة محاريب أوسطها أكبرها، وهي ظاهرة لوحظ تكرارها في مساجد جرجا واخميم التي انشئت في العصر العثماني (٤٤).

٥ - حدد الوصف الوثائقي عدد أعمدة الجامع بأربعة وعشرين عمودا، وهو العدد الفعلي لأعمدة الجامع وأشارت الوصف تحديدا إلي أن بعض هذه الأعمدة من «المرمر» وبعضها من «الحجر العدسي» أي الجرانيت، وبعضها من «الحجر اليحمر» وبعضها من «الحجر الهيصم»، وبضها من «حجر الكدان» وهي أنواع من الحجر الجيري لكل مواصفاته. ويكشف هذا الوصف عن أن هذه الأعمدة حدث لها إضافة تمثلت في تقويتها بطبقة من الملاط الاسمنتي في بعض الأعمدة وعمل لبعضها الآخر «قمصان» مبينة من الآجر غير شكلها الاسطواني الى شكل مربع المسقط. ويكشف الوصف الوثائقي المحدد لنوعية الأحجار المختلفة التي شكلت منهما الأعمدة، عن أن ما ذكر من أنها جميعا من الجرانيت وصف يجانبه الصواب (٤٥).

ويكشف هذا التنوع في أعمدة الجامع وتنوع أشكالها والأحجار التي شكلت منها عدم توفر الأعمدة بكثرة في المنطقة وبالحجم الذي يناسب عمارة المساجد، وربما كان استخدام الأعمدة الخشبية في مسجد الأمير حسن باخميم والذي أنشئ سنة ١١١٦هـ/٤ .١٧م (٤٦) حلا لهذه المشكلة.

٦ - حدد الوصف الوثائقي ما كانت عليه شبابيك النوافذ بالجامع، فقد ذكر الموثق انه كان للنوافذ السفلية «شبابيك من الحديد» وللنوافذ العليا التي بلغ عدد تسع عشرة نافذة «قمريات» من الزجاج الملون بمختلف الألوان. ويلاحظ ان عدد هذه النوافذ مطابق لما بقى بالجامع قبل هدمه. ولكنها فقدت قمرياتها، ولم تشر الدراسات السابقة الى نوعية هذه الشبابيك ولا إلى المادة المصنوعة منها.

٧ - أشار الوصف الوثائقي إلى أن بناء المئذنة خارج ساحة الجامع مجاورة له من الجهة الشمالية الغربية، وهو وصف يطابق الواقع المعماري لبناء المئذنة. وتجدر الاشارة هنا إلى أن بنء المئذنة في موضع خارج ساحة المسجد مجورة له متصلة بساحة المساجد من خلال بابين احدهما بالجدار الغربي يقابل باب المئذنة. ظاهرة تكررت في مساجد الصعيد في العصر العثماني (٤٧) وتعتبر مئذنة هذا الجامع بهذا الموضع مماثلة لمآذن كثير من المساجد العثمانية الكبيرة في القاهرة أو اسطنبول وغيرها. ويبدو ان اختيار موضاع المآذن في المساجد العثمانية بهذه الهيئة كان في اطار تطبيق الاحكام الفقهية الإسلامية التي تكره ان يشغل أي جزء من ساحة الصلاة لأي غرض غيرها الصلاة (٤٨).

ومن جهة أخرى يلاحظ ان بناء مئذنة جامع الأميرين محمد وأحمد بهذه الهيئة مكن من فصل بنائها عن بناء الحائط الشمالي للجامع رغم ملاصقتها له، ويبدو ان هذا الفصل كان مقصودا من الناحية الإنشائية حيث ان بناء المئذنة بضخامته وارتفاعه كان يتطلب أساسات أعمق بينما بنيت الجدران بأساسات لم يصل عمقها إلى عمق أساسات المئذنة ومن ثم كان في فصل بناء المئذنة إنشائيا عن بناء حوائط الجامع ما يجنب أي خلل معماري كان من الممكن أن يحدث لو ارتبط بناء المئذنة ببناء جدار الجامع الملاصق لها لاختلاف ثقل البناء وضغطه عن التربة في كل منهما.

٨ - لم تشر الدراسات السابقة إلى ملحقات الجامع التي كانت تقع في الجهة الغربية، واكتفت

بالاشارة إلى وجود مساحة فضاء غربي الجامع بها ميضأة حديثة (٤٩) ولكن وثيقة الوقف – موضوع البحث – تحدد تفصيلا نوعية الوحدات المعمارية التي كانت بهذه المنطقة (٥٠) على النحو التالي:–

أ – بئر مركب على فوهتها ساقية من الخشب كانت تزود الميضأة بما تحتاج إليه من ماء، وسمح الوقفان للعامة بأخذ ما يحتاجونه من ماء البئر. ومازالت هذه البئر باقية حتى الآن. في القطاع الشمالي من المساحة الفضاء مجاورة للميضأة الحديثة من جهة الغرب.

ب – مطهرة «معدة للوضوء والتطهير وبها حنفية معدة لوضوء السادة المقلدين للامام أبي حنيفة النعمان... مركب عليها ثلاثة لوالب نحاس وبها ثمانية بيوت أخلية معدة لقضاء حاجة الإنسان، في كل بيت حوض من الحجر معد للاستنجاء» وقد وردت الاشارة الى وجود مستحم بين هذه الوحدات عندما ذكرت الوثيقة مهام سواق الساقية المكلف بإدارة الساقية المل «المطهرة والحنفية والمستحم وبيوت الأخلية» (٥١).

جـ – حوش معد لربط الأثوار وخزين التبن وكانت هذه الاثرار تدير الساقية المذكورة.

وإذا كانت الميضأة من المرافق المهمة التي جرت العادة بالحاقها بالمساجد، فإن الملفت للانتباه في عمارة ميضأة هذه الجامع هو اشتمالها على وحدتين للوضوء، الوحدة الأولى عبارة عن «حنفية مركب عليها ثلاث لوالب» ليتوضأ منها من يتبعون المذهب الحنفي، والوحدة الثانية عبارة عن «فسقية أي حوض ماء يتوضأ من مائه الشافعية والمالكية. والفارق بين الوحدتين كما هو واضح من وصفهما أن المتوضئين من الحنفية ذات اللوالب يتوضأ كل منهم من ماء مار من حوض به ثقوب مركب فيها لوالب «أي صنابير للماء» فلا يخالط المتوضئ الماء كله ولكنه يتعامل فقط مع الماء الذي ينزل من اللوالب، أما المتوضئين من الفسقية فكل منهم يخالط الماء كله بالحوض الذي يتوضأن منه والذي لم يركب له لوالب والذي يسمي «فسقية» وتناسب «الحنفية ذات اللوالب» من يتبعون المذهب الحنفي لأنهم لا يحبذون ان كيون الوضوء من مصدر مباشر واحد كالفسقية (٥٢)، وهكذا يتضح مدى انعكاس بعض الأحكام الفقهية المتصلة بالوضوء في اختلاف التصميم المعماري لوحدتي الوضوء في ميضأة هذا الجامع.

ويشير موضع البئر الذي مازال باقيا إلى أن وحدات الميضأة كانت مجاورة له أي أن الميضأة بوحداتها كانت تشغل القطاع الشمالي من المساحة الفضاء التي تقع غرب الجامع.

وقد ذكرت الوثيقة – موضوع البحث – أن من بين الوظائف التي قررها الواقفان بالجامع وظيفة لرجل «يكون متقيدا بملئ السبل وتفرقة الماء العذب يوم الجمعة وغيره على المصلين» (٥٣). ويؤمئ هذا النص وجود سبيل كان ملحقا بالجامع. وإلحاق سبيل بهذا الجامع مثال تكرر في جامع الأمير حسن بإخميم، ويعتبر ذلك ايضا استمرارا للظاهرة التي تكررت في المنشآت الدينية في العصر المملوكي ويبقى تحديد موضع السبل بالنسبة للجامع موضوع التساؤل (٤) والراجح أنه كان يقع في المنطقة الفضاء غربي الجامع وترجح انه كان يقع في القطاع الجنوبي مطلا على شارع الأمير حسن الذي يطل عليه الجامع من الجهة الجنوبية.

١٠ – ورد في الوثيقة ايضا بعض اشارات لنوعية الأثاث الخشبي بالجامع والذي يخدم الأغراض الدينية فقد كان بالجامع «منبر من الخشب النقي» (٥٤) ولكنه فقد وصنع بدلا عنه منبر حديث. كذلك كان بالمسجد دكة «لاقامة الصلوات المشروع يوم الجمعة» (٥٥).

كذلك وردت الاشارة إلى وجود «كرسي خشب لقراءة القرآن في كل يوم بعد صلاة العصر» (٥٦) حيث قرر الواقف بالجامع قرئا «من أهل الصلاح والدين يقرأ قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر من كل يوم» (٥٧) وفقد هذا الكرسي، وهو يشبه في الغالب – الكرسي الجوامعي الذي وجدت بعض أمثلته في المنشآت الدينية المملوكية ليجلس عليه قارئ القرآن يوم الجمعة قبل الصلاة (٥٨) لكنه في هذا الجامع خصص لقارئ يقرأ القرآن قبل صلاة العصر من كل يوم ولم يرد في الوثيقة – موضوع البحث – أي اشارة الى استخدام هذا الكرسي لقراءة القرآن في يوم الجمعة قبل الصلاة وانما وردت الاشارة الى توزيع الربعات الشريفة على المصلين يوم الجمعة ليقرأوا فيها ماتيسر من القرآن واتضح ذلك من خلال ما ذكر عن تعيين رجل «من أهل الصلاح يكون متقيدا بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع» (٥٩) وهذا يتضح ان وجود كرسي من الخشب في المسجد في العصر العثماني لايعني وجوده بالضرورة انه مخصص لقراءة قرآن الجمعة قبل الصلاة كما جرت العادة في العصر المملوكي وإنما يمكن ان يكون مخصصا لقراءة القرآن في أوقات أخرى وفق تقليد آخر يتميز به هذا العصر كقراءة القرآن قبل صلاة العصر في كل يوم كما حدث بها الجامع. وقد وجد نموذج جيدة لهذه النوعية من الكراسي في مساجد الأقاليم في الصعيد في مسجد عثمان بجرجا (٦٠).

الوظائف المقررة بالجامع:

اقتصرت الدراسات السابقة على الاشارة الضمنيه الى الوظيفة الأساسية للجامع وهي الصلاة. لكن وثيقة الوقف تضمنت معلومات تفصيلية عن النشاط العملي والديني الذي كان يمارس بالجامع. كما أنها ذكرت تفصيلا أرباب الوظائف الذين كانوا يقومون بأداء وخدمة هذه النشاطات، وكذلك مباشرة أوقاف الجامع ايضا.

أولا : الوظائف الدينية والعملية : (انظر الجدول رقم ١ شكل ٣)

وقفا منشئا الجامع ليكون «مسجدا جامعا لإقامة الصلوات الخمس والجمعة والجماعة والنوافل والاعتكاف والتعبد وقراءة القرآن والحديث والعلم الشريف والذكر والعبادة» (٦١) وعينا الواقفان لأداء الصلاة خطيبا ومرقيا ورئيس مؤذنين وثلاثة من المؤذنين، وحددا لكل منهم واجبات وظائفهم، وما يصرف له عند أداء هذه الوجبات سنويا من القمح الوارد من ريع الأراضي الزراعية الموقوفة على الجامع.

وقررا الواقفان بالجامع درسا للفقه المالكي، عينا للقيام بتدريسه مدرسا مالكيا، وهو ما يسير إلى اهتمام الواقفين بتدريس هذا المذهب دون غيره من المذاهب السنية، ومن بينها المذهب الحنفي دون غيره من المذاهب السنية، من بينها المذهب الحنفي الذي كان بمثابة المذهب الرسمي للدولة في هذا العصر.

وكذلك قررا الواقفان برنامجا مكثفا ومميزا لقراءة القرآن بالجامع، ويعكس هذا البرنامج من جهة أخرى تقاليد قراءة القرآن بالمساجد في هذا العصر، وهي تختلف نوعا عما كان عليه الحال في العصر المملوكي.

والبرنامج اليومي لقراءة القرآن بالمسجد ينفذه أربعة من القراء، أولهم يقرأ سورة يس صباح كل يوم بالجامع في أي محل مه، وتحديد هذه السورة بالذات كان فيما يبدو لفضلها الذي أشارت إليه تفاسير القرآن، وما ورد في شأنها من آحاديث للرسول ﷺ ومنها حديثه في فضل قراءتها في الصباح والمساء، والذي يقول فيه ﷺ «من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسي، ومن قرأها في صدر ليله أعطى يسر ليلته حتى يصبح» (٦٢). كذلك عينا الوقفان لقراءة «سورة تبارك الذي بيده الملك» (٦٣) في كل يوم وقت ما تيسر» (٦٤) وقد أشارت كتب التفاسير وأحاديث رسول الله ﷺ ايضا إلى فضل هذه السورة، فقد قال الرسول ﷺ في شأنها: هي المانعة هي

المنجية من عذاب القبر» وقال ﷺ ايضا «إن سورة من كتاب الله ماهي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتي أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة وهي سورة تبرك» (٦٥)

ومن الجدير بالذكر ان هاتين السورتين ورد ذكرهما في نوعية من المصادر العثمانية تعرف «بالمجربات» وتسجل هذه المصادر ما اشارت إليه التفاسير السابقة عن فضلهما، مع اضافة روايات تشير إلى اعتقاد أهل هذا العصر فيما يمكن ان تعين عليهي هاتين السورتين في معالجة حل بعض المشلات أو شفاء بعض الأمراض (٦٦)

كذلك عينا الواقفان قرائا لقراءة «سورة الكهف في كل جمعة» ولم يحدد الواقفان زمنا ولا مكانا معينا لذلك مثلما كان الحال في العصر المملوكي الذي جبت فيه العادة ان تقرأ فيه هذه السورة قبل صلاة الجمعة بواسطة قارئ للقرآن يجلس على الكرسي الجامعي برواق أو ايوان القبلة ويسمعه المصلون (٦٧)، واختلف هذا التقليد في العصر العثماني حيث كانت قراءة القرآن قبل صلاة الجمعة منفردة حيث يقرأ من يريد القراءة في ربعة شريفة من الربعات التي كانت توزع على المصلين.

وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة تقليد فيما يبدو ارتبط بما ورد عن فضل قراءتها في ذلك اليوم فقد ورد ان رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك «قالوا: بلى يارسول الله (ﷺ) قال: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووقى فتنة الدجال» (٦٨)

وبالاضافة الى قراءة هذه السور المحددة بعينها وفي أيام معينة وأحيانا في وقات محددة من هذه الأيام قررا الواقفان قرائا ليقرأ من القرآن على عمومه كل يوم قبل صلاة العصر «عشر قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر من كل يوم (٦٩).

الصلاة على النبي ﷺ :

عينا الواقفان رجلين من «أهل الدين والصلاة في وظيفة على النبي ﷺ كل ليلة بع دصلاة المغرب الى صلاة العشاء» (٧٠). وقد وردت في القرآن الكريم الدعوة الي الصلاة على النبي ﷺ بقوله تعالى «إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» (٧١) وقد أفردت كتب المجربات في العصر العثماني بابا لذكر فوائد تتعلق

بالصلاة على النبي، تتضمن الصيغ التي تقال في هذا الذكر كما تتضمن الاشارة الى ان افضل المواعيد لذلك جوف الليل. (٧٢) مما يشير إلى إنتشار هذه النوعية من الذكر في العصر العثماني وهو انتشار يتفق ما ما قرره الواقفان لهذه الوظيفة بجامعهما.

ثانيا : وظايف الخدمة (انظر الجدول رقم ٢ شكل ٣)

عينا الواقفان بالجامع عددا من أرباب وظائف الخدمة يقومون بخدمة المصلين وتنظيف الجامع واضاءته ليلا وتزويد ميضأته بالماء.

ومن هؤلاء رجل يقوم «بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع» (٧٣) وفي موضع آخر من الوثيقة ورد ما يشير إلى هذه الربعة بما نصه «وأما الربعة الشريفة الثلاثون جزءا المكتتب فيها القرآن العظيم فأوقفاها ليقرأ فيها القرآن في كل يوم جمعة تفرق قبل الصلاة على من يقرأ القرآن» (٧٤) ويكشف ذلك عن أن قراءة القرآن في هذا الجامع قبل العصر العثماني كانت مختلفة عن التقليد المتبع في العصر المملوكي والذي كانت قرادة قرآن الجمعة فيه تتم من خلال قارئ في مصحف جوامعي من على الكرسي الجوامعي في ايوان أورواق القبلة ويسمعه المصلون. (٧٥) والتقليد العثماني هو الذي يتبع السنة الصحيحة بشرط ألا يشوش قارئ على آخر (٧٦).

كذلك عينا الواقفان بالجامع مبخرا يبخر بالجامع في كل يوم جمعة «ويعكس هذا الأمر مدى الأهتمام بتطييب المسجد في يوم الجمعة بالذات وتبخير المسجد الجامع في يوم الجمعة تقليد عرف في مصر منذ العصر الفاطمي واستمر في العصور التالية (٧٧)

وعينا الواقفان ايضا رجلا «من أهل الدين والصلاح يكون متقيدا بالفراشة والوقادة بالجامع المذكور والمطهرة وبيوت الأخلية (٧٨) وهكذا يتضح ان وظيفة هذا الرجل تنصف على تنظيف الجامع واضاءته وفرشه وقد ورد ف بالوثيقة ايضا ما يشير الى أن الواقفين سمحا للناظر بتوفير ما يحتاجه من حصر لفرشه وحددا موعدا لذلك أوائل شهر رمضان م كل عام كنوع من الاهتمام بهذا الشهر الكريم (٧٩) كذلك سمحا للناظر بالصرف على ما يحتاجه المسجد م «والزيت والقناديل والمسارج» (٨٠) وأشارت الوثيقة تفصيلا إلى عدد قناديل الجامع فذكر ان من بينها «خمسة عشر قنديلا من داخل المسجد عشرة قناديل وعلى أبوابه ثلاثة وفي المطهرة قنديل واحد وعلى الحنفية واحد وما هو في بيوت الأخلية من المسارج في كل ليلة تسعة «وذكرت فرش المسجد واضاءته

كانت الحرص على إقامها في شهر رمضان كنوع من الاحتفال بهذا الشهر الكريم الذي يعمر بالمصلين وبخاصة في الليل.

وعينا الواقفان ايضا سواقا للساقية الملحقة بالجامع «لملأ المطهرة والحنفية ولامستحم وبيوت الأخلية» وتكفل الواقفان بمصارف اثوار الساقية وما تحتاجه من التبن والعلف وسمحا للناظر بصرف ما يحتاج اليه الامر من الخشب لتجديد السواقي بقدر الكفاية حسب ما يراه الناظر ويعاينه وكل شئ عدم من الجمال والأثوار أو آلات السواقي عليه ان يجدد عوضه من ريع الوقف المذكور لأجل البقاء والدوام لعينه ومنفعته» (٨١).

وبالرغم من ان الوثيقة لم تشر فيما ورد فيها بخصوص الوصف المعماري للجامع الى وجود سبيل إلا أنه من خلال ماورد فيها عن أرباب الوظائف يتضح إلحاق سبيل بالجامع فقد قررا الواقفان ان «مصرف لرجل يكون متقيدا بملئ السبيل وتفرقة الماء العذب في يوم الجمعة وغيره على المصلين ما جملته من القمح في كل سنة خمسة عشر إردبا» (٨٢)

وفي موضع آخر ورد في الوثيقة ما يشير الى ان الواقفين ايضا سمحا للناظر على الوقف ان يصرف ما يراه «في ثمن جمال لملئ الماء العذب وروايا وقرب» (٨٣) وهو ما يشير الي ان هذا السبيل كان له صهريج يملأ بالماء العذب من النيل في وقت الفيضان من كل عام كما جرت العادة بذلك.

ثالثا : الوظائف الإدارية (الجدول رقم (٣) شكل ٣)

عينا الواقفان لإدارة وقفهما على الجامع إدارة مباشرة شادا يتولى إدارة ارقاف الجامع ورعاية مصالحه رعاية مباشرة حيث ورد في الوثيقة ما يشير الي ذلك بما نصه ما يصرف لرجل يكون شادا في الجامع المذكور على مصالح الجامع وعلى الخدمة والوظائفية لأجل الحث علي العمل بمقتضى شوط الوفية ما جملته من القمح عشرة أرادب» (٨٤) كذلك عينا الواقفان ناظرا للوقف وقررا ان تيولى هذه الوظيفة «م يكون باش جاويش مستفظان حالا مصر المحروسة» (٨٥) وهكذا تضيف هذه الوثيقة نموذجا آخر الى اصحاب الوظائف المهمة الذين تولوا نظارة بعض الأوقاف والذين حرص الواقفون على ان يتولوا هذه الوظيفة في أوقافهم كوالي مصر «الباشا» وقاضي القضاة والدفتردار وأغا باب السعادة (٨٦).

نص الوثيقة

ص والسلام على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أولي المفاخر والعلا المخصوصين بالمكارم والولا، صلاة وسلاما دائمين مستمرين بين الملا وبعد فإن أحق ما صرف إله العاقل عنايته ووجه إليه قصده وإرادته وبذلك فيه ذو البصيرة جهده واتخذه القطن ليوم الوعيد عدة عمل يكون له عند السفر الطويل زادا، وعند (ص٢) توسد الجندل مهادا، وقربة يستظل العبد بظلها، ويأمن ببركتها «يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها» (٨٧) وحسبك تنبيها على شرف رتبها العالية قوله ﷺ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث وعد منها الصدقة الجارية وقف نصب لتلاوة كتبا الله العزيز بناؤه، ورحب (ص٣) للمتعبدين فناؤه وخفق للطالب المنقطع من أبوابه وقته رجائه، وظهرت فيه باقامة الصلوات معالم الدين وشعاره، وارتفع بالاعلان بالآذان والذكر مناره، وأجرى فيه كل كبد حراء من المناهل العذبة مايروي به قوامه ولما كان الواقفان الآتي اسمهما الكريمين فيه ممن انتظما في سلك المتصدقين وسلكا (ص٤) طريق المحسنين حين سمعا قوله تعالى «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» (٨٨) وتأملا ماورد عنه ﷺ من بني مسجدا ولو كمفحص قطاة بني الله له بيتا في الجنة وغبا في تحصيل القربات وطمحت نفسهما النفسية الي اكتساب المثوبات (ص٥) وبادرا الي اغتنام الخيرات واختار الواقفان ذلك من سائر وجوه المبرات إذ هو أنفع الوسائل في الذخائر عند قاضي الحاجات ومجيب الدعوات واستخارا الله تعالي الذي ما خاب من استخاره وأشهدا علي نفسها الزكية حرسهما الله من آفة وبلية هما الجنابان المكرمان العظيمان الأمجدان الأمير محمد والأمير أحمد ولدا المرحوم الأمير حسن بن الأمير حمد بن (ص٦) المرحوم الأمير بونس من أولاد الأمير عمر عين أعيان الأمراء بولاية الصعيد الأعلى سابقا تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه بحبوحة جناته شهودهما اشهادا صحيحا شرعيا ومنحا بكمال محبتهما وطواعيتهما واختيارهما ورغبتهما في الخير وإرادته لديسيدنا مولانا شيخ مشايخ الإسلام أشرف الموالي العظام صدر العلماء الأعلام قاضي القضاة (ص٧) الراجي كرم ربه رضاه الآمل منه وجوده ونعماه الناظر في الأحكام الشرعية بمصر المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه أنهما وقفا وحبسا وأبدا وتصدقا بما هو جار بيدهما وفي ملكهما وانشاذهما وعماوتهما من مال روكيتما (٨٩) وفي تصرفهما إلى يوم تاريخه على الحكم الآتي بيانه وذلك جميع بنا المسجد المستجد (ص٨) الانشاء والعمارة المعمور بذكر الله تعالى

الكائن بناحية إخميم م جهتها الشرقية المجاور إلى سوق الناحية مسجدا تقام فيه الصلوات الخمس والنوافل ويعتكف فيه وتنشأ فيه العبادات وتقام فيه الجمعة والجماعات والذكر والقرآن مشتملا على ثلاثة أبوب أحدهما بحري عتبته حجر عدسي وواجهته كذلك حجر عدسي وعليه (ص٩) باب بدرفتين من الخشب النقي يصعد له بأربع درجات سلم من الحجر المنحوت المدور والباب الثاني شرقي عتبته حجر عدسي وواجهته كذلك حجر عدسي عليه باب بدرفتين من الخشب النقي يصعد له بأربع درجات سلم من الحجر المنحوت المدور والباب الثالث غربي عتبته وواجهته من الحجر الكدان يصعد له بثلاث درجات سلم يدخل من الأبواب المذكورة إلى مسجد (ص.١) جامع مبني من جهاته الأربع بالحجر النحيت (٩٠) من أعلاه إلى أسفله مشتمل على ثلاثة محاريب أحدهما كبير على يمينه ويساره عامودان حجر نحيت من الحجر الكدان (٩١) وبالمسجد المذكور منبر من خشب نقي يقابله دكة من خشب نقي كذلك وبه أربعة وعشرون عامودا حجرا البعض منها من الحجر المرمر والبعض منها من الحجر العدسي (ص١١) والبعض من الحجر البحمر (٩٢) والبعض من الحجر الهيصم (٩٣) والبعض من الحجر الكدان مقام عليها سقف الجامع المذكور الذي هو من خشب النقي مدهون بالهدان الأخضر والأحمر مشتمل الجامع المذكور على شبابيك حديد من جهته البحرية والشرقية والغربية ومشتمل ايضا على تسعة عشر طاقة مركب بها القمريات الزجاج المنوع(ص١٢) مختلفة الألوان ومشتمل على المنارة المعدة للاعلام بدخول وقت الصلوات بالأذان عليها المتوصل إليها للوضوء والتطهر وبها حنفية (٩٤) معدة لوضوء السادة المقلدين للامام أبي حنيفة النعمان (٩٥) نفعنا الله به مركب عليها ثلاثة لوالب (ص١٣) نحاس وبها ثمانية بيوت أخلية معدة لقضاء حاجة الإنسان، وفي كل بيت منها حوض من الحجر معد للاستنجاء وبها فسقية (٩٦) معدة لوضوء الشافعية والمالكية تشتمل المطهرة المذكورة على أربعة أعمدة من الحجر مقام على سقفها وعلى البئر ماء المعين الركب على فوهتها ساقية من خشب كاملة العدة والإدارة المعدة إلى ملئ الفسقية والحنفية (ص١٤) وحياض بيوت الأخلية ومما اشتملت عليه الساقية حوش معد لربط الأثوار وخزين التبن وما هو معد لها وداخل بها ومنسوب إليها يتوصل للمطهرة المذكورة من باب المسجد من الجهة الغربية وجميع ثلاث قطع أرض طين سواد صالحة للزرع والزراعة، ملكا مجاورة لبعضها أحياسية محددة محجزة كاينة ذلك (ص١٥) الرزق بولاية الأخميمية (٩٧) بموجب الافراجات الديوانية والتذاكر المسطرة باللغة التركية والمراسيم المتوجم عليها بالعربية المسطرة من ديوان مصر المحمية الشاهدة للواقفين المذكورين بالتقرير في ذلك وبموجب مرسوم (ص١٦) كريم مؤرخ في تاريخ رابع عشر محرم الحرام افتتاح سنة تسعين وألف مسطر ذلك المرسوم من ديوان

الأرزاق بمصر المحروسة وبموجب التذكرة المسطرة باللغة التركية في تاريخه المذكور حسب البيورلدي(٩٩) الشريف الصادر في التاريخ المبدا بذكره وقدر ذلك الطين ثلاث قطعمتجاورات بالناحية والملك والطينة. ولذلك الطين المذكور (ص١٧) حدود أربع الحد القبلي ينتهي إلى الحميدية (١٠٠) وقف الأثر النبوي، وبعضه إلي الساحل والحد البحري إلى أراضي ناحية البيار (١٠١) والحد الشرقي ينتهي إلى الجبل والحد الغربي ينتهي إلى البحر الأعظم خلا عا استثني فيه المشتمل ذلك على كامل الأراضي المذكورة بالناحية الشاهدة لهما بذلك حجة التحديد المؤرخة في سادس عشري شهر رمضان المعظم (ص١٨) من شهور سنة تسعة وثمانين وألف المسطرة من ديوان محروسة دجرجا (١٠٢) من حضرة شيخ الإسلام محرر القضايا والأحكام القاضي محمد (١٠٣) الواضع خطه وختمه عليها بتحديد الطين المذكور علي أصوله وحدوده القديمة من غير زيادة ولانقصان في ذلك وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا قائما على أصوله ومحفوظا على شروطه (ص١٩) لايباع ولايوهب ولايرهن ولايناقل به ولابعضه قائما على أصوله أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أنشأ الواقفان المذكوران ضاعف الله لهما الأجور والرضوان وقفهما هذا مسجدا جامعا لاقامة الصلوات الخمس والجمعة والجماعة والنوافل والاعتكاف والتعبد وقراءة القرآن (ص٢٠) والحديث والعلم الشريف والذكر والعبادة وما يتعلق بالمسجد المذكور من منبر وذكة خشب وغير ذلك من أعمال البر كربعة وقراءة كرسي وما سيذكر وما سيذكر أما المنبر فأوقفاه لاقامة الخطبة المشروعة في كل جمعة وما شرعت له الخطبة من العيدين وغيرهما وأما الذكة فلاقامة الصلوات المشروعة يوم الجمعة وغيرها وأما الربعة الشريفة (ص٢١) الثلاثون جزءا المكتتب فيها القرآن العظيم فأوقفاها ليقرأ فيها القرآن في كل يوم جمعة تفرق قبل الصلاة على من يقرأ القرآن وأما الكرسي الخشب فلقراءة القرآن في كل يوم بعد صلاة العصر وأما المنارة فللإعلام بالآذان في الأوقات المشروعة والتسبيح والتهليل وقت السحر في كل ليلة وأما المظهرة والحنفية فللوضوء والتطهير (ص٢٢) وأما البي وساقيتها فأوقفاها وأبداها لنقل الماء إلى المظهرة والحنفية والمستحم (١٠٤) ويبرت الأخلية لأجل الوضوء والغسل والتطهير وأبحا ضاعف الله لهما الأجر أخذ الماء من البئر المذكورة لكل من احتاج إليه من المسلمين ينتفع به ويتصرف فيه بسائر وجوه التصرفات المباحة شرعا اغتناما للثواب وأما الثلاث قطع الرزق (ص٢٣) المتقدم ذكرها فأوقفاها ليصرف من ريعها ومحصول غلتها بعد العمارة والترميم لعين الوقف المذكور وأصلاح جسوره وما فيه من ابقاء عينه والدوام لذاته فمن ذلك ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون خطيبا (١٠٥) بالجامع من خراج الرزق المذكور

في كل سنة عشرة أرادب قمحا ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون مرفيا (١٠٦) (ص٢٤) عند صعود الخطيب إلى المنبر في كل سنة ما جملته من القمح أربعة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون رتيبا على المؤذنين (١٠٧) في يوم الجمعة في كل سنة ما جملته من القمح خمسة أرادب ومنها ما يصرف إلى ثلاثة أنفار من أهل الدين والصلاح يكونون مؤذنين (١٠٨) بالجامع على المنار في كل سنة ما جملته خمسة عشر اردبا قمحا لكل (ص٢٥) واحد خمسة أرادب ومنها ما يرصف لرجل من أهل العلم والدين يقرأ الحديث الشريف بالجامع المذكور في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان ما جملته من القمح ثمانية أرادب (ص٢٧) إلى رجل من أهل العلم والإصلاح يقرأ العلم الشريف والفقه على مذهب الإمام مالك(١٠٩) في كل يوم في كل سنة ما جملته من القمح (ص٢٦) عشرة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يقرأ عشر قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر في كل يوم ما جملته في كل سنة خمسة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون متقيدا بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع ما جملته من القمح في كل سنة خمسة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين يكون بوابا بالجامع ما جملته من القمح في كل سنة خمسة أرادب ومها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون متقيدا بالقراشة والوقادة بالجامع المذكور والمطهرة في وظيفة الصلاة على النبي ﷺ في كل ليلة بعد صلاة المغرب إلي صلاة العشاء ما جملته في كل سنة عشرة أرادب ومنها ما يصرف لرجل يكون سواقا على الساقية (١١٠) لملأ المطهرة والحنفية والمستحم وبيوت الأخلية ما جملته في كل سنة من القمح عشرة أرادب ومنها ما يصرف لرجل (ص٢٩) يكون متقيدا بملئ السبيل (١١١) وتفرقة الماء العذب في يوم الجمعة وغيره على المصلين ما جملته من القمح في كل سنة خمسة عشر أردبا ومنها ما يصرف لرجل صحائف النبي ﷺ وأصحابه والمسلمين ثم في صحائف مولان السلطان نصره(ص.٣) الله والغزة والمجاهدين في البر والبحر من المسلمين ثم في صحايف الواقفين المذكورين أعلاه (١١٢) حفظهما الله ما جملته من القمح في كل سنة عشرة أرادب وقرر في قرادة ذلك الشيخ العالم الفاضل التالي لكتاب الله تعالى الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ عمار مدة حياته ثم أولاده من بعده ثم أولادهم كذلك ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والعلم (ص٣١) والصلاح في نظير قرادة سورة الكهف في كل يوم جمعة في أي مكان يتيسر ويختمها بالدعاء ويهدي ثواب ذلك إلى صحائف النبي ﷺ والصحابة والتابعين ثم في صحايف مولانا السلطان نصره (الله تعالي) وجميع المسلمين ثم في صحائف الواقفين المتقدمين حفظهما الله ما جملته من

القمح في كل سنة عشرة أرادب وقرر في ذلك الشيخ العالم الفاضل الشيخ محمد (ص٣٢) النفراوي (١١٣) ومنها ما يصرف لرجل من أهل العلم والصلاح في نظير سورة تبارك الذين بيده الملك في كل يوم وقت ما تيسر في أي محل يتيسر ويهدي ثواب ذلك في صحائف النبي ﷺ وصحابته والتابعين ثم في صحايف مولانا السلطان نصره الله تعالى ثم في صحايف الواقفين أعزهما الله ما جملته من القمح في كل سنة خمسة أرادب وقرر في ذلك (ص٣٣) الشيخ العالم الشيخ محمد حمود ما يصرف لرجل يكون شادا (١١٤) في الجامع المذكور على مصالح الجامع وعلى الخدمة والوظائفية لأجل الحث على العمل بمقتضى شرط الوقفية ما جملته من القمح عشرة أرادب ومنها ما يصرف الى الناظر (١١٥) المحسبي في نظير تقيده بخدمة الوقف المذكور في كل سنة ما جملته من القمح أربعون أردبا وقرر الواقفان في ذلك كل من يكون باش جاويش (ص٣٤) مستحفظان (١١٦) حالا مبصر الحروسة ومنها ما يصرف كل سنة من الناظر من محصول خراج الرزق المذكورة قدر الكفاية من الزيت والقناديل والمسارج للجامع المذكور وبيوت الأخلية ما هو خاص بالجامع في كل ليلة بعد صلاة المغرب عدة قناديل خمسة عشر من داخل المسجد عشرة قناديل وعلى أبوابه ثلاثة وفي المطهرة قنديل واحد وعلى الحنفية واحد (ص٣٥) وما هو في بيوت الأخلية من المسارج في كل ليلة تسعة والزيادة في الزيت والقناديل في شهر رمضان خاصة بحسب ما يراه الناظر المتولي صوابا في ذلك الوقت وعلى الناظر ايضا حسب الكفاية في فرش الجامع من الحصر في كل سنة ما يكفيها في أوائل شهر رمضان المعظم قدره وعلى الناظر ايضا ان يرصف في ثمن جمال لملئ الماء (ص٣٦) العذب وروايا وقرب وأثوار للسواقي وعلف فول وتبن للجمال والأثوار وما يحتاج الأمر إليه من الخشب لتجديد السواقي بقدر الكافية حسب ما يراه الناظر ويعاينه وكل ما عدم شئ من الجمال والأثوار أو آلات السواقي عليه ان يجدد عوضه من ريع الوقف المذكور لأجل البقاء والدوام لينه ومنفعته وما (ص٣٧) فضل بعد ما ذكر سابقا أعلاه، يتصرف فيه الواقفان مدة حياتهما أحياهما الله الحياة الطيبة ثم من بعد كل منهما يتصرف فيه أولادهما بالسوية ثم أولاد أولادهما ثم أولاد أولاد أولادهما ثم ذريتهم ونسلهم وعقبهم طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل تحجب الطبقة العليا منهم (ص٣٨) الطبقة السفلي من نفسها دون غيرها بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره الذكر والأنثى في ذلك سواء من أولاد الظهور دون أولاد البطون فإن مات أحد منهم عن غير عقب تصرف الباقون ثم من بعد انقراضهم أجمعين يتصرف في فائض الريع المذكور من يوجد من أولاد البطون على النص والترتيب المشروح في أولاد الظهور (ص٣٩) ثم من بعد إنقراضهم أجمعين يتصرف في ذلك ويتولى عليه

من يوجد من عتقا الواقفين (١١٧) الأرشد فالأرشد ثم من بعد كل منهم على أولادهم الأرشد فالأرشد وعلى ذريتهم ونسلهم وعقبهم كذلك الأرشد فالأرشد فإذا انقرضوا بأسرهم وابادهم الموت عن آخرهم ولم يبق منهم أحد صرف ريع ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين (ص.٤) اينما كانوا وحيث ما وجدوا إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وشرط الواقفان الموما إليهما أعلاه في وقفهما هذا شرطا حث عليها وأكد على المصير إليها منها أنهما شرطا وجعلا النظر والتحدث والولاية على وقفهما هذا على نفسهما مدة حياتهما أحياهما الله الحياة الطيبة ومنها أنهما (ص٤١) شرطا لأنفسهما في وقفهما هذا الادخال والاخراج والزيادة والنقصان والاعطاء والحرمان والتغيير والتبديل والاستبدال يفعلان ذلك كلما أراد فعله ويكرراه المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وليس لأحد من بعدهما من النظار فعل شئ من ذلك لاتغيرا ولاتبديلا ومنها أنهما شرطا التقرير في الوظائف (ص٤٢) المذكورة للناظر على ذلك الوقف أنهما شرطا ان من مات من أرباب الوظائف يقرر مكانه الناظر من يري فيه الاصلاح والأهلية لذلك ومنها أنهما شرطا علي كل ناظر على هذا الوقف ومتكلم عليه ان يكون محسنا لأرباب الوظائف وان يصرف معاليهم مهيأة حسنة ميرة في أوان الوجوب والاستحقاق كاملة ولايحبسن عنهم (٤٣) معاليهم ليخرجهم إلى الاستدانة بل يعجل دفعها لهم ومنها انهما شرطا ان لايؤجر وقفهما المذكور ولاشئ منه بودن زجرة المثل ولا أكثر من ثلاث سنوات ولايؤجر للمتجوه ولايدخل عقدا على عقد حتى ينقض العقد الأول ومن فعل خلاف ذلك من النظار كان معزولا قبل ذلك بشهر ومنها أنه يبدأ من ريعه بعمارته وترميمه (ص٤٤) وما فيه البقاء لعينه والدوام لذاته واصلاح أرضه وجسوره ولو صرف في ذلك غالب غلته ومنها ان ارباب الوظائف يسدون في وظائفهم بأنفسهم إلا لعذر شرعي من مرض وسفر وغيرهما فقد تم هذا الوقف وانحسم ونفذ حكمه وانبرم وصار وقفا من أوقاف الله الأكيدة «فمن بدله (ص٤٥) بعدما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم (١١٨) ومن سعي في ابطاله أوابطال شئ منه كان الله طليبه وحسيبه ومجازيه بفعله يوم التناد يوم عطش الأكباد يوم يكون الله هو الحاكم بين العباد «يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (١١٨) لايحل لامرء يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم انه إلى ربه الكريم (٤٦) صائر أن يغير هذا الوقف من سعي في إبقائه واقامة شعائره وبقائه في يد مستحقه أو اعان على ذلك يرد الله مضجعه ولقنه حجته وجعله من الآمنين الفرحين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ورفع الواقفان عن هذا الوقف يدي الحيازة ووضعا عليهي يدي النظر والولاية وسلماه لمثول شرعي إلى أن يتم أمر التسجيل وتسلمه (ص٤٧) المتولي المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة التسليم شرعا

ووقع الأجر في ذلك على الله الكريم لمثول وثبت الاشهاد على الواقفين المذكورين بما نسب اليهما من الوقف والشروط على الشرح والنمط المبسوط بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا محررا مرضيا ثم عن للواقفين المذكورين الرجوع عن هذا الوقف ورده إلى التصرف كما كان (ص٤٨) متمسكين في ذلك بعدم اللزوم على قول الامام الأعظم والمجتهد المقدم صاحب الأقوال الشريفة والشيم المرضية المنيفة الامام أبي حنيفة ابن ثابت الكوفي جوزي بكمل خير وكوفئ فعارضه المتولي المذكور في ذلك متمسكا بلاصحة واللزوم على قول الامامين الصاحبين الامام أبي يوصف يعقول والامام محمد بن الحسن الشيباني (١٢٠) (ص٤٩) رحمة الله تعالى عليهم أجمعين وتازعا في ذلك وترافعا لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه فنظر بينهما نظرا دقيقا وتأمله تأملا شافيا حقيقا فعاين في جانب الوقف رجحانا قويا وبرهانا واضحا جليا فاستخار الله تعالى وحكم بصحة الوقف ولزومه في خصوصه وعمومه عالما بالخلاف الواقع بين الأئمة الأسلاف في شأن (ص٥٠) الأوقاف وأشهد علي نفسه الكريمة بذلك وعزل المتولي المرقوم على هذا الوقف وأبقاه تحت يدي الواقفين المذكورين ينظران فيه بأنفسهما على الوجه المشروح ويقتضي ذلك صار وقفا الآخر ان يغيره أو يبدله (ص٥١) أو يسعى في ابطال هذا الوقف أو شئ منه فمن فعل ذلك كان الله طليبه وحسيبه ورقيبه ومجازيه بعمله يوم التناد يوم عطش الأكباد يوم يكون الله هو الحاكم «بين العباد» «يوم لاينفع ما لومالبنون إلا من أتى الله بقلب سليم» ومن سعى في ابقاذه على ماهو عليه الآن وصرف ريعه في مصاريفه الشرعية وسعى في تأييد هذا الوقف وصونه عن يتعرض له بمكروه يرد الله (ص٥٢) مضجعه وتغمده برحمته ولقنه حجته وجعله من الآمنين الفرحين المستبشرين الذين الذي لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فمن بدله بعد ما سمعه «فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم» حرر ذلك ونجز في سابع عشر من شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعين وألف.

هوامش البحث

١ – هذه الوثيقة محفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٥. وقد عثرت عليها مستعينا بالفهرس الذي اعده الدكتور دانيال كريسليوس للوثائق العثمانية، وهي في هيئة كتاب وفقد الجزء الأول منها، ومكتوبة بالخط النسخ العثماني بالحبر الأسود واستخدم الحبر الأحمر في كتابة بعض الكلمات التي تشير إلى أهمية نص الكلمة انظر لوحة (٢،١).

٢ – اقتصرت الدراسات السابقة على تقديم دراسة وصفية للجامع من خلال عناصره ووحداته الباقية، ولم تعتمد على الوثيقة كمصدر اساسي للتعرف على الجوانب التاريخية والمعمارية الإنشائية والوظيفية للجامع لعدم اهتداء الباحثين لها عند اعداد هذه الدراسات.

٣ – محمد عبد الستار عثمان: إخميم في العصر القبطي والإسلامي. دراسة أثرية تاريخية الاسكندرية سنة ١٩٨٢. ص ١٠٠. جمال عبد الرؤوف عبد العزيز: مساجد مصر العليا الباقية. ماجستير مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م ص ١٢٢.

٤ – عثمان : ص ١٠٠ ، عبد العزيز : ص ١٣٠

٥ – وثيقة وقف الأميرين محمد وأحمد رقم ١٣٢٥ ، ص ص ٥ – ٦ .

٦ – دار جدل كبير بين المؤرخين حول أصل هذه القبيلة فبعضهم يرى أنها عربية الأصل وهاجرت إلى شمال افريقية وجاءت بعض بطونها الى مصر، وبعضهم يرى انها بربرية الأصل وجاءت بعض بطونها من المغرب الي مصر (للاستزادة راجع: المقريزي) (تقى الدين احمد بن علي ت٨٤٥هـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب. مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل. تحقيق وتأليف عبد المجيد عابدين. نشر دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية سنة ١٩٨٩، ص ص ٥٦ – ٥٨. ليو الافريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي) وصف افريقية. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. نشر: دار الغرب الإسلامي. بيروت سنة ١٩٨٣ القسم الأول ص ص ٣٦-٣٨. القسم الثاني ، ص ٢٣٨.

٧ – المنشاة من اقدم البلاد المصرية، وعرفت بهذا الاسم في العصر الفاطمي بعد ما هجر سكانها الموقع القديم وأقاموا بلدة جديدة عرفت بالمنشاة لحداثة مبانيها وحرفت الى المنشية في بعض المصادر (للاستزادة راجع محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء

المصريين سنة ١٩٢٥). دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠ ص ١٠٩-١١١.

٨ - ليو الافريقي : المصدر السابق . القسم الثاني ص ٢٣٨.

٩ - المقريزي : المصدر السابق : ص ٨٥.

١٠ - محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق . ص ص ٦١ - ٦٧.

١١ - محمد عبد الستار عثمان : المرجع نفسه ص٩٦، ص٣٨، جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق. ص. ١٥.

١٢ - الوثيقة ص ٥٢.

١٣ - ورد اسمه في اصادر والدراسات التاريخية منسوبا إلى إخميم حيث عرف بحسن الإخميمي، وأشارت بعض الدراسات الي محاربته احيانا لقبيلة هوارة في الصعيد بما يوحي بأنه لم يكن منهم (ليلى عبد اللطيف أحمد: الصعيد في عهد شيخ العرب همام. نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧ ص ٩٤.

١٤ - ليلى عبد اللطيف : المرجع نفسه ص ٦٤.

١٥ - ليلى عبد اللطيف : المرجع نفسه ص ٦٤.

١٦ - الوثيقة ص ١٥.

١٧ - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ١٠١، جمال عبد الرؤوف: المرجع السابق ص١٢٢.

١٨ - الوثيقة ص ٥٢.

١٩ - انظر لوحة رقم (٣).

٢٠ - الوثيقة ص ٦.

٢١ - الوثيقة ص ٣٠.

٢٢ - الوثيقة ص ١٥.

٢٣ – الوثيقة ص ١٦.

٢٤ – محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في لاعصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١ ص ص ٣٧-٤٢.

٢٥ – الوثيقة ص ١٥.

٢٦ – بيورلدي تعني «أمر» من المصدر التركي بيورمق أي يأمر [للاستزادة راجع : أحمد السعيد سليمان – تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل. دار المعارف سنة ١٩٧٩ ص ٤٩ ومابعدها].

٢٧ – الوثيقة ص ١٦.

٢٨ – محمد عفيفي: المرجع السابق ، ص ص ٧٧-٧٨.

٢٩ – الوثيقة ص ١٦ ، ويلاحظ ان الوثيقة اسمته «ديوان الأرزق».

٣٠ – الوثيقة ، ص ١٥.

٣١ – ابن عابدين [محمد أمين] حاشية رد المحتار على الدار المختار . د.ت. د.ن. جـ٣ ص٤٠٤.

٣٢ – الوثيقة ص ٥٠.

٣٣ – ابن عابدين : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٣١-٣٣٢.

٣٤ – ابن عابدين : المصدر السابق، جـ٣ ص٣٧٣.

٣٥ – الوثيقة ص ٤٧.

٣٦ – على سبيل وثيقتي وقف عبد الباقي جوربجي أوقاف ٢٣٣٨، ٢٣٨٤، الوثيقة رقم ٢٧٥١ أوقاف.

٣٧ – الوثيقة ص ٨.

٣٨ – أنشئت أسواق مدن الصعيد على هئة قيساريات الشوارع المغربية والأندلسية فهي عبارة عن شارع تجاري تتفرع منه شوارع فرعية وتطل عليها الحوانيت والوكات ومرتبة أنواع التجارات فيها ترتيبا ملتزما بالقاعدة الإسلامية لاضرر ولاضرار، راجع [محمد عبد الستار

عثمان) المدنية الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة. الكتاب رقم ١٢٨. الكويت سنة ١٩٨٩، ص٢٦٢.

٣٩ – محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ١٠٠، جمال عبد الرؤوف الرجع السابق. ص١٢٢.

٤٠ – انظر لوحة ٥،٤ وشكل ٢،١، (للأسف الشديد قد تم هدم الجامع بعدما رأت لجنة من هيئة الآثار تسجيل المئذنة فقط).

٤١ – الوثيقة : ص ص ٨ – ٩.

٤٢ – جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق ص ١٢٦.

٤٣ – هدايت تيمور علوي: جامع الملكية صفية. دراسة أثرية معمارية. ماجستير مقدمة لكلية الآثار. جامع القاهرة سنة ١٩٧٧ ص١٥٩.

٤٤ – محمد عبد الستار عثمان: جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني. مجلة دراسات أثرية إسلامية. القاهرة سنة ١٩٨٨ المجلد الثالث. ص.ص ٢٤٦-٢٤٨، جمال عبد الرؤوف: المرجع السابق: ص ص ٣٥٤ – ٣٥٦.

٤٥ – جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق : ص ١٢٧.

٤٦ – محمد عبد الستار عثمان : إخميم في العصرين القبطي والإسلامي : ص ص ٧٩ – ٨٠.

٤٧ – محمد عبد الستار عثمان : إخميم ص ٨١ ، ص ١٦٤ ، وللباحث نفسه: جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢٣٦ ، جمال عبد الرؤوف : ص ٢٠٠.

٤٨ – حسن ابراهيم السقا : المنهل العذب لكل وارد في بيان فضل عمارة المساجد. المطبعة الأدبية. القاهرة. د.ت.ص ١٧.

٤٩ – جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق ص ص ١٣٥ – ١٣٦.

٥٠ – الوثيقة : ص ص ١٢ – ١٣.

٥١ – الوثيقة ص ٢٨ .

٥٢ – ابن عابدين : المصدر السابق ق ١ ص ١٣٠ – ١٣٢، الشافعي {أبي عبد الله محمد ادريس ت ٢٠٤هـ} الأم. نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة. طبعة مصورة من طبعة بولاق سنة ١٣٢١هـ. جـ١. ص ٣٩ ، ص ٤٦.

٥٣ – الوثيقة : ص ٢٩.

٥٤ – الوثيقة : ص ٢٠.

٥٥ – الوثيقة : ص ٢٠.

٥٦ – الوثيقة : ص ٢١.

٥٧ – الوثيقة : ص ٢٦.

٥٨ – محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة – رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لكلية الآداب بسوهاج جامعة أسيوط سنة ١٩٨٠. ص ص ٢٦٥ – ٢٦٨.

٥٩ – الوثيقة : ص ٢٤ .

٦٠ – محمد عبد الستار عثمان : جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ص:٢٣٢-٢٦٢.

٦١ – الوثيقة : ص ص ٢٩ – ٣٠.

٦٢ – القرطبي { أبي عبد الله محمد الأنصاري } : الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني. د.ن. سنة ١٩٦١. المجلد الثامن جـ١٥. ص ص ٣ – ٤.

٦٣ – هي سور «الملك» وهي السورة رقم (٦٧) من سور القرآن الكريم.

٦٤ – الوثيقة : ص ٣٢.

٦٥ – القرطبي : المصدر السابق. المجلد التاسع . جـ٨. ص ٢٠٥، محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. نشر: دار القرآن الكريم. بيروت. سنة ١٩٨١. القسم ١٩. ص٥.

٦٦ – للاستزادة راجع: أحمد الديربي: مجربات الديربي، وبهامشه مجربات أبي عبد الله محمد

بن يوسف السنوسي. نشر مكتبة: محمد علي صبيح وأولاده. ص١٥، وعن سورة الملك راجع نفس المصدر: ص. ٢.

٦٧ – محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية. ص ٢٦٨.

٦٨ – للاستزادة : راجع القرطبي: المصدر السابق. المجلد الخامس، الجزء العاشر. ص ٣٤٦.

٦٩ – الوثيقة : ص ٢٦، وعرفت وظيفة قارئ عشر في العصر المملوكي بتقليد مختلف حيث كان يقرأ عشر من القرآن قبل الدرس وبعده وفي الغالب يقرأ من القرآن ما يناسب الحال {للاستزادة: راجع السبكي { أبي نصر عبد الوهاب} معيد النعم ومبيد النقم. صححه وطبعه داود ولهلم موهرمن. ليدن سنة ١٩٠٨ ص ١٥٦.

٧٠ – الوثيقة : ص ٢٨

٧١ – قرآن كريم : سورة الأحزاب . آية رقم ٥٦.

٧٢ – الدربي : المصدر السابق : ص ٣٩.

٧٣ – الوثيقة : ص ٢٦.

٧٤ – الوثيقة : ص ٢١.

٧٥ – محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية : ص ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

٧٦ – محمد جمال الدين القاسمي: إصلاح المساجد من البدع والعوائد، نشر المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٣٣٩هـ ص ص ١٢٣ – ١٢٤.

٧٧ – للاستزادة راجع : نادية حسن أبو شال : المبخرة في مصر الإسلامية. دارسة حضارية أثرية. ماجستير غير منشورة مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة. سنة ١٩٨٤، ص ص ٤ – ٦.

٧٨ – الوثيقة : ص ٢٧.

٧٩ – الوثيقة : ص ٣٥.

٨٠ – الوثيقة : ص ٣٤ – ٣٥.

٨١ – الوثيقة : ص ٣٦.

٨٢ – الوثيقة ص ٢٩.

٨٣ – الوثيقة : ص ٣٦

٨٤ – الوثيقة : ص ٣٣.

٨٥ – الوثيقة : ص ص ٣٣ – ٣٤.

٨٦ – محمد عفيفي : المرجع السابق : ص ٩٣.

٨٧ – قرآن كريم : سورة الحج، آية رقم ٢.

٨٨ – حديث شريف رواه أحمد {راجع تقي الدين أبي بكر بن زيد الجراعي الحنبلي ت ٨٨٣هـ} تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد : المكتب الإسلامي. بيروت. سنة ١٩٨١. ص ٨١.

٨٩ – مال الروك وهو المال المشاع، وهي من الفعل راك ومصدرها روك: عدد مساحة الأراضي وقد ثمنها. {للاستزادة راجع رنهارت دوزيه: تكملة المعجم. ترجمة محمد سليم النعيمي.دار الرشيد للنشر بغداد سنة ١٩٨١ ص ٢٥٥.

٩٠ – الحجر النحيت أي الحجر الذي سويت جوانبه بعد قطعه وان الاحجار قام بتهذيبه وجعله أملسا مصقولا {محمد أمين، ليلى ابراهيم. مصطلحات معمارية في الوثائق المملوكية القاهرة. مطبعة الجامعة الأمريكية سنة ١٩٩٠ ص ٣٣.

٩١ – الحجر الكذان كلمة عامية والأصل كذان وهو نوع من الحجر الجيري يختلف لونه باختلاف المحاجر المستخرة منها من اللون الابيض الى اللون الأصفر الى الأحمر حسب الأكاسيد المعدنية التي يحتوي عليها. {محمد أمين، ليلى ابراهيم، المرجع السابق: ص٣٣.

٩٢ – نوع من الحجر الجيري يميل الى اللون الأحمر لارتفاع نسبة اكسيد الحديد فيه، وقد تبين من محض أعمدة الجامع بين هدمه أن من الأمدة المقطوعة من الحجر الجيري ما مال لونه الى اللون الأحمر بما يؤكد هذه الوف الوثائقي.

٩٣ – الحجر الهيصم هو نوع من الحجارة غليظ شديد الصلابة وهو من أجود أنواع الحجر {محمد أمين ، ليلى ابراهيم : المرجع السابق ص ٣٤.

٩٤ – الحنفية : صنبور ، أنبوبة ذات لولب تزج في ثقب الحوض ليجري منها الماء والكلمة مولده

[دوزيه: المرجع السابق، جـ٣. ص ٣٥٣، هامش ٦٣١. وفي اطار هذا التفسير اللغوي يتضح ان الحنفية المذكورة عبارة عن حوض به ثلاث صنابير يجري منها الماء لاستخدامه في الوضوء.

٩٥ - هو أحد أئمة الفقه الإسلامي هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ولد سنة ٨٠هـ/٦٩٩م وتوفى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م [للاستزادة راجع عبد الحليم الجندي - أئمة الفقه الإسلامي: أبو حنيفة ، الشافعي ، مالك ، ابن حنبل. نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة سنة ١٩٧٢. ص ص١٩ - ٣٧.

٩٦ - الفسقية ترد بعان كثيرة ويقصد بها هنا حوض للوضوء.

٩٧ - ولاية الاخميمية نسبة إلى إخميم التي كانت عاصمة اقليمها حتى نهاية العصر المملوكي ثم اصبحت تابعة لجرجا [محمد عبد الستار عثمان: إخميم في العصرين القبطي والإسلامي، ص ص ٤٧ - ٥٤.، ويشير ذكر ولاية الاخميمية في هذه الوثيقة الى استمرار استخدام هذا المصطلح ايضا في العصر العثماني.

٩٩ - بيورلدي تعني أجر مكن المصدر التركي بيرومق [للاستزادة راجع : أحمد السعيد سليمان. تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف سنة ١٩٧٩ ص ٤٩-٥٠.

١٠٠ - الحميدية: احدى النواحي التابعة لاخميم الى الشمال الشرقي منها وقد ذكر ابن دقماق ان عبرتها ثمانية الالف دينار ومساحتها الف وخمسمائة فدان [ابن دقماق [ابراهيم بن محمد أيدمر العلائي] الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر الوقف وجغرافيتها. نشر: دار الآفاق الجديدة بيروت. د.ت. القسم الثاني ص ٢٦.

١٠١ - البيار ناحية تابعة لإخميم وهناك أبار الملك واسمها الأصلي البيارات، ثم حرفت البيارات. وهناك ناحية اخرى يسمى آبار محمد عبد الستار عثمان جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢١٥.

١٠٢ - يشير هذا النص الى مركز جرجا الإداري في هذه الفترة حيث وجد بها ديوان لإدارة البلاد التابعة لها [للاستزادة راجع. محمد عبد الستار عثمان جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢١٥.

١٠٣ – لم أعثر على ترجمة له في المصادر التي بين يدي.

١٠٤ – المستحم هو مكان الاستحمام سواء كان الاستحمام بماء حار أو غيره. {عرض محمد الإمام: الآثار المعمارية لعبد الباقي جوربجي بمدينة الاسكندرية. سوهاج سنة ١٩٩٢. ص ٧٣. هامش ٧٣.

١٠٥ – عن وظيفة الخطيب راجع : السبكي : المصدر السابق : ص ١٦٠ ، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٥ ص ص٤٧٨ – ٤٨٩.

١٠٦ – عن وظيفة المرقي راجع : عوض الامام : المرجع السابق ص ٧٦ هامش ١٠٥.

١٠٧ – للاستزادة عن وظيفة رئيس المؤذنين راجع محمد عبد الستار عثمان نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية ص ٢٤٢ – ٢٤٣، حسن الباشا: المرجع السابق: جـ٢ ص.٥٦.

١٠٨ – عن وظيفة المؤذن راجع : محمد عبد الستار عثمان. وثيقة وقف جمال الدين الأستادار. دراسة تاريخية أثرية وثائقية. دار المعارف سنة ١٩٨٣. ص ١٧٠ هامش ٢ ، حسن الباشا: المرجع السابق جـ٣ ص ص ١١٦٣ – ١١٦٨.

١٠٩ – هو مالك بن أنس ولد سنة ٩٣هـ/٧١٢م وتوفى سنة ١٧٩هـ سنة ٧٩٥م {للاستزادة راجع : عبد الحليم الجندي: المرجع السابق ص ص ٦٧ – ٩٣.

١١٠ – يشير هذا النص الى وجود ساقية ملحقة بالجامع لكنها دثرت.

١١١ – يشير هذا النص الى وجود سبيل كان ملحقا بالجامع لكنه اندثر.

١١٢ – أجازت الأحكام الفقهية الإسلامية هذا الاهداء. محمد ناصر الدين الألباني، تلخيص أحكام الجنائز. نشر مكتبة التوعية الإسلامية. الأردن – عمان سنة ١٤٠٢ هـ ص ١٠٤.

١١٣ – لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

١١٤ – عن وظيفة الأوقاف راجع. حسن الباشا: المرجع السابق جـ٢ ص ص ٦١٠ – ٦١١.

١١٥ – عن وظيفة ناظر الأوقاف راجع. حسن الباشا : المرجع السابق جـ٣ ص ١١٥ – ١١١٩،

محمد عفيفي: ص ص ٨٣ - ٩٤.

١١٦ - باش تعني رئيس، وجاويش منصب عسكري، ومستحفظان من كلمة مستحفظ بالعربية وجمعت جمعا فارسيا بالألف والنون وينطقها الترك بكسر الفاء كانت اسما لحرس القلاع والحصون والمدن قبل الغاء الجيش الانكشاري، فلما ألغي اطلقت على عساكر الرديف إذا استدعوا للخدمة العسكرية {راجع أحمد السعيد سليمان المرجع السابق صفحات٣٢، ٦٠، ٧٠.

١١٧ - يشير النص هنا إلى مدى اهتمام الواقفين بعتقائهما حتى أدرجا هؤلاء العتقاء في سلسلة من لهم الحق في الاستفادة من الوقف بعد الذرية وقد تكرر هذا الأمر في العصر العثماني {راجع: محمد عفيفي: ص ص ٢٢٤ - ٢٢٧}.

١١٨ - قرآن كريم - سورة البقرة آية رقم ١٨١.

١١٩ - قرآن كريم - سورة الشعراء آية رقم ٨٩.

١٢٠ - هما من تلاميذ الامام ابي حنيفة وكانت لهما آراء مخلفة لآرائه { راجع عبد الحليم الجندي: المرجع السابق: ص٣٣.

وبادرا الى اغتناء هذه الخيرات

من سائر وجوه

المبرات اذ هو انفع الوسايل في الذخاير عند

قاضي الحاجات ومجيب الدعوات

الله تعالى الذي ما خاب من استخار

على نفسهما الزكية حرسهما الله من كل آفة

وبليه هما الجنابان المكرمان الفخيمان

الامجدان الامير محمد والامير احمد ولدا المرحوم

الامير حسن بن المرحوم الامير محمد بن

لوحة (١)

مضجعه وتغمده برحمته ولقنه حجته وجعله من

الامنين الفرحين المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين

يبدلونه ان الله سميع عليم حرر ذلك وبحر

في سابع عشرين شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعين والف

[illegible]

لوحة (٢)

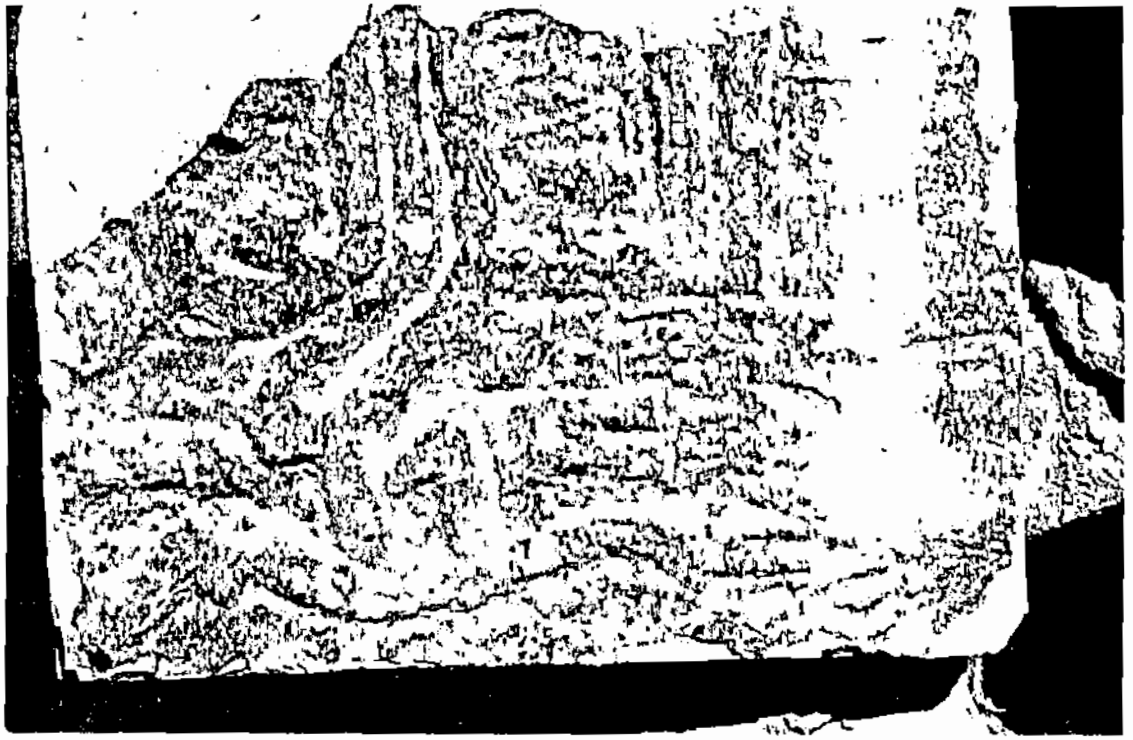

لوحة(٣)

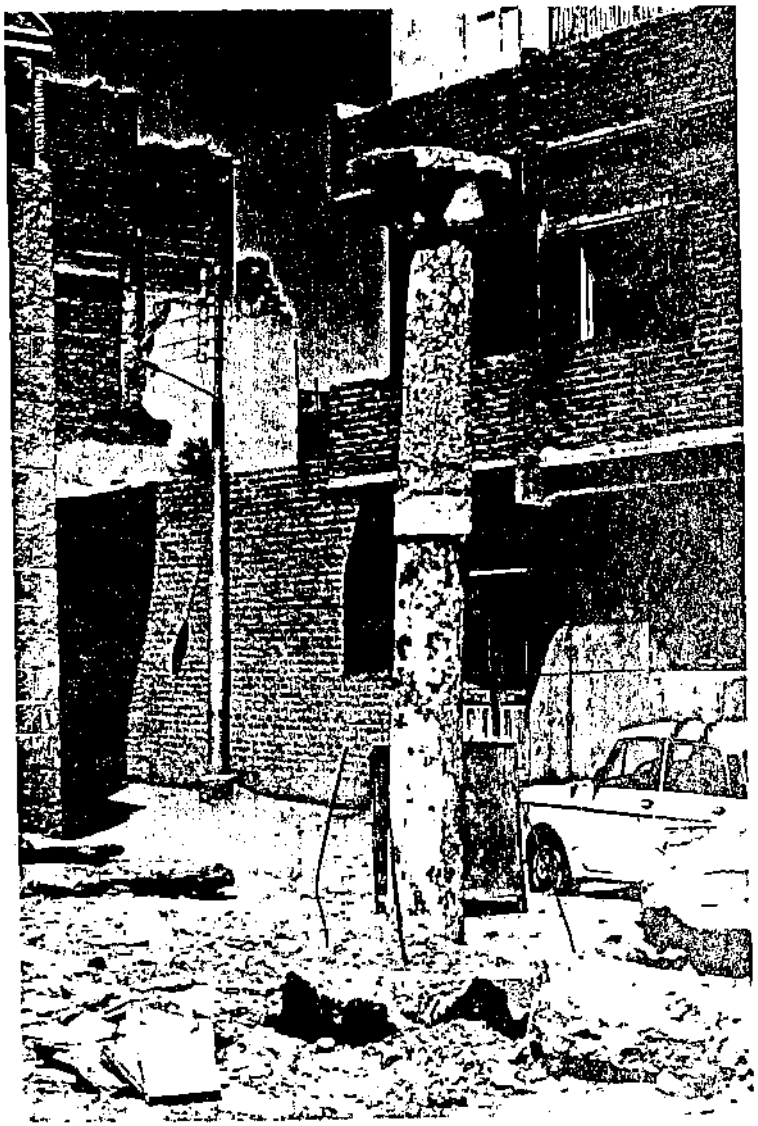

لوحة (٤)

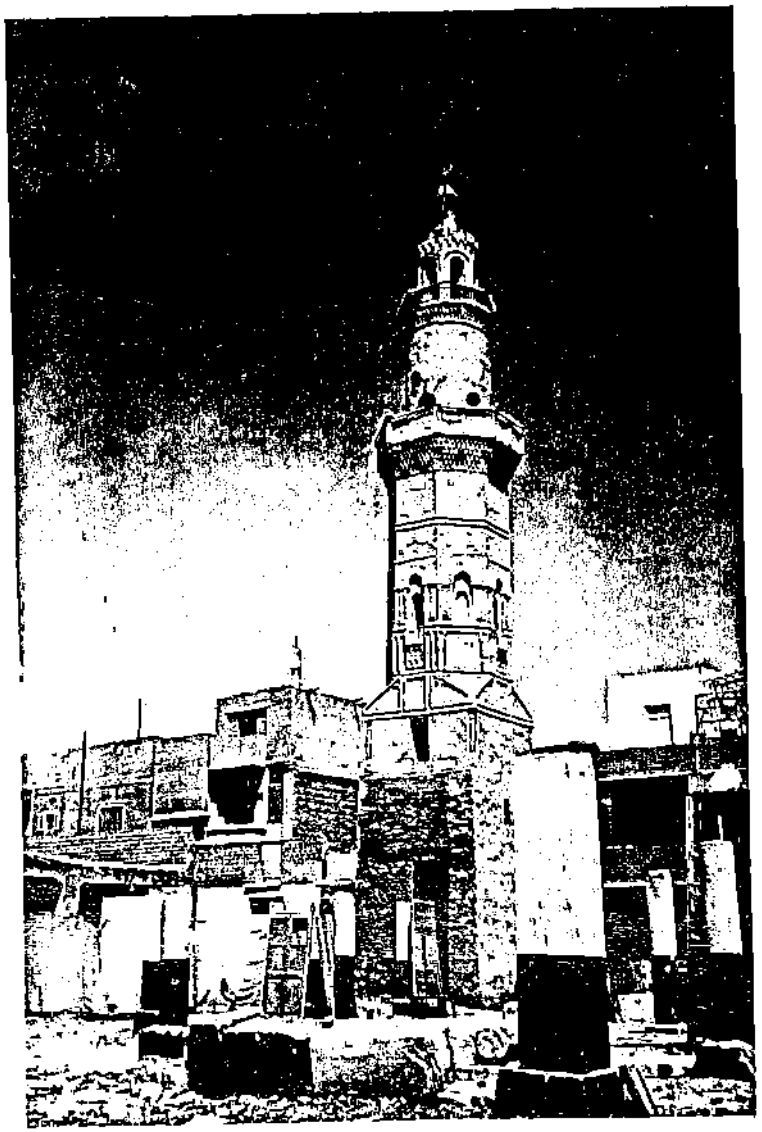

لوحة (٥)

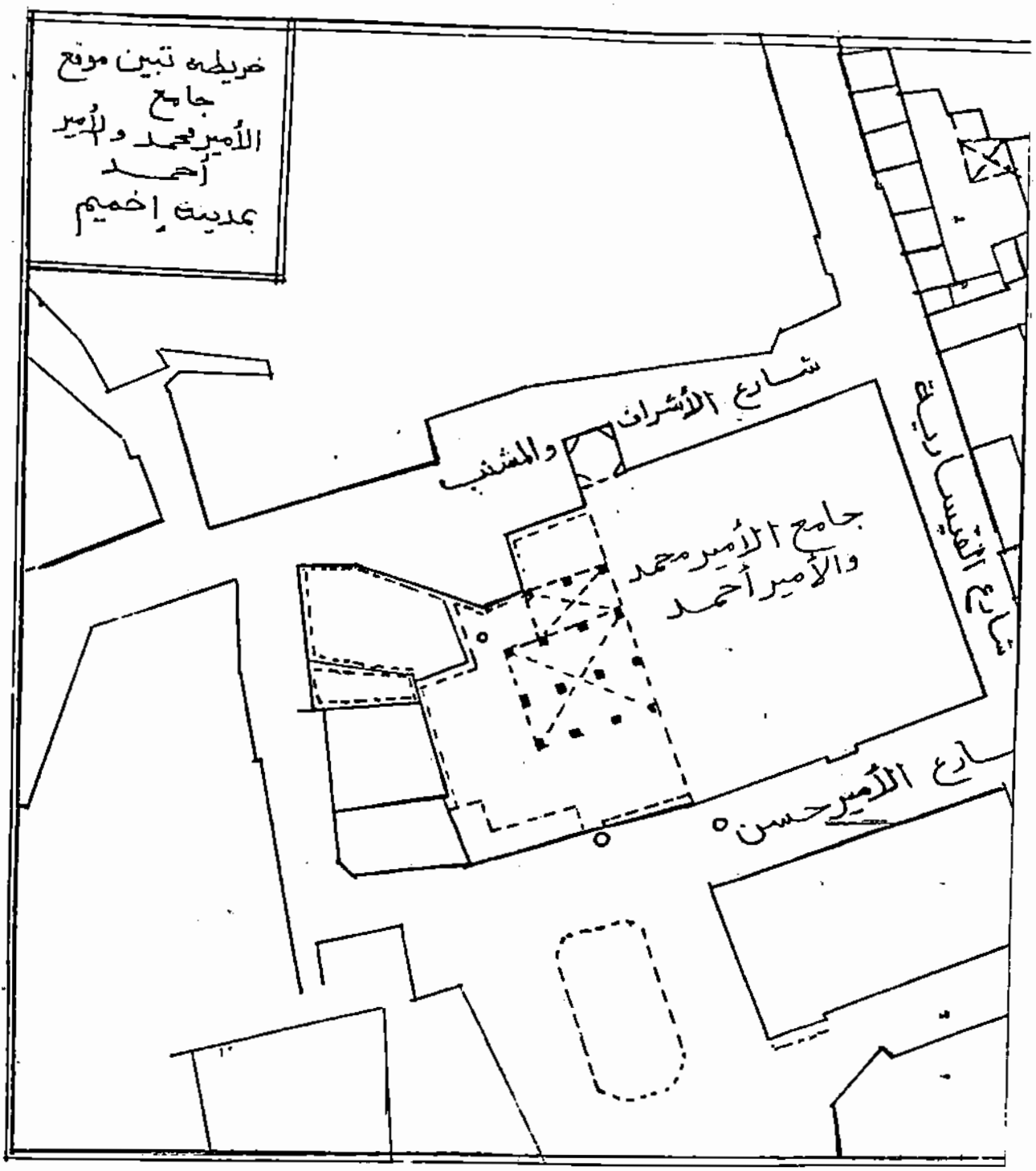
خريطه تبين موقع
جامع
الأمير محمد والأمير
أحمد
بمدينة إخميم
شارع الأشراف
والمشهد
جامع الأمير محمد
والأمير أحمد
شارع القيسارية
شارع الأمير حسن

شكل رقم (١)

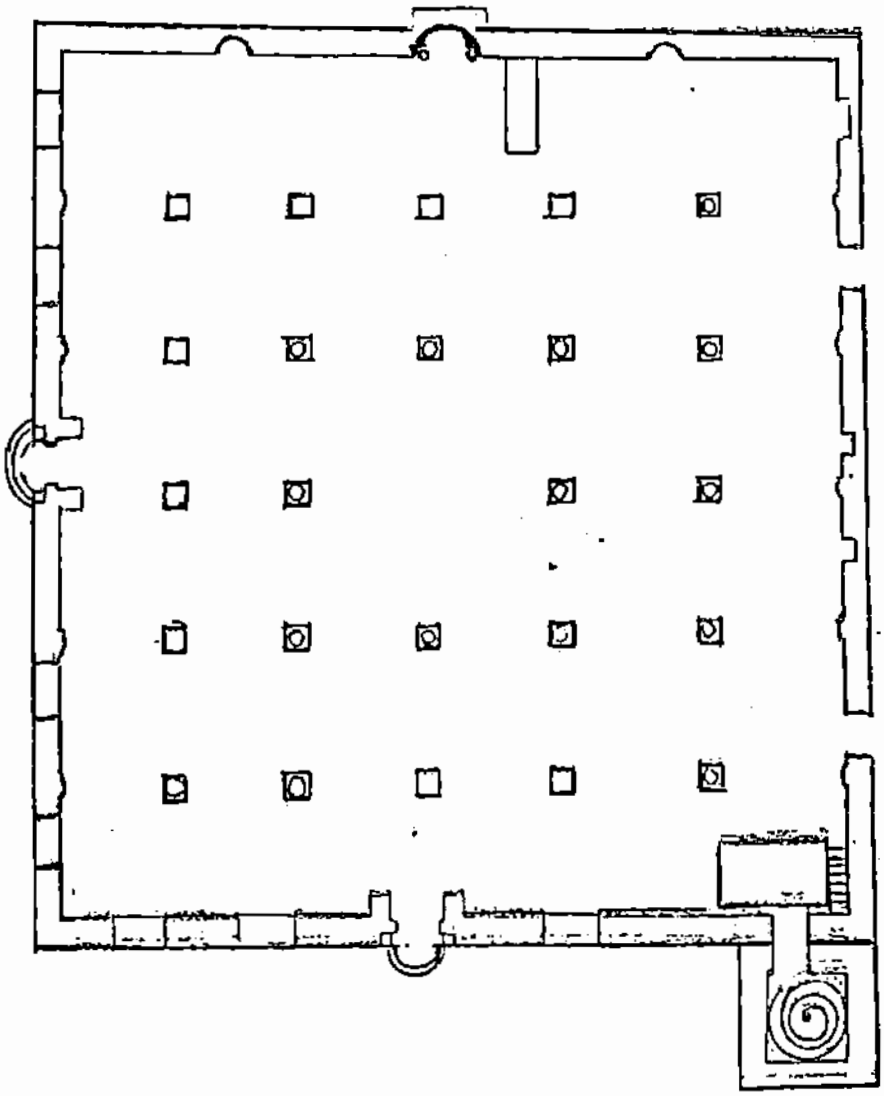

شکل (۲)

جدوال تبين ارباب الوظائف بالجامع

الجدول رقم (١) يبين الوظائف الدينية والتعليمية

مسلسل	اسم الوظيفة	الراتب السنوي	ملاحظات
١	خطيب .	عشرة أرادب قمح .	
٢	مرقي .	أربعة أرادب قمح .	
٣	رئيس مؤذنين .	خمسة أرادب قمح .	
٤	ثلاثة مؤذنين .	خمسة عشر اردبا .	(خمسة أرادب لكل واحد) .
٥	قاريء حديث .	ثمانية أرادب قمح .	
٦	مدرس مالكي .	عشرة أرادب قمح .	
٧	قاريء قرآن قبل العصر .	خمسة أرادب قمح .	يقرأ عشر من القرآن .
٨	رجلين في وظيفة الصلاة علي النبي .	عشرة أرادب قمح .	يقومان بالصلاة علي النبي في الفترة ما بين المغرب والعشاء كل يوم بالجامع .
٩	قاريء سورة يس .	ستة أرادب قمحا .	تقرأ كل صباح بالجامع وقرر فيها الشيخ محمد عمار .
١٠	قاريء سورة الكهف .	ستة أراب قمحا .	تقرأ يوم الجمعة وقرر فيها الشيخ محمد النفراوي .
١١	قاريء سورة تبارك	ستة أرادب قمحا .	تقرأ كل يوم بالجامع .

الجدول رقم " ٢ " يبين وظايف الخدمة .

مسلسل	اسم الوظيفة	الراتب السنوي	ملاحظات
١-	خادم ربعة .	خمسة أرادب قمح .	يوزع الربعة علي المصلين يوم الجمعه ليقرأوا فيها
٢-	منجر .	ستة أرادب قمح .	يبخر الجامع يوم الجمعة .
٣-	بواب .	خمسة أرادب قمح .	
٤-	قراش وقاد .	عشرة أرادب قمح .	يتولي تنظيف الجامع والميضأة واضاءتهما .
٥-	سواق .	عشرة أرادب قمح .	يملأ الميضأة وملحقاتها بالماء من البئر بواسطة الساقية .
٦-	قرملاتي .	خمسة عشر أردبا .	يملأ السبيل ويسقي المصلين يوم الجمعة .

الجدول رقم (٣) الوظيفتان الاداريتان

مسلسل	اسم الوظيفة	الراتب السنوي	ملاحظات
١-	شاد	عشرة أرادب من القمح .	قرر في هذه الوظيفة باش جاويش .
٢-	الناظر المحاسبي	أربعون اردبا من القمح	مستحفظان مصر المحروسة .

شكل (٣)

(قرائن التنمية الريفية فى دولة الإمارات العربية المتحدة)
« منظور جغرافى »

دكتور
محمد على بهجت الفاضلى
أستاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة طنطا

(قرائن التنمية الريفية فى دولة الإمارات العربية المتحدة)

« منظور جغرافى »

- مقدمة .

أولاً : الجهود التنموية فى دولة الإمارات .

ثانياً : سكان الإمارات الريفيون .

ثالثاً : التنمية الزراعية فى دولة الإمارات :

١ - تطور المساحات الزراعية.

٢ - تطور الإنتاج الزراعى .

٣ - تغير هيكل الحيازة الزراعية .

٤ - زيادة الإنتاج الحيوانى و تحسينه .

رابعاً : التنمية الخدمية فى ريف الإمارات :

١ - الخدمات التعليمية .

٢ - الخدمات الصحية .

٣ - الإسكان .

- خلاصة .

- الخرائط و الصور .

- الهوامش و المراجع .

مقدمة :

يشيع فى الآونة الأخيرة إستخدام كلمة التنمية Development فى كثير من المجالات الإقتصادية ، و الإجتماعية ، و السياسية ، و الثقافية . و أصبحت قضية التنمية - ريفية و حضرية - محل إهتمام كثير من المتخصصين فى مجالات علمية متنوعة ، سواء فى بلدان العالم الثالث أو فى البلدان التى تعتبر - من زوايا عديدة - متقدمة . و على الرغم من هذا الشيوع و تلك الأهمية،لا يزال مفهوم التنمية يحيطه كثير من الغموض و الإلتباس . و أصبح مدلول التنمية ، ومؤشراتها ، و كيف يمكن قياسها ، موضوعا لعديد من المؤلفات فى مجالات علمية متنوعة . و على الرغم من هذا التنوع فى المجالات ، فإن التنمية ذاتها أصبحت وكأنها تخصص أكاديمى يمكن أن تسمى جميعاً كتب التنمية و يطلق على مؤلفيها "التنمويون"[١] . و مع تعدد الكتابات،ليس من الضرورى الإسهاب - أو حتى السرد - فى سياق التعريفات المختلفة للتنمية و إختلاف الرأى حولها . فإن ذلك مجالا قد ينصرف إلى غير الغاية من هذا البحث .

و يسهل على القارئ أن يجد فى كثير من كتب التنمية تفصيلات كثيرة تتعلق بمفهوم التنمية و مؤشراتها[٢] .

إذا كان البحث يهتم بالتنمية الريفية من قريب ، فقد يبدو ضرورياً أن نسوق بعضاً من مجال اهتمام التنمية الريفية التى تكثر الكتابات فيها من منظورى الإجتماع و الإقتصاد[٣] و تقل فيها الكتابات ، حقيقة،من منظور الجغرافيا،فيما عدا الرسائل الجامعية التى تهتم بالعمران الريفى،أو الجغرافيا الزراعية،أو استغلال الأرض التى تهتم بالريف بإعتباره سكناً ، أو إنتاجاً ، و التى لا تنتشر نتائجها وتظل فائدتها محصورة فيمن يقوم بالدراسة،أو فى القارئ المتخصص ، لا نجد بحثا علميا سوى مؤلفات أربعة [٤] و عدد قليل من البحوث التى تهتم بالعمران الريفى،أو الإنتاج الزراعى،و هى ليست بالكثيرة . و من ثم فإن هذا البحث يعتمد

فى مجمله على مراجع و مصادر غيرجغرافية . و لا بأس فى أن نقول أن الاجتماع والإقتصاد حققا سبقاً فى مجال البحث فى التنمية الريفية ، و أن الاستفادة من نتائجها فى بحث جغرافى لا يقلل من شأن الجغرافيا ، بل و يؤكد على اتساع ورحابة المنظور الجغرافى ، و اعتماده على مصادر جغرافية و غير جغرافية

يحدث كثيراً الخلط بين التنمية الزراعية و التنمية الريفية . و رغم أن الزراعة هى محور نشاط الريفيين ، فهى فى الجملة تمثل قطاعاً أقتصادياً واحداوإن كان رئيسياً - تشمل تنميته إزادة انتاج الأرض الزراعية ، و الانتاج الحيوانى ، والسمكى ، و من تطبيق جيد للتقنيات الحديثة التى تتوافق و المعطيات المكانية . وقد تخرج هذه النظرة إلى مجال أوسع يشمل إهتمامات مكانية منها مثلاً إزادة العاملين الزراعيين و إزادة انتاجيتهم و كفاءتهم ، أى الاهتمام بالانتاج الزراعى والسكان الزراعيين . أما التنمية الريفية فلا بد و أن تشمل مجالاً أوسع ، باعتبارها جزء أوسع وحيوى من التنمية الاقتصادية و الاجتماعية على مستوى الريف و الذى يشمل - إضافة للإنتاج و السكان - مجالات أوسع تشمل الخدمات الصحية ، و التعليمية ، و الاجتماعية مع إحداث التنسيق و التكامل بين القطاعات الإنتاجية الريفية فى محاولة لتنمية شاملة للريف تندرج فى إطار أوسع أي من خلال الخطة القومية الشاملة .

ولا شك فى أن التنمية الريفية تغطى كثيراً من المجالات السكانية والاجتماعية و الاقتصادية . و يحاول هذا البحث تغطية جوانب أساسية تشمل:

- الجهود التنموية فى دولة الإمارات العربية التى ظهر دورها الواضح بعد استغلال البترول .
- السكان الريفيون باعتبارهم يمثلون ربع سكان دولة الإمارات .
- التنمية الزراعية و تشمل الانتاج الزراعى الحيوانى .
- التنمية الخدمية و تشمل التعليم و الصحة و الإسكان .

و مع أهمية هذه الجوانب و ضرورة التركيز عليها فإن دراسة هذه الجوانب فى

دولة الإمارات تكتنفها صعوبتين :-

- قلة المصادر الرقمية و الاحصائية،و صعوبة الحصول على رقم حديث يتعلق بالسكان ، و الانتاج . و لا يتردد الباحث فى ذكر أن الأرقام التى يشملها هذا البحث ليست إلا مؤشرات تعطى دلالة على التنمية الريفية . و سوف يلجأ البحث إلى التعميم - أحياناً - لعدم وجود الدلالات بصورة كمية واضحة . و سوف يجتهد الباحث فى أن يكون التعميم موافقاً للواقع،و الاستفادة من معايشته لمجتمع الامارات حيفاً من الزمن ، و تمكنه من رؤية معظم الأماكن،و المشاركة ، والاشراف أحياناً على عدد من الدراسات الميدانية فى إطار تدريس مناهج جغرافية المدن ، و الجغرافيا الريفيه ، و التخطيطي الإقليمى للطلبة و طالبات جامعة الامارات العربية المتحدة لأربع سنوات (١٩٨٩ - ١٩٩٣) .

- أن الريف فى ذاته ليس محدداً تحديداً دقيقاً فى دولة الإمارات . و يتوقف حجم السكان الريفيين و خصائصهم على نوعية المصدر إذا ، كان « إتحادياً » أو « محلياً »،فعلى المستوى الاتحادى لا يوجد فى دولة الامارات مدن سوى عواصم الإمارات إضافة إلى مدينتى العين و خورفكان . أما على المستوى المحلى ، فإن كثيراً من المحلات،التى تعتبر ريفاً على المستوي الاتحادى ، تعتبر مدنا محلية منها مثلا الذيد فى إمارة الشارقة ، ودبا فى إمارة الفجيرة و شعم رأس الخيمة [٥] و هى بالفعل مدن من الناحيتين الوظيفية و السكانية ، و سوف يعتمد البحث على المصادر الرقمية الصادرة على المستوى الوطني و ليس المحلى،باعتبار أن هذه المصادر هى الأكثر إتاحة و التى تبنى على أساسها خطط و برامج التنمية .

(. . .)

تتكون دولة الأمارات العربية المتحدة من إتحاد فيدرالى أعلن عنه فى ٢ ديسمبر ١٩٧١ ، يجمع أمارات أبو ظبى،و دبى، و الشارقة ، و عجمان ، ورأس الخيمة ، و الفجيرة . و فى إطار هذا الاتحاد ، يتحدد لكل إمارة حدود

إدارية أو سياسية ، يمارس فيها حاكم الإمارة سلطانه

و كان قيام هذا الإتحاد ضرورة،بل و تماشياً مع الواقع،و تحاشياً لما يمكن أن يظهر من مشكلات ؛ حيث أن الحدود بين الامارات لا تستند إلى أى أساس طبيعى أو بشرى ، و أن الامارات فى جملتها متشابهة فى بنائها السياسى والاجتماعى، والاقتصادى ، يعزز ذلك صلات القربى التى تجمع عائلات الإمارات. بل أن السيادة القانونية للإمارات كانت معروفة طوال فترة احتلال بريطانيا لها ، التى اعترفت لحكام الإمارات بالسيادة على أقاليمها الخاصة ، و كانت الإمارات آنذاك تشكل دولا مستقلة تربطها مع التاج البريطانى علاقات تعاهدية خاصة الى أن تم الاستقلال [٦] .

تغطى دولة الامارات العربية المتحدة ٧٧,٧٠٠ ك م ٢ تنحصر بين ساحل الخليج العربى شمالاً ، و خليج عمان شرقاً ، و سلطنة عمان من الجنوب الشرقى، والمملكة العربية السعودية من الغرب . و يعيش فيها ١,٣٠٦,٢٠١ نسمة [٧] . وأكبر الامارات هى أبو ظبى التى تبلغ مساحتها ٦٧,٣٤٠ ك م ٢ مكونة من قطاعات متصلة تشرف على الخليج العربى ، و يمتد فى الداخل حتى خط طول ٥٦ درجة شرقاً . و تصل مساحة دبى إلى ٣٨٨٥ ك م٢ متألفة من قطاعين : الأول ساحلى ، يؤلف الجزء الأكبر من أراضيها ، و الثانى قطاع جبلى داخلى .و إلى الشرق منها تقع إمارة الشارقة و تبلغ مساحتها ٢٥٩٠ ك م٢ ، مكونة لقطاعين الأول غربى ، و يطل الخليج العربى ، ما بين إمارتى عجمان و دبى ، و الآخر شرقى ساحلى على خليج عمان.أما إمارة عجمان فتصل مساحتها الى ٢٥٩ ك م٢ مؤلفة من ثلاثة قطاعات أحدها غربى ساحلى ، و الثانى داخلى صحراوى ، و الثالث جبلى شرقى . وتكون امارة أم القيوين ، قطاعاً واحداً يشرف على الخليج العربى بين إمارة رأس الخيمة و عجمان فى مساحة تصل إلى ٧٧٧ ك م٢ . و تتألف امارة رأس الخيمة من قطاعين : ساحلى على الخليج العربى و داخلى جبلى فى مساحة تصل إلى ١٦٨٤ ك م٢ و تصل مساحة الفجيرة الى ١١٦٥ ك م٢ و تكون قطاعاً

ساحلياً يطل على خليج عمان بالاضافة الى قطاع جبلى جنوبى (أنظر الخريطة بالملحق)

اولاً: الجهود التنموية فى دولة الإمارات العربية المتحدة :

ظهر البترول فى دولة الإمارات فى أبو ظبى عام ١٩٦٣ ، و فى دبى عام ١٩٦٩ وفى عام ١٩٧٤ فى الشارقة . و ترتب على استغلال البترول تغيرات اقتصادية تتعدى انماط الانشطة الى تغييرات طرأت على التركيب المهنى ، و البناء الاجتماعى . و كان تضافر عدد من العوامل أهمها تدفق الأموال ، و الانفتاح المفاجئ على العالم الخارجى ، و بداية تطبيق لخطوات طموحة ، تضم الخطوط العريضة للتنمية الاقتصادية و الاجتماعية . وواكب كل ذلك هجرة وافدة واسعة تتجه إلى المراكز الحضرية حيث العمل و مستوى المعيشة الراقى . كما تتجه القرى التى أصبحت مراكز خدمات و إنتاج [٨] حيث العمل . و كان التخطيط فى جملته متوجهاً نحو إحداث نهضة شاملة تتيح للسكان فرصة للإستفادة الكاملة من عوائد البترول ، و تعويض ما فات من ظروف صعبة فى وقت قصير . ترتب على ذلك أن تواجه الهيئات التخطيطية المعنية ، منذ بداية السبعينات ، مسئولية تطوير ونشر الخدمات ، و بناء أجهزة الدولة المختلفة ، و الهياكل الأساسية الأقتصادية .

و فى إطار هذا الهدف العام ، لم تعتمد الدولة أية خطة شاملة للتنمية خلال السبعينات ، على مستوى تفصيلى ، لأن الطفرة المفاجئة فى النمو الاقتصادى ، والسكانى لم تكن متوقعة ، و على ذلك بدأ المسئولون فى إعتماد أى شكل من أشكال التخطيط الظرفى ، الذى يأخذ بمفهوم خطط العمل لتلبية الحاجات الفورية للمشاريع واسعة النطاق [٩] دون اهتمام بالتنسيق على مستوى مكانى - أى بين الأمارات - أو قطاعى - أى بين أنماط الأنشطة .

و لكن الهدف العام من التخطيط للتنمية إحتوته وثيقة الاهداف العامة الرئيسية للتنمية ، التى صدرت فى عام ١٩٧٤ تتلخص محتوياتها فيما يلى[١٠] :-

١ - تتم التنمية الأقتصادية على أساس متوازن بالنسبة للدولة ككل ، و على مستوى الإمارات.و يتم النمو الاجتماعى المتوازن جنباً إلى جنب مع التنمية الأقتصادية ، ليتوافر فى كل الأحوال مستوى حضارى واحد .

٢ - تتطلب التنمية و إنطلاقها تعاوناً خلاقاً مع بلاد الخليج و الجزيرة فى إطار التعاون بين البلاد العربية خاصة و البلاد الإسلامية و المجتمع الدولى .

٣ - دعم الإقتصاد القومى و تعزيز قدراته على الاعتماد الذاتى باستخدام المنجزات العلمية ، و تغيير الهيكل الإنتاجى ، و تنويع أنشطته ، و تعظيم طاقاته لدفع النمو،و التركيز على دعم التوسع فى إستغلال ثروات البحار ، وتوسيع الاستغلال الزراعى و النباتى و الحيوانى ، و الاستمرار فى استكشاف مصادر الثروة المعدنية،و تشجيع إنشاء الصناعات التحويلية،و تنمية القطاعات المدعمة للقاعدة الإقتصادية ، و تيسير انطلاق التنمية دون قيود أو اختناقات .

٤ - الانسان فى دولة الامارات هو الغاية ، و الخدمات الاجتماعية على اختلافها حق اساسى له ، و يُكفل التعليم للجميع ، و كفالة الرعاية الصحية و الوقائية والعلاجية بتوزيع مناسب بين المناطق ، و يتم التأكيد على أهمية البحث العلمى ، وكذلك تقديم الرعاية الاجتماعية الملائمة ، و الخدمات الثقافية والاعلامية و البيئية ، و توفير المساكن بما يتيح للمواطنين اعلا و أكفأ مستوى من الخدمات .

٥ - تحقيق رفاهية المجتمع كهدف أساسى للتنمية ، ذلك بإستمرار تطوير مستويات المعيشة سواء من نواحى الاستهلاك أو نواحى الخدمات على أساس من العدالة الاجتماعية ، مع تأكيد الرفاهية للأجيال القادمة بتوجيه قدر متزايد من الدخل للإستثمار ، بما يضمن إطراد النمو و تزايد الدخل .

٦ - تنمية القوى العاملة ، و تكوين الكوادر المدربة منها ، و القادرة على النهوض بإحتياجات التنمية فى مجالات التخصص الذى يناسب الأوضاع المتميزة والخاصة بالدولة ، و العمل على رفع مستوى الكفاية الانتاجية حسب مراحل النمو المختلفة .

٧ - يتم كل ما تقدم فى إطار التعاون الخلاق بين القطاعين العام و الخاص ، كما ورد بالدستور،و طبقاً للنظام الاقتصادى و الاجتماعى للدولة ، و أن تكون الوسيلة لإعمال المبادئ الدستورية ، و تصور الأولويات الأساسية للتنمية هو دعم التخطيط على المستوى الاتحادى ، و انتشاره فى مختلف المؤسسات ومختلف الإمارات .

و انطلاقا من الأهداف العامة للتنمية الاقتصادية و الاجتماعية ،اهتمت الدولة بأسلوب التخطيط الاقتصادى لتحقيق التنمية الاقتصادية و الاجتماعية . و تم فى عام ١٩٧٢ انشاء وزارة التخطيط التى بدأت بإعداد دراسات عن تطور الاوضاع الإقتصادية . كما تم فى عام ١٩٧٣ تحديد أجهزة التخطيط بمجلس التخطيط القومى الاتحادى ووزارة التخطيط . و فى ١٩٧٩ تم إعداد خطط شاملة متوسطة المراحل مدتها خمس سنوات (١٩٨٠ - ١٩٨٥) تكون أهدافها النهائية هى[١١] :

- تحقيق حجم و تركيب سكانى أمثل ، و تحديد الاحتياجات من العمالة .
- العمل على رفع مستويات المعيشة فى مختلف مناطق الدولة .

و يتخلص الهدف النهائى لخطط و برامج التنمية فى توسيع القاعدة الانتاجية للبلاد،و فى تحقيق اسلوب التنمية الشاملة ، و تحقيق توزيع مناسب على المناطق مع تحقيق ما يمكن أن يطلق عليه دولة الرفاهية [١٢] التى تعنى بتقديم الخدمات العامة دون مقابل ، كالتعليم ، و الصحة ، و بعض نواحى الاسكان ، فى الوقت الذى لا تؤثر فيه على السياسة الاقتصادية للدولة،و العمل على تحقيق تنمية العدالة الاجتماعية ، مع توزيع أفضل للثروة . بمعنى أن الريف لم يخصص له عناية مميزة كما أنه لم يهمل أيضاً ضمن الاطار العام للاهداف و التوجيهات التنموية فى دولة الامارات [١٣].

و فى إطار التخطيط للتنمية تم تخصيص نسبة عالية من الايرادات العامة لتمويل مشاريع التنمية فى دولة الامارات خلال السنوات الماضية . و تركزت

استثمارات الحكومة فى مشاريع تنموية ذات تكلفة عالية ، كانت البلاد فى حاجة إليها و هى مشاريع البنية الأساسية مثل المطارات ، و الموانئ ، و الطرق ، والجسور ، و مشاريع الخدمات كالمستشفيات ، و المدارس ، و المرافق العامة الآخرى . فى حين تركزت المشاريع الحكومية فى مجال الانتاج فى مشاريع الصناعات الاستخراجية و مشاريع تصنيع الغاز . أما القطاع الخاص فقد تركزت استثماراته فى مشاريع الاسكان و الصناعات المتوسطة ، و الصغيرة ، و بعض الخدمات .

أما التنمية الريفية فرغم أن منهج التنمية الشاملة فى الدولة لم يخصص لها برامج معينة للريف بشكل مستقل ، و إنما تمت تنميته بإقامة مشاريع عامة فى إطار التنمية الشاملة حسب إحتياجات كل قطاع أقتصادى دون النظر إلى وجود المشروع بالريف أو الحضر ، مع العمل على تلبية متطلبات المناطق من الخدمات والمرافق العامة . و على ذلك يصبح من الصعب تحديد حجم الاستثمارات فى المناطق الريفية ، خاصة و أن الاحصاءات التى ترتبط بذلك غير متوفرة . غير أنه يمكن النظر إلى الإستثمار فى الريف من خلال الاستثمارات الزراعية التى ترتبط بالطبع بالريف و يوضح ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (١) تطور الاستثمارات فى الزراعة بدولة الإمارات فى السنوات من ١٩٧٥ - ١٩٨٩ [١٤]

السنة	جملة الاستثمار	السنة	جملة الاستثمار (مليون درهم) [١٥]
١٩٧٥	١٦١	١٩٨٣	٤٣٠
١٩٧٦	١٨٨	١٩٨٤	٣٩٢
١٩٧٧	١٨٩	١٩٨٥	٣١٩
١٩٧٨	٢٩٧	١٩٨٦	١٩٩
١٩٧٩	٢٦٩	١٩٨٧	٢٠٢
١٩٨٠	٥٦٠	١٩٨٨	١٩١
١٩٨١	٤٧٢	١٩٨٩	٢٢٤
١٩٨٢	٤٨٢		

و يتضح من أرقام الجدول أن حجم الاستثمارات فى مجال الزراعة إستمر فى الزيادة المطردة حتى ١٩٨٠ . ثم أخذ فى التناقص بعد ذلك . و يرجع ذلك الى تراجع أسعار البترول و عوائده بعد عام ١٩٨٠ ، الأمر الذى أثر على حجم الاستثمارات ليس فى قطاع الزراعة فقط بل فى كافة القطاعات الاقتصادية . و فى السنوات من ١٩٨٥ - ١٩٨٩ يتذبذب حجم الاستثمار بين الزيادة و النقصان . و لكن من المتوقع أن تزيد الاستثمارات الزراعية وفق خطة الدولة التى ترمى إلى زيادة استصلاح الأراضى ، خاصة بعد توفير المياه عن طريق اعذاب المياه المالحة والتوسع فى استزراع المحاصيل التى تتحمل الملوحة [١٦]. و رغم زيادة الاستثمارات فى مجال الزراعة الحاليةوالمتوقعة ، فإن عناصر الانتاج الزراعى التى تشمل الزراعة ، و تربية الحيوان ، و الصيد لا تساهم الا بنسبة ضئيلة فى الناتج المحلى الاجمالى لدولة الإمارات إذا لم تزد قيمتها عن عام ١٩٨٧ عن ١,٩ ٪ من مجموع مساهمة القطاعات المختلفة [١٧] .

ثانيا : سكان الامارات الريفيون :

ينقسم سكان دولة الامارات حسب نمط الحياة إلى مجموعات رئيسية تشمل [١٨] :-

١ - *البدو الرحل* : و هم الذين يعيشون حياة و الإرتحال بحثا عن الماء و الكلأ فى الصحراء التى تشمل معظم مساحة الدولة أو بين السهول و المرتفعات الشرقية .

١ - *البدو شبه الرحل* : و تشمل الجماعات الذين يقيمون فى بعض الواحات الداخلية (كواحات العين و البريمى) و تمارس هذه الجماعات الزراعة فى فصل الشتاء حيث يزرعون بعض المحاصيل الحقلية تحت أشجار النخيل (كالبرسيم و الخضر) ، و ينتقلون إلى البادية عقب سقوط الامطار حيث يتوافر الكلأ .

٣ - *الجماعات شبه المستقرة* : و تشمل السكان الذين يقيمون في قرى ساحليةويعملون في الصيد اضافة إلى ممارستهم للرعى في مناطق قريبة من الساحل . و قد يمارس هؤلاء الزراعة و الصيد و الرعى كما يحدث في قرى رأس الخيمة و الفجيرة .

٤ - *الجماعات المستقرة* : و تشمل سكان المراكز المستقرة الذين يعملون بالزراعة و التجارة و الخدماتخاصة في المراكز الحضريةو التجمعات الريفية المستقرة ، و يشكل هؤلاء النسبة الغالبة من السكان إذ يشكلون ٩٣ ٪ من سكان الدولة في الوقت الذى يشكل فيه البدو-رغم إتساع المساحة التى يعيشون فيها - نسبة لا تزيد عن ٧ ٪ من إجمالى السكان [١٩].

و مع تمييز السكان حسبالبداوة و الاستقرار ، و ممارسة الزراعة فيظل البداوة كحرفة يشترك في ممارستهامن يعيش على الرعى و الصيد ، أو في قرى مستقرة تشغل الواحات الصحراوية و الجبليةأو مناطق إستيطان البدو الذين تحولوا في عهد استغلال البترول إلى زراع مستقرين ، يصعب في دولة الاماراتفيما عدا الأساس الإدارى - تصنيف السكان إلى ريفيين و حضريين [٢٠] لما تجربه عمليات التحضر المستمرة من تغيرات فتجت عن تحول السكان من الريف إلى الحضر ، حتى أصبحت الامارة و كأنها مدينة تتركز فيها السكان و الانشطة ، و أصبحت القرى مراكز خدمات يشكل العاملون بها - و معظمهم وافدون - النسبة الغالبة من سكان المراكز الريفية .

و رغم صعوبة التميز و يتوزع سكان الامارات ، من الناحية الجغرافية ، بين الحضر،و البدوو سكان الواحات . و في عام ١٩٥٠ قدر عدد من المواطنين في الدولة بحدودها الحالية بحوالى ٨٠ ألف نسمة ، كان حوالى ربعهم حضريين (أى حوالى ٢٠ ألف نسمة) . و في عام ١٩٦٦ تضاعف عدد المواطنين فوصل إلى ١٧٠ ألف نسمة يعيش نصفهم في الحضر . و حسب تعداد ١٩٧٥ إرتفع عدد

المواطنين إلى حوالى ٢٢٠ ألف نسمة بلغت نسبة الحضريين فيهم ٦٤ ٪ يضاف إليهم الوافدون من الدول الأسيوية والعربية فتصبح نسبة الحضر ٨٠ ٪ من السكان [٢١] . أما فى تعداد ١٩٨٠ فقد بلغ عدد السكان الاجمالى فى الدولة حوالى مليون نسمة نسبة الحضريين منهم ٨١ ٪ و الريفيون ١٩ ٪ [٢٢] . و يتوزع السكان الريفيون فى ٤١١ قرية لا يزيد عدد سكان بعضها عن عشرة أشخاص . و تتوزع هذه القرى على طول الساحل الشرقى ، و فى الواحات الداخلية ، و على طول أودية سلسلة جبال عمان فى المناطق الزراعية حيث قامت زراعة بسيطة تشجع على الاستقرار [٢٣] .

و يتضح من التوزيع النسبى للسكان الحضريين و الريفيين أن سكان الريف فى دولة الامارات لا يشكلون اكثرية السكان كما هى الحال فى أغلب الدول النامية [٢٤] و يتوافق هذا الوضع مع الظروف البيئية للدولة حيث يفتقر الريف فى جملته الى المقومات الفعالة للزراعة التى تشكل الركيزة الاساسية للاستيطان الريفى .

تعتبر دولة الامارات - من ناحية اخرى - حالة متميزة من ناحية توزيع السكان بين الريف و الحضر ، حيث أنه فى الوقت الذى تزيد فيه نسبة الحضر زيادة مطردة تتناقص نسبة سكان الريف . غير أن التناقص ليس الا نسبياً فقط ، أما عن الأعداد المطلقة للسكان الريفيين فتتعرض للزيادة المستمرة كما يتضح فى الجدول الآتى :

جدول (٢)

سكان دولة الامارات العربية المتحدة

فى الحضر و الريف [٢٥]

البيـــان	١٩٦٨	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥
مجموع سكان الدولة	١٧٩١٣٨	٥٥٧٨٨٧	١٠٤٢٠٩٩	١٣٠٦٢٠٠
سكان الحضر العـدد	١١٧١٥٦	٤٦٨٢٨٧	٨٤٢٤١٥	١٠٤٤٩٦٠
سكان الحضر النسبة	٦٥٪	٨٤٪	٨١٪	٨٠٪
سكان الريف العـدد	٦١٩٨٢	٨٩٦٠٠	١٩٩٦٨٤	٢٦١٢٤٠
سكان الريف النسبة	٣٥٪	١٦٪	١٩٪	٢٠٪

سكان الريف إذن يتزايدون رغم انخفاض نسبتهم . لا يعنى ذلك بما قد ينتج عن استقراء الأرقام أن هناك هجرة تتجه من الريف إلى الحضر بشكل مستمر وإلا لتناقص الريفيون . ولكن الواقع هو أن الزيادة السكانية المطردة حدثت فى المدن كما حدثت فى القرى . و مرد ذلك إلى الهجرة الوافدة المتزايدة التى تتجه نحو مراكز العمران حضراً و ريفاً - وراء هذه الزيادة المطردة،وقد ارتفع سكان الريف فهو بستقبل هجرة وافدة خارجية ممثلة فى العمالة الزراعية بعد التوسع فى استزراع الأراضى . وفى العاملين بالخدمات بعد تطور التعليم و الصحة عقب ظهور البترول . اضافة إلى الجهود التنموية التى نجحت فى مجال توطين البدو و خاصة بعد توفر عوامل الجذب فى المحلات الريفية المخططة الحديثة ممثلة فى بناء مساكن شعبية شيدت فى قرى نموذجية،ووزعت هذه المساكن على المواطنين مجاناً . و واكب ذلك بناء الطرق والمدارس و المراكز الصحية .

لم تكن زيادة السكان الريفيين - من ناحية أخرى - متوافقة مع زيادة

العاملين بالزراعة : حيث أن هؤلاء يعيش بعضهم فى القرى كما يعيش آخرون فى المدن . و تختلف أعداد المشتغلين بالزراعة سواء كانت اقامتهم الدائمة فى الريف أو الحضر بين المواطنين و غير المواطنين ، كما يوضح ذلك أرقام الجدول الآتى :

جدول رقم (٣)

المشتغلون بالزراعة حسب الجنسية فى

دولة الامارات فى الاعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٢٦)

البيان		١٩٧٥	٪	١٩٨٠	٪	١٩٨٥	٪
مواطنون	حضر	١٨٢٢	٢٨,٦	١٦٠٣	٣٤,٣	٣٢٤٥	٣٤,٣
	ريف	٤٥٥٦	٧١,٤	٣٠٧٣	٦٥,٧	٦٢٢٢	٦٥,٧
	جملة	٦٣٧٨	١٠٠	٤٦٧٦	١٠٠	٩٤٦٧	١٠٠
غير مواطنين	حضر	٣٤٠٣	٤٧,٣	٩٥٩٠	٤٥,٨	١٩٤٢٠	٤٥,٨
	ريف	٣٧٨٨	٥٢,٧	١١٣٤٧	٥٤,٢	٢٢٩٨٠	٥٤,٢
	جملة	٧١٩١	١٠٠	٢٠٩٣٧	١٠٠	٤٢٤٠٠	١٠٠
جملة	حضر	٥٢٢٥	٣٨,٥	١١١٩٣	٤٣,٧	٢٢٦٦٥	٤٣,٧
	ريف	٨٣٤٤	٦١,٥	١٤٤٢٠	٥٦,٣	٢٩٢٠٢	٥٦,٣
	جملة	١٣٥٦٩	١٠٠	٢٥٦١٣	١٠٠	٥١٨٦٧	١٠٠

تشير ارقام الجداول إلى أن نسبة المواطنين المشتغلين بالزراعة تقل عن نسبة غير المواطنين.غير أن النسبتين كانتا متقاربتين فى عام ١٩٧٥ (٤٧ ٪ مواطنون ٥٣ ٪ غير مواطنين)،ثم حدث تطور كبير فى نسبة غير المواطنين بعد عام ١٩٧٥ (٨١,٧ ٪ من جملة المشتغلين بالزراعة فى عام ١٩٨٠) و تعود هذه القفزة الواسعة لأسباب أهمها أن كثير من المواطنين قد انصرفوا الى الاشتغال بالزراعة بعد تكون اتحاد دولة الامارات،وما صاحب ذلك من فتح أسواق واسعة

للعمل فى مجالات الخدمات و الصناعة و التجارة ، مما اجتذب كثيرا من المواطنين الزراعيين سواء من كانوا يقيمون فى الريف أو الحضر . و من ناحية أخرى كان للتنمية الزراعية التى استحدثت بعد تكون الدولة،و التى تتضمن توسعاً أفقياً فى الأراضى الزراعية أثر فى سهولة استقدام الملاك للايدى العاملة الزراعية الأجنبية خاصة بعد الانفتاح على دول جنوب آسيا التى تفد منها أيدى عاملة رخيصة و ذات خبرة، خاصة من الهند و باكستان و بنجلاديش.

و تزيد نسبة الزراعيين المقيمين بالريف على نسبة المقيمين بالمدن من المواطنين و غير المواطنين وهو أمر طبيعى . غير أن ما توضحه الأرقام هو إتجاه نسبة ساكنى الريف جملته نحو الانخفاض (٦١,٥٪ فى عام ١٩٧٥، و٥٦,٣٪ فى عام ١٩٨٠ ، ١٩٨٥). إلا أن هذا الانخفاض الاجمالى ينتج عن تناقص نسبة المواطنين تناقصا كبيراً (٧١,٤ ٪ فى عام ١٩٧٥ و ٦٥,٧ ٪ فى عام ١٩٨٠ و ١٩٨٥) بما يوحى بأن هناك هجرة واسعة للريفيين المواطنين نحو المدن . و الواقع أن التوسع فى شق الطرق بين المدن و القرى ترتب عليه سهولة الاتصال بين المدينة و القرية،إضافة إلى أن كثيرا من المواطنين يمتلكون أرضاً زراعية فى الريف ، و يعملون فى نفس الوقت فى المدن مما أدى إلى ظهور الملكية الغيابية Absentee landism التى تحدث فى كثير من جهات العالم النامى فى أمريكا اللاتينية و آسيا و أفريقيا [٢٧] . أى امتلاك الأرض فى الوقت الذى يقوم فيه عمال أجانب وافدون بالزراعة. و يقيم هؤلاء فى الريف دون أن يتأثر بذلك طبيعة و نوعية الملكية الزراعية ؛ فمعظم الوافدين عمال بأجر و ليسوا ملاكا أو مستأجرين . و بذلك يبدو من الطبيعى أن تتجه نسبة غير المواطنين الزراعيين المقيمين فى الريف نحو التزايد ، عكس نسبة المواطنين (٥٢,٧ ٪ فى عام ١٩٧٥ و ٥٤,٢ ٪ بعد عام ١٩٨٠) ، و ترتب على ذلك أيضاً إنخفاض عدد المزارعين المواطنين بين عامى ١٩٧٥ و ١٩٨٠ لقصور الزراعة فى البداية عن إستيعاب الإستثمارات الخاصة ثم حدث تطور هائل فى أعداد المزارعين المواطنين

بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٥ يصل إلى أكثر من المثل . و يعودذلك إلى التوسع فى استصلاح الأراضى ، و توجه الاستثمارات - حتى من القاطنين فى المدن - نحو شراء الأرض الزراعية خاصة مع دعم الدولة النقدى و العينى للإنتاج الزراعى ومستلزماته و للمنتجين أيضاً [٢٨] . و طبيعى ألا تقتصر الزيادة فى عدد المواطنين الزراعيين بل شمل ذلك أيضاً زيادة فى عدد الوافدين بنسب لا تقل عن نسبة المواطنين .

إذا كانت تلك هى الصورة العامة لتوزيع المشتغلين بالزراعة بين المواطنين والوافدين على مستوى الدولة ، فإن نسبة الريفيين إلى جملة السكان - سواء منهم المشتغلين بالزراعة أو غيرها - تختلف من إمارة إلى أخرى . كما أن تطور هذه النسبة يمكن أن يشير إلى كثير من الخصائص السكانية على مستوى تفصيلى ممثلة فى تطور نسبة الريفيين فى كل إمارة كما يشير إلى ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (٤)

تطور نسبة سكان الريف فى كل إمارة الى مجموع سكانها فى السنوات ١٩٦٨ - ١٩٧٥ - ١٩٨٠ [٢٩]

الامـــارات	١٩٦٨	١٩٧٥	١٩٨٠
أبو ظبى	٥٢٪	١٦٪	٢٤٪
دبى	٣	٢	٥
الشارقة	٣٥	١٧	٥
عجمان	١٢	١٤	٧
أم القيوين	٣٠	١٨	٢٢
رأس الخيمة	٦٤	٤٨	٤٤
الفجيرة	٨٣	٨٣	٦١
الدولة	٣٥	١٦	٨٩

تزايد نسبة الريفيين في عام ١٩٦٨ ، ١٩٧٥ في إمارات الفجيرة ، و رأس الخيمة ، و أبو ظبي ، و الشارقة عن نسبتهم إلى إجمالي سكان الدولة .

و رغم تشابه هذه الإمارات في زيادة النسبة،فإن هناك ظروفاً محلية تختلف في كل امارة عن غيرها،و تضع كلا منها موقف منفرد : فالفجيرة امارة مكونة من قرى صغيرة،وواحات صحراوية وجبلية ليس فيها من المراكز الحضرية ، على المستوى الاتحادي و المحلي سوى مدينة الفجيرة،فهي إمارة ريفية إذن من النواحي العمرانية و الإنتاجية و من ثم السكانية . و رأس الخيمة هي الإمارة التي يسود فيها الطابع الزراعي لظروفها الطبيعية ممثلة في السهل الحصوي الخصيب ، ووفرة المياه [٣٠] . و أبو ظبي هي أكبر الامارات سكانا و مساحة،و تتركز بها المستوطنات الزراعية ممثلة في الواحات الداخلية ، و مناطق توطين البدو الزراعيين (المحاضر) . و الشارقة تزيد فيها أعداد المزارع و مساحتها خاصة في الذيد و المدام و خورفكان حيث السهل الخصيب و سهولة الاتصال ووفرة المياه .

تقل نسبة الريفيين في الامارات الاخرى خاصة في دبي حيث التجارة والصناعة و الخدمات وهي مجالات الاستثمار الرئيسية . و تقل في عجمان المقومات اللازمة للزراعة أهمها التربة و ندرة المياه و توجه السكان نحو الصيد . والحال نفسها في أم القيوين على أية حال،فإن نسبة الريفيين تتجه نحو التناقص على مستوى الدولة،رغم ارتفاعها المطرد في بعض الامارات،و لكن ذلك لا يعني بالضرورة - كما ذكرنا - أن هناك هجرة تتجه من الريف إلى المدن .

ثالثا - التنمية الزراعية في دولة الإمارات :

ليست الظروف الطبيعية في دولة الامارات ظروفا مواتية للزراعة : فالتربة في معظمها ليست خصبة،و الماء ليس متاحاً و سهلاً ، و المناخ صحراوي جاف ترتفع حرارته و تنقص أمطاره . غير أن هذه الصعوبات لم تحل دون بذل جهود بناءة أثمرت عن نهضة زراعية،هي بالمقياس النسبي ثورة اقتصادية تقلل من أثر الحتمية البيئية الصعبة ، و تبرز معها آثار الجهد البشري المثمر الذي ساندته و أيدته موارد مالية

وفيرة . و سمحت ببذل الجهد الملح فى التغلب على المعوقات الطبيعية . و كان من نتيجة ذلك أن ساهمت الزراعة - رغم محدودية دورها فى إقتصاد الإمارات - فى إزادة الأمن الغذائى ، و فى جذب المواطنين الرحل إلى الحياة الاستيطانية الزراعية. و عضد ذلك جهد حكومى تتخذ محاور عدة ممثلة فى المساهمة فى إنجاز العمليات الزراعية الأولية مثل تسوية الأرض و حرثها و مقاومة الآفات الزراعية ، و ذلك دون مقابل نقدى يدفعه المزارعون،إضافة إلى تزويدهم بالآلات الزراعية (مضخات الرى و المكائن أساساً) بأسعار تدعمها الدولة ، و توفر الصيانة لها دون مقابل. يشمل ذلك أيضاً تهيئة القروض ، و تقديم مستلزمات الانتاج الزراعى (بذور - أسمدة - مبيدات) بنصف قيمتها ، مع تقديم خدمات الارشاد الزراعى ، و حل مشكلات الماء (حفر الابار و صيانتها - تمديد شبكات الرى بالتنقيط - الزراعة المحمية)[٣١] . و تساهم تلك الجهود فى إبراز تنمية زراعية تتشكل أهم معالمها فى النواحى الآتيه :

- تطور المساحات الزراعية .
- تطور الانتاج الزراعى .
- تغير هيكل الحيازة الزراعية .
- زيادة الانتاج الحيوانى و تحسينه .

و لا شك فى أن أبراز بعض التفاصيل الخاصة بهذه النواحى،يقدم تصوراً عن أهمية و أبعاد التنمية الزراعية فى الامارات :

١ - تطور المساحات الزراعية :

تزايدت مساحة الأرض الزراعية فى الامارات خلال السنوات التى تعقب ظهور البترول [٣٢] . ففى عام ١٩٦٧ كانت مساحة الأراضى المزروعة فى الدولة حوالى ٤٠ ألف دونما أرتفعت الى ١٢٧ ألف دونما فى عام ١٩٧٣،أى تضاعفت المساحة ثلاث مرات فى ست سنوات . و تواصل التوسع الزراعى الأفقى لتصل الأرض

الزراعية إلى ٢٦٤ ألف دونما فى عام ١٩٨١ .

يبدو هذا التوسع الكبير فى المساحة الزراعية ظاهرة خاصة لا تعرفها إلا دول الخليج . فمن الواضح أن العوائد البترولية هى بالفعل العامل الأول فى توفير النقد الذى يسمح بالإنفاق على تنمية زراعية هائلة تقلل أثر المعوقات الطبيعية - والبشرية أحياناً - إلى أدنى حد . بل كانت التنمية الزراعية جزءاً من (خطة) تنمية شاملة،كان نصيب التنمية الزراعية الريفية ممثلاً فى استصلاح المزيد من الأراضى ، و توزيعها على المواطنين وفق المعايير التى تقترب من عطاء «مجانى» .

ظل التوسع الزراعى سائراً فى فقرات سريعة حتى عام ١٩٨٠ . و بعدئذ أصبح التزايد بطيئاً نسبياً.ونفس السبب الذى كان وراء زيادة مساحة الأراضى هو السبب فى قلة معدلات التوسع . أى أن تراجع أسعار البترول و عوائده أخذت تتراجع منذ عام ١٩٨٠ ، و تراجعت معه معدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى شهدت بكل المقاييس طفرة و نموا يقل أن نجد نظيرا له خارج الخليج بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٨٠ و يدلل على هذا الاتجاه أرقام الجدول الآتى :

جدول رقم (٥)

تطور سعة الأرض الزراعية

فى دولة الامارات بين السنوات ١٩٦٧ - ١٩٨١ [٣٣]

العام	المساحة (دولة)	الزيادة
١٩٦٧	٤٠٠٠٠	—
١٩٧٣	١٢٧١٠٠	٨٧١٠٠
١٩٧٥	١٤٥٠٢٦	١٧٩٢٦
١٩٧٨	١٨٠٣٥٧	٣٥٣٣١
١٩٨٠	٢٣٤٧٤٩	٥٤٣٩٢
١٩٨١	٢٦٣٥٣١	٢٨٧٨٢

تدل الأرقام على أن الأرض الزراعية قد توسعت بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٨١ بمقدار ٢٢٣,٥٣١ دونما ؛ أى أن الأرض قد تضاعفت نحو سبع مرات فى خلال ١٤ عاماً . و كان التوسع الزراعى هائلاً فى الفترة بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ و هى فترة الطفرة البترولية و تكون إتحاد الإمارات . وتذبذب معدلات زيادة الأرض الزراعية،غير إنها تباطأت بعد عام ١٩٨٠. أما بعد عام ١٩٨٥ فتشهد الإمارات توسعاً زراعياً واضحاً خاصة مع التوسع فى استصلاح الأراضى الذى واكب انشاء محطات إعذاب المياه المالحة و استزراع النباتات التى تتحمل الملوحة ، وتطور المشاريع الزراعية كزراعة القمح بالعوهة و مشاريع العلف فى أبو ظبى[٣٤] ووصلت الارض الزراعية إلى نحو ٣٨١ ألف دونما [٣٥] .

و مع التوسع الكبير فى الأراضى الزراعية تختلف مساحة الارض الزراعية من إمارة إلى أخرى وفق أثر المعطيات الطبيعية و العوامل البشرية المؤثرة فى الزراعة بكل إمارة كما كان نشاط التوسع الزراعى مختلفا بين الامارات كما يوضح ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (٦)

تطور مساحات الاراضى الزراعية فى الامارات عام ١٩٧٣ - ١٩٨٥ [٣٦]

الامارة	١٩٧٣		١٩٨٥	
	المساحة (دونم)	٪	المساحة (دونم)	٪
أبو ظبى	١٤٧٧٨	١٢	١٣٩٢٧٣	٣٧
دبى	٧٤٩٤	٦	٣٢٢٩٣	٨
الشارقة	٢٢٥١٢	١٨	٨٢٨٤٩	٢٢
عجمان	٤٥٣	١	٦٤٦٦	٢
أم القيوين	٢٦٠٢	٢	٨٠٥٤	٢
رأس الخيمة	٥٨٧٢٨	٤٨	٨١٧٤٠	٢١
الفجيرة	١٥٨٧٠	١٣	٢٩٥١٨	٨
الدولة	١٢٢٤٣٧	١٠٠	٣٨٠١٩٣	١٠٠

زادت المساحة الزراعية بدولة الامارات زيادة كبيرة بين عامى ١٩٧٣ - ١٩٨٥،غير أن هذا التوسع يختلف فى الامارات حسب إمكانية التوسع الزراعى فى أراضيها .

و كان لتوطن مشروعات التوسع الزراعى،و تركز الانفاق فى هذا المجال فى مناطق بعينها تتوافر فيها ما يلزم للزراعة أكبر الأثر . و نالت إمارة أبو ظبى قصب السبق فى هذا المجال ، و زادت فيها المساحة الزراعية كما زادت نسبة هذه الأراضى الى جملتها فى الدولة . ثم تقسم الدولة من وجهة النظر الزراعية الى أربع مناطق الشمالية و الشرقية و الوسطى و الجنوبية (انظر الخريطة بالملحق). و تتركز المنطقة الجنوبية فى إمارة ابو ظبى،و تشمل منطقتى أبو ظبى و العين . و الاخيرة تعرف الزراعة منذ عهد الاستيطان فى منطقة الامارات لعوامل تضافرت على قيام حرفة زراعية مستقرة،منها التربة الخصبة و توفر المياه فى مساحة تصل الى ٧٧ ٪ من المساحة الزراعية فى الدولة . و يصل فيها إنتاج الخضر الى ٩٣ ٪ من انتاج الدولة و ٩٠ ٪ من المحاصيل التقليدية .تتركز الزراعة أيضاً فى إمارة رأس الخيمة ولكنها قبل جهود التنمية الزراعية الحديثة كانت المصدر الاساسى لما يقرب من ٥٠ ٪ من الانتاج الزراعى . و تناقصت هذه النسبة بعد التوسع الزراعى فى إمارات أخرى . فلم تظل رأس الخيمة كأساس و لكنها رغم ذلك منطقة زراعية رئيسية تتساوى فيها نسبة الأراضى الزراعية مع الشارقة (٢١ ٪،٢٢ ٪ على التوالى) .

و ليس لامارات دبى، و عجمان ، و أم القيوين أهمية كبيرة من ناحية المساحة الزراعية . أما الفجيرة ففيها الواحات الجبلية الزراعية و المناطق الزراعية فى السفح الشرقى،و مناطق توطن المشروعات الزراعية خاصة بالنسبة لتربية الدواجن ، و من ثم زادت المساحة الزراعية فيها،و لكن نسبة أراضيها إلى جملتها فى الدولة تقل . و لكن قياس اهمية الزراعة و تنميتها ليس قاصراً على المساحة الزراعية؛فقد يكون الانتاج غزيراً فى مساحة قليلة يعوض نقص المساحة خاصة مع توفر إمكانات قد لا توجد فى مساحة كبيرة .

٢ - *تطور الانتاج الزراعى:*

واكب التوسع فى مساحة الأرض الزراعية زيادة فى نوعية الانتاج الزراعى من ناحيتى الكمية المنتجة و القيمة النقدية للمنتجات ، و يظهر ذلك فى الجدول الآتى :

جدول رقم (٧)

تطور الانتاج الزراعى حسب أنواعه و قيمته فى السنوات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ فى دولة الامارات (٣٧)

العـــام		خضروات	فاكهة	محاصيل (٣٨)
١٩٧٥	الكمية (طن) القيمة (غير مبين)	١٣٠٠٠	٢٣٠٠	٤٠٠٠
١٩٨٠	الكمية القيمة (درهم)	١٢٦٧٤٩ ٩٨٣٧٨	٥٩٢٦٤ ٩٨٣٧٨	٩٠٣٩٢ ١٣٩٠٢٣
١٩٨٥	الكمية القيمة	٢٣٢٢٩٢ ٣٣٢٣٤٣	٨٥٩٣٦ ٢٥١٨٤٩	٣١٩٩٩٥ ٣٩١٥١٠

يلاحظ من أرقام الجداول أن الانتاج الزراعى تزايد بصورة ملحوظة فى أنواع المنتجات . كما تزايدت قيمتها النقدية زيادة متواصلة . غير أن القيمة النسبية لكل نوع تختلف بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ؛ ففى عام ١٩٨٠ كانت قيمة الخضروات تربو على نصف قيمة مجموع الانتاج الزراعى . و تكاد تتقاسم الفاكهة و المحاصيل فى النصف الآخر . إنخفضت بعد ذلك قيمة الخضروات النسبية فى عام ١٩٨٥ ، و ارتبط ذلك بزيادة ملحوظة فى المحاصيل و زيادة أقل فى قيمة الفاكهة . و من الطبيعى أن تزيد الكمية المنتجة من المحاصيل فى عام ١٩٨٥ مع التوسع

فى زراعات القمح الواسعة فى منطقة العين ، و كذا التوسع فى زراعة محاصيل العلف التى ترتبط بالتوسع فى تربية الحيوانات، و التى تدعمها الدولة فى مزارعها الحكومية أو فى المزارع الخاصة [٣٩] .

و إذا كان الانتاج الزراعى قد اختلف حسب نوعه و قيمته فى الدولة فإن الانتاج يختلف بالطبع من إمارة إلى أخرى، و فى كل نوع من الانتاج الزراعى يوضح ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (٨)

الانتاج الزراعى حسب نوعه فى كل امارة فى ١٩٨٥ [٤٠]

الامارة	الخضروات		التمور و الفاكهة		المحاصيل	
	الكمية	٪	الكمية	٪	الكمية	٪
أبو ظبى	٧٩٩١٨	٣٤,١	٦١٣٢	٧,٢	١٠٧٠٦٣	٣٣,٥
دبى	٤٢٧٣	١,٨	٦٠٤٨	٧,١	٥١٤٨١	١٦,١
الشارقة	٦٧٩٤٣	٢٩	٣٧٦٢٨	٤٣,٩	١١٦٦٣٨	٣٦,٥
عجمان	٢٥٤١	١	١٢٩٥	١,٥	٥٧٤٩	١,٨
أم القيوين	١٩٠٥	,٨	١٨١٠	٢,١	١٠٤٣٠	٣,٣
رأس الخيمة	٦٧٧٠٩	٢٨,٩	١٧٧٧٦	٢٠,٨	٢٣٥٥٧	٧,٤
الفجيرة	١٠٣٧١	٤,٤	١٤٨٦٧	١٧,٤	٤٣٩٥	١,٤
الدولة	٢٣٤٦٦	١٠٠	٨٥٥٥٦	١٠٠	٣١٩٣١٣	١٠٠

تتركز زراعة الخضروات و التمور و الفاكهة و المحاصيل تركزاً يكاد يكون كلياً فى امارات أبو ظبى و الشارقة و رأس الخيمة . إذ تنتج الأراضى الزراعية فى هذه الامارات التى تزيد فيها مساحة الأرض الزراعية (راجع جدول رقم ٧) ، و التى يتوافر فيها - كما سبقت الاشارة - المقومات الطبيعية و البشرية اللازمة للزراعة

ويتضح من الجدول أن إمارة الشارقة تتصدر كل الامارات فى انتاج المحاصيل والتمور و الفاكهة. و يدل كم الانتاج على جودة أراضى امارة الشارقة فهى لا تملك المساحة الزراعية الأوسع (٢٤ ٪ من المساحة الزراعية فى الدولة) و تتفوق عليها أبو ظبى (٣٧٪). ويرجع تفوق انتاج الشارقة الى خصوبة التربة و توافر المياه وقدم الزراعة بها ، ويزيد الانتاج فى ابو ظبى من الخضروات و المحاصيل ، و هى المكان الرئيسى الذى تتوطن فيه المشاريع الحكومية فى إطار خطط التنمية الزراعية وخطط توطين البدو. و يمثل الانتاج من الخضروات و التمور و الفاكهة أهمية خاصة فى إمارة رأس الخيمة،و هى موطن الزراعة التقليدى فى الإمارات. ويزيد انتاج الفجيرة من التمور والفاكهة،وهى المحاصيل الرئيسية فى الواحات . أما فى إمارات دبى و عجمان و ام القيوين فالانتاج ضئيل يتفق مع صغر المساحات الزراعية بها .

٣ - *تغير هيكل الحيازة الزراعية :*

تم إحداث تنمية زراعية شاملة فى الدولة تتمثل فى ازدياد مساحة الأراضى المزروعة،و ارتفاع كمية الانتاج الزراعى بكافة أنواعه . كما تحسنت الانتاجية لمختلف أنواع المزروعات ، و فى كافة المناطق الزراعية . و فى هذه المؤشرات ما يكفى للدلالة بوضوح على حقيقة التنمية الزراعية و شمولها،تزداد دلالاتها مع توضيح مدى التوافق بين عائد الأراضى الزراعية ، و عدد الحائزين و متوسط مساحة الحيازة الواحدة ، و تطور انتاجية الحيازة أيضاً .

ارتفع عدد الحيازات بشكل ملحوظ خلال السنوات الماضية ، ففى حين كان عددها ٤٩٤٠ حيازة عام ١٩٧٣ . ارتفع إلى ٧٥٢٢ حيازة عام ١٩٧٥ ، ثم أصبح عددها ١١٤٤٤ حيازة عام ١٩٨٠ ، كما ارتفع عددها الى ١٦٨٤٨ حيازة عام ١٩٨٥ .

و إزداد فى نفس الوقت متوسط المساحة للحيازة الواحدة . و هذا يعنى أنه لم يحدث تفتت فى الملكية كما يحدث فى أغلب البلدان الاخرى بسبب ازدياد عدد

المالكين بحكم التوارث ، فى ظل مساحات لا تتزايد بنفس المعدل .

ففى دولة الامارات تزامن مع ارتفاع عدد الحيازات ، تزايد فى متوسط المساحة للحيازة الواحدة ، حيث كان المتوسط حوالى ٧.٨ دونما للحيازة الواحدة عام ١٩٧٥ ، فأرتفع المتوسط الى ١١.٩ دونما عام ١٩٨٠ ، ثم أصبح ١٤.٥ دونما عام ١٩٨٥ [٤١] :

جاء ارتفاع عدد الحيازات،و ازدياد متوسط المساحة للحيازة الواحدة،نتيجة الجهود المبذولة لاستصلاح مزيد من الأراضى و توزيعها على المواطنين الريفيين . ومن ناحية أخرى تواكب الارتفاع الملحوظ فى عدد الحيازات الزراعية و فى متوسط قيمة الانتاج لكل حيازة ؛ ففى عام ١٩٨٠ بلغ متوسط إنتاج الحيازة الواحدة حوالى ٤٣ ألف درهم ، و ارتفع هذا المتوسط إلى حوالى ٥٨ ألف درهم عام ١٩٨٥ .و هذا يعنى أن الحيازات الزراعية تحسن دخلها و مردودها . و إذا أضيف الى دخل المزارع ، انتاج الثروة الحيوانية ، فهذا يعنى أنه أصبح يتحقق لابناء الريف دخل لا بأس به .و الجدول التالى يوضح تطور قيمة انتاج الحيازة الواحدة فى الدولة :

جدول رقم (٩)

عدد الحيازات و متوسط قيمة انتاج الحيازة الواحدة

فى دولة الامارات عامى ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ [٤٢]

القيمة بالالف درهم

البيان	عدد الحيازات	قيمة الانتاج الزراعى	متوسط قيمة انتاج الحيازة
١٩٨٠	١١٤٤٤	٤٩١٦٣٢	٤٣.٠
١٩٨٥	١٦٨٤٨	٩٧٥٧.٣	٥٧.٩

تزايد عدد الحيازات.كما ارتفع متوسط مساحة الحيازة الواحدة خلال السنوات القليلة الماضية ، و يرتبط تزايد الحيازات مع تزايد عدد الاسر المواطنة فى الريف ففى ١٩٧٥ كان عدد الحيازات يمثل ٦١٪ من عدد تلك الأسر ، وفى عام ١٩٨٠ ارتفعت نسبتها إلى ٧٦٪ من عدد الاسر . و فى عام ١٩٨٥ أصبحت تشكل ٩٢٪ [٤٣] من عدد الأسر ، بمعنى أنه أصبح تقريباً لكل أسرة حيازة زراعية ، الأمر الذى يشجع على الاستقرار بالريف ، بدلاً من الهجرة إلى المدن . وهذا الاتجاه يتماشى مع استراتيجية التنمية و توجهاتها بالدولة منذ ظهور البترول .

٤ - زيادة الانتاج الحيوانى و تحسينه :

أولت الحكومة عناية خاصة للمحافظة على الثروة الحيوانية و تنميتها متمثلة فى الأبل و الأغنام و الماعز . كان أبناء البلاد يتنقلون وراء العشب فى مناطق الرعى المتناثرة حول الواحات فى الظفرة و ليوا و العين و سهل الباطنة و المناطق الجبلية . إلا أن ظروف البيئة القاسية لم تساعد على تربية القطعان لأغراض تجارية بل لأغراض الاكتفاء الذاتى .

و بعد ظهور البترول و منذ قيام الدولة عام ١٩٧٢ ظهرت التوجهات للمحافظة على الثروة الحيوانية و تنميتها بشتى الوسائل،حيث بدأت الحكومة بتهيئة مخصصات شهرية بلغت الفى درهم عن كل ناقة ، و منح خمسمائة درهم عن كل وليد جديد للناقة أيضا[٤٤]. كما تم أنشاء مراكز للمرشدين الزراعيين فى رأس الخيمة و الذيد و خورفكان و الفجيرة ، و انشاء حظائر للشيران فى دبى و رأس الخيمة،واقام مبانى قسم البيطرة فى الدقداقة و الاعداد لاقامة مشروع ضخم لتربية الأبقار فى العين .

تزايدت قطعان الثروة الحيوانية - تبعاً لكل ذلك - بشكل ملحوظ ففى حين بلغ عددها حوالى ٥٨٠ ألف رأس عام ١٩٧٥ ارتفع عددها الى حوالى ٥٩٩

الف رأس عام ١٩٨٠ ثم اصبح عددها حوالى ٧٦٥ ألف رأس عام ١٩٨٥ .

و تشكل الماعز اكثرية أنواع الثروة الحيوانية فى الدولة، حيث بلغ عددها حوالى ٤٦٨ ألف رأس أى حوالى ٦١٪ من مجموعة الثروة الحيوانية فى البلاد عام ١٩٨٥ ، كما كانت تشكل نفس النسبة تقريباً عام ١٩٧٥ . و يأتى بعد الماعز فى المرتبة الثانية الاغنام ثم الجمال و الإبل ، ثم الأبقار [٤٥].

ومع تزايد عدد قطعان الثروة الحيوانية فى البلاد ، تزايد إنتاجها أيضاً ، فقد ارتفع انتاج الحليب من حوالى ١٢ ألف طن عام ١٩٧٥ ، إلى حوالى ٣٨ ألف طن عام ١٩٨٥ كما ارتفع انتاج اللحوم الحمراء من حوالى ألف طن عام ١٩٧٥ الى حوالى ٩ آلاف طن عام ١٩٨٥ .

و ازداد انتاج الدواجن أيضاً خلال السنوات القليلة الماضية ، حيث إرتفعت كمية لحوم الدواجن المنتجة محلياً من حوالى ألف طن عام ١٩٧٥ إلى حوالى ٨ ألاف طن عام ١٩٨٥ . كما ارتفع انتاج بيض المائدة ، من حوالى ٤ ملايين بيضة عام ١٩٧٥ إلى حوالى ١٥٨ مليون بيضة عام ١٩٨٥ [٤٦] .

كانت الحيوانات و الطيور الداجنة يتم تربيتها فى الريف كما فى المدن . حتى دلت نتائج التعداد الزراعى الذى قامت به وزارة الزراعة و الثروة السمكية فى مايو عام ١٩٧٦ على أن عدد حيازات الثروة الحيوانية بلغت ١٧٦٢٧ حيازة . منها ٩٩٣٢ حيازة فى الريف بنسبة حوالى ٥٦ ٪ أما باقى الحيازات فكانت فى المدن .

و لقد أدت التحولات الاجتماعية و الاقتصادية التى حدثت و أثرت على اساليب و مستوى معيشة السكان، و كذلك التطورات العمرانية فى المدن ، الى أن اصبحت تربية الحيوانات و الدواجن مقتصرة على الريف سواء كان عند الأفراد فى القرى ، أو فى المزارع النموذجية المخصصة لتلك الأغراض . و أدى تطور الثروة الحيوانية لأعدادها، و كميات إنتاجها، و أساليب تربيتها ، إلى أحداث موارد إقتصادية ساهمت إلى جانب الموارد المتحققة من تطوير الزراعة فى تحسين الموارد المحلية للريفيين ، و سبل معيشتهم و استقرارهم فى مناطقهم .

رابعاً : التنمية الخدمية في ريف الامارات :

١ - الخدمات التعليمية :

يرجع تاريخ التعليم النظامى فى الدولة الى عهد قريب،فقد بدأ التعليم الحديث بالدولة فى أواخر الخمسينات ، بإمارة الشارقة و بمبادرة من دولة الكويت ، و فى عام ١٩٦٠ تم أفتتاح أول مدرسة فعلياً فى إمارة أبو ظبى .

و هذه البداية المتأخرة للتعليم تركت آثارا واضحة ، فجاء ظهور البترول فى الوقت الذى تطلب استخراجه أو استغلال موارده طاقات بشرية مدربة و مؤهلة فى حين كانت الايدى العاملة المواطنة ليست بالعدد و الكفاءة التى تتفق و طموحات التنمية ، ففى عام ١٩٦٨ كانت نسبة الأمية ، فى الدولة حوالى (٧٩٪) و كانت الاناث حوالى (٩١٪) فى ذلك العام و مما لاشك فيه أن الأوضاع التعليمية لسكان الريف وحدهم لم تكن بالطبع احسن حالا .

و بعد ظهور البترول و استثماره ، تم نشر فرص التعليم،كما تم وضع حوافز متعددة للاقبال عليه و الاستمرار به . ففى عام ١٩٧٥ انخفضت نسبة الامية إلى ٤٤٪ ، ثم انخفضت إلى حوالى ٣٢٪ عام ١٩٨٠ . و فيما يخص المواطنين فقد انخفضت نسبة الأمية بينهم أيضاً من ٥٧٪ عام ١٩٧٥ ، الى ٤٤٪ عام ١٩٨٠[٤٦] .

شهد الريف تحسناً فى الاوضاع التعليمية لسكانه . الا أن الصورة الحقيقية لمدى فعالية برامج التنمية الريفية فى هذا المجال ، تظهر فى مدى انعكاسها على واقع الأوضاع التعليمية للمواطنين فى الريف ، و ليس لمجموع سكان الريف ، حيث أن استقدام اعداد كبيرة من المتعلمين الوافدين تؤدى الى ظهور ارقام عن الحالة التعليمية فى الريف بجملته لا تعبر تعبيراً حقيقاً عن حالة المواطنين التعليمية .

أظهرت بيانات التعدادات السكانية ، وجود تحسن ملموس فى الأوضاع

التعليمية للمواطنين فى الريف ، فقد انخفضت نسبة الأمية بينهم من ٧٤٪ عام ١٩٧٥ الى ٦١٪ عام ١٩٨٠ ، كما ظهر تحسن فى الأوضاع التعليمية للمواطنين فى الريف ، بكافة المستويات التعليمية

و الجدول التالى يوضح تطور الاوضاع التعليمية للمواطنين فى الريف .

جدول رقم (١٠)

الحالة التعليمية للمواطنين بالريف فى دولة الامارات العربية المتحدة عامى ١٩٧٥، ١٩٨٠[٤٧]

الحالة التعليمية	١٩٧٥		١٩٨٠	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة
أمى	٢٧٩٠٣	٧٤٪	٢٨٩٨٨	٦١٪
يقرأ و يكتب	٨٠٧٨	٢٢٪	١١٧٤٤	٢٤٪
ابتدائية	١٢٣١	٣٪	٥١٠٦	١١٪
اعدادية	٤٢٣	١٪	١٤٤٠	٣٪
ثانوية	١٣٢	...	٥٠٣	١٪
دبلوم	١٤	...	١٩	...
جامعية فما فوق	٧	...	٤٣	...
غير مبين	٤٥	...	—	...
الجملة	٣٧٨٣٣	١٠٠٪	٤٧٨٤٣	١٠٠٪

إن التحسن المشار اليه فى الاوضاع التعليمية للمواطنين فى الريف ، وفقا لما اظهرته بيانات تعدادى عام ١٩٧٥ ، و عام ١٩٨٠ ، قد تم فى فترة زمنية قصيرة بالمقارنة مع متطلبات تطوير المهارات البشرية .

٢ - الخدمات الصحية :

عاشت الامارات العربية قبل ظهور البترول و قيام الاتحاد سنوات طويلة دون خدمات صحية تذكر ، فالعلاج كان يعتمد أساسا على الطب الشعبى الذى يستخدم وسائل بدائية . و كان المريض الذى يستعصى حالته يضطر الى السفر الى الكويت أو السعودية أو البحرين ، إذا توفرت لديه الامكانيات ليجد العلاج هناك .

و كانت قلة موارد الغذاء و عدم كفايته ، و قلة المياه الصالحة للشرب،وضعف الوقاية،و ندرة العلاج عوامل هيأت لوجود بيئة تتفشى فيها الأوبئة كالجدرى و الكوليرا و الدرن و الجذام و الامراض المعدية الاخرى ، و كانت نسبة وفيات الأطفال الرضع مرتفعة .

و لقد قدمت بعض الدول المجاورة مساعدات طبية بشكل أو بآخر آنذاك ، الا انها لم تكن بالمستوى الذى يحقق الحدود الدنيا من الرعاية الصحية : فالبحرين كانت تبعث طبيباً كل اسبوع لاستقبال المرضى . كما قدمت القواعد الاجنبية بعض الخدمات الطبية الضئيلة .و كانت الكويت ترسل بعثة طبية الى الامارات الشمالية فى أوائل الستينات ، فاقامت مستشفى صغير فى دبى ، و اقامت عددا من المستوصفات فى بعض الامارات . كما أوفدت المملكة العربية السعودية عدداً من الأطباء الى إمارة رأس الخيمة و الشارقة و كذلك فعلت أبو ظبى .

و مع استغلال البترول وزيادة عوائده،حدث تغير مباشر فى إمارة أبو ظبى فقامت بانشاء مستشفى تم افتتاحه لكافة أبناء الامارات الاخرى . و اخذت امارة دبى بإنشاء مستشفى أيضا . ثم بدأت الجهود تتلاحق حتى حققت الخدمات الصحية فى حقبة قصيرة تطوراً ملحوظاً ثم إقامة المستشفيات الحديثة و توفير الكفاءات العالية و التجهيزات الحديثة المتكاملة .

و من هنا فقد إشتملت منطلقات و منجزات التطور الصحى على توفيرالخدمات الملائمة فى الريف . فتم افتتاح العيادات و المراكز الصحية فى القرى

و حدثت نقلة واضحة فى الخدمات الصحية الريفية و المراكز الصحية المتخصصة فى المدن الى جانب المستشفيات . فالريف لم يكن به أية خدمات صحية تذكر قبل ظهور البترول فى حين أصبح به عام ١٩٨١ ثمانية مستشفيات مجهزة بكل ما يلزمها من أطباء و عاملين و متخصصين و أجهزة فنية دقيقة . كما اصبح فى الريف فى نفس العام ٢٤ عيادة لتقديم العلاج الاولى ، و تنتشر هذه العيادات فى القري الرئيسية و مراكز التجمع السكانى الرئيسية . و بالنتيجة فقد بلغ مجموع الاطباء العاملين فى الريف ١٢٠ طبيباً عام ١٩٨١ .

و فى عام ١٩٨٧ ارتفع عدد الاطباء العاملين فى الريف الى ١٧٦ طبيباً يعملون فى ١٢ مستشفى و ٤٢ عيادة ، و بمقارنة الخدمات الطبية الموجودة فى الريف مع الخدمات الموجودة فى الحضر لا ينبغى إغفال أن المستشفيات الكبرى فى المدن تقدم خدماتها لكافة السكان و بالتالى يستفيد منها ابناء الريف ايضاً، إضافة الى استفادتهم من الخدمات المقدمة من المراكز الصحية الموجودة فى الريف والتى يندر أن تقدم خدماتها لابناء المدن .

أصبح الاطباء العاملون فى الريف يشكلون ١٠ ٪ من مجموع الاطباء فى الدولة عام ١٩٨١ ، و ارتفعت نسبتهم الى ١٤ ٪ عام ١٩٨٧ [٤٨].

و إذا علمنا أن سكان الريف يشكلون حوالى ١٩ ٪ من مجموع سكانالدولة ، نجد أن الخدمات الطبية الموجودة فى الريف ليست بالقليلة . و بمقارنة عدد الأطباء مع عدد السكان نجد أنه فى عام ١٩٨١ كان معدل عدد الأفراد لكل طبيب فى الريف حوالى ١٤٥٠ فرداًطبيب ، و فى الحضر حوالى ٨٥٠ فرداًطبيب . علماً بأن معدل الأطباء المذكور ، يعتبر منخفضاً بالمقياس العالمى [٤٩] .

٣ - الاسكان :

تحسنت الاوضاع السكنية فى دولة الامارات بشكل عام ، و فى ريفها بشكل خاص،خلال السنوات التى أعقبت ظهور البترول . فحتى الستينات كانت أغلب

الوحدات السكنية فى القرى و فى بعض أحياء المدن تتكون من سعف النخيل والقليل منها كانت تبنى من الطين . أما المبانى الحجرية فكانت نادرة. و حتى سنوات قريبة كانت العشش المكونة من السعف تشكل نسبة عالية من المساكن لم تكن تتمتع بالكهرباء أو المياه النقية سواء فى المدن أو القرى .

و مع استثمار البترول و توفر الموارد المالية ، تضافرت الجهود ، لاحداث نقلة نوعية فى الاوضاع السكنية ، بالحضر و الريف . و استمر التطور العمرانى حتى اصبح فى الدولة – إضافة إلى المدن – قرى نموذجية يتوفر فيها المساكن الملائمة والمرافق والخدمات .

اخذت المساكن القديمة تتلاشى و يحل مكانها البيوت الحديثة . ففى عام ١٩٨٠ كان عدد العشش المكونة من السعف بالريف ٣٦٩٥ عشة ، و انخفض عددها الى ٤٦٨ عشه عام ١٩٨٥ [٥٠]. و انخفض عدد البيوت التقليدية فى الريف من ١٤١١٢ بيت عام ١٩٨٠ الى ١٠٨١٧ بيت عام ١٩٨٥ .

و فى الوقت ذاته ارتفع عدد الڤيلات فى الريف من ١٣٨٤ ڤيلا عام ١٩٨٠ الى ٣٤٢٧ ڤيلا عام ١٩٨٥ . كما ارتفع عدد البيوت الشعبية من ١٣٣٨٠ بيت عام ١٩٨٠ الى ٢١٤٢٢ بيت عام ١٩٨٥[٥١] . و حيث أن الدولة قد تبنت تطبيق نموذج سكنى ريفى ، يبدو مناسباً الحديث عن أبعاد هذا التطبيق فى ريف الامارات و حضرها (انظر الملحق الصور التى توضح أنماط المساكن) .

قامت الجهات الحكومية ببناء المساكن وفق نماذج معنية تتكون من غرفتين الى ثلاثة غرف و توابعها ، اطلق عليها « البيوت الشعبية » ، حيث كان ولا يزال يتم بناء هذه المساكن فى مختلف المناطق بالمدن و القرى ، و من ثم توزيعها على المواطنين دون مقابل .

و لقد احدثت هذه المساكن تطوراً ملموساً فى الأوضاع السكنية للمواطنين حيث حلت بدلا من العشش و المساكن غير الملائمة الاخرى ، و نشأت القرى النموذجية الحديثة بدلا من المستوطنات القديمة .

فى عام ١٩٨٠ اصبح فى الريف ١٣٣٨٠ بيتا شعبيا ، شكلت ٣٥ / من مجموع المبانى فى الريف بالدولة ذلك العام . و فى عام ١٩٨٥ ارتفع عددها الى ٢١٤٢٢ بيتاً شعبيا بما يشكل ٣٨ ٪ من مجموع المبانى فى الريف ذلك العام .

و لا بد من الاشارة الى أن عدد البيوت الشعبية التى تم بناؤها فى الدولة كان عددها فى الريف اكثر من عددها فى الحضر فى كل من عامى ١٩٨٠ ، ١٩٨٥. كما أن نسبتها فى الريف كانت أعلى منها فى الحضر . و هذا يعنى انه تم اعطاء عناية أكبر للنهوض بالاوضاع السكنية لابناء الريف أكثر منه للحضر لا سيما و أن تلك المساكن يتم توزيعها دون مقابل .

و بمقارنة عدد البيوت الشعبية مع عدد الاسر المواطنة فى الريف ، نجد أن هذه البيوت شكلت ٨٩ ٪ من مجموع الأسر المواطنة فى الريف عام ١٩٨٠ - مقابل ٤٠ ٪ فى الحضر[٥٢] - و هذا يعنى أن معظم الأسر المواطنة فى الريف اصبح لديها بيوت شعبية .

و تم بناء البيوت الشعبية فى الريف بجميع الامارات . و يأتى فى المرتبة الأولى من حيث عدد البيوت الشعبية ريف أبو ظبى،ريف رأس الخيمة ، ثم ريف الشارقة ، ثم ريف الفجيرة ، أما الريف فى باقى الامارات فإن عدد البيوت الشعبية به كان قليلاً

و المعيار الحقيقى لمقارنة عدد البيوت الشعبية فى الريف بين إمارة و أخرى هو تناسب عدد البيوت مع عدد الاسر المواطنة فى ريف كل إمارة على حده :

تبين فى عام ١٩٨٠ أن عدد البيوت الشعبية كان يفوق عدد الاسر المواطنة فى ريف كل امارة - أبوظبى - دبى - أم القيوين - عجمان . و يليهم إمارة الفجيرة التى شكلت البيوت الشعبية بالريف فيها ٩٤٪ من عدد الاسر المواطنة فيه ، ثم إمارة الشارقة فإمارة رأس الخيمة و تأتى فى المرتبة الاخيرة،و مع ذلك كانت نسبة البيوت الشعبية إلى الأسر المواطنة فى ريفها ٧٠ ٪ و هى نسبة ليست بالقليلة [٥٣].

حدث تحسن ملموس فى الأوضاع السكنية فى الريف إذن ، و اصبح بناء المساكن من مواد صلبة مثل الهياكل الخرسانية . أما المساكن غير الملائمة مثل العشش فقد أخذت نسبتها تتناقص من ٢٢٪ من جملة المساكن فى عام ١٩٨٠ الى ١٨٪ فى عام ١٩٨٥ . و يعنى هذا أن الأوضاع السكنية فى الريف أصبحت أفضل .

خلاصة :

أثر الطابع الصحراوى الذى يميز المنطقة،فى جعل الاستيطان البشرى فى الريف صعباً . لهذا فقد نشأت القرى الصغيرة فى ريف الامارات و قرب الواحات و عند سفوح الجبال . و من هنا فإن سكان الريف لم يتجاوزوا ثلث سكان الدولة قبل عهد البترول . و مع التغيرات السكانية التى حدثت بعد ذلك لوحظ أن نسبة سكان الريف الى مجموع سكان الدولة ارتفعت من ١٦٪ عام ١٩٧٥ الى ١٩٪ عام ١٩٨٠ .

كما تبين أن نسبة المواطنين فى الريف الى مجموع المواطنين فى الدولة ارتفعت من ٢٩٪ عام ١٩٧٥ الى ٤٠٪ عام ١٩٨٠ . و هى الفترة التى أعقبت طفرة اسعار البترول ، و هذا يعنى أن عملية التنمية و المشاريع العديدة التى صاحبت توفير الموارد البترولية ، لم تؤد الى هجرة من الريف إلى الحضر ، بل العكس .

و يوضح البحث أن توجهات التنمية التى تم اتباعها لم تميز بين الحضر و الريف، بل كانت الأولويات لإقامة المشاريع وفقا للاحتياجات فى أسرع وقت . و لقد تم توجيه العوائد فى إقامة المشاريع التنموية فى الريف و الحضر سواء بسواء . وإرتفعت الاستثمارات رغم تراجع اسعار البترول عقب عام ١٩٨٠ و خص الريف نصيباً من تلك الاستثمارات خاصة الزراعة .

و لم تتوقف التنمية الريفية عند الاهتمام بالزراعة دون غيرها بل تم العمل على تحقيق تنمية شاملة تناولت كافة الجوانب الخدمية ، و الانتاجية كالخدمات الصحية و التعليمية و الاسكان ... الخ .

فالزراعة كانت حتى الستينيا ت نادرة ثم بذلت الجهود للتنمية الزراعية:فتم التوسع فى زراعة الاشجار المثمرة و ارتفعت مساحة الاراضى الزراعية و ارتفع الانتاج الزراعى بكافة أنواعه ، كما تحسنت الانتاجية أيضاً .

لقد انعكست التنمية الزراعية على الريفيين : فمع استصلاح الاراضى ارتفع عدد الحيازات بما يعادل ٩٢٪ من عدد الأسر المواطنة فى الريف . بمعنى أنه أصبح يتوفر لكل أسرة مواطنة بالريف حيازة زراعية ، علماً بأن متوسط مساحة الحيازة الواحدة شهد ارتفاعاً . كما ارتفع متوسط قيمة انتاج الحيازة الواحدة ، بمعنى أن تطور الزراعة أصبح يوفر دخولاً لا بأس بها لابناء الريف ، يضاف إليها الدخول المتحققة نتيجة تنمية الثروة الحيوانية .

و بالطبع فلقد قدمت الحكومة دعماً متعدد الأشكال للزراعة كما له الأثر الفعال فى تطوير الريف .

و أما الخدمات التعليمية فقد أعطتها الجهات المسئولة عناية كبيرة ، فتم افتتاح المدارس فى جميع المناطق ، و تم تقديم الحوافز العديدة للالتحاق بالتعليم و الاستمرار فيه وأصبحت المدارس متوفرة فى كافة مراكز الاستيطان البشرى الريفى .

و تطورت الخدمات الصحية التى كانت بدائية قبل ظهور البترول ، حتى اصبح فى الريف حوالى ١٧٦ طبيباً يعملون فى العيادات و المستشفيات الحكومية الموجودة هناك ، و اصبح الريف عام ١٩٨٧ حوالى ١٤٠٠ نسمة لكل طبيب وهو من المعدلات الجيدة لا سيما و أن الخدمات الصحية الموجودة فى المدن تقدم خدماتها لابناء الريف أيضاً .

و تم العمل على تحسين الأوضاع السكنية و قامت الجهات الحكومية ببناء البيوت الشعبية و توزيعها على المواطنين مجاناً حتى أصبحت تلك البيوت تشكل ٣٨ ٪ من مجموع المباني السكنية في الريف عام ١٩٨٥ ، كما تشكل ٨٩٪ من مجموع الأسر المواطنة فيه بمعنى أنه أصبح يتوفر تقريباً لكل أسرة مواطنة بيت شعبي .

و على ضوء ما سبق يتبين أن دولة الامارات تعيش نهضة تنموية شاملة ، تناولت البنية الاساسية،و توفير مرافق الخدمات،و تطوير الزراعة و الموارد الاقتصادية المحلية الاخرى للريف .

• • •

الخرائط و الصور:

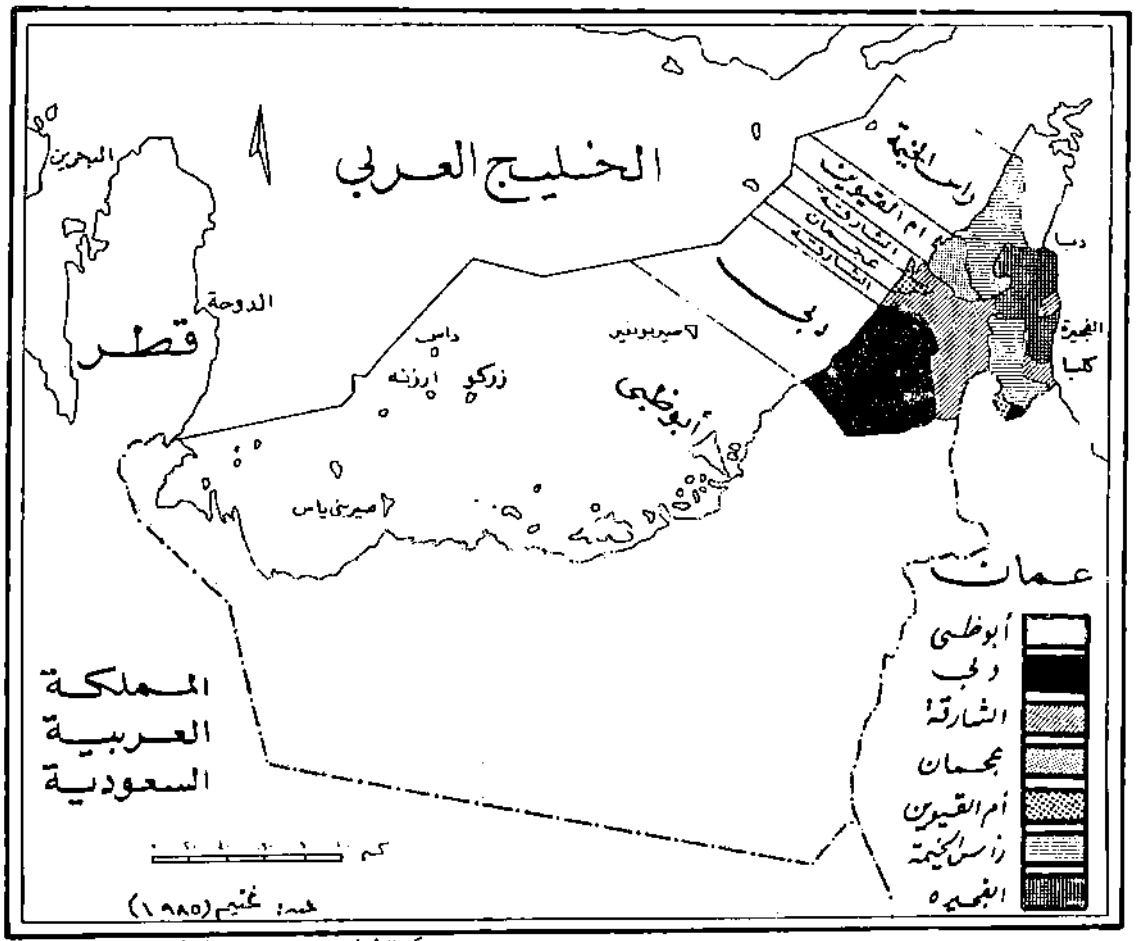

المصدر : مركز الوثائق والدراسات - أبوظبي

الأقسام السياسية لدولة الإمارات العربية المتحدة

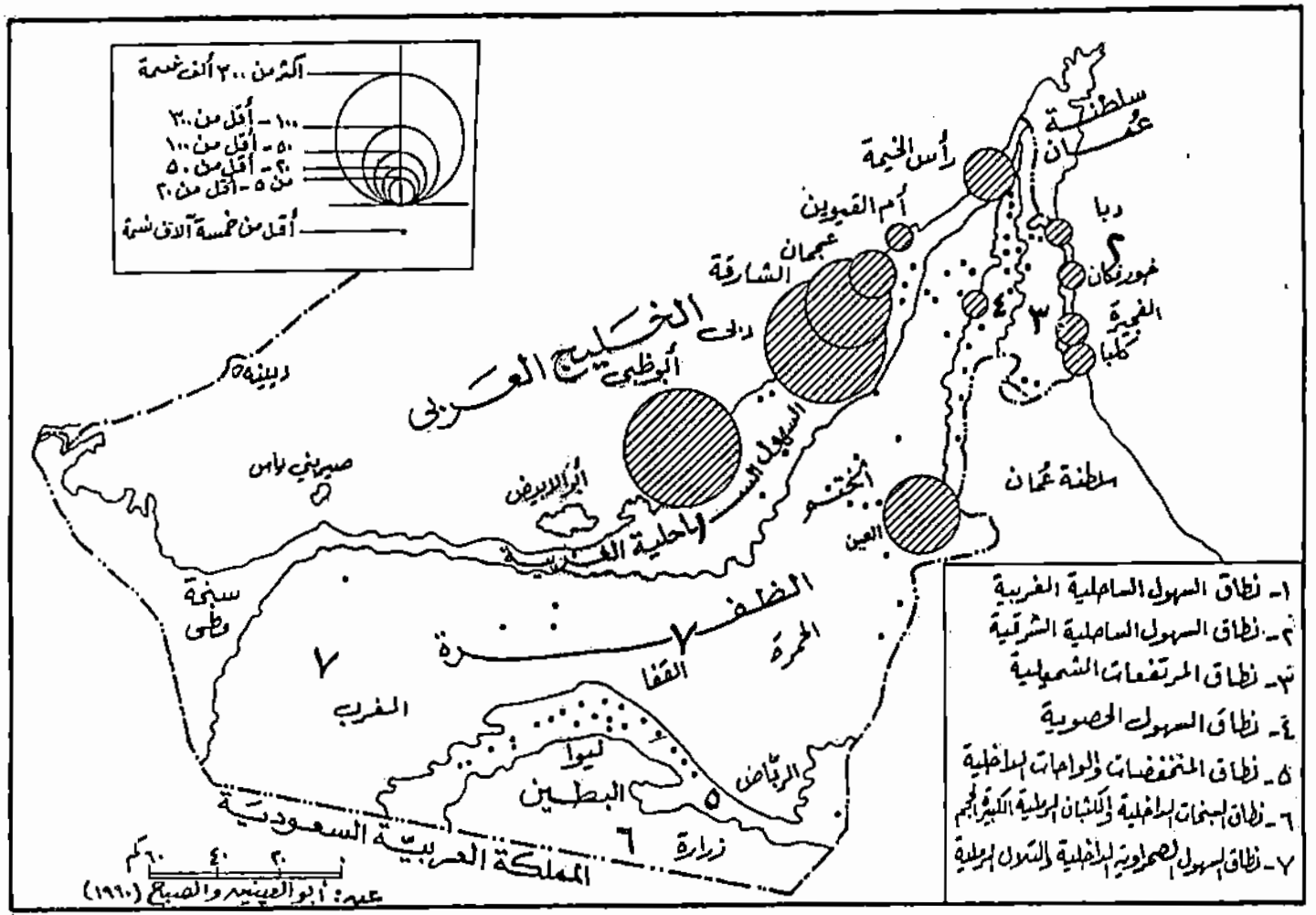

النطاقات العمرانيّة وحجم المدن والمستوطنات البشريّة
في دولة الامارات العربيّة المتحدة

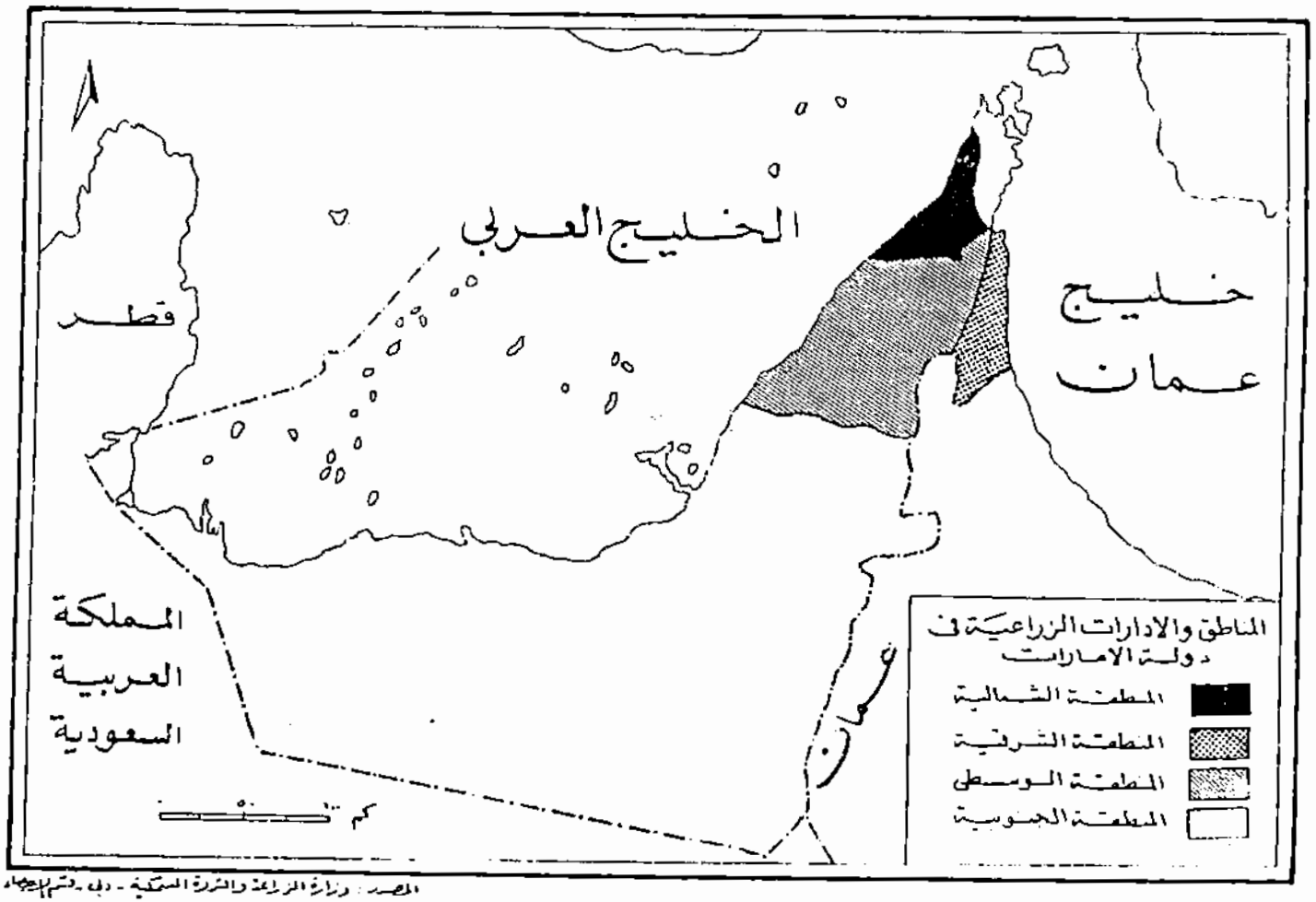

المصدر: وزارة الزراعة والثروة السمكية - دبي - قسم الإحصاء

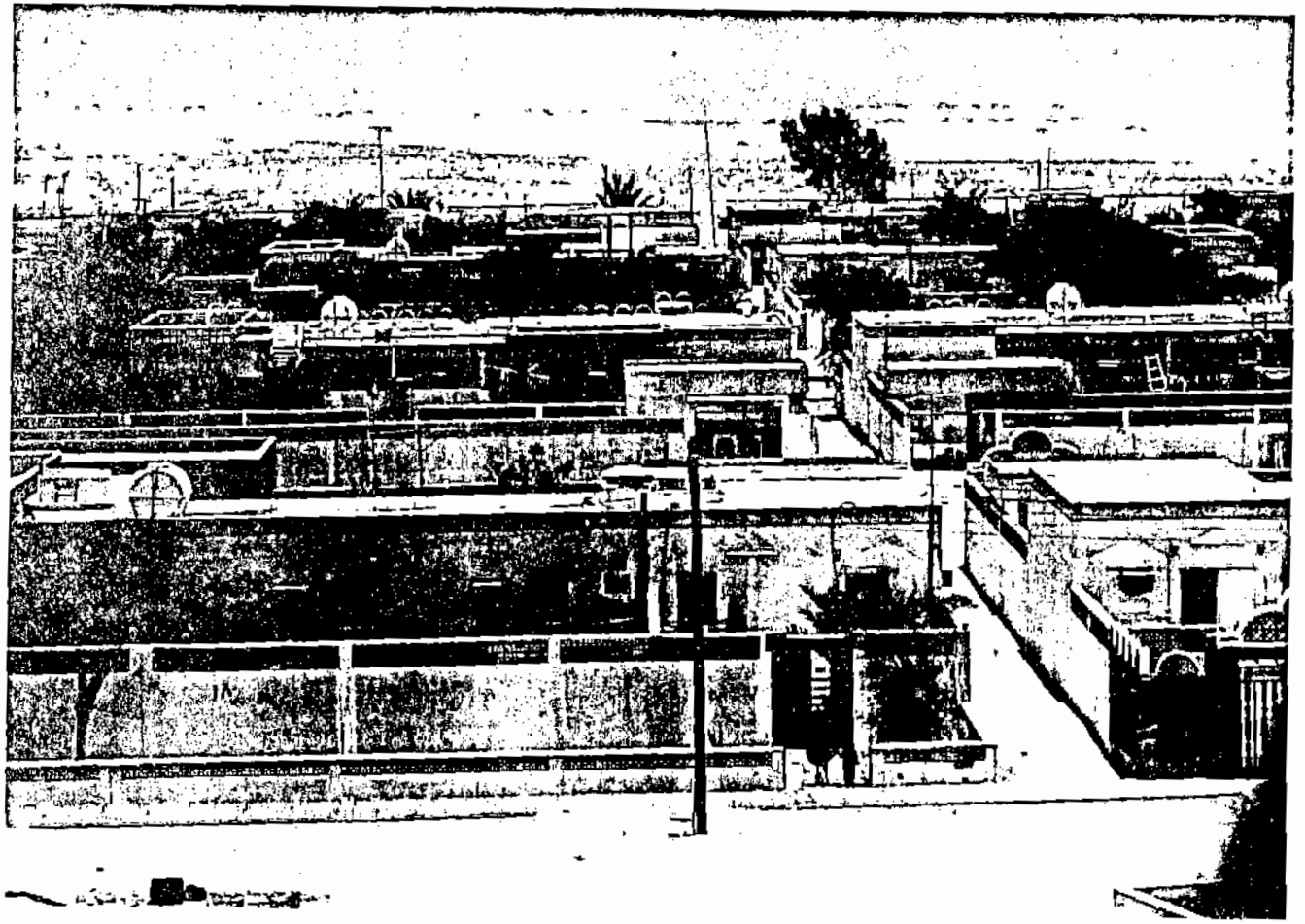

المساكن الشعبية الريفية الحديثة (منطقة حتا)

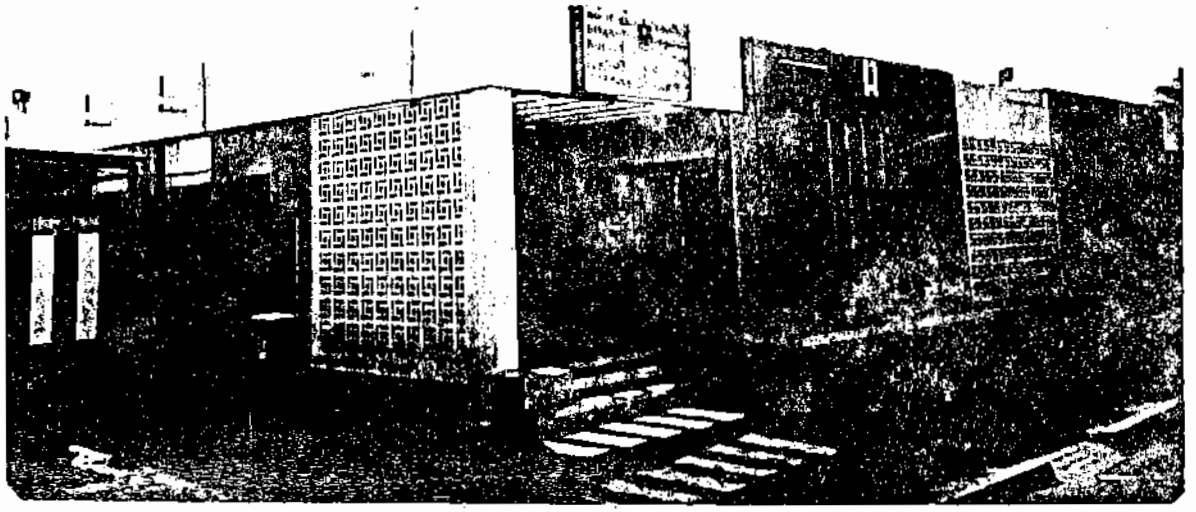

مبنى المركز الصحى الريفى (منطقة الشويب)

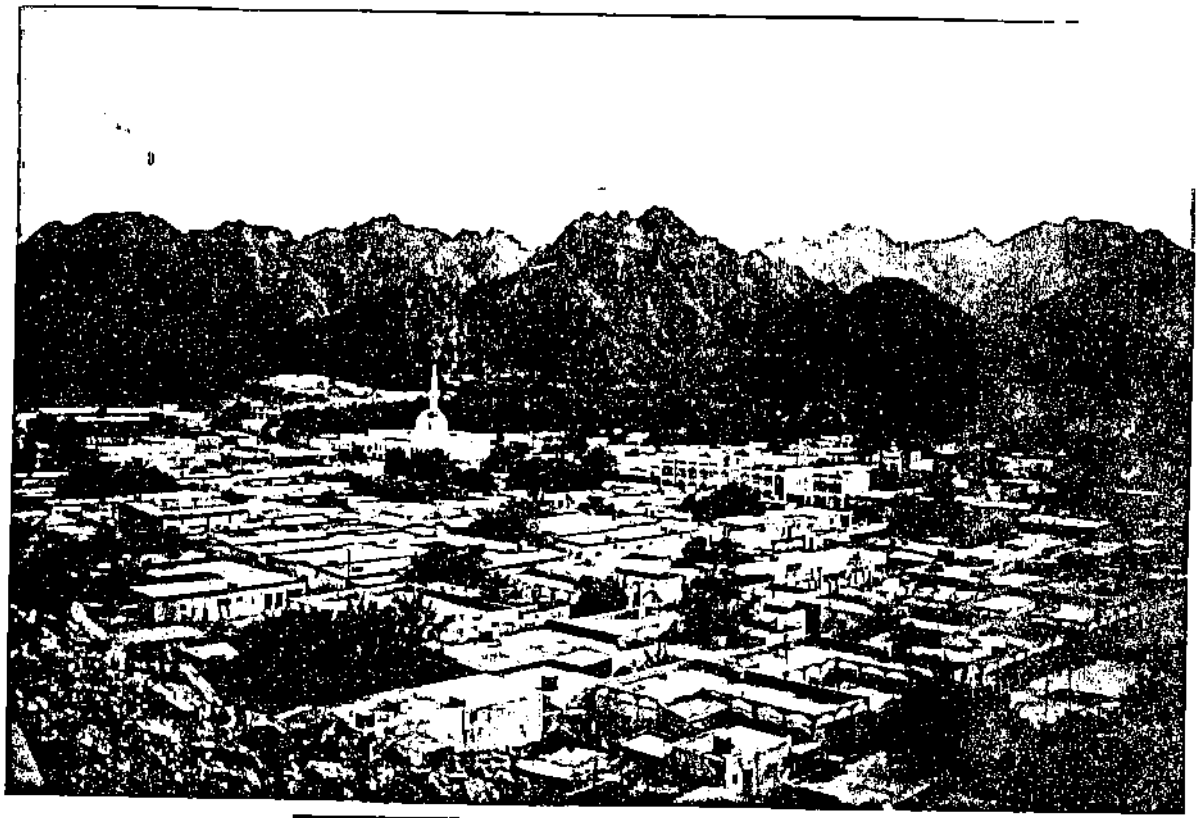

تجمع ريفى حديث فى واحة جبلية (منطقة دبا)

٤٦٠

الاسواق الريفية الدائمة (منطقة البديا ومنطقة المدام)

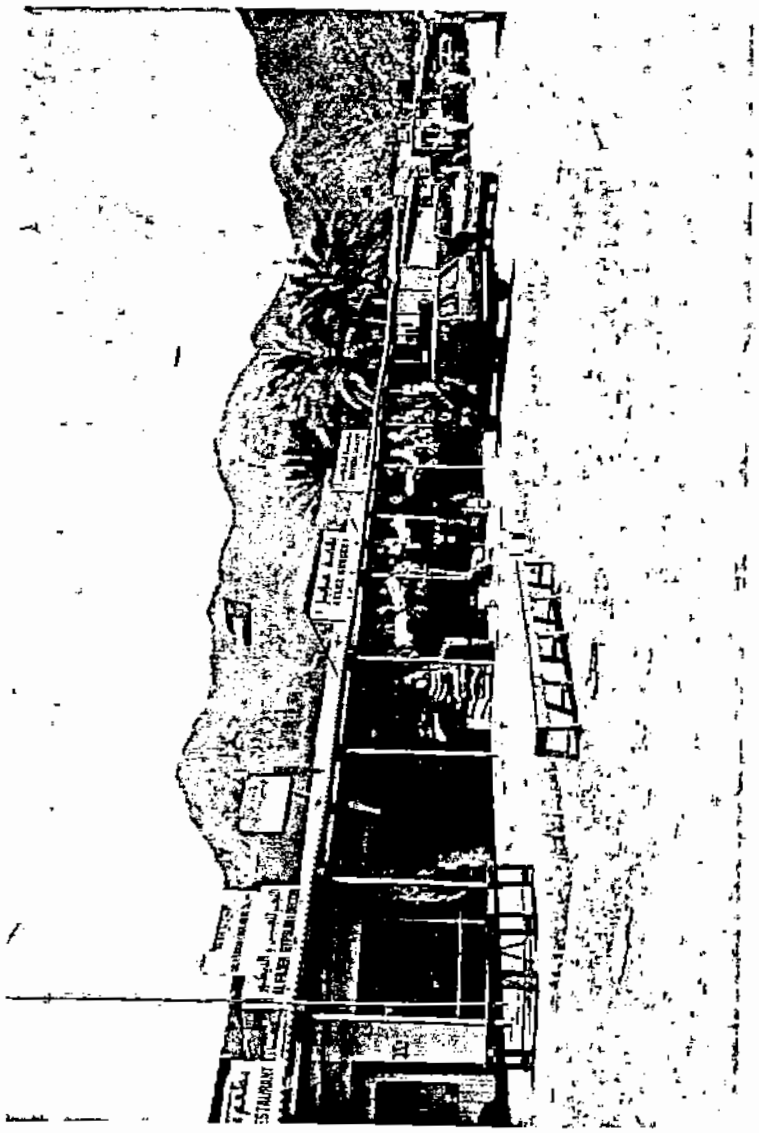

- ٦٦ -

المساكن الحجرية القديمة (منطقة خور نكان)

- تجمعات النخيل التى تحيط بالقرى (منطقة كلبا)

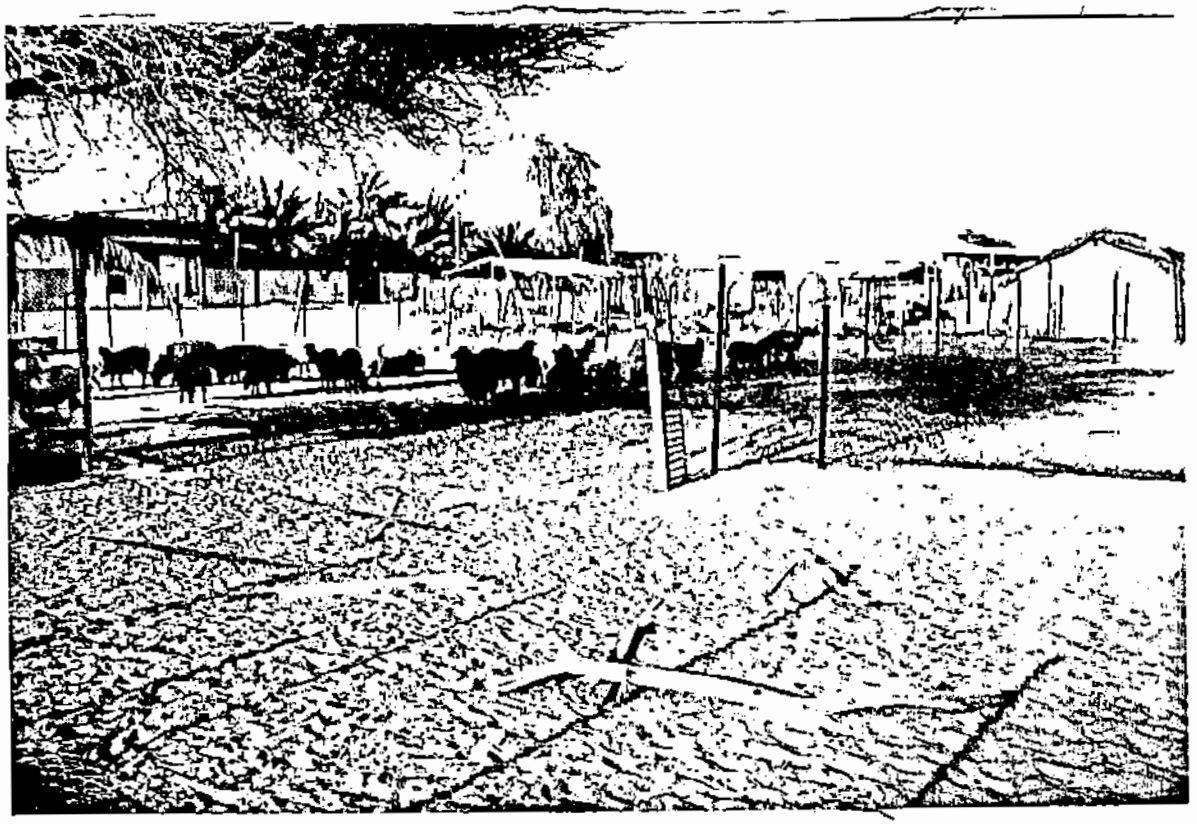

حظائر الأغنام الملحقة بالمساكن (منطقة الشويب)

الهوامش و المراجع

(١) عبد المنعم محمد بدر - فى مفهوم التنمية و مؤشراتها - دراسات فى التنميه الريفية - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٩ - ص.ص ٧ - ٢٢.

(٢) تتعدد الكتابات التى تهتم بتعريف التنمية،و اختلاف وجهة النظر حوله . ومن تلك الكتابات على سبيل المثال :

SEERS (D.) , the meaning of the devolpment . International development review . Vol. XI . No4 . Dec. 1969 P.P. 2-6

- YOTOPOULOS (P.A.) & NUGGET (J.B .) . Economics of development . empirical investigations . New Yourk . Harper and Row 1976 . P.P. 3 - 17 .

(٣) من تلك الكتابات :

-حسن عيد - دراسات فى التنمية الاجتماعية - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨٤ .

- عبد المنعم محمد بدر - دراسات فى التنمية الريفية - المرجع السابق - ١٩٧٩

- فايز الحبيب - التنمية الاقتصادية - الرياض - ١٩٨٥

(٤) تشمل هذه المؤلفات :

- محمد حجازى - جغرافية الأرياف - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢

- صلاح عيسى - جغرافيا العمران الريفى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٢

- صلاح عيسى - تنميط و تخطيط المستوطنات البشرية - دراسة جغرافية أصولية و تطبيقية - مكتبة النهصة المصرية - القاهرة ١٩٨٣

٥ عبد الحميد عميم المستوطنات البشرية فى دولة الامارات العربية المتحدة

مكتبة الفلاح - الكويت - ١٩٨٥ ملحق (١) ص.ص ٤٢٧ -٤٣٨ .

٦ - انسحبت القوات البريطانية من الامارات فى ديسمبر ١٩٧١ لاعتبارات مالية بعد غلق قناة السويس فى حرب ١٩٦٧ - راجع :

- عبد الحميد غنيم - دولة الامارات العربية المتحدة - دراسة فى الجغرافيا الاقليمية - الجزء الأول (الجغرافيا الطبيعية) - القراءة للجمع و النشر و التوزيع دبى - ١٩٩٠ ص ١٥ .

٧ - التعداد العام لسكان دولة الامارات العربية المتحدة ١٩٨٥ - الجزء الثانى - ص ٣٤ .

٨ - فوزى الاسدى - دور توطن البدو فى التنمية الاجتماعية لدولة الامارات العربية المتحدة - ندوة التنمية الاجتماعية فى اقطار الخليج العربى - جامعة الامارات العربية المتحدة - ١٩٨٩ ص ١٨٢ .

٩ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) ص ٢٥ .

١٠ - بكر جميل الناصر - التنمية الاقتصادية فى دولة الامارات العربية المتحدة - دراسات فى مجتمع الامارات - جامعة الامارات العربية المتحدة - العين - ١٩٨٨ - ص.ص ٢٢٧ - ٢٦٥ .

١١ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية فى دولة الامارات العربية المتحدة من ١٩٨٠ - ١٩٨٤ - أبو ظبى ١٩٨٣ - ص ٨٣ .

١٢ - عبد المنعم المشاط - التنمية السياسية فى دولة الامارات العربية المتحدة - مجلة شئون اجتماعية - العدد ٢١ - السنة ٦ - ربيع ١٩٨٩ - الشارقة ص .ص ١٢٣ - ١٥٢ (ص ١٤٩) .

١٣ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - دولة الامارات العربية المتحدة - دراسة مسحية شاملة - القاهرة - ١٩٨٧ ص (د)

١٤ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية فى دولة الامارات ١٩٧٥ - ١٩٨٥-أبو ظبى ١٩٨٦. ص ٢٣٦(حتى عام ١٩٨٥). أما عن الاعوام من ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩ فمصدر ارقامها وزارة التخطيط أيضاً و لكنها غير منشورة .

١٥ - درهم الامارات يعادل حوالى ٩٠ قرشاً مصرياً وقت أعداد هذا البحث .

١٦ - سوف يتضح ذلك من خلال عرض التنمية الزراعية فى إطار البحث .

١٧ - باهر عتلم - تقديم للتنمية الاقتصادية فى دولة الإمارات - مجلة شئون اجتماعية - المصدر السابق (١٩٨٧) - ص.٧ نقلاً عن :

Economic Inte llignce Unit (ETU),Country report . UnitedArab Emirates . London , No.4, 1988 . P.2.

١٨ - المنظمة العربية و الثقافة و العلوم - المرجع السابق (١٩٨٧) - ص.٥٤٩ و ما بعدها .

١٩ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ص ٩٧ .

٢٠ - كانت مشروعات توطين البدو من أهم السياسات العامة التى اتبعتها الدولة بعد استغلال البترول ، خاصة فى إمارة أبى ظبى و يعتمد التوطين على إنشاء مراكز ريفية أقيمت فى المناطق الأصلية للقبائل القريبة منها فى مشروعات توطين متشابهة إلى حد كبير.راجع فى ذلك :

عباس أحمد - توطين البدو فى دولة الإمارات - ندوة الابعاد الاقتصادية و البيئية للتنمية فى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربى - الجزء الأول (الابعاد الإقليمية والبيئية للتنمية) - العين - مارس ١٩٩٠ - ص .ص ٢٣١ - ٢٧٢

٢١ - عاطف وصفى - الجوانب الإجتماعية لحضر أبو ظبى - وزارة التخطيط - أبو ظبى - ١٩٨١ - ص ٢٠ .

٢٢ - فوزى الاسدى - المرجع السابق (١٩٨٩) - ص ١٧١٧ .

٢٣ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ص ١٠٧ .

٢٤ - يظهر العالم النامى و كأنه كتلة ريفية ، حيث أن ٨٠ ٪ من سكان الدول النامية - مع اختلافات كبيرة من قارة إلى قارة و من دولة إلى دولة - يعيشون فى الريف عدا أمريكا اللاتينية و بعض الحالات فى آسيا منها هونج كونج ، و سنغافورة ، و الكويت التى تنخفض فيها نسبة سكان الريف . فى الوقت الذى تتراوح نسبة الريفيين فى الدول المتقدمة من ١٠ - ٣٠ ٪ . و يصل المتوسط العالمى لنسبة سكان الريف إلى جملة السكان ٧٥,٧ ٪ . انظر فى ذلك :

جاريس و دومنجو - جغرافية البلدان النامية - دراسة موضوعية فى جغرافية التنمية - ترجمة محمد عبد الحميد الحمادى و محمد على بهجت الفاضلى - الاسكندرية - ١٩٨٦ - ص . ٢٨٢ .

٢٥ - أرقام السكان من عام ١٩٨٦ حتى ١٩٨٠ مصدرها : المنظمة العربية للتربية و الثقافة المرجع السابق (١٩٨٧) ص . ٢٨ . و أرقام السكان فى سنة ١٩٨٥ مصدرها : وزارة الصحة - التقرير السنوى ١٩٨٧ - ص . ٦ .

٢٦ - يشمل الجدول السكان ذوى الأعمار ١٥ سنة فأكثر المشتغلين بالزراعة . مصدر الأرقام هو : وزارة التخطيط المجموعة الاحصائية السنوية - أبو ظبى - ١٩٨٧ - ص ٨٢ .و بالنسبة لأرقام ١٩٨٥ ، نشر فقط جملة السكان المواطنين و غير المواطنين دون ذكر للحضر و الريف فأعدت الأرقام الخاصة بذلك وفق نسب الحضر و الريف فى عام ١٩٨٥ .

٢٧ - للتوسع فى هذا الموضوع وهو مطروح فى معظم كتب الجغرافية الزراعية و الجغرافية الريفية و كتب السكان المنهجية (الهجرة الريفية الحضرية) ، يمكن الرجوع مثلاً إلى :

CUSSED (J.M.). Urbanisation et activités agricoles . C.N.R.S. . Economica . Paris . 1975 . P.P. 3 - 64 .

DE FARCY (H.) . L'espace rural - Que Sais Je? . PUF. Paris 1975 . P.P. 54 - 80 .

- فتحى محمد أبو عيانه - جغرافية السكان - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية - الطبعة الثالثة ١٩٨٩ - ص .ص . ٣٤٣ - ٣٤٤ ، و ص . ص. ٤٧٩ - ٥٠٠ .

- أحمد أسماعيل-أسس علم السكان و تطبيقاته الجغرافية-دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة - الطبعة السادسة ١٩٨٦ . ص . ص . ١٤٩ - ١٥٦ .

٢٨ - رغم هذه الزيادة الهائلة فى أعداد المواطنين الزراعيين بين عامى ١٩٨٠ و١٩٨٥ ، فإن نسبة هؤلاء إلى جملة القوى العاملة المواطنة لا تزيد عن ٨,٥ ٪ . و يعنى ذلك أن الزراعة لا تكون قطاعاً رئيسياً يجتذب المواطنين و الأموال . غير أن هذه النسبة آخذه فى الزيادة بعد تطور الاهتمام بالزراعة و الزراعيين . مصدر الأرقام هو : وزارة التخطيط - المجموعة الاحصائية السنوية - المرجع السابق (١٩٨٧) ص . ٨٢ .

٢٩ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - المرجع السابق (١٩٧٨) ص . ٢٨ . بالنسبة لبيانات عام ١٩٦٠ : وزارة التخطيط - التعداد العام للسكان - المرجع السابق (١٩٧٥)، و وزارة التخطيط التعداد العام للسكان - المرجع السابق - (١٩٨٥) .

٣٠ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ملحق (١) : بيان مستوطنات دولة الامارات العربية المتحدة - ص . ص . ٤٢٧ - ٤٣٨ ، و ص . ص . ٢٣١ - ٢٣٢ .

٣١ -لطفى محمد موسى البطينى - بعض مشاكل التنمية الاقتصادية الزراعية فى إمارة أبو ظبى - ندوة الأبعاد الاقتصادية و البيئية للتنمية فى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربى - المرجع السابق (١٩٩٠) ص . ص . ٥ - ٤٧ .

٣٢ - الدونم هو مقياس للمساحة (الزراعية عادة) يستخدم فى بعض الدول العربية منها الامارات العربية المتحدة و الاردن و العراق.كما يستخدم فى تركيا و قبرص . غير أن الدونم فى الدول العربية يساوى ٢٩٩٠ ياردة مربعة وهو ما يساوى ٢٥ .. من الهكتار (الهكتار يعادل ١٠,٠٠٠ متر مربع) و هو أكبر من نظيره فى تركيا (١٠٩٩,٥ يارده مربعة) و فى قبرص (١٦٠٠ يارده مربعة).

٣٣ - أرقام ١٩٦٧ مصدرها : المنظمة العربية للتربية و الثقافة المرجع السابق (١٩٧٨) ص . ٣٢٦ . أرقام السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٨١ مصدرها النشرة السنوية لقطاع الزراعة و الثروة السمكية ١٩٨١ - جدول رقم (٨) . الزيادة من حساب الباحث .

٣٤ - لطفى البطينى - المرجع السابق - (١٩٩٠) ص . ١٥ .

٣٥ - وزارة الزراعة - النشرة الاحصائية السنوية لقطاع الزراعة و الثروة السمكية - أبو ظبى ١٩٨٧ . ص ٤٨ .

٣٦ - لا يشمل الجدول مناطق الزراعات التى كانت موجودة قبل عمليات استزراع الأراضى . و يفسر ذلك اختلاف جملة مساحة الأراضى الزراعية فى الدولة عام ١٩٨٣ فى الجدولين (٥ ، ٦) . و تشمل المناطق الزراعية القديمة ٤٦٦٣ دونماً . أى أن مجموع المساحة الزراعية فى الدولة فى عام ١٩٧٣ هو ١٢٧١٠٠ دونماً . مصدر الأرقام : وزارة الزراعة - المرجع السابق - (١٩٨٧) ص . ٤٥ .

٣٧ - بيانات عام ١٩٧٥ مصدرها وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية - المرجع السابق (١٩٨٥) ص ٢٩٩ . بيانات عام ١٩٨٠ مصدرها :وزارة الزراعة - النشوة الاحصائية السنوية لقطاع الزراعة - المرجع السابق - (١٩٨١) . ص ٧ . بيانات عام ١٩٨٥ مصدرها : وزارة الزراعة

- النشرة الاحصائية السنوية - ١٩٨٤ / ١٩٨٥ - ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

٣٨ - تشمل المحاصيل القمح و التبغ و البرسيم و غيرها من الاعلاف الخضراء .

٣٩ - زاد عدد الابل من ٦١٩٠٩ رأس عام ١٩٨٥ الى ٧٨٨٨٨ رأس عام ١٩٨٩ فى إمارة أبو ظبى بنسبة زيادة تصل إلى ١٢٧ ٪ .كما زاد عدد الأغنام من ٢٦٩٥٠٦ رأس عام ١٩٨٥ إلى ٤٣٤١٥٣ رأس عام ١٩٨٨ بنسبة زيادة تصل إلى ١٦١ ٪ لنفس الفترة - لطفى البطينى - المرجع السابق (١٩٩٠) ص ١٨ .

٤٠ - وزارة الزراعة - النشرة الحصائية السنوية لقطاع الزراعة ١٩٨٤ / ١٩٨٥ . ص . ص . ٣٢ - ٤٥ . النسب المئوية من حساب الباحث .

٤١ - تشمل هذه الأرقام الأرض المزروعة بالخضروات ، و الأشجار المثمرة ، و المحاصيل و لا تشمل مناطق الغابات . المصدر : نشرة احصائية الزراعة (١٩٨١) جداول (٢ ، ٨ ، ٩) و صفحات (٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

٤٢ - التعداد العام للسكان - ١٩٨٠ ص ٤١ .

٤٣ - نفس المصدر السابق .

٤٤ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - المرجع السابق - (١٩٧٨) ص . ص . ٦ - ص .

٤٥ - نفس المصدر السابق - ص ٣٧١ .

٤٦ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية - ١٩٨٧ - ص . ٢٩٩ .

٤٧ - التعداد العام للسكان ١٩٧٥ - الجزء الثانى - ص . ٤٥ .
التعداد العام للسكان ١٩٨٠ - الجزء الثانى ص ٦٣ .
النسب المئوية من حساب الباحث و أهملت النسبة التى تقل عن ١ ٪ .

٤٨ - وزارة الصحة - الكتاب الاحصائى السنوى (١٩٨١ ، ١٩٨٧) ص . ٣٦ ، و ص . ٥٩ .

٤٩ - نفس المصدر السابق . يصل المعدل فى ريف معظم البلدان النامية إلى نحو ٢٠٠٠ فرد لكل طبيب . جازيس و دومنجو - المرجع السابق(١٩٨٦) .

٥٠ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية - ١٩٧٥ ، و ١٩٨٥ ، و ١٩٨٧ - ص . ٣٠٤ .

٥١ - وزارة التخطيط - المجموعة الاحصائية السنوية - ١٩٨٧ - ص . ١٧٢ ، و ص . ١٨٩ .

٥٢ - وزارة التخطيط - المرجع السابق (١٩٨٧) ص ١٧٣ ، و ص ١٨٩ . و التعداد العام للسكان ١٩٨٠ - الجزء الثانى ص . ٤١ .

٥٣ - نفس المصدر السابق - ص . ١٧١ .

محمد على بهجت الفاضلى

١٩٩٣

معدلات العدوانية
لدى المراهقين والشباب الكويتيين

الدكتور / عويد سلطان المشعان

قسم علم النفس - كلية الآداب

جامعة الكويت

معدلات العدوانية

لدى المراهقين والشباب الكويتيين

مقدمة

يعتبر العدوان العراقى على الكويت من أكبر الأزمات والكوارث التى مرت بها البلاد ، وقد تعرض الشعب الكويتى لأبشع صور الظلم والقهر والتدمير والتعذيب النفسي والجسمى الذى نجم عنه اضطراب واختلال فى الوظائف الاجتماعية والبناء السيكولوجي لبعض من افراد الشعب الكويتى وبخاصة المراهقين والشباب الذين استهدفهم العدو منذ دخول البلاد . ويؤكد علماء النفس أن الخبرات المؤلمة لا تنسى بسرعة ، وأن الحروب والاحتلال يخلفان موقفا صدميا بالنسبة للبناء النفسى للفرد ، وتصل الاضطرابات المصاحبة لهذا الموقف الصدمى إلى أقصاها وتدوم أطول فترة إذا كان المسبب لها الإنسان . ومن أبرز النتائج السلوكية لهذا الغزو ، العدوان والميل إلى العنف وزيادة التدخين وكثرة التوتر وسرعة الاستثارة (انظر : الديب ١٩٩١ ، الصراف ١٩٩٢ ، الفقى ١٩٩٣ ، المقصود ١٩٩١ ، المشعان ١٩٩٣ ، عبد الخالق والمشعان ١٩٩٤ ، سهل ١٩٩١ ، ادارة الخدمة الاجتماعية ١٩٩١) . وأكدت الدراسات التى أجريت على مجتمعات أخرى أن الصدمات العنيفة والأزمات والخبرات المؤلمة تؤدى إلى ارتفاع الاضطرابات السلوكية (انظر : *Helezer, 1987 Davidson et al, 1985; Chimient, 1989; Fogast, et al (1992) Lewin, 1982, Jerome, 1983,*

ولاشك أنه بتأثير هذا العدوان الآثم نجمت آثار سلبية عديدة كالقلق والاكتئاب والسلوك العدوانى واضطرابات الشخصية وزيادة معدلات حوادث العنف ، ومايهمنا فى هذه الدراسة هو العدوانية لدى المراهقين والشباب .

والعدوان قديم قدم الانسان على هذه الأرض ، وذكر فى القرآن الكريم فى سورة البقرة سؤال الملائكة لله سبحانه وتعالى على سبيل التعجب والاستعلام ، كيف تستخلف ذرية آدم عليه السلام فى الأرض ، وفيهم من يفسد ويريق الدماء بالقتل والعدوان (مرسى ١٩٨٥) قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) (سورة البقرة آية ٣٠) .

(ويقسم العدوان إلى ثلاث فئات هى :)

١ - عدوان مضاد للمجتمع *Anti - social Aggression*

ويشمل الأفعال المؤذية التى يظلم بها الإنسان نفسه أو يظلم بها غيره ، وتؤدى إلى فساد المجتمع . وهذا النوع من العدوان محرم شرعا وقانونا . قال تعالى عمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها أو يزنى : " ومن يفعل ذلك يلق آثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا " (سورة الفرقان آيتان ٦٨ - ٦٩) .

٢ - عدوان إلزام : *Pro social Aggression*

ويشمل الأفعال المؤذية التى يجب على كل شخص القيام بها ، لرد الظلم والدفاع عن وطنه . فقال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (سورة البقرة آية ٢١٦)

٣ - عدوان مباح · Sanctioned Aggression

ويشمل الأفعال المؤذية التى يحق للإنسان عملها قصاصا ممن اعتدى عليه . وهذا النوع من العدوان لا يأثم فاعله ويثاب تاركه ، فالإسلام قد أباح رد العدوان بالعدوان لكنه حث على الصفح والعفو (مرسى ١٩٨٥) قال تعالى " وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (سورة الشورى آية ٤٠)

متغيرات البحث

مفهوم العدوان : -

أصبحت ظاهرة العدوان من الظواهر اللافتة للنظر والتى تنذر بالخطر سواء على المستوى العالمى أو المحلى ، ولقد ثبت من دراسات عديدة أن الإنسان هو الذى يدمر أفراد جنسه تدميرا بل تتملكه النشوة والتلذذ أحيانا حين يفنيهم أو يؤذيهم أو يلحق بهم ضررا جسميا ونفسيا ، بل تبدو الحقيقة المؤلمة أن الإنسان أقسى الحيوانات التى عاشت على ظهر الأرض وأشدها ضراوة وعنفا حين يعتدى الفرد على الفرد ، فهو لا يشبع إلا إذا أهلك عدوه ومثل به أشد تمثيل ودمره تدميرا بشعا ، ولنا فى العدوان العراقى مثال يبين مدي صدق هذا القول .

ويعرف باص (Buss. 1961) العدوان بأنه أى سلوك يصدره الفرد لفظيا أو بدنيا أو ماديا ، صريحا أو ضمنيا ، مباشرا أو غير مباشر ، ناشطا أو سلبيا ويترتب على هذا السلوك إلحاق الأذى البدنى أو المادى أو النفسى بالشخص نفسه صاحب السلوك أو الآخرين ، ويتفق مع هذا التعريف كل

من : (كوثر ١٩٩٢ ، Baron et al. 1974. Bandura, 1973) ويعرف Benton, 1984 السلوك العدوانى بأنه استخدام القوة والعنف فى العلاقات بين الأفراد دون تبرير لهذه القوة ، أو استعمالها بسبب ضرورة دفاعية . ويعرف Reber, 1985 العدوان بأنه أفعال متعددة الاتساع تشمل الهجوم والعداء ، ويستخدم بدافع من الخوف أو الاحباط أو الرغبة فى صب هذا الخوف أو القتال على الآخرين أو بدافع لتحقيق اهتمامات الفرد وأهدافه وبلوغ مطالبه الاجتماعية ، ومع تعدد أشكال العدوان ودوافعه فلابد من معرفة أسبابه الذاتية والاجتماعية والموقفية ، حتى يمكن التنبؤ به والتحكم فيه بالوقاية والعلاج ، فيقل العدوان ، ويزداد التعاون بين الناس .

أسباب العدوان : -

لا يعتدى الإنسان على نفسه أو على غيره ظلما وعدوانا بالصدفة أو بطريقة عشوائية بل يعتدى لأسباب كثيرة بعضها ذاتى يرجع إلى تكوين الإنسان الجسمى والنفسى ، وبعضها اجتماعى يرجع إلى ظروف نشأته وتربيته فى الأسرة ومع الأقران ، وبعضها الآخر موقفى يرجع إلى ظروف الموقف الذى يرتكب فيه العدوان . ومن أسباب العدوان شعور الفرد بعدم الأمان وعدم الثقة ، والشعور بالنبذ والحرمان من الحب والتقدير ، والتجاهل ، واستمرار الاحباط لمدة طويلة . وعدم تحقيق الاشباع للحاجات العضوية يؤدى إلى ازدياد درجة العدوانية لدى الأفراد (الشربينى ١٩٩٤) .

ويدرك العلماء اليوم أن كثيرا من جوانب الاضطراب السلوكى كالعدوان يكتسبها الفرد بتأثير من الآخرين وملاحظته لهم والتفاعل معهم بمعنى

الاقتداء وملاحظة النماذج وهذا ما أكدته تجارب العالمين (باندورا ، روس Bandura & Ross, 1979 من أن الأفراد تعلموا بيسر أن يعبروا عن احباطهم بالعدوان ، بسبب ما شاهدوه من نماذج عدوانية . ومع تعدد الأسباب التى تؤدى إلى السلوك العدوانى ، تعددت النظريات التى تفسر هذا السلوك من كافة جوانبه الفطرية والبيئية والنفسية والاجتماعية ، وأهم هذه النظريات ما يلى : (نظرية العدوان الفطرى ، والنظرية البيولوجية ، ونظرية تعلم العدوان ، والنظرية المعرفية) . ونعرض لبعضها بشىء من التفصيل فيما يلى : ـ

أولا : نظرية العدوان الفطري : ـ

يرى أصحاب هذه النظرية أن العدوان سلوك فطرى وتتضح هذه النظرية فى النماذج التالية : نظرية المجرم بالولادة ، نظرية غريزة العدوان ، النظرية البيولوجية .

أ – نظرية المجرم بالولادة : ـ

قام لمبروزو Lombroso بدراساته على عدد من المجرمين ، مما أدى إلى وضع نظريته التى افترض فيها أن المجرم وحش بدائى يحتفظ عن طريق الوراثة بخصائص جسمية ونفسية جعلته يبقى على حالته البدائية ، فلا يستوعب قوانين ونظم مجتمعه ، وينساق وراء نزعاته البهيمية الشرسة ، غير مبال بما يصيب الضحية من آلام . فهو كالحيوانات لم تهذب نزعاته الحيوانية ، ولم ينم ضميره ولا وجدانه ، فلا يشعر بذنب ، ولا يحس بعطف نحو غيره (عامر ١٩٨٠) . ولكن سرعان ما تخلى معظم العلماء عن هذه

النظرية بعدما تبين عدم دقتها ، وكشفت الدراسات العلمية المضبوطة تجريبيا عدم صحة فروض لمبروزو وعدم دقة نتائج دراساته .

وقد كشفت الدراسات التالية أن المجرمين لا يختلفون عن غيرهم فى النواحى الجسمية والنفسية ، ولا يوجد دليل على أنهم ولدوا بخصائص عضوية تدفعهم إلى الجريمة كما زعم لمبروزو (مرسى ١٩٨٥) .

ب – نظرية غريزة العدوان :-

قدم هذه النظرية كل من أدلر *Adler 1908* ، فرويد *Freud 1920* ، لورنز *Lorens 1963* ، بنر *Binner 1982* ، جيمس *James 1979* ، مكدوجال *Mc Dougal 1908* ، برنارد *Bernard 1924* ، إريك فروم *Erich Fromm 1975* ، لورانس *Lorance 1975* . وتنظر هذه النظرية إلى العدوان باعتباره غريزة فطرية ، وأن الإنسان بطبيعته عدوانى . وأهم نظريات الغرائز نظرية التحليل النفسى ، إذ يرى فرويد أن الحياة كفاح بين غريزة الحياة ودوافعها الحب والجنس والتى تعمل من أجل الحفاظ على الفرد ، وبين غريزة الموت ودوافعها العدوان والتدمير والانتحار ، وهى غريزة تحارب دائما من أجل تدمير الإنسان وتقوم بتوجيه العدوان المباشر خارجيا نحو الآخرين ، وإذا لم ينفذ العدوان نحو موضوع خارجى فسوف يرتد إلى الكائن نفسه ويصبح تدميراً للذات (كوثر ١٩٩٢) ، فالعدوان سلوك غريزى هدفه تصريف الطاقة العدائية *Ag-gression Energy* التى تنشأ داخل الإنسان عن غريزة العدوان ، وتلح فى طلب الإشباع كإلحاح الطاقة الجنسية الناتجة عن غريزة الجنس ، ولكن بعد إجراء عديد من الدراسات التجريبية والميدانية تبين عدم دقة تفسير السلوك العدوانى بالغريزة ، ورفض فى كثير من المحافل العلمية ، خاصة بعد أن تخلي علم

النفس عن مفهوم الغريزة واعتبره مفهوما غير علمى (علام ١٩٨٢) ومن أهم ما نقد غريزة العدوان مراجعة (Gorer 1968) للدراسات الانثروبولوجية حيث وجد أن قبائل الأرابش Arapesh فى غينيا الجديدة ، وقبائل ليبشاس Lep-chas فى جبال الهملايا وقبائل البيجميس Pygmies فى الكونغو تنمى المسالمة والوداعة عند أفرادها ، وتغرس فيهم حب التعاون ، وتعطى قيمة كبيرة لمساعدة الشخص لجاره ، وتعتبرها سلوكا ضروريا بالنسبة لمقدم المساعدة ومتلقيها على حد سواء (مرسى ١٩٨٥) .

ج – النظرية البيولوجية : -

تركز هذه النظرية على بعض العوامل البيولوجية فى الكائن الحى التى تحث على العدوان كالصبغيات والجينات الجنسية والهرمونات والجهازين العصبى المركزى واللاارادى والغدد الصماء والتأثيرات الكيميائية الحيوية والأنشطة الكهربائية فى المخ (Eron 1977) ، كما تشكل القوة العضلية عاملا بيولوجيا أخراً فى تأثيرها على العدوان (Mussen 1982) . وبصرف النظر على غريزة العدوان فإن علماء النفس يفترضون وجود عدة أجهزة عصبية فى المخ تتحكم فى أنواع معينة من العدوان . ويمكن تنشيط هذه الأجهزة علميا عن طريق التنبيه الكهربى أو الكيميائى أو نتيجة لورم فى المخ أو تمزق فى نسيج المخ . وأسفرت بعض التجارب عن أن حقن الفئران بالهرمون الجنسى الذكرى الاساسى وهو التستوستيرون يجعلها تتفاعل باصرار واذا انخفض مستوى هذا الهرمون تصبح الحيوانات أكثر هدوءاً . ومن ناحية أخرى ظهر أن جرائم النساء تزيد فى فترة ما قبل الحيض مباشرة ، عندما يضطرب إفراز الهرمونات الجنسية الأنثوية لديهن حيث تشعر كثير من النساء بالتوتر والقلق والميول العدوانية (عبد الخالق ١٩٩٢) .

ثانيا : نظرية تعلم العدوان : -

وتتضح هذه النظرية في النماذج الفرعية التالية :-
أ – نظرية الاحباط والعدوان ، ب – نظرية تعلم العدوان بالاشراط ، ج – تعلم العدوان بالملاحظة .

أ – نظرية الاحباط والعدوان *Frustration - Aggression Theory*

وهى من وضع كل من دولارد وميلر عام ١٩٣٩ فقد بحثا هذا الموضوع لمدة عشرين عاما ، وافترضا أن الاحباط يسبب العدوان ، واعتبرا العدوان استجابة فطرية للاحباط *Innate Reaction to Frustration* وتزداد شدته وتقوى حدته كلما زاد الاحباط وتكرر حدوثه . وقد اعتبر العدوان استجابة للاحباط فى كثير من المعاجم والموسوعات والدراسات العربية والأجنبية (انظر : الحفنى ١٩٧٨ والكامل ، وسليمان ١٩٩١ ، والطيب ١٩٨٢ ، عبد الغفار ١٩٧٧ ، كوثر ١٩٩٢ ، حافظ وقاسم ١٩٩٣ ، عاقل ١٩٨٤ ، عبود ١٩٩١ ، عويس ١٩٦٨ ، ومليكيان والدرينى ١٩٨٤ ، *(Eysenck. 1975; Argyel 1982* ولكن دفيتى *Devity* أشار إلى أن العدوان استجابة محتملة للاحباط ، ولكنه ليس نتيجة ضرورية وحتمية *(Kauffman. 1985)* ولم تكن تفسيرات دولارد وزملائه مقنعة لكثير من الباحثين الذين رفضوا العلاقة السببية بين الإحباط والعدوان لأن العدوان سلوك معقد لا يكفى تفسيره بالاحباط ، وقد يعتدى الانسان دون احباط وقد يحبط ولا يعتدى (مرسى ١٩٨٥) وفى ضوء ما سبق يتبين أن البيئة المحيطة بالفرد تلعب دورا واضحا فى توجيه مسار السلوك العدوانى الذى يستجيب به لموقف الإحباط ، ويبدو أن هذا الدور يختلف من دراسة لاخرى ، وحسب التأثير المباشر لأشخاص موجودين بالفعل (كأقران الطفل

– الوالدين – المعلمين) .

ب – نظرية تعلم العدوان بالاشراط :-

افترض سيكنر *Skinner* في نظريته للإشراط الاجرائى أن الإنسان يتعلم سلوكه نتيجة الثواب والعقاب ، فالسلوك الذى يثاب عليه يميل إلى تكراره ، والسلوك الذى يعاقب عليه يقلع عنه (علام ١٩٨٢) وينطبق هذا التفسير على سلوك العدوان ، فالإنسان يتورط فى العدوان لأول مرة بالصدفة إذا عوقب عليه كف عنه ، وإذا كوفىء عليه كان أميل إلى تكراره فى المواقف المماثلة . وقد استطاع سيكنر تجريبيا تعليم الحمام القتال بالإثابة ، ووجد (ولترز ، بروان *Walters - Brown*) أن مكافأة الطفل على عدوانه ينمى العدوانية عنده حتى ولو كانت مكافأة غير منتظمة ، فيكفى تدعيم العدوان مرة واحدة ليرسخ ويصعب تعديله بعد ذلك (مرسى ١٩٨٥) واستنتج بعض الباحثين على ضوء تفسير سيكنر أن معاملة الآباء لأبنائهم فى مواقف العدوان هى المسؤولة عن تعليمهم العدوان ، فالآباء الذين يشجعون أبناءهم فى مواقف العدوان صراحة أو ضمنيا ، يقدمون لهم المكافأة التي تدعم سلوكهم العدوانى وتنميه ، وتجعلهم يكررونه فى مواقف كثيرة ، وانتشار العدوان في بعض المجتمعات يبين مدى صدق القول بأن معظم السلوك العدوانى متعلم ، ومن ناحية أخرى ينشأ العدوان بتأثير عديد من العوامل ، فقد ظهر أن للثقافة والأسرة دورا فى تحديد مستويات العدوان ، فمثلا يقر الأمريكيون بمشروعية الحرب ، ولديهم أكبر نسبة فى العالم تمتلك المسدسات ويضرب الزوجان بعضهما بعضا بكل حرية وبدون تردد ، ويلجأ رجال البوليس إلى استخدام العنف . وعلى النقيض من ذلك يعيش ١٣٠٠ فى وسط الملايو بدون بوليس ، والجريمة غير معروفة لديهم . وكشفت بحوث أخري عن

علاقة بين الكثافة السكانية الزائدة وكل من العدوان ومظاهر القلق واعتلال الصحة (عبد الخالق ١٩٩٢) .

ج – نظرية تعلم العدوان بالملاحظة *Observation Learning*

وضع نظرية التعلم بالملاحظة العالم النفسى باندورا *Bandura* ، وهو يرى أن الجانب الأكبر من السلوك العدوانى متعلم ، ويكون ذلك بتأثير من الآخرين عن طريق الملاحظة أو الاقتداء أو المحاكاة . وهناك ثلاثة مصادر يتعلم منها الفرد بالملاحظة وهى التأثير الاسرى ، تأثير الأقران ، ثم تأثير النماذج الرمزية كالتليفزيون ، وأكدت معظم الدراسات أن مشاهدة أفلام العنف تزيد من السلوك العدوانى ، انظر : بيومي ومنسى ١٩٨٨ *Eron 1973, Friedrich et al 1973, Stein et al 1973, Steur 1979 & Bandura 1977* كما جاء فى دراسة *Golderg et al 1976, Martin 1976* أن الأطفال العدوانيين غالبا ما يكون أقرانهم أكثر عدوانية من الأطفال غير العدوانيين ، لأن الأقران غالبا ما يكونون بمثابة نماذج سلوكية لأقرانهم (حافظ وقاسم ١٩٩٣) ، وهذه من الأدلة على أثر العوامل البيئية فى العدوان .

ثالثاً : النظرية المعرفية : *Cognitive Theory*

تهتم هذه النظرية بدراسة الخبرة الذاتية من حيث إدراك الفرد لنفسه والأحداث التى تقع له ، وتركز هذه النظرية فى دراستها للسلوك العدوانى على السياق النفسى والاجتماعى للشخص العدوانى والظروف والمتغيرات التى أدت إلى استخدام العنف والعدوان للتعبير عن ذاته وتحقيقها بالتصدي لهذه

الاعاقات التى تحول دون تحقيق ذاته . ومن أهم الاعاقات التى تمثل دافعا للسلوك العدواني شعور الفرد بالفوارق الطبقية بالغة الحدة والتى تحول دون تحقيق ذاته (عبد العال ١٩٨٨) .

وجهة نظر

بعد عرض مختلف النظريات التى تهدف إلي تفسير السلوك العدواني يمكننا أن نقسمها إلى نظريات بيولوجية وبيئية ونفسية ، ولكل منها حججه وبراهينه ، ولكن الرأى الأرجح فى ظاهرة مركب كالعدوان هو التكامل بين هذه العوامل الثلاثة ، ففى بعض أنواع السلوك العدوانى يكون الأصوب تفسيره على ضوء فرض (الاحباط - العدوان) ، فى حين تقوم عوامل المحاكاة والتعلم بالملاحظة والاقتداء بدور غلاب في حالات أخرى ، كما يجب ألا ننكر أن اضطراب بعض وظائف المخ قد يكون هو العامل الفعال فى حالات ثالثة . موجز القول أن التفاعل والتكامل بين هذه العوامل هو الاقرب إلى الصواب ، ويعكس ذلك مدى التعقيد فى ظاهرة العدوان .

الدراسات السابقة المرتبطة بآثار العدوان العراقى :-

بمراجعة الدراسات السابقة يتضح أن الصدمات العنيفة والضغوط النفسية الشديدة والخبرات المؤلمة التى يمر بها المراهقون والشباب يمكن أن تؤدى إلى زيادة معدلات الاضطرابات السلوكية ، وهذا ماكشفت عنه معظم الدراسات السابقة التى أجريت فى الكويت بعد العدوان العراقى ، ونورد بعضها كما يلى :-

دراسة أميرة الديب (١٩٩١) عن حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية - الاجتماعية للطلبة الكويتيين على عينة مكونة من (١٢٠) كويتيا بواقع (٦٠) طالبا من الصامدين و (٦٠) طالبا وطالبة ممن كانوا خارج الكويت ، وأسفرت النتائج أن المجموعة التى ظلت داخل الكويت ، عانت من أعراض التشاؤم والنظرة السوداوية إزاء المستقبل مقارنة بالمجموعة التى كانت خارج الكويت . وأن الذكور أكثر تشددا فى العداوة والبغض نحو العراق من الاناث . وأن المجموعة الصامدة فى الكويت أكثر اضطرابا نفسيا واجتماعيا من المجموعة الموجودة خارج الكويت . وأن الاناث أكثر اضطرابا نفسيا واجتماعيا من الذكور .

دراسة ادارة الخدمة الاجتماعية والتى أجريت على قطاع كبير من المدارس بالكويت لفحص الآثار النفسية والاجتماعية التى نجمت عن العدوان العراقى . وأسفرت نتائج الدراسة عما يلى : -

١ - زيادة حالات الاضطراب النفسي والخوف من المجهول لدى ٥ر٨٣ ٪ من أفراد العينة .

٢ - ازدياد مظاهر السلوك العدوانى بين الطلاب لدى ٦ر٥٤ ٪ من أفراد العينة .

٣ - اهتزاز بعض القيم والثوابت الاجتماعية لدى ١ر٤٢ ٪ من أفراد العينة .

٤ - المعاناة النفسية الاجتماعية لأبناء الأسرى والمفقودين لدى ٢ر٢٤ ٪ من أفراد العينة .

دراسة قاسم الصراف (١٩٩٢) عن تأثير أزمة الاحتلال العراقي على الجوانب السلوكية والانفعالية والمعرفية للشباب الجامعي فى الكويت ، وتكونت

عينة الدراسة من (١١٢٢) طالبا وطالبة من جامعة الكويت ممثلين لجميع الكليات الجامعية ، وأسفرت النتائج عما يلى : -

- وجود مشكلات سلوكية كالاستفزاز والثورة على الأوضاع ، النزعة العدوانية والعنف فى التصرفات وعدم الالتزام بالقوانين ، التهور فى قيادة السيارة ، والاكثار من التدخين ، والمعاناة من اضطرابات النوم واللجوء إلى تناول المهدئات .

- وجود مشكلات انفعالية كالاحساس بأن العالم ملىء بالأخطار ، زيادة الشك فى الآخرين ، والشعور بالغضب الشديد ، الشعور بالاحباط ، الشعور بالملل والضجر والاستغراق فى أحلام اليقظة ، والشعور بالحزن .

- وجود مشكلات معرفية كضعف الذاكرة ، وضعف الانتباه والتركيز وضعف استيعاب المعلومات ، وفقدان القدرة على التفكير المنظم .

دراسة عويد المشعان (١٩٩٣) عن الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقى ، حيث درست الفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين ، وتكونت العينة من (٤٠٠) طالب وطالبة ممثلة لجميع كليات الجامعة ، وأظهرت النتائج ما يلى : -

١ - لا توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الصامدين والنازحين فى كل من الانبساط ، والعصابية ، والاكتئاب ، والعدوانية .

٢ - توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الذكور والاناث ، فالذكور أكثر انبساطا وأكثر استعدادا للاضطرابات الذهانية بينما الاناث أكثر استعدادا للاضطرابات العصابية والاكتئابية ، ولكن لم تظهر فروق بين الجنسين فى العدوانية .

دراسة راشد سهل (١٩٩١) على عينة من الأطفال الكويتيين (ن = ٤٢٨) من البنين والبنات ، وقد أظهرت النتائج : زيادة بعض المشكلات النفسية بعد الغزو عما كانت عليه قبل الغزو ، ومن أهمها حسب تقدير أولياء الأمور ما يلى :-

١ - اضطرابات النوم : كالفزع أثناء النوم والحركة والاستيقاظ المتكرر والأحلام المزعجة ، حيث كانت نسبتها قبل الغزو ٢ر٢٢ ٪ وارتفعت إلى ١ر٤٧ ٪ وكان الفرق دالا إحصائيا .

٢ - اضطرابات انفعالية : وكانت نسبتها قبل الغزو ٩ر٣٠ ٪ وبلغت بعد الغزو ٧ر٥١ ٪ والفرق دال إحصائيا .

٣ - العدوانية : وكانت نسبتها قبل الغزو ١ر١٣ ٪ وأصبحت بعد الغزو ٨ر٢٥ ٪ وكان الفرق دالا احصائيا .

الدراسات السابقة المرتبطة بآثار الأزمات والحروب والاحتلال :-

دراسة دافيسون وزملائه *Davidson et al , 1985* فى أمريكا ، وهى دراسة اكلينيكية أجريت على عينة قوامها ستة وعشرون شخصا ممن كانوا يعانون من اضطرابات الصدمة بسبب مرورهم بأزمة حادة فوجدوا أن ٤١ ٪ منهم أصبحوا يتناولون المسكرات وأن ٢٥ ٪ منهم أصبحوا يعانون من اضطرابات النوم وأن ١٨ ٪ منهم أصبحوا يتناولون العقاقير المهدئة ، وأن ١٦ ٪ منهم يعانون من اضطرابات سلوكية حادة كالعصبية الزائدة والعنف . وأجريت دراسة أخرى على عينة كبيرة من المدنيين قوامها (٢٤٩٣) فردا ممن كانوا يعانون من آثار الحرب الفيتنامية نتيجة معايشتهم لها مدة طويلة ،

وقد توصل الباحثون (Helezer et al, 1987) إلى أن من أبرز المشكلات السلوكية التى ظهرت على هؤلاء الأفراد : السرقة والكذب والاعتداء والتخريب والتمرد على النظام والقانون ، وأن هذه الاضطرابات كانت النتيجة الطبيعية لتعرض هؤلاء الأشخاص لصور العنف والتعذيب أيام الحرب الفيتنامية .

دراسة عواد Awwad 1989 على عينة قوامها (٩٥٧) طالبا وطالبة من شباب الانتفاضة فى الأراضى المحتلة الذين يعيشون تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي ، وقد ظهرت فروق دالة إحصائيا بين الجنسين فيما يتعلق بتأثير أزمة الاحتلال . وظهر أن الفتيات الفلسطينيات أصبحن يعانين من الأعراض النفسية لهذه الأزمة أكبر من معاناة الفتيان الفلسطينيين لها ، وقد أرجح الباحث السبب فى ذلك إلى أن الفتاة الفلسطينية اشتركت بصورة مباشرة فى عمليات الانتفاضة ولذلك تعرضت إلى مواقف العنف وما تحمله من اجهاد وارهاق تركت آثارها الانفعالية والنفسية على شخصية الفتاة الفلسطينية (الصراف ١٩٩٢) .

دراسة لوين Lewin 1982 والتي أوضحت أن ظروف الحرب تؤثر على عادات النوم عند الشباب الذين يعيشون تحت ظروف الحرب منذ الصغر، وبخاصة أولئك الذين تكون قراهم ومدنهم هدفا دائما للعدوان . فمثل هذه الظروف تؤدى الى القلق والتوتر ورغبة الشباب فى الانتقام من الأعداء ، وكذلك تشتمل أحلام الشباب على كثير من عناصر الرعب والعداء والتدمير ، وهذا يؤدى إلى اضطراب النوم وقصره وإلى الأحلام المزعجة .

دراسة شمينتى وزملائه (Chimienti et al 1989) على عينة مكونة من (١٠٣٩) من الأطفال اللبنانيين ، وجد أن مجموعة الأطفال الذين تعرضوا

لخبرات مؤلمة تتمثل فى موت أحد أفراد الأسرة أو تهدم منزلهم أو اضطرارهم للعيش مع أسرة أخرى يمثلون ٣٠ ٪ من العينة قد أظهروا أعراضا للتوتر والنكوص والعدوان والاكتئاب بشكل أكبر من مجموعة الأطفال الذين لم يتعرضوا لمثل هذه الخبرات .

الدراسات السابقة المرتبطة بالعدوانية :-

دراسة موسي (١٩٩١) عن العدوان لدى المراهقين على عينة مكونة من ٩٦ مراهقا ، حيث تبين أن الذكور أكثر عدوانية فى بعض مظاهر العدوان ، بينما الإناث أكثر عدوانية في مظاهر أخرى ، وأجريت الدراسة الثانية عن العدوان لدى الشباب على عينة مكونة من ٤٠ طالبا وطالبة وتبين أن الذكور مرتفعى العدوان أكثر عدوانا من الإناث مرتفعات العدوان ، فى حين أن الإناث مرتفعات العدوان أكثر عدوانية من الذكور منخفضي العدوان .

دراسة مديحة منصور (١٩٨١) عن بعض أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بعدوان الأبناء وتكيفهم الشخصى والاجتماعى ، تكونت العينة من ٢١٩ تليميذا . وأسفرت النتائج عن ارتباط ايجابي بين العدوان والتكيف السيىء ، كما ظهرت فروق دالة إحصائيا بين الذكور والإناث فى العدوان تفوق فيها الذكور .

دراسة سميحة نصر (١٩٨٣) عن الشخصية العدوانية وعلاقتها بالتنشئة الاجتماعية علي عينة قوامها (٥٠٥) فردا من الذكور والإناث . وأسفرت النتائج عن ارتباط ايجابى دال إحصائيا بين العدوان وكل من السلوك العملى الاستقلالى وصلابة التفكير ومرونته ، كما أسفرت عن وجود

فروق جوهرية في السمات السوية بين العدوانيين والأقل عدوانية من الذكور والإناث وجاءت الفروق أكثر ارتفاعا لدى الذكور .

دراسة حسنين الكامل وعلى سليمان (١٩٩٠) في السلوك العدوانى وإدراك الأبناء للاتجاهات الوالدية فى التنشئة الاجتماعية على عينة مكونة من ٢٢٩ طالبا وطالبة من جامعة السلطان قابوس بمسقط . وأسفرت النتائج عن فروق دالة بين العدوانيين وغير العدوانيين فى إدراكهم لاتجاهات الآباء فى تنشئتهم ، كما لم تظهر فروق دالة احصائيا بين الذكور والإناث فى السلوك العدواني .

دراسة ايجلى وستيفن *Eagly & Staffen 1986* عن العدوانية عند الذكور والإناث أسفرت الدراسة عن أن السلوك العدواني عند الذكور تماما كما هو عند الإناث سلوك متعلم ، تقوم التنشئة الاجتماعية بدور مهم فى اكتسابه كدور محدد من الأدوار الاجتماعية .

دراسة جيرا *Guerra 1988* عن تأثير العوامل المعرفية على العدوان لدى المراهقين الجانحين على عينة مكونة من (١٤٤) مراهقا ، وأظهرت النتائج وجود فروق دالة بين المجموعات الثلاث ، حيث اختارت المجموعة الجانحة حلولا عدوانية للمشكلات الاجتماعية أكثر من المجموعة مرتفعة العدوانية ، وكانت حلول المجموعة الأخيرة أكثر عدائية من المجموعة منخفضة العدوانية كما ظهر أن الذكور أكثر شعورا بالعداء من الإناث .

دراسة ستاين وهوفمان *Stein & Hoffman 1978* عن العدوانية عند الذكور والإناث ، وتوصلت الدراسة إلى أن الفروق الدالة بين متوسطات درجات العدوانية عند الذكور والإناث لا تعود إلي الفروق بين الجنسين ، وإنما

تعود إلى أساليب التنشئة التى يتبعها الآباء مع كل من الذكور والإناث ، فهى فى الحقيقة فروق ثقافية واجتماعية (كوثر ١٩٩٢) .

دراسة ويسيل *Wessel 1981* على عينة مكونة من (٢٠٦) من الطلاب (٨٧ ذكرا ، ١١٩ أنثي) وأظهرت نتائج الدراسة أن الطلاب ذوى مفهوم الذات المنخفض أكثر عدوانية واكتئابا وقلقا عن الطلاب ذوى مفهوم الذات المرتفع ، وأظهرت الدراسة أنه لا توجد فروق بين الذكور والإناث فى القلق والاكتئاب والعدوانية .

دراسة " موهانتى " وزملائه *Mohanty, et al (1989)* التى شملت ١٠٠ طالب و١٠٠ طالبة وأسفرت نتائج هذه الدراسة بالنسبة للذكور عن ارتباط جوهرى بين العدوانية وكل من القلق ، والاكتئاب ، والهوس ، والبارانويا ، والفصام ، وديموقراطية الأب ، وديموقراطية الأم . أما بالنسبة للإناث فقد ارتبطت العدوانية ارتباطا جوهريا بكل من القلق ، والاكتئاب ، وإيجابية الأب ، وإيجابية الأم ، وقوة الدور الجنسى والتناسق العائلى ، والعدوانية ، والاضطرابات النفسية ، وفهم السلوكيات الوالدية .

دراسة " بلاك " وزملائه *Black, et al (1992)* على ١٢٩ شابا من رواد السينما الذين يشاهدون الأفلام العنيفة وغير العنيفة ، وأظهرت المجموعات التى شاهدت الأفلام العنيفة ارتفاعا في العدوانية ، بينما لم تظهر ذلك المجموعات التى شاهدت الأفلام غير العنيفة . وقد تولد لدى مشاهدى الأفلام العنيفة مستوى أعلى من العدوانية ، وارتفع بشكل ملحوظ بعد مشاهدة الأفلام العنيفة . وتؤكد هذه النتيجة الفرض القائل بأن مشاهدة فيلم عنيف يؤدى إلى ارتفاع العدوانية .

دراسة " كوبر " Koper (1993) واشتملت على ٤٠٧ طالبة و٢٢٢ طالب من طلاب الجامعة بحثت علاقة الجنس ، وهوية الدور الجنسى ونمط السلوك " أ " بأبعاد متعددة للتعبير عن الغضب والمستوي الوظيفى للصحة النفسية ، وأظهر التحليل أنه توجد آثار ذات دلالة للدور الجنسى ونمط السلوك " أ " فى التعبير عن الغضب ولم تظهر فروق جوهرية بالنسبة للجنس . وكشف تحليل التباين الأحادى بأنه توجد علاقة منسقة بين هوية الدور الجنسى والميل للغضب ، والكبت ، والضبط ، والميل للتعبير عن الغضب بشكل ظاهرى . ووجدت علاقات منسقة أو ثابتة بين نمط السلوك " أ " وبين الميل إلى الغضب ، والكف (كف الغضب) . ووجدت آثار للتباين المتعدد للجنس والدور الجنسى ، والنمط السلوكى لوظائف الصحة النفسية . ولم توجد فروق بين الجنسين فى الاكتئاب ، وقد حصلت الإناث على درجات أعلى فى كل من العداوة غير المباشرة ، والاستثارة ، والاعتمادية ، بينما حصل الذكور على درجات أعلى فى الاعتداء (التهجم) والعدوانية .

دراسة " هاير " وزملائه Hier, et al (1990) على ٥٢ مراهقا وذلك لمقارنة (١٠) ذكور و(١٤) أنثى هاربين Runaways مع (١٧) ذكرا و(١١) أنثى مطرودين Throwaways أى (أجبروا بالقوة على المغادرة) فى التوافق الاجتماعى والأعراض المرضية ، وكان متوسط أعمارهم (١٥ عاما) وكان الذكور الهاربون أكثر عدوانية بشكل ذى دلالة من الذكور المطرودين ، وكان الذكور الهاربون أكثر عزلة اجتماعية من الإناث الهاربات . ولكن الإناث المطرودات كن أكثر عدوانية من الذكور المطرودين ، والإناث الهاربات ، وبشكل عام الذكور المشردين كانت لديهم نزعة قوية للقيام بالسلوك العدوانى أكثر من الإناث المشردات ، بالاضافة لذلك فإن الإناث المطرودات كن أكثر عداوة

للمجتمع من الذكور المطرودين .

دراسة " بوكوالا " وزملائه *Bookwala, et al (1992)* على عينة مكونة من (٢٢٧) أنثى و(٧٨) ذكرا من طلاب الجامعة ، واتضح أن العنف (الاعتداء) البدنى من قبل الشريك يعتبر أكبر مؤشر للتعبير عن العدوانية عامة عند الذكور والإناث على السواء .

ولقد اتضح كذلك أن ارتفاع درجة العنف والعدوان اللفظى وكذلك انخفاض قيمة الأدوار الاجتماعية الجنسية التقليدية يعتبر من مؤشرات العنف عند الذكور وتبين أن الإناث أقل تقبلا للتوجه إلى العنف ، وأكثر توجها ناحية الدور الاجتماعى التقليدى للذكر والانثى ، والشعور بالغيرة العاطفية . والارتفاع العام فى مستوى العدوانية الداخلية ، والعدوانية اللفظية يعتبر من المؤشرات الواضحة للعنف .

دراسة " بولتون " *Boulton (1993)* والتى أوردت ثلاث دراسات فرعية للعدوانية فى ملاعب المدارس بين تلاميذ المدرسة الابتدائية (٨ – ١١) باستخدام المقابلات والملاحظة / في الدراسة الأولي كانت أكثر أسباب الشجار شيوعا هى رد الفعل للمضايقات ، ورد الفعل للإعتداءات الاستفزازية ، وعدم الاتفاق على أسس لعبة لم يتم لعبها . وفى الدراسة الثانية كانت نسبة كبيرة من الشجار بين التلاميذ الأصغر سنا بدون سبب مباشر تبعا لرأى الملاحظ الشاب ، ولكن الاعتداءات الأخرى كان سببها الانتقام والثأر من التلميذ المازح والعدوانى . وبين التلاميذ الكبار ، فإن أكثر سببين للإعتداء كانا رد الفعل العدوانى للمضايقات أو الاصابات العارضة . وفى الدراسة الثالثة تمت ملاحظة الملاعب التى يلعب فيها أطفال الفصول

مابين ٩ – ١٠ سنوات وكانت الأسباب الشائعة للاعتداء أو الشجـــار مشابهة لما جـاء في الدراستين الأولـــي والثانيـــة .

درس " سـوسـر " Susser, et al (1990) وزملائه التوجـه نحـو الدور الجنسى وإدراك العدوان لدى البنين والبنات وذلك كما يراه الراشدون . وشاهد الراشدون عرضا بالفيديو لمناظر يتصرف فيـها الأولاد والبنات بعدوانية أحدهما تجاه الآخر . وقد أدرك الراشدون أن الصبية أكثر عدوانية من البنات وأن عدوانهم كان مقصودا وتصحبه نية فعلية .

هدف الدراسة الحالية :-

تهدف هذه الدراسة بوجه عام إلى الكشف عن معدلات العدوان لدى المراهقين والشباب الكويتيين ، وذلك تمهيدا لوضع خطة علاجية مكثفة للحالات التى يمكن أن تكون قد تأثرت من صدمة العدوان العراقي وتتحد أهداف هذه الدراسة بوجه خاص فيما يلى : -

١ – التعرف على الفروق بين المراهقين والشباب فى العدوانية .

٢ – التعرف على الفروق بين الذكور والإناث فى العدوانية .

فروض الدراســـة :-

١ – توجد فروق بين الذكور والإناث في مقياس العدوانية .

٢ – توجد فروق بين المراهقين والشباب فى مقياس العدوانية .

منهج الدراســـة

أ – العينة : ـ

تكونت عينة الدراسة (انظر جدول ١) من (٣٢٩) طالبا وطالبة بواقع (١٨٢) طالبا وطالبة من مدارس الكويت ممثلين لجميع محافظات الكويت ، وبواقع (١٤٧) طالبا وطالبة من جامعة الكويت ممثلين لجميع كليات الجامعة ماعدا كلية الطب .

جدول (١) عينات البحث

العينـــات	المراهقون	الشباب	المجموع
ذكـور	٩٤	٦٨	١٦٢
إنـاث	٨٨	٧٩	١٦٧
المجموع	١٨٢	١٤٧	٣٢٩

ب – أداة الدراسة : ـ

مقياس العدوانية المستخدم فى هذه الدراسة من وضع (هاثا واى ، ماكنلى) وتعريب عطية هنا وزملائه عام ١٩٥٦ . ويتكون المقياس من ٢٢ عبارة مشتقة من اختبار الشخصية المتعددة الأوجه *MMPI* ، وقد أجريت

دراسات عليه فى كل من مصر والكويت والسعودية ، وكشفت عن ثبات مرتفع . وقام الباحث بحساب معامل ثبات المقياس بطريقة إعادة الاختبار فوجد أنه ٧٩ر٠ كما قام بحساب معما الثبات بطريقة ألفا *Alpha* فوصل إلى ٨٣٢ر٠ مما يجعل الأمر مطمئنا لاستخدامه فى هذه الدراسة .

النتائج

يبين جدول (٣) أهم الخصائص الأساسية لمقياس العدوانية

جدول (٣) المتوسطات والانحرافات المعيارية لمقياس العدوانية لدى عينات الدراسة .

الجنس / المرحلة	الذكور			الإناث		
	ن	م	ع	ن	م	ع
المراهقين	٩٤	١١ر٧٧	٣ر٦٧	٨٨	١١ر٥٩	٣ر٣٢
الشباب	٦٨	١٢ر٥٤	٤ر٠٠	٧٩	١٣ر٣٢	٣ر٤٣

بالنظر إلى جدول (٣) يتضح أن متوسط درجات الشباب على مقياس العدوانية أعلى من متوسط درجات المراهقين .

جدول (٤) تحليـــل التباين المزدوج لدرجات العدوانية حسب الجنس والمرحلة والتفاعل بينهمـــا .

العينـــات	متوسط المربعات	درجة الحرية	قيمـــة (ف)	مستوي الدلالة
الجنـس	٥ر٠١٠	١	٠ر٣٨٨	٠ر٣٥٤
المرحلة	١٢٩ر٦٦١	١	١٠ر٠٤٣	٠ر٠٠٢
التفاعل بين الجنس والمرحلة	١٨ر١٨١	١	١ر٤٠٨	٠ر٢٣٦
داخل المجموعات	٤١٩٦ر٠٨٠	٣٢٥	–	–
المجموع الكلى	٤٣٥٢ر٠٦١	٣٢٨	–	–

وبالنظر إلي جدول (٤) يتبين أنه لا توجد فروق بين الذكور والاناث فى العدوانية ، ولكن نلاحظ أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الشباب والمراهقين فى العدوانية ، حيث ان نسبة (ف) ١٠ر٠٤٣ وهى دالة احصائية عند مستوى ٠ر٠٠٢ وبالرجوع إلى المتوسطات الواردة فى جدول (٣) نجد أن متوسط درجات الشباب أعلى من متوسط درجات المراهقين ، كما أن التفاعل بين الجنسين والمرحلة لم يكن دالا إحصائيا .

جدول (٥) المتوسطات والانحرافات المعيارية وقيمة (ت) بين المراهقين الذكور والشباب الذكور فى العدوانية .

المرحلة	ن	م	ع	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المراهقين	٩٤	١١ر٧٧	٣ر٦٧	١ر٢٨	٠ر٢٠١
الشباب	٦٨	١٢ر٥٤	٣ر٩٩		

يتضح من جدول (٥) أنه لا توجد فروق بين المراهقين الذكور والشباب الذكور فى العدوانية .

جدول (٦) المتوسطات والانحرافات المعيارية وقيمة (ت) بين المراهقات والشابات في العدوانية .

المرحلة	ن	م	ع	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المراهقين	٨٨	١١ر٥٩	٣ر٣٢	٣ر٣٠	٠ر٠٠١
الشباب	٧٩	١٣ر٣٢	٣ر٤٣		

يتضح من جدول (٦) أنه توجد فروق بين المراهقات والشابات ،

وبالرجـوع إلي المتوسطـات نجد أن متوسط درجـات الشابات أكبر من متوسـط درجـات المراهقـات ، وهذا يعنى أن الشـابات أكثر عدوانيـة من المراهقـات .

مناقشة النتائج

لم يتحقق فرض الفروق بين الذكور والاناث في العدوانية ، وهذا يتسق مع نتـائج بعض الدراسـات السـابقـة (انظر : الكامل وسليـمـان ١٩٩٠ ، المشـعـان ١٩٩٣ – ١٩٨٢ ، *(Stein et al. 1977. Eygle et al* وقد يرجع السبب إلى أن الفـروق بين الجنسين لا تعود إلي فـروق بيولوجيـة فى المقام الأول ، وانما تعود أساساً إلي أساليب التنشئة التى يتبعها الآباء مع كل من الذكور والإناث ، فهى فـى الحقيقة فروق ثقافية واجتماعية . ومن الممكن أن نفترض أن أساليب التنشئة التى اتبعت مع أفراد هذه العينة الكويتية لم تكشف عن فـروق بين الجنسين فى العـدوانيـة . كمـا قـد يرجع عـدم ظـهـور فـروق بين الجنسين إلي أن الصدمات والضغوط النفسية والأزمات والمواقف الضاغطة والخبرات المؤلمة ومواقف الاحباط التى تعرض لها الجنسين على حد سواء ، أدى إلى عدم دلالة الفروق بين الجنسين في العدوانية .

ومن ناحية أخرى ، فقد تحقق فرض الفروق بين المراهقين والشباب في العـدوانية ، فـأسفـرت الدراسـة عن فروق ذات دلالة إحصـائية بـين المراهقين والشباب (الشباب أكثر عدوانية من المراهقين) . وقد يرجع السبب إلي ما تعـرض له الشـبـاب من طـلاب الجـامـعـة فى طـفـولتـهـم من الخـبـرات المؤلمة والحرمان ، واستمرار الاحباط ، والقسوة والنبذ وعدم التقبل مما يكون قد

ساعد على تنمية الاستعداد للسلوك العدواني لدى الشباب . ويمكن أن يفسر ذلك بجلاء علي ضوء نظريات التعلم ، وبخاصة الاشراط الاجرائى من وضع سكينر Skinner ونظرية التعلم بالملاحظة لباندورا Bandura . فيرى سكينر أن الفرد يتعلم سلوكه بالثواب والعقاب ، كما يرى باندورا فى ضوء نظرية التعلم بالملاحظة أن الشباب يتعلمون السلوك العدوانى عن طريق ملاحظة نماذج العدوان من الوالدين والمدرسين والأقران وفي أفلام التليفزيون والسينما ، والمحطات الفضائية . وقد تأيد صدق هذا القول من دراسات عديدة (انظر : Stein et al. 1971, Eron et al. 1971, Bandura, 1979) . وقد عانى الشباب الكويتى من الاحتلال العراقى ألوانا متنوعة من القهر والظلم والاحباط والألم النفسى والجسدى مما نتج عنه اضطرابات سلوكية متعددة من أهمها العدوانية وسلوك العنف (انظر مثلا : الصراف ١٩٩٢ ، إدارة الخدمة الاجتماعية ١٩٩١ ، سهل ١٩٩٢) ، وتؤيد ذلك الدراسات العالمية على عينات أخري (انظر : Helezer 1987, Davidson et al 1985) . وقد يكون من المناسب أن نفترض مايفسر هذه النتيجة التى أسفرت عنها هذه الدراسة ، وهوأن الشباب تعرضوا لخبرات أقسي إبان العدوان العراقي ثم خلال فترة الاحتلال ، ويبدو أن هذه الخبرات كانت أقسى لدي الشباب (طلاب الجامعة) أكثر من نظرائهم من المراهقين حاليا ، والذين كانوا صغار السن . إبان العدوان والاحتلال . كما يمكن أن نفترض أن الضغوط التى يتعرض لها الشباب من طلاب الجامعة في الوقت الراهن لاتقل عما يمكن أن يتعرض له المراهقون بل تزيد .

توصيات للوقاية والعلاج من العدوان

١ – ينبغي وضع خطة علاجية مكثفة للحالات التى لديها ارتفاع فى مستوى سمة العداوة وخاصة بإزالة عوامل تنمية (سمة العداوة) فى الطفولة والمراهقة .

٢ – علاج عوامل الاحباط والحرمان وعدم الأمان والظلم ، وعدم اشباع الحاجات النفسية والبيولوجية في المجتمع ، يقلل من ارتفاع معدلات العدوانية لدى المراهقين والشباب في دولة الكويت .

٣ – تحسين عملية التطبيع الاجتماعي لدي الأبناء مع استهجان السلوك العدوانى ، فإنهم سوف يجدون التشجيع لإبداء الايجابية والتعاون والمودة كخصائص مناقضة للسلوك العدوانى .

٤ – ينبغي على الوالدين توجيه المراهقين ، واحترام وجهة نظرهم وعدم معاملتهم كأطفال ، وعدم استخدام العنف للتعامل معهم ، فالعنف هنا يولد عنفا .

٥ – الحزم والعقاب للمعتدى حتي لايجد في عدوانه منفعة ولافائدة فيقلع عنه ويرتدع غيره .

٦ – إنشاء مراكز نفسية متخصصة لعلاج الحالات التى تعانى من اضطرابات فى السلوك ، مع توفير الاخصائيين والاخصائيات المؤهلين علميا ومهنيا فى مدارسنا للقيام برعاية وتحقيق هذا الهدف .

ملخص الدراسة

تشير الملاحظات العامة إلي أن السلوك العدواني لدى الشباب والمراهقين الكويتيين أصبح من الظواهر أو السلوكيات الملفتة للنظر ، والتي تنذر بالخطر . وهدفت هذه الدراسة بوجه عام إلى الكشف عن معدلات العدوان لدي المراهقين والشباب الكويتيين ، وذلك تمهيدا لوضع خطة علاجية مكثفة للحالات التى عانت بسبب صدمة العدوان العراقي أو نتيجة للخبرات المؤلمة التى حدثت في طفولتها .

وتكونت عينة الدراسة من ٣٢٩ طالبا وطالبة بواقع (١٨٢) من المراهقين وبواقع (١٤٧) من الشباب من الكويتيين من الجنسين . وبينت النتائج أنه لاتوجد فروق بين الذكور والإناث في العدوانية . بينما توجد فوق ذات دلالة احصائية بين الشابات والمراهقات (الشابات أكثر عدوانية) .

المراجـــــع

١ – ابراهـــيم ، عبد الستار ، الدخـــيل عبد العـزيز ، ابراهـيم رضـــوى (١٩٩٣) العـــلاج الســـلوكى للطفـــل – عالـم المعرفـة – العدد ١٨٠ – الكويت .

٢ – أبو عامر ، محمد تركى (١٩٨٠) : دراسة فى علم الاجرام والعقاب – بيروت مكتبة مكاوى .

٣ – الديب ، أميـرة ، عبد العزيز (١٩٩١) حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسـية والإجتماعية للطلبة الكويتيين – الجامعة المصرية للدراسات النفسية – المؤتمر السابع لعلم النفس فى مصر .

٤ – المشعان ، عويد سلطان (١٩٩٣) : الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقى " دراسة للفروق بين الصامدين والنازحـين وبين الجنسين " عـالـم الفكر – المجـــلد ٢٢ – العـدد (١) الكويت .

٥ – الشـربينى ، زكريا (١٩٩٤) المشكلات النفسـية عند الأطفـال – دار الفكر العربى – القاهرة .

٦ – الصراف ، قاسم (١٩٩٣) تأثير أزمة الاحتلال العراقى على الجوانب السلوكية والانفعالية والمعرفية للشباب الجامعي الكويتى – المؤتمر الدولى للآثار النفسية والإجتماعية والتربوية للعدوان العراقى على دولة الكويت – مكتب الإنماء الإجتماعى ٣ – ٦ أبريل ١٩٩٣ .

٧ – الفقى ، حامد عبد العزيز (١٩٩٣) ، التأثيرات السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية التى يعانى منها الكويتيون نتيجـة الاحـــتلال ،

عالم الفكر – المجلد (٢٢) العدد الأول .

٨ – الكامل حسنين ، وسليمان على (١٩٩١) : السلوك العدوانى وادراك الأبناء للاتجاهات الوالدية فى التنشئة الاجتماعية . دراسة تنبؤية – الجمعية المصرية للدراسات النفسية – المؤتمر السادس لعلم النفس فى مصر .

٩ – المقصود ، منى سليم (١٩٩١) : أساليب مساعدة الأطفال المراهقين – التأثر بالأزمة والحرب دليل الوالدين والمدرسين – وزارة الصحة – بالكويت .

١٠ – حافظ نبيل وقاسم نادر (١٩٩٣) : الاحباط والعدوان ، الجمعية المصرية للدراسات النفسية المؤتمر التاسع لعلم النفس فى أسوان جامعة أسيوط .

١١ – سهل ، راشد (١٩٩٢) الآثار النفسية والاجتماعية التى خلفها العدوان العراقى على أطفال الكويت – دراسة مقدمة للمؤتمر التربوى الحادى عشر لجمعية المعلمين الكويتية عن التخطيط التربوى فى مواجهة وتحدى آثار العدوان العراقى المنعقد بالكويت في أبريل ١٩٩٣ .

١٢ – عبد الخالق ، أحمد محمد والمشعان ، عويد سلطان (١٩٩٤) : إدراك طلاب الجامعة الكويتيين للآثار النفسية للعدوان العراقى – المؤتمر العالمي لآثار العدوان العراقى على دولة الكويت أبريل ١٩٩٤ .

١٣ – عبد الخالق ، أحمد محمد (١٩٩٢) : أصول الصحة النفسية – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية – طبعة ٢ ص ٤٣٩ – ٤٤٤ .

١٤ - عبد العال سيد (١٩٨٨) نظريات علم النفس والمداخل الأساسية لدراسة السلوك الإنسانى - الطبعة الثانية - مكتبة سعيد رأفت - القاهرة .

١٥ - علام ، رجاء محمود (١٩٩٢) : علم النفس التربوى - الطبعة الثانية - دار القلم - الكويت .

١٦ - رزق ، كوثر ابراهيم (١٩٩٢) في ديناميات الاعتداء على المدرسين - مجموعة من التلاميذ العدوانيين فى المرحلة الثانوية - الجمعية المصرية للدراسات النفسية - المؤتمر الثامن لعلم النفس فى مصر .

١٧ - محمود ، مهدى محمود (١٩٩٠) : أثر سلطة المجرب على ظهور الاستجابة العدائية عند الأفراد وعلاقة ذلك بسماتهم الشخصية - مجلة العلوم الاجتماعية - مجلد ١٨ ع ٢ .

١٨ - مرسي ، كمال ابراهيم (١٩٨٥) سيكولوجية العدوان - مجلة العلوم الاجتماعية الاجتماعية - الكويت - المجلد ١٣ - العدد الثاني . الكويت .

١٩ - نصر ، سميحة (١٩٨٣) : الشخصية العدوانية وعلاقتها بالتنشئة الاجتماعية - رسالة الماجستير لكلية الآداب - جامعة عين شمس .

٢٠ - منسى محمود ، وييومى محمد (١٩٨٨) : برامج العنف فى التليفزيون وعلاقتها بالسلوك العدوانى - مجلة التربية المعاصرة العدد ٩ من (٩٩ - ١٣٠) .

٢١ - منصور ، مديحة سلم (١٩٨١) : دراسة بعض أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالعدوان - الأبناء وتكيفهم الشخصى والاجتماعى - دراسة ماجستير - كلية الدراسات الإنسانية - القاهرة .

٢٢ – موسى رشاد عبد العزيز (١٩٩١) : سيكولوجية الفروق بين الجنسين – مؤسسة مختار ودار عالم المعرفة – القاهرة .

٢٣ – ميشيل أرجايل (ترجمة عبد الستار ابراهيم) (١٩٨٢) : علم النفس ومشكلات الحياة الاجتماعية – القاهرة – مكتبة مدبولى م ٧٣ – ٩٠ .

٢٤ – وزارة التربية – ادارة الخدمة الاجتماعية – الآثار الاجتماعية والنفسية للغزو العراقى على الطالب الكويتى . ١٩٩١ .

25 - Bandura, A (1977) : Social Learning Theory. Englewood Cliff. NJ. Prentice - Hall.

26 - Benton. Helen, (1984) : "Crime and Delinquency" Encyclopedia Britannica, Chicago; Publisher Micropedia, Vol. 5.

27 - Black, Stephen-L & Bevan, Swsan (1992) : At the movies with buss and durkee : A natural experiment on film violence. JN. Aggressive - Behavior, 1992 Vol 18 (1) 37 - 45.

28 - Bookwala, Jamila; Frieze, irene, H; Smith, Christine; Ryan, Kathryn (1992) : Predictors of dating violence : A multivariate analysis. JN. Violence - and Victims; 1992 Vol 7 (4) 297 - 311.

29 - Boulton, Michael, J. (1993) Proximate causes of aggressive fighting in Midde School Children. JN British - Journal of Educationad Psychology, 1993 Jun Vol 63 (2) 231 - 244.

30 - Chimienti, G. Nasr J. A & Kalifeh, 1 (1989) : Children's reactions

to war - related stress. Social Psychiatry Epidemiol 24, 282 - 272 .

31 - Davidson, J. et al (1985) : A diagnostic Family study of posttraumatic disorder. American Journal of Psychiatry 142, 90 - 93.

32 - Eagly, A. H and Steffen, V. J (1986). Gender and Aggressive Behavior, A meta - Analysis Review of the Social Psychological Literature. Psychological bullettin. 100 (3), PP. 323 - 325.

33 - Eron, Leonard (1977) : Growing up to be violent A long study of the development of Aggression. New York. Pergmanpress.

34 - Eron, L (1980) Prescription for reduction of aggression. American Psychologist, 35 (3) 244 - 252.

35 - Fagos, Bruce, S; Wolchik, Sharlene A; Braver, Sanford - L. & Freedom, Darlene, S. (1992) Locus of control as amediator of negative divorce - related events and adjustment problems in children. JN : American - Journal of Orthopsychiatry; 1992 Oct Vol 62 (4) 589 - 598.

36 - Helzer, J et al (1987). Posttraumatic Stress disorder in the general population. North England Journal of Medicine 317, (1630 - 1634) .

37 - Hier, Sally, J; et al Koboot; Paula, J and Schweitzer, Robert, D (1990) Social Adjustment and symptomatology in two types of homeless adolescents: Runaways and Throaways JN. Adoles-

cence; 1990 Vol 25 (100) 761 - 771.

38 - Kauffman, James (1985) : Characteristics of Children's Behavior disorders, U. S. A. Merril Publishing Company.

39 - Jerome, A, Y (1983) : dangerous Behavior by Vietnam veterans with Schizophrenia, AM. J. Psychiat. 26 - 51.

40 - Koper, Beverly, A (1993) Role of gender, sex role identity, and type A behavior in anger expression and mental health functioning. Journal of Counseling - Psychology; 1993 Apr Vol 40 (2) 232 - 237.

41 - Mohanty, Manju; and Verma, prem (1989) A study of aggression in relation to Psycho - Pathology and perception of parental attitude; Journal of the Indian - Academy of Applied Psychology, 1989 Jul vol 15 (2) 75 - 82.

42 - Mussen, Paul (1983) Handbook of child psychology. The development of Aggression. New York. John Wiley.

43 - Reber, Arthur (1985) The Penguin Dictionary of Psychology. Britain, Penguin Book.

44 - Susser, Shery - A. and Keating, Caroline - F (1990) Adult sex role orientation and perceptions of aggressive interactions between girls and boys. JN sex - roles; 1990 Aug vol interactions 23 (304) 147 - 156.

التضحية بالبشر
بين العهد القديم والأساطير اليونانية

الدكتور احسين الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

" فلمّا بلَغَ معَهُ السَّعيَ قالَ يابُنيَّ إنّي أرى في المنامِ أنّي أذْبَحُك فانْظُر ماذا تَرى ، قالَ يا أبَتِ افعَل ماتُؤمرُ ستَجِدُني إن شاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرينَ ، فلمّا أسلَمَا وَلّهُ للجَبينِ ، وناديناهُ أنْ يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا إنّا كَذلكَ نَجْزِي المُحسِنينَ إنَّ هذَا لَهُوَ البلاءُ المُبينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذبحٍ عَظيمٍ " .

(الصّافّات ، الآيات : ١٠١ - ١٠٧)

التضحية بالبشر

بين العهد القديم والأساطير اليونانية

تظهر إفيجينيا (١) فى الأدب اليونانى كأضحية بشرية غرر

كانت بداية هذا البحث عبارة وردت فى سياق تحليل أحد مؤرخى الدراما الكلاسيكية لمسرحية يوريبيديس الشهيرة " إفيجينيا فى أوليس " ، حيث قال :-

This version of the sacrifice of Iphigenia reminds one of the story of the sacrifice of Isaac in Genesis . Such myths are designed to explain and justify the abandonment of Human Sacrifice . (P. W. Harsh, A Handbook of Classical Drama, Stanford University Press 1948, P. 247).

وقد أثارت هذه العبارة في ذهني العديد من التساؤلات عن أوجه الشبه بين الحادثتين وأسباب هذا التشابه ومغزاه إن وجد . وفي نفس الاتجاه كانت هناك محاولة سابقة لمقارنة فكرة الحياة والموت وقصة الفيضان في كل من ملحمة جلجاميش والعهد القديم . قارن :-

Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic and old Testament Parallels, Phoenix Books, The University of Chicago Press 1970, P. 137 - 269).

ثم المحاولة الأحدث في :-

D. E. Avne, Greco - Roman Literature and the New Testament, Teubner Stuttgart 1990.

(١) ثالث بنات أجاممنون ، تظهر عند هوميروس تحت اسم : Ιφια νασσα (II. IX, 145, 287) ، رغم أن بعض الدراسين يجعلونها رابع بنات أجاممنون ويفرقونها عن إفيانا سا ، راجع : Louis Sécham, Le Sacrifice d'Iphigénie, Revue des Etudes Greques, Tome XLIV, 1981, PP. 379 - 380 et n. 9. ، والذى يلاحظ أيضا عدم تعرض هوميروس لقصة التضحية بإفيجينيا أو أفيانا سا ، لأن هذا يتعارض مع الجلال والعظمة التى أضفاها هوميروس على أجاممنون ، ويؤكد هذا بعدم تعرض الشاعر أيضا لقصة مقتل أجاممنون على يد كليتمنسترا وايجيستوس ، أو ربما – فى رأيى المتواضع – لعدم معرفة الشاعر بقصتى التضحية أو القتل .

بها (١) بزعم زواجها من أخيليس . (٢) حتى استدرجت الى أوليس كى يُضحى بها قربانا للالهة ، كما أعلن عرّافو اليونان حتى تبحر السفن الإغريقية الى طروادة ، ولا ينقذها إلا تدخل الإلهة أرتمس (٣) .

---

(١) عن إفيجينيا في الأدب اليوناني واللاتيني أيضا ، قارن :-

A., Ag., 184 FF, 1526; soph., EL., 569;
Eur., EL., 1023; Iph. T., 10 - 30, 783; Iph. Aul., 1540 FF;
Schol., Ar., Lys., 645; Ov., M., 12, 27 sq.;
Hyg., Fab., 98 and 120; Cic., Tusc., 1,48, 146;
Prop., 3, 7 (4 - 6), 24; Juv., 12, 119;
Luc., I. 82 - 86.

والذي يستغل قصة التضحية بإفيجينيا للتدليل على أن الديانة اليونانية القديمة تخرج لليونان والرومان على حد سواء أفعالا دنسة .

(٢) Homer, Il., IX. 145, 287. ، حيث يدعو اجاممنون أخيليس بزوج ابنته أفيانامسا .

قارن أيضا : Cf. Eur., Iph. T., 29 - 30.
Eur., Iph. Aal. Aul., 835 - 6.

حيث تدعوه كليتمنسترا بنفس الصفة .

(٣) وقد اقترنت إفيجينيا بشكل من الأشكال بالإلهة أرتمس ، حتى أن باوسانياس (II. 35. 1.) دعاها Ιφιγενεια η ΑρτεΜις ويبدو أن ظاهرة الأضاحى البشرية كانت قد ارتبطت الى حد ما بعبادة الإلهة أرتمس ، حيث يحدثنا باوسانياس ;(III. 24. 3. (VII. 19. 3 - 9) ، عن أهالى باتراى (فى أخايا) الذين ربطوا عبادة إلهتهم أرتمس بطقس بربرى من التضحية بالبشر .

CF. W. K. C. Guthrie, The Greeks and their Gods, Methuen 1950, P. 163.

قارن أيضا :

Martin Nilsson, A History of Greek.
Religion, Translated by F. J. Fielden, Oxford 1925, P. 59.

والذى يطرح رأيا منطقيا الى حد بعيد حول التضحية بالبشر والتى نادرا ما مورست بشكل فعلى في طقوس العبادات ، إلا أنها تظل موجودة بكثرة في الأساطير . وطبقا لأفلاطون (Minos, 315) فقد اعتبر الإغريق التضحية بالبشر عملا بربريا ودنسا ανοσιον.

وعن التضحيات بشكل عام راجع :

A. Loisy, Essai Historique sur le Sacrifice, Paris 1920.
R. K. Yerkes, Sacrifice in Greek and Roman Religion and early Judaism, London 1952.

وطبقا للتوراة فقد قدّم ملك مؤاب (ميشع) ابنه البكر للإله (شمس) لينقذه من قوات =

وقد ظهرت القصة بشكلها المتكامل هذا لأول مرة فى القصيدة القبرصية Τα Κυπρια والتي يعود تاريخ نظمها الى الفترة مابين القرنين السابع الى السادس (ق . م .) وعرفها هيرودوت ويوريبيدس وأرسطو . (١)

ورغم أن التضحية بإفيجينيا جاء ذكرها عند إيسخيلوس في مسرحيته " آجاممنون " على لسان الكورس ، وعند سوفوكليس فى مسرحيته " أليكترا " علي لسان أليكترا ، وعند يوريبيديس في مسرحيته " إفيجينيا بين التاوريين " على لسان إفيجينيا نفسها (٢) ، فإن (إفيجينيا في أوليس) ليوريبيديس تظل هى العمل الدرامي الوحيد تقريبا الذى أورد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة ، والتى يبدو منها أن يوريبيديس قد تبنّى كل تفاصيل القصة التى وردت في القصيدة القبرصية (٣) ، فعندما تتصاعد أحداث أحداث المسرحية لتصل الى ذروتها المتمثلة في التضحية بإفيجينيا يحكى

= اسرائيل ويهوذا التى حاصرته (سفر الملوك " ثان " – ٣ : ٢٧) ، ويبدو أن هذه العادة استمرت حتى نزول التوراة ، كما يتضح من سفر الخروج حيث يحرّم الله علي بني اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا لله (الخروج ٢٢ : ٩) ، وفى سفر اللاويين ينصّ على رجم من يقدّم ابنه قربانا لإله العمونيين (لاويون ١٨ : ٢١ ، ٢٠ ، ٢) . وربما استمرت هذه العادة حتى عصر النبى أرميا (٦٢٧ – ٥٧٧ ق . م .) ، والذى يعيب علي بنى إسرائيل أنهم " بنوا المرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار " ، ثمّ النبىّ أشعيا الذى يقول لبنى اسرائيل : -

" يابنى الساحرة ، نسل الفاسق والزانية ، القاتلون الأولاد تحت شقوق المعاقل " . (أشعيا ٥٧ : ٣ – ٥) .

قارن : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الأول : فى بلاد العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٨ ، صفحات ١٧٨ – ١٨٠ .

(1) - G. Kinkel, Epicorum Graecorum Fragmenta (E. G. F.) 1877.
CF. Hdt., II. 117; Aristot., Po., 1459 b. 2.

(2) - Aeschyl., Ag., 194 sq.; Soph., EL., 569 sq.;
Eur., Iph. T., 10 sq.

(3) - Eur., Iph. Aul., 1540 sq.

الرسول كيف خاطبت إفيجينيا أباها آجاممنون قائلة : -

يا أبى ، ها أنا ذي (ممتثلة) للمطلوب (منّى)

أقدّم جسدي لوطنى ، ولكل أرض اليونان

لتقودني الى مذبح الربّة طواعية

وتضحّى بى طالما هذه إرادة السماء (١)

.....

.....

لذا لا تدع أحدا من الأرجيين يلمسنى

لأنّى سأقدّم عنقى (للتضحية) صامدة صامتة (٢)

ثم يستمر الرسول في وصفه لاجراءات التضحية بإفيجينيا قائلا : -

وبعد أن أمسك الكاهن بالسكّين قام بتلاوة صلاة

واختبر عنقها ليعرف أين يضرب (بسكّينه)

---

(1) -

ὦ πάτερ , πάρειμί σοι
τολμὸν δὲ σῶμα τῆς ἐμης ὑπὲρ πάτρας
καὶ τῆς ἁπάσης Ἑλλάδος γαίας ὕπερ
θῦσαι δίδωμ' ἑκοῦσα πρὸς βωμὸν θεᾶς
ἄγοντας , εἴπερ ἐστὶ θέσφατον τόδε .

Eur., Iph. Aul., 1552 - 56.

(2) -

πρὸς ταῦτα μὴ ψαύσῃ τις Ἀργείων ἐμοῦ·
σιγῇ παρέξω γὰρ δέρην εὐχαρδίως .

Eur., Iph. Aul., 1559 - 60.

ولم يكن الأسف (الرهبة) الذى ملأ قلبى قليلا

ورأسى منكّس . لكن ياللعجب ، لقد ظهرت أمام الأعين معجزة مفاجئة

كلّ منّا سمع بوضوح صوت انفجار

لكن أحداً لم يَرَ البقعة حيث اختفت العذراء

عاليا صرخ الكاهن ، وانتظم الكلّ في الصراخ

عند رؤية (شيء) ساحر خفيّ لا يصدّق

ولكنه واضح للأنظار ، أرسل من قبل الإله

حيث استلقي على الأرض وعل ضخم الحجم

يلهث ، ولم يُر مثله في الجمال

والذى سال دمه علي مذبح الربّة . (١)

---

(2) -

ἱρεὺς δὲ φάσγανον λαβὼν ἐπηύξατο ,
λαιμόν τ'ἐπεσκοπεῖθ', ἵνα πλήξειεν ἄν'
ἐμοὶ δέ τ'ἄλγος οὐ μικρὸν εἰσῆει φρενί ,
κἄστην νενευκὼς • θαῦμα δ'ἦν αἰφνης ὁρᾶν .
πληγῆς σαφῶς γὰρ πᾶς τις ἤσθετο κτύπον ,
τὴν παρθένον δ'οὐκ οἶδεν οὐ γῆς εἰσέδυ .
βοᾷ δ'ἱερεύς , ἅπας δ'ἐπήχησε στρατός ,
ἄελπτον εἰσιδόντες ἐκ θεῶν τινος
φάσμ', οὗ γε μηδ'ὁρωμένου πίστις παρῆν .
ἔλαφος γὰρ ἀσπαίρουσ'ἔκειτ'ἐπὶ χθονὶ
δεινὸν μεγίστη διαπρεπής τε τὴν θέαν ,
ἣ αἵματι βωμὸς ἐραίνετ'ἄρδην τῆς θεοῦ .

= Eur., Iph. Aul., 1578 - 1589.

وقد يجدر بنا أن نؤكد عدة ملاحظات تثيرها القصة والمقتطفات السابقة أهمها :-

- سبب التضحية بإفيجينيا : وهو هنا إرادة الآلهة التى تجلّت فى رؤيا يراها واحد من البشر (العرّاف كالخاس) . (١)

- طقوس التضحية ومستلزماتها : صلاة يتلوها الكاهن ، المذبح والسكين . (٢)

- مكان التضحية : أوليس ، رغم أن بعض الباحثين يري أن ميناء (Brauron) علي الساحل الشرقي لأتيكا هو المكان الأصح . (٣)

ويبدو أن مشهد التضحية هذا كان من الموضوعات المفضلة للفنانين القدامي ، فالمصوّر تيمانتيس (Timanthes?) المعاصر ليوريبيديس كان قد صوّر هذا المشهد محاولا تأكيد مشاعر الحزن التى تظهر علي وجه أجاممنون ، ونجد وصفا كاملا لهذا المشهد عند شيشرون وبليني .

Cicero, Orator, 74; Pliny, 35; 73.

CF. Harsh, op. cit., PP. 246 - 7.

أنظر شكل (١) رسم حائطى من بومبي للتضحية بإفيجينيا (تيمانثيس ؟) المتحف القومى ، نابولى .

CF. Charbonneaux, Martin and Villard, Classical Greek Art, Thames and Hudson 1972, Fig. 383.

ورغم محاولة عدم الانسياق فى غمار النقد الأدبى ، إلا أنه تجدر الإشارة الى رأى لبعض الباحثين من أن هذا الجزء الأخير من العمل الذى يتحدث فيه الرسول عن التضحية بإفيجينيا منقول ، حيث يرى أصحاب هذه المقولة أن النسخة الأصلية للمسرحية كانت تحتوى على مشهد للربّة أرتمس تهبط من السماء لتنقذ إفيجينيا من التضحية بها وتحل محلها أضحية من الحيوان . قارن :

Harsh, op. cit., P. 247.

(1) Eur., Iph. Aul., 89 - 93.

(2) Eur., Iph. Aul., 1470 - 2.

(3) Schol. Aristoph., Lys., 645.

CF. Paus., I. 33. 1.

- موقف الضحية : الانصياع لإرادة الالهة وتقبّل الأمر الواقع بطواعية تامة . (١)

- المحصلة النهائية للموقف : إحلال الآلهة لضحية حيوانية بدلا من الأضحية البشرية ، وغالبا وعل ، رغم قول بعض الباحثين بأن الأضحية كانت دبّاً . (٢)

وانطلاقا من المقولة الأولي حول قصة التضحية بإفيجينيا والتى قد تعيد الى الذهن قصة التضحية باسماعيل (أو إسحق كما يري بعض الباحثين) (٣) ، قد تحسن الإشارة هنا الى ماجاء فى التوراة بشأنه :-

(وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم (٤) . فقال له

---

(١) راجع فيما سبق ، صفحة ٥ حاشية (١) .

(2) Schol., Aristoph., Lys., 645.

(٣) ليس من بين أهداف هذا البحث تحديد شخصية النبيح فى التوراة ، وهل هو إسماعيل أم إسحق .

وحول التضحية بالبشر في الجزيرة العربية ، فيبدو أنها كانت معروفة فيما قبل الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد نذر عبد المطلب لله إن أعطاه عشرة ذكور أن يذبح أحدهم قربانا له ، وبعدما حدث أن استجاب الله لدعائه ورزقه بالذكور العشرة ، حاول أن يقرّب لله عبد الله ، أبا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فرفض العرب حتى لا تكون سابقة وعادة من الآباء للأبناء ، واحتكموا الى كاهنة معروفة ، فضربوا بالقدح (أى أجروا القرعة) حتي تمّ افتداء عبد الله بمائة من الإبل .

راجع : عبد العزيز غنيم ، لحظات مع النبيح وأبيه ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٢ ، صفحات ٩٣ - ٩٤ .

وروى عن معاوية أن رجلا قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يا ابن الذبيحين (أى إسماعيل وعبد الله) فضحك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . - راجع : ابن كثير ، قصص الأنبياء ، مكتبة الدعوة بالأزهر ، القاهرة ، ص ١٦١ .

(٤) سفر التكوين (١١ : ٢٦ ، ٢٥ : ١٠) ولد إبراهيم فى وادى الرافدين =

يا ابراهيم . فقال له ها أنذا . فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبّه إسحق واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك) . (١)

.....

.....

(فلمّا أتيا الي الموضع الذى قال له اللّه ، بني هناك إبراهيم المذبح ورتّب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثُم مدّ ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرّب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم . فقال ها أنذا . فقال لا تمدّ يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا . لأنّى الآن علمت أنّك خائف اللّه فلم تمسك ابنك وحيدك عنّى . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه) . (٢)

وتثير هذه المقتطفات من التوراة عدّة ملاحظات أخرى أهمها :-

= غالباً حوالي ٢٠٠٠ ق . م . CF. Collier's Encyclopedia, Macmillan Educational Company, New York 1985.

وعن حياة إبراهيم عليه السلام بالتفصيل ، راجع :-

Charles Pfeiffer, The Biblical World, Bonanza Books, New York, PP. 13 - 16.

James Sanders, Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Doubleday and Company, New York 1970, PP. XX - XXI.

(١) سفر التكوين ، ٢٢ : ١ - ٢ . وغالباً فارض المُريا (المورية) هى قرية المروة من قري بنى عبد شحب بالقرب من منطقة القنفذة جنوب مكة المكرمة . راجع :

زياد منى ، جغرافية التوراة ، دار الريس للنشر ، لندن ١٩٩٤ ، صفحة ١١٧ كمال الصليبى ، التوراة جاءت من جزيرة العرب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٩١ ، صفحات ٢٢٣ - ٢٤١ .

(٢) سفر التكوين ، ٢٢ : ٩ - ١٣ .

سبب التضحية باسماعيل (أو اسحق) : إرادة الله التي تجلّت في رؤيا لواحد من البشر (ابراهيم عليه السلام) . (١)

- طقوس التضحية ومستلزماتها : المذبح والنار والسكّين . (٢)

- مكان التضحية : مُختلف عليه . (٣)

- موقف الضحية : الانصياع الكامل لإرادة الله . (٤)

- المحصلة النهائية للموقف : استبدال الضحية البشرية بأمر من الله بأضحية من الحيوان . (٥)

وإذا وضعنا هذه الملاحظات جنبا الى جنب مع ماسبق أن لاحظناه ، في قصة التضحية بافيجينيا ، لوجدنا أن التطابق يكاد يكون تامًا ، مما يجعلنا نستبعد إمكانية الصدفة أو توارد الخواطر ، مع ملاحظة أن التاريخ التقريبي لإبراهيم عليه السلام ، وبالتالي إسماعيل (أو إسحق) يعود الى مابين ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق . م . وأن قصة التضحية بإفيجينيا ظهرت لأول مرة في القصيدة القبرصية حوالى القرن السابع الى السادس ق . م . لاتضح هنا تأثر واضع هذه القصيدة (وبالتالي يوربيديس الذى أخذ عنه) بقصة التضحية باسماعيل (أو اسحق) . وهنا يطرح السؤال الطبيعي نفسه : كيف حدث هذا التأثر ؟ وبمعنى آخر كيف ومتى انتقلت القصة الي قبرص ؟

---

(١) سفر التكوين ، ٢٢ : ١ - ٢ ، الصافات ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) سفر التكوين ، ٢٢ : ٦ .

(٣) راجع فيما سبق صفحة ٩ ، حاشية (١) .

(٤) سفر التكوين ، ٢٢ : ٩ - ١١ ، الصافّات ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٥) سفر التكوين ، ٢٢ : ١٣ .

بداية نذكّر بأن قصة التضحية بشكلها الشرقي وردت بتفاصيلها في سفر التكوين من العهد القديم (١) ، أما بشكلها الغربي فقد وردت في القصيدة القبرصية – والتي يعود تاريخها الى مابين القرنين السابع والسادس ق . م . – مما يبرّر بعض التوقف عند قبرص مهد تلك القصيدة ، وهي الجزيرة التي خضعت بشكل مؤقت في القرن الخامس عشر ق . م . للسيادة المصرية ، ثم وحوالى القرن التاسع ق . م استعمر الفينيقيون مدينة كيتيون (Citium) ، وحتي القرن الرابع ق . م كان الفينيقيون قد سيطروا علي معظم أجزاء الجزيرة .(٢)

من ناحية أخرى فإن الاتصال المباشر بين سكان شبه الجزيرة العربية (موطن القصة بشكلها الشرقي) والإغريق لم يحدث قبل أواخر القرن الخامس ق . م . ، أما الإتصال غير المباشر فقد حدث منذ أواسط الألف الثاني ق . م . عن طريق الوسطاء وأهمهم الفينيقيون .(٣)

أما العلاقة بين سكان شبه الجزيرة العربية والمصريين فتعود الي فترات

---

(١) ربما في القرن العاشر ق . م . تّم تحرير أول نص للتوراة وعرف بالرواية اليهوية والتي تشكل أسفار موسى الخمسة (التكوين – الخروج – اللاويين – العدد – التثنية) . راجع موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة والعلم ، بيروت ١٩٩١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

(٢) يذكر أحد النقوش التى عثر عليها فى الجزيرة أن حاكم إحدى المدن (؟) يطلق على نفسه اسم (خادم أحيرام ملك الصيدونيين) ، وربما كانت هذه المدينة هى كيتون . راجع : محمد أبو المحاسن عصفور : المدن الفينيقية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٥٩ .

(٣) رسمية محمد شاكر محمد خيرى : تجارة شبه الجزيرة العربية وعلاقتها مع مصر فى العصر الهللينستي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٧ هـ ، ص ١١١ .

راجع : لطفي عبد الوهاب يحى : الجزيرة العربية فى المصادر الكلاسيكية (دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، الجزء الأول ، جامعة الرياض ١٩٧٩) ، ص ٥٥ ومابعدها ، والحاشيتين ١ ، ٢ . ثم قارن : سيّد الناصرى : المصريون والعرب وعلاقاتهم بإفريقيا في العصور القديمة ، دار النهضة ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٢٦ ومابعدها .

أسبق بكثير من عهد الدولة الحديثة ، أى فيما قبل منتصف الألف الثانى ق . م . ، وذلك عبر طريقين : الأول هو الشمال الشرقي أى عبر شبه جزيرة سيناء ، والثانى جنوبى عند مضيق باب المندب عبر أريتريا والصومال ثم شمالا حتى صحراء مصر الشرقية .(١)

وعادة ماتبدأ هذه العلاقات المتبادلة بشكل تجارى مباشر أو غير مباشر عن طريق بعض الوسطاء التجاريين (وأهمهم في المنطقة كان الفينيقيون) . وكما هو معروف فقد اشتهرت شبه الجزيرة العربية بالتجارة – أو الوساطة التجارية – فى الطيوب والتوابل والعطور ، والوساطة في تجارة هامة كهذه لا تقتصر بالطبع علي مجرد نقل هذه المواد ، بل يصاحبها فى العادة نقل لأخبار مواطن هذه المواد ، ولاشك أن المعلومات الأولية التى تجمعت لدى الإغريق – مثلا – عن سكان شبه الجزيرة فى كل مايتعلق بهم ، كانت نتيجة لما رواه الوسطاء الفينيقيون عنهم . (٢)

من هذا نخلص الي أن القصة قد انتقلت من مكان حدوثها في غرب شبه الجزيرة العربية – باعتبارها تراثاً توراتياً – الي قبرص عن طريق غير مباشر ، مما يطرح ثلاثة احتمالات لهذا النقل : ـ

١ – من وسط غرب شبه الجزيرة العربية الى الجنوب عبر مضيق باب المندب وصولا الى مصر بمحاذاة الساحل الغربي للبحر الأحمر ومن ثم الي قبرص ، .

---

(١) سيد الناصري : المرجع نفسه ، ص ١١ ومابعدها . – قارن : رسمية محمد شاكر محمد خيرى ، المرجع نفسه ، ص ١١٣ – ١١٨ .

(٢) راجع : لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع نفسه .

CF. Hdt.. III, 5, 7, 8, 9, 107, 108, 110, 113.

٢ – من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالا عبر شبه جزيرة سيناء الى مصر ومن ثم الى قبرص .

٣ – من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالا بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى الساحل الفينيقي ومن ثم الى قبرص .

فيما يخص الاحتمالين الأول والثاني ، عن انتقال القصة الى قبرص عن طريق مصر ، سواء أدخلت هذه القصة من الجنوب أم من الشمال ، فتوجد عدّة نقاط قد تجعلنا نغضّ النظر عنهما :-

أولا : من ناحية البعد الزمنى يفترض أن الفترة التى كان من الممكن أن تنتقل فيها القصة من غرب شبه الجزيرة العربية الي قبرص عبر مصر ، أى من تاريخ حدوثها وحتى ظهور القصيدة القبرصية ، تحتل مساحة زمنية طويلة نسبيا ، من القرن التاسع عشر ق . م . وحتي القرن السابع أو السادس ق . م . ، مما يعرّضها للتحريف بالحذف أو الإضافة ، مالم تكن قد انتقلت كتابة .

ثانيا : لم تدم السيطرة المصرية على جزيرة قبرص عبر هذه المساحة الزمنية الطويلة إلا فترة قصيرة وبشكل مؤقت خلال القرن الخامس عشر ق . م .

ثالثا : التطابق الغريب بين القصة بشكلها التوراتى والقبرصي – فيما عدا تغيير شخص الضحية وأبيه ، كى ينسجم مع العقلية القبرصية أو الإغريقية فيما بعد – قد يطرح هنا احتمال انتقال القصة كتابة . ولمّا كان سفر التكوين لم يكتب قبل القرن العاشر ق . م . ، لذا فالغالب أن القصة قد انتقلت فيما بعد – أو خلال – هذه الفترة ، ويؤكد هذا أن هوميروس لم يكن

علي علم بهذه القصة ، فلم يشر لها اطلاقا رغم تعرّضه لبعض شخصياتها مثل آجاممنون وإفيجينيا نفسها .(١)

وبغضّ النظر عن الاحتمالين الأول والثانى ، يبقى لنا الاحتمال الثالث ، وهو القائل بانتقال القصة من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالا بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى الساحل الفينيقى ، ومن ثم الى قبرص ، والذى تدعمه عدّة نقاط هي :-

١ – لم يقتصر تواجد السفن الفينيقية على السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وإنما اتخذوا لهم أسطولا في البحر الأحمر وجلبوا من المناطق المطلّة عليه الذهب والعاج بكميات كبيرة .(٢)

٢ – حوالى القرن التاسع ق . م استعمر الفينيقون مدينة " كيتيون " فى جزيرة قبرص ، وحتى القرن الرابع ق . م كان الفينيقون قد سيطروا على معظم أجزاء الجزيرة .(٣)

٣ – التواجد الفينيقى المكثف في أقصى شمال غرب شبه الجزيرة وفلسطين من خلال العلاقة التي قامت بين أحيرام ملك صور (٩٨٠ – ٩٤٧ ق . م .) وبين ملوك إسرائيل : داوود (حوالى ١٠٠٩ – ٩٧٤ ق . م) وسليمان (حوالى ٩٦٠ – ٩٢٥ ق . م .) ، فعندما اختار داوود قلعة " اليبوسين " (أورشليم) وأطلق عليها مدينة داوود ، بنى فيها قصره الملكى على أيدى معماريين من أهل صور بمساعدة ملكها أحيرام ، وبصداقة داوود مع أحيرام

---

(١) راجع فيما سبق ٢ ص حاشية ١ .

(٢) ملوك أول ١٠ : ٢٢ ؛ الأيام ٨ : ١٧ ، ٩ : ٢٧ ؛ محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

(٣) راجع فيما سبق ص ١١ حاشية ٢ .

بدأت العلاقة بين المملكتين وتوطدت دعائمها في عهد سليمان (١) ، الذي اعتمد أيضا على أحيرام في تشييد الهيكل والقصر الملكى . وبالمقابل استخدم أحيرام طريقا جديدا للتجارة مع العرب وافريقيا عبر فلسطين بدلا من الطريق القديم عبر مصر .(٢)

من هذا نخلص الي أن حادث التضحية باسماعيل والذى وقع – غالبا – فى الفترة من القرنين العشرين الى التاسع عشر ق . م . قد ترسخ فى الوجدان العربى القديم وأصبح جزءا من التراث العربى ، وحوالى القرن العاشر ق . م . أضاف الإسرائيليون هذا الحدث الى توراتهم بحجة أن الذبيح كان إسحق ، وبالتالى أصبح جزءا من التراث الإسرائيلى أيضا .

وقد كان للعلاقات الدولية المتشابكة في المنطقة بين كل من ملوك

---

(١) حسن ظاظا : القدس مدينة الله أم مدينة داوود ، الإسكندرية ١٩٧٠ ، ص ١٧ – ١٨ . قارن : محمود المراغى : أشعيا ، نبى بنى إسرائيل وأزمة الكيان اليهودي القديم ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٣١ – ٣٢ .

(٢) تّم الاعتماد في بناء هيكل سليمان وقصره على المهارات الفنية الفينيقية دون غيرها ، كما تّم جلب الخامات الضرورية من صور (أيام ثان ٤ : ١١) ولم يكن لبني إسرائيل إلا الخدمة والتسخير في قطع الأخشاب ونقلها الي مكان البناء . ويبالغ العهد القديم في تصوير ذلك (إذ بلغ عدد المسخّرين ثلاثين ألفاً من جميع رجال بنى إسرائيل ، يرسلهم بالتناوب الى لبنان لقطع الأخشاب ، وسخّر سبعين ألفاً يحملون أحمالا ، وثمانين ألفاً يقطعون أحجارا من الجبل ، ماعدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين علي العمل ، ثلاثة آلاف وثلاثمائة من المتسلّطين علي الشعب العاملين العمل) : ملوك أول ٥ : ١٣ – ١٧ .

قارن : محمود المراغى : المرجع نفسه ، ص ٣٦ – ٣٨ .

أي أن العدد قد تجاوز المائة وثمانين ألفاً من العمال ، وهو عدد ضخم جدا مقارنة بحجم العمل المتواضع الذى قاموا به .

هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥ .

قارن : جوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولي ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٦ .

إسرائيل وفينيقيا ، وعرب شبه الجزيرة نتائجها في فتح طريق تجارى جديد يمر من صور عبر فلسطين الى غرب شبه الجزيرة العربية وصولا الي جنوبها ، وعبر هذا الطريق نقترح أن قصة التضحية بشكلها العربى القديم (حيث الذبيح هو اسماعيل) ، أو حتى بشكلها الإسرائيلى (حيث الذبيح هو إسحق) قد انتقلت الى الساحل الفينيقى عبر فلسطين ، ومن ثم نقلها الفينيقيون الي مستعمرتهم فى " كيتيون " بقبرص حيث تلقاها الشاعر القبرصى ليقصها شعرا كما هى – فيما عدا تغيير شخصيتى الذبيح وأبيه بشخصيات مألوفة للمتلقى القبرصى أو الإغريقيى – وفيما بعد اعتمدها يوربيديس ، الشاعر الأثينى موضوعا لمسرحيته الشهيرة " إفيجينيا فى أوليس " .

ملحـــــق

الأشكـــال والصـــور

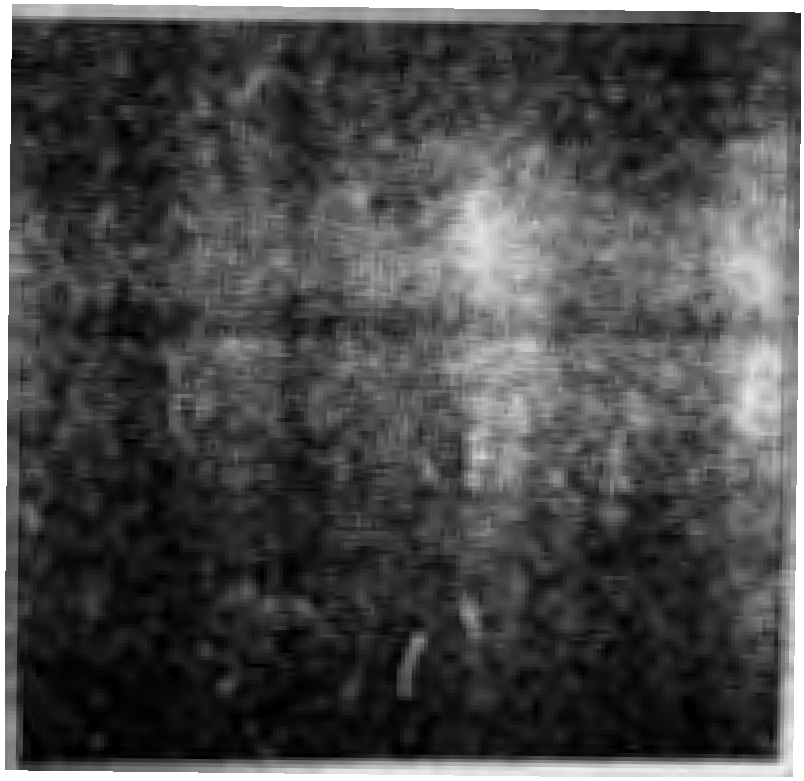

شكـــل (١)

التضحية بإفيجينيا

رسم حائطي من بومبي (ربما لتيمانثيس ؟) – المتحف القومى بنابولى

Charbonneaux, Martin, Villard, Classical Greek Art, Thames and Hudson 1972, Fig. 383.

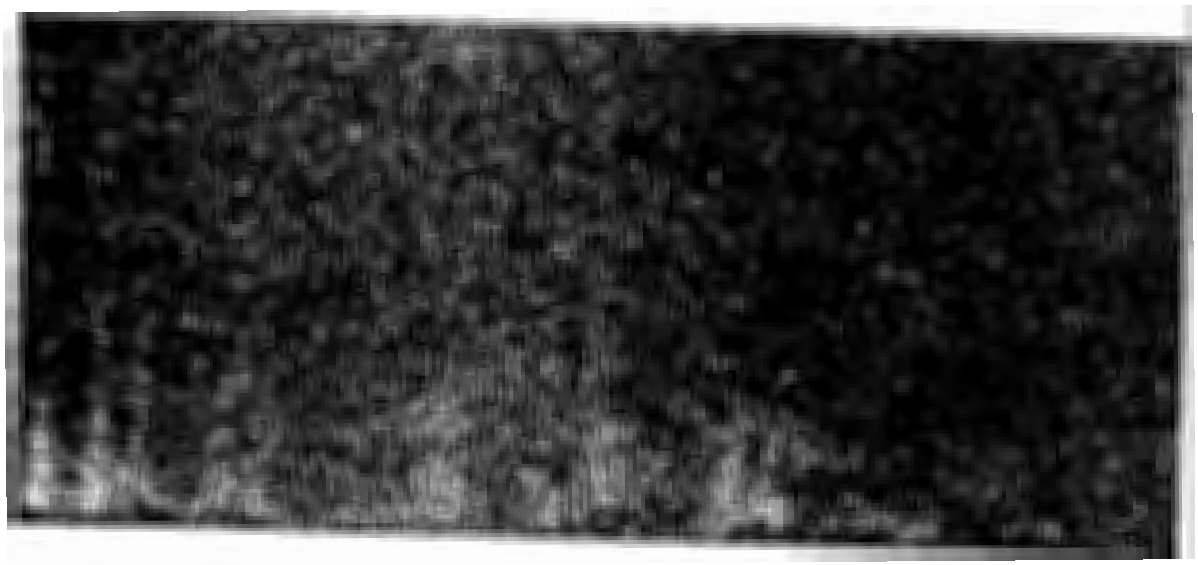

شكـــل (٢)

التصحية بإفيجينيا . مذبح يوفيتزي . فلورنسا

Kurt Weitzmann. Greek Mythology in Byzantin art Princeton 1951 Fig. 214

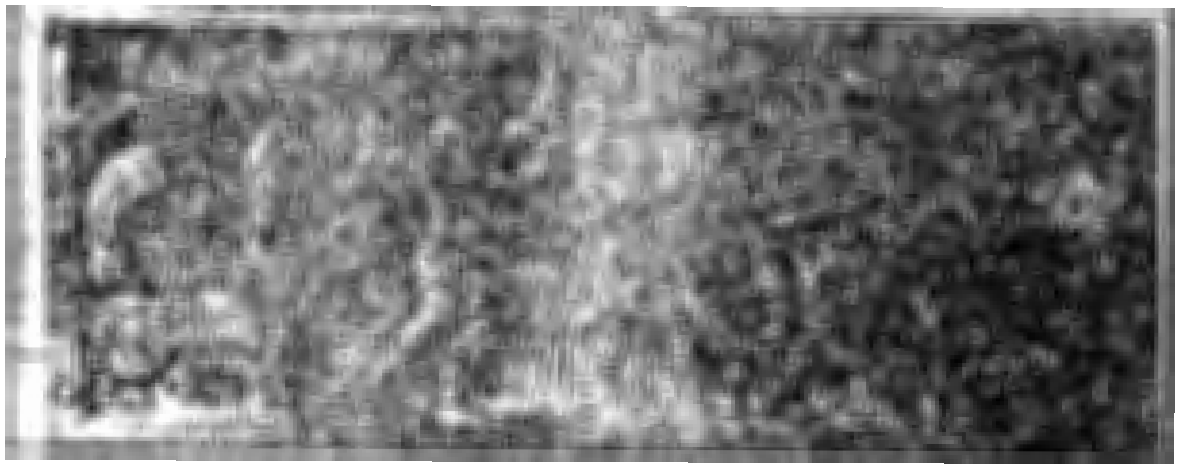

شكـــل (٣)

التضحية بإفيجينيا ، تحت علي العاج ، لندن .

Kurt Weitzmann, Greek Mythology in Byzantin art, Princeton 1951, Fig. 217.

شكـــل (٤) إبراهام يقدم إسحق للتضحية

رسم علي الزجاج ، كاتدرائية كنتربري ، القرن الثالث عشر.

Gilbert Thurlow, Biblical Myths and Mysteries, Octopus Books, London 1974, P. 23 (Below).

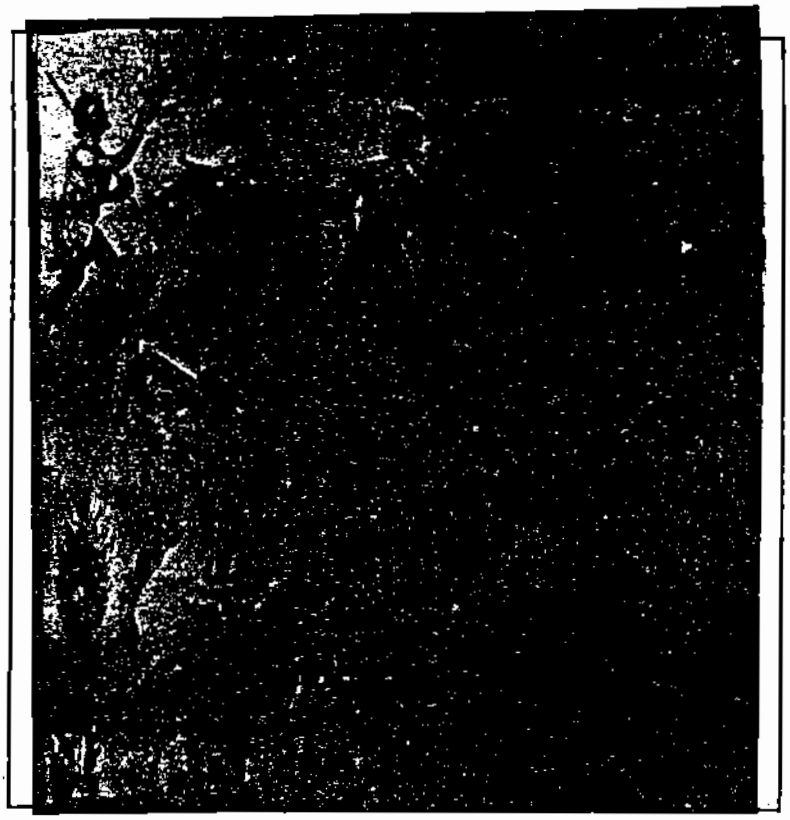

شكـــل (٥)

التضحية بإسحق ، مخطوط مصوّر بالفاتيكان .

Kurt Weitzmann, Illustrations in Roll and Codex, Princeton 1947, Fig. 128.

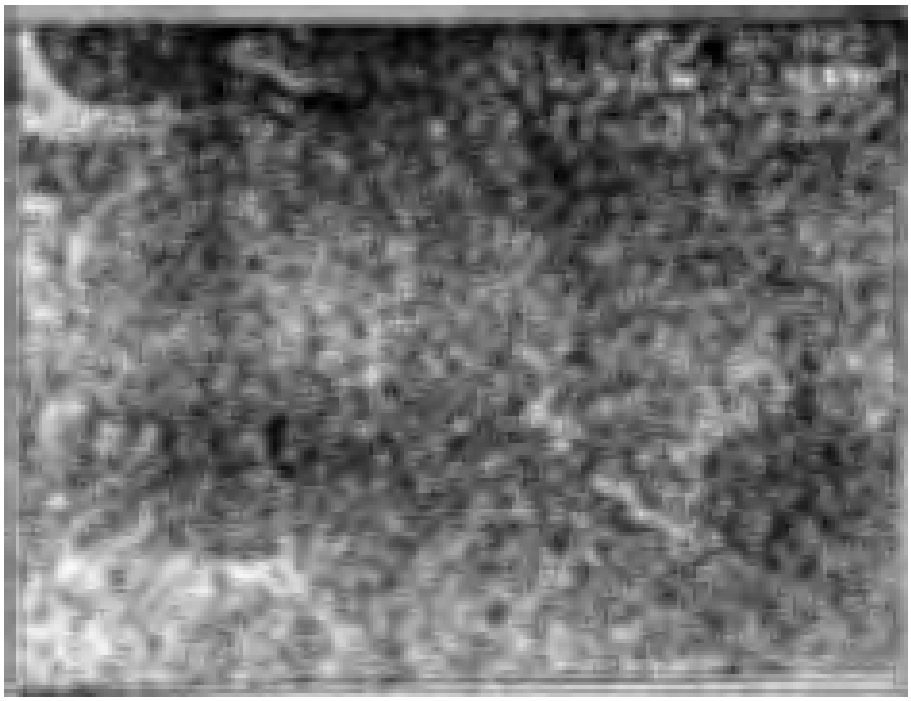

شكـــل (٦)

التضحية بإسحق ، مخطوط مصوّر بالفاتيكان .

Kurt Weitzmann, Illustrations in Roll and Codex, Princeton 1947, Fig. 129.

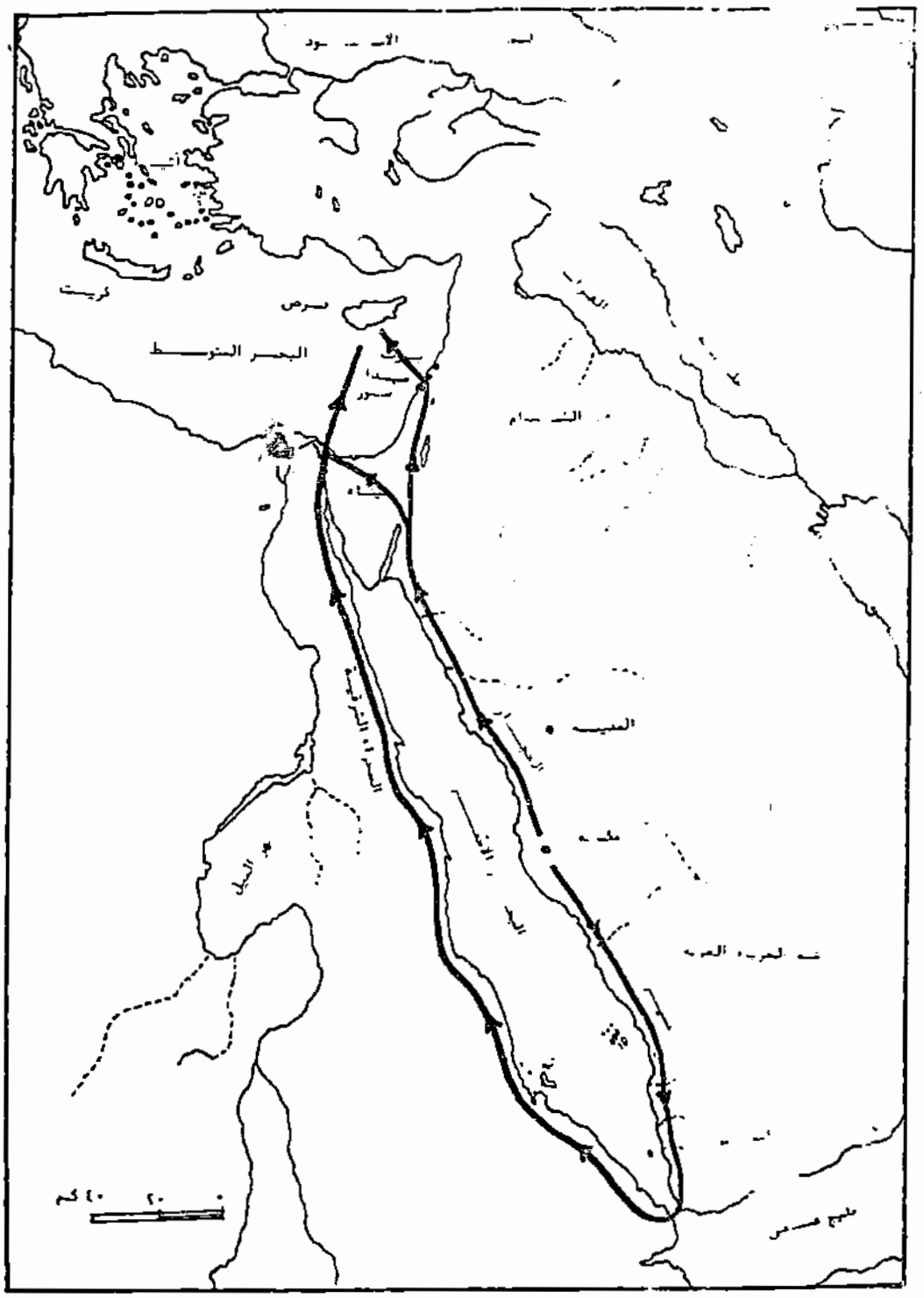

شكـــل (٧)

خريطة للمنطقة توضح الطرق المحتملة

لانتقال القصة من شبه الجزيرة العربية الى قبرص

المصطلحات اليونانية لدى كلسوس

مقدمـــة

يقع مؤلف كلسوس (عاش فى زمن تيبريوس ١٣-٢٤م) المعروف بإسم "فن الطب" De Medicina فى ثمانية كتب وهو يمثل جزءاً من موسوعة الفاكلسوس بعنوان "Artes" تضم الى جانب الطب الزراعة وفنون الحرب والخطابة والفلسفة والقضاء، ولم يتبق منها – فيما عدا الطب – سوى شذرات(١).

يتمتع كتاب "فن الطب" بأهمية أنه يعرض فن الطب كما عرفه وطوره اليونان ونقلوه فيما بعد الى روما وهو يزخر بأسماء مجموعة كبيرة من المصادر أحصاها سبنسر فبلغت إثنين وسبعين إسماً(٢) مما يعنى إهتمام كلسوس بالعودة الى المصادر الأصلية، والكتاب يعد أحد المصادر القليلة للتعرف على طب العصر الهللنستى الذى فقدت مؤلفاته سوى من شذرات وإشارات فى أعمال لاحقة.

ومما لا شك فيه ان كلسوس قد إعترضته صعوبات فى نقل تلك المعرفة اليونانية الى لغته الأم اللاتينية وهى صعوبة عبر عنها لوكريتيوس من قبل(٣).

ولهذا فإن دراسة المصطلحات اليونانية لدى كلسوس تكشف عن مقدار مديونيته لليونان فى العلم واللغة وعن أصالته فى محاولة صياغة مصطلحات لاتينية جديدة وإعادة إستخدام القديم منها لمواكبة التفوق اليونانى.

والمصطلحات اليونانية تظهر لديه فى موضوعات تخص النبات والحيوان والمعادن والعلاج والأغذية وأعضاء الجسم البشرى والأمراض(٤) ، وعلى عكس اللاتينية تتميز بلياقتها فى التعبير عن موضوع شائك

---

(1) Oxford Classical Dictionary; Dictionary of Scientific Biography s. v. Celsus.

فى عام ١٩٧٣ حققت ونشر أولبرى فقرة ضائعة من الكتاب الرابع فى Emerita XLI ثم قام كابيتانى فى عام ١٩٧٤ بتحقيق ونشر نفس الفقرة فى Maia XXVI انظر Sabbah (1987) .

(2) W. G. Spencer (1926), p. 131.

(3) Lucretius, De Rerum Natura, I 136-39, 831-2; III 259-260.

(٤) درس كابيتانى المصطلحات اليونانية تحت هذه العناوين انظر Capitani (1975) .

مثل الأعضاء التناسلية فهى لغة المؤلفات الطبية(٥)

والمصطلحات اليونانية تظهر إما مشاراً الى أصلها اليونانى او دون إشارة مما يعنى انها أصبحت جزءاً من القاموس اللغوى العلمى اللاتينى، أما المشار الى أصلها اليونانى فيصاحبها مرادف (مصطلح) لاتينى او شرح لاتينى(٦) دون وجود مقابل محدد وهذا فى المرة الاولى لظهور المصطلح اليونانى ثم يتخلى كلسوس فيما بعد وفى أغلب الأحوال عن تكرار المصطلح اليونانى مكتفياً بالمصطلح اللاتينى او الشرح اللاتينى له وإن كان هذا يجعل المعنى غير مفهوم فى أحوال كثيرة.

ويتبع كلسوس طرقاً معينة للإشارة للأصل اليونانى فهو يذكر كلمة "اليونان" Graeci لتعنى أنهم أصحاب التسمية – قد يحذفها ويبقى المعنى مفهوماً ضمناً – وفعلاً مبنياً للمعلوم يعنى التسمية (vocare - nominare - appellare) بالإضافة إلى اسم موصول – يحذف أحيانا – للإشارة الى الكلمة محل النقاش. وهناك حالات يبنى الفعل للمجهول ويستخدم نائب الفاعل "بواسطة اليونان" a Graecis .

وبدلاً من هذه الطريقة يستخدم كلسوس الظرف "باليونانية Graece " للإشارة الى أصل المصطلح مع وجود فعل التسمية(٧).

تركز هذه الدراسة على المصطلحات اليونانية المشار الى أصلها اليونانى ليس سعياً وراء البحث حول إن كان بإمكان كلسوس تجنب إستخدام كلها او بعضها فهذا أمر قد سبقت دراسته(٨) ، وإنما سعى نحو

---

(5) Celsus, De Medicina, VI. 18.1:

..... quae ad partes obscenas pertinent, quarum apud Graecos vocabula et tolerabilius se habent et accepta iam usu sunt, eum in omne fere medicorum volumine atque sermone iactentur; apud nos foediora verba ne consuetudine quidem aliqua verecundius loquentium commendata sunt, ut difficilior haec explanatio sit simul et pudorem et artis praecepta servantibus.

وفى فقرة من الكتاب السابع VII. 18.3 يصف كلسوس المصطلح اللاتينى انه غير لائق indecorum غير أنه شائع commune.

(٦) يرى لانجسلو ان كلسوس كان يستخدم الشرح إما حباً فى اللاتينية وخوفاً او كرهاً لليونانية او لتوضيح المعنى للقارىء غير المتخصص والرأى الأخير هو الأصوب. انظر بقية البحث.

See D. Langslow (1992), p. 111; p.115.

(٧) الملاحظ ان كلسوس إتبع أسلوباً مشابهاً لعرض بعض المصطلحات اللاتينية – حذف طبعاً كلمة اليونان وإستخدم أحياناً nostri . مثل VIII.1.26 , VIII .1.25, VIII. 1.23, VII. 18.7 ,V.28.8 , IV.7.1 , II.18.6, II.18.5.

(8) Capitani (1975).

تفسير أمرين: أولهما عدم وجود مقابل لاتيني لبعض التسميات اليونانية، وثانيهماتميز تلك المصطلحات اليونانية بالإتفاق عليها وعدم إختلاف المصادر حول صحتها وعدم قيام كلسوس بالبحث فى تاريخها وتاريخ تسمية أى مدلول.

I

تثير المصطلحات اليونانية الخاصة بالأمراض الكثير من الإهتمام فهى من الناحية العددية تشغل الجزء الأكبر من المجموع الكلى للمصطلحات اليونانية لدى كلسوس[٩] وهى فى نفس الوقت توضح مدى التفوق الطبى اليونانى.

بينما يحرص كلسوس على وضع مقابل لاتينى (مصطلحا او شرحا) للإسم اليونانى للمرض نجده يذكر أنواع المرض باسمائها اليونانية دون مقابل لاتينى.

- فمثلاً مرض الإستسقاء وهو باليونانية ὑδρωπικός وباللاتينية aqua inter cutem [١٠] له ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى (III 21).

- وكذلك مرض سوء التغذية tabes الذى يشير اليه فى II 1. 8 على أنه يقابل Phthisis اليونانية لكننا نعلم فيما بعد III. 22 ان tabes له ثلاثة أنواع إحداها Phthisis وليس لأى منها اسم لاتينى يقابل الاسم اليونانى.

- وهناك مرض الخناق angina الذى لا يشير الى إسمه اليونانى بالرغم من تأثر الاسم اللاتينى بالاسم اليونانى، والذى له ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى .IV 7. 12 .

وهناك أمراض يذكرها كلسوس باسمائها اللاتينية فقط دون مصاحبة اسم يونانى لها، غير أنه يذكر الأسماء اليونانية لأنواع هذه الأمراض دون وضع مقابل لاتينى مصطلحاً او شرحاً لها مثل الحمى febris التى لها أنواع هى : الثانية فى كل يوم cotidiana والثلث tertiana والربع quartana وهى ترجمات لاتينية

---

(٩) أحصى لانجسلو المصطلحات اليونانية فوجدها ٢٤٢ مصطلحاً، منها ٢٧ مصطلحاً تخص التشريح و١٣٥ الأمراض و٨٠ العلاج بينما يبلغ مجموع المصطلحات اللاتينية ٦٧٣ مصطلحاً منها ٢٥١ تخص التشريح و٢٦٠ الأمراض و١٦٢ العلاج. انظر لانجسلو، المرجع السابق.

(١٠) تظهر الصيغة aqua inter cutem فى II.1.8, II.7.4, II.8.8, II.8.26, II.18.12 , وغيرها ويستخدم كلسوس aqua cutem subit فى II 15.4 والمثير للإنتباه أنه إستخدم للإشارة للمصابين بالمرض الصيغة اليونانية VII 15 hydropici .

للأسماء اليونانية III 3.1 ، غير ان كلسوس عندما يحتاج الى الإشارة الى نوع (genus) من أنواع حمى الثلث لا يجد سوى التعبير اليوناني (hemitritaion) نصف الثلث III 3.2 و III 8.1 دون إستعمال مقابل لاتيني[١١].

- وهناك الجنون Insania[١٢] الذى يذكره دون مقابل يوناني II 1.6 ثم مصحوباً بإسم يوناني لأحد أنواعه phrenesis فى II 1. 15 ويشرح هذا النوع بالتفصيل فى II 18. 2-3 ويذكر غيره من أنواع دون ذكر أسمائها سواء باليونانية او اللاتينية[١٣].

- وهناك القرح Cancer الذى لا يشير الى اسم يوناني له فى V 26. 31 B ثم يذكر أنواعاً له بأسمائها اليونانية دون مقابل لاتيني (V 26. 31B) و V. 26. 31 C و VI. 18.4 .

- وهناك الجرب Scabies الذى يغفل ذكر إسمه اليونانى ثم يذكر إسم أحد أنواعه باليونانية مترجماً إلى اللاتينية ولعلها إضافة من محقق النص لوجودها بين قوسين مربعين V. 28. 18 A, V. 28. 16 A.

- أما Vitiligo فهو مرض جلدى مذكور دون إسمه اليونانى ثم يعدد كلسوس أنواعه بأسمائها اليونانية دون مقابل لاتينى V. 28. 19 .

- وهناك مرض جلدى إسمه Areae باللاتينية ولا يصاحبه اسم يونانى وله نوعان أسماهما يونانيان دون مقابل لاتينى VI 4. 1- 2.

أما مرض الفتاق hirnea فله نوعان يونيا الإسم أما الإسم اللاتينى فيعنى كلا النوعين او المرضين دون تمييز VII. 18.3[١٤].

---

(١١) فى الواقع هناك نوعان من حمى الثلث، الأول دون مسمى والثانى هو المشار اليه بنصف الثلث.

(١٢) هناك مقالة لدانيال جوريفتش تدرس فيها المصطلحات المعبرة عن الجنون لدى كل من كلسوس وكيليوس اوريليانوس، انظر قائمة المراجع.

(١٣) إستخدم كلسوس الاسم اليونانى لأحد أنواع الجنون وهو phrenesis للإشارة للمصابين بالمرض phrenetici III. 19.1, II. 4.9 وكذلك للمرض III. 20 .

(١٤) فى فقرة لاحقة يتناول فيها كلسوس مرضاً آخر (VII 18. 6 - 7) يعبر فيها عن عدم رضاه عن تسمية الرومان عن جهل لمرضين مختلفين بإسم واحد هو hirnea غير أن اليونان اسموا نوعى المرض المذكور بنفس الاسم hydrocele .

enterocolen et epiplocelen vocant, apud nos indecorum sed

commune his hirneae nomen est. (VII. 18.3)

"يطلق عليهما اليونان انتروكولى وابيبلوكولى، أما نحن فنسميها بالاسم الشائع غير اللائق هيرنيا"

أما Impetigo فهو الوحيد الذى يذكر كلسوس الاسم اللاتينى لنوعين من أنواعه الأربعة دون ذكر الاسم اليونانى لهما فى حين أنه يترك النوعين الآخرين دون تسمية V.28.17.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن هناك قسما ثالثا من الأمراض يشير إليها كلسوس بموقعهامن الجسم دون مصاحبة اسم يونانى أو لاتينى ولأنها تنقسم إلى أنواع نجد أسماءاً يونانية لتلك الأنواع دون مقابل لاتينى فهناك مرض يصيب الرقبةينقسم الى ثلاثة انواع، لكل نوع من انواعه اسم يونانى دون مقابل لاتينى لها (IV.6.1) ; وهناك مرض آخر يصيب منطقة الزور ينقسم أيضا الى ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى IV. 8.1 .

والتفوق الطبى واللغوى اليونانى يظهر فى وجود مسميات يونانية مختلفة لكل من أنواع المدة Sanies والصديد pus دون مصاحبة مقابل لاتينى V. 26. 20 B (١٥).

رأينا كيف أن كلسوس مع قدرته على وضع مصطلحات لاتينية جديدة وإعادة إستخدام القديم أحجم عن وضع مسميات لاتينية لأنواع الأمراض ذات الأسماء اليونانية سواء كان المرض الرئيسى يعرف بإسمه اللاتينى فقط أو اليونانى واللاتينى معا أو يشار إليه بحسب موقعه من البدن.

أتصور أن كلسوس بأسلوبه هذا قد صعب على قارئه الرومانى مهمة متابعة عمله بصورة أيسر لو توفرت لديه أسماء لاتينية لكل شىء سواء بمفردها أو جنبا لجنب مع اليونانية بغض النظر عما يثار حول إجادة الرومان لكلا اللغتين اليونانية واللاتينية(١٦).

---

(١٥) تجدر بنا الإشارة الى أن هناك أمراضاً لها أسماء يونانية وأخرى لها أسماء لاتينية تنقسم إلى أنواع فى الأخرى لكنها بدون اسم سواء باليونانية او اللاتينية كما فى V. 28.4 و V 28. 13 و V. 28. 17 و VI. 3 ربما لصمت مصادر كلسوس اليونانية، اما بخصوص اللاتينية فانظر الصفحة التالية.

(١٦) يشكك بيفيل فى مسألة إجادة الرومان للغتين ويعتبر ان الإجادة تختلف بحسب مستوى اللغة ، انظر

Biville (1989) , p . 33.

وقد اعتبر لانجسلو ان عدم وجود مسميات لاتينية لهذه الأنواع من الأمراض دليلاً عى صحة نظرية كابيتانى التى تقول ان كلسوس كان مهتماً بالدقة والإيضاح أكثر من إهتمامه بصياغة مصطلحات لاتينية ولهذا استخدم المصطلحات اليونانية [١٧]. إلا ان لانجسلو لم يفته ان يلاحظ ما يوجد فى نص كلسوس ويؤيد أصحاب الرأى القديم القائل أن كلسوس كان يتجنب إستخدام المصطلحات اليونانية وأنه كان مهتما بصياغة مصطلحات لاتينية معبرا عن حضارة عصره من محبة اللاتينية وكراهية اليونانية والتى شجعها وحث عليها كا من الامبراطور تيبريوس ومسالا راع الأدباء. ولم يفت لانجسلو أن يلاحظ أن كلسوس لم يصغ مصطلحات لاتينية جديدة لما هو غفل من الإسم[١٨].

الملاحظ أن كلسوس كان يسعى نحو الدقة والإيضاح ولذلك إستخدم المصطلح اليونانى إلا أن ذلك لم يمنعه فى أحوال كثيرة من أن يصوغ مصطلحات لاتينية جديدة وأن يعيد إستخدام القديم كما رأينا فى تسميته لأسماء الأمراض الرئيسية، وهو فى ذلك لايبدو معاديا لليونان متجنبا مصطلحاتهم فلقد شهد بتفوقهم الطبى ولياقة لغتهم فى التعبير عن الأعضاء التناسلية [١٩].

والسبب فى عدم وجود أسماء لاتينية لأنواع الأمراض ما ذكرة كلسوس نفسه من تفوق اللغة اليونانية وفقر اللغة اللاتينية فى مواضع متفرقة مثل IV.7.1 وIV.8.1 و

Rursus et sanies et pus quasdam species Graecis nominibus distinctas habent. (V.26.20B)

"مرة أخرى، لكل من القيح والصديد أنواع معينة تميزها أسماء يونانية"

وكذلك فىV.26.31B :

---

(17) D. Langslow (1989), pp. 44-5.

يرى كابيتانى أن إستخدام كلسوس لليونانية وبعده عن اللاتينية هو بغرض الدقة والإيضاح والإيجاز والتحديد وليست لعدم مقدرة كلسوس على صياغة مصطلحات لاتينية انظر Capitani (1975) .

(18) D. Langslow (1989), p.44.

(١٩) يستشهد لانجسلو بمثالين على عدم رضا كلسوس عن المصطلحات اليونانية التى لا تميز الأشياء عن بعضها ، المثال الأول الذى يذكره لانجسلو III.27.1A أرى فيه كلسوس يقدم مقارنة تاريخية بين المصطلحات القديمة والحديثة واستخداماتها لصالح القديم أما المثال الثانى VII. 18.7 ففيه إنتقاد لليونان لكن يجب أن يوضع فى حجمه الطبيعى حين نقرأ الفقرة كلها وندرك مقارنة كلسوس للرومان باليونان ومدى خطا الرومان بالقياس لليونان. اغفل لانجسلو ذكر مثال ثالث IV.6.1 وفيه يعترض على الإستخدام المعاصر لبعض المصطلحات أنظر Langslow (1989), p.45.

Id genus a Graecis diductum in species est, nostris vocabulis non est.

"يقسم اليونان هذا النوع الى أنواع لا يوجد فى لغتنا ما يعبر عنها"

وأيضا فى VII.18.3 وVII.18.7

وعدم وجود المقابل يثير ضجره كما فى VII.18.7 عندما يذكر أن الرومان عن جهل يسمون مرضين بنفس الإسم غير أننا لا نراه يعبر عن ريادته ولا عن ثقل المهمة الملقاة على عاتقه فى محاولة صياغة مصطلحات لاتينية جديدة مثلما نرى لدى لوكريتيوس اللهم إلا فى مثال واحد (VI.18.1) عندما يتحدث عن فحش اللغة اللاتينية ولياقة اليونانية فيما يخص موضوع الأعضاء التناسلية ، وإصراره على إستكمال الحديث حتى تصبح الأمور آمنة (أنظر هامش ٥). ويظهر فقر اللغة اللاتينية وعدم سعى كلسوس نحو صياغة الجديد فى تركه لبعض الأمراض بلا أسماء[٢٠] حتى ولو كان الصمت يرجع إلى مصادره فهذا أمر لا يعفيه شخصيا من السعى نحو تسميتها. على أية حال يجب ألا نقلل من مجهوداته فى صياغة المصطلحات اللاتينية والتى أظهرها كل من كابيتانى وفون شتادين وغيرهما وإن تبقى فى النهاية مجهودات ناقصة[٢١].

II

ذكرنا أن المصطلحات التى يستخدمها كلسوس والتى يشير صراحة إلى أصلها اليونانى ينسبها إلى اليونان[٢٢] بوجه عام دون الدخول فى تفصيلات حول اللهجات أو إختلاف اليونان حول تسمية شىء ما ولا حتى ذكر تاريخ تسمية أى شىء فيما ندر حينما يذكر كلسوس أن مرض إرتخاء الأعصاب عندما كان يصيب الجسم كله كان يسمى فى القدم السكتة apoplexy وعندما كان يصيب جزءا منه يسمى

---

(٢٠) هناك سيدة تعانى من مرض ما أردى بحياتها (prooemium 49)، هذا المرض يراه جرميك إنقلاب الرحم وليس سقوط الرحم كما رأى فيليب مودرى. (أنظر Grmek (1991), pp. 212-3.) وهناك أيضا شرح لمرض دون ذكر لإسمه يراه سبنسر مترجم النص للوب أنه الهيستريا vol. I, p. 446 note a .

(21) Capitani (1975); von Staden (1991)

(٢٢) بالإضافة إلى اليونان هناك أطباء medici يسمون نوعا من الحمى بنصف الثلث (III. 8.1, III. 3.2) والقدماء antiqui الذين يسمون الأيام الفردية بالأيام الحرجة (III. 7. 11) وهناك المصادر القديمة Veteres auctores

وكذلك المصادر الطبية auctores medici (III . 27. 1A) . IV. 11.3

الشلل paralysis أما الآن فكلا النوعين يسميان paralysis (III.27.1).

وعندما لاحظ كلسوس أن أعراض المرض المسمى باللاتينية gravedo أو البرد كان أبقراط يسميها κόρυζα بينما يسمى اليونان المرض الآن κόρυζα والتنقيط نفسه καταῤῥοή أى أن أبقراط كان يستخدم الكلمة لتعنى العرض و المرض ثم ميز اليونان معاصرو كلسوس بين الإثنين. وعندما ذكر أن ديوكليس أطلق على مرض الأمعاء الدقيقة χολέρα والغليظة δυσεντερία ، فى حين أن الأول يسمى الآن χολέρα والثانى κολικός (IV.20.1).[٢٣]

وكلسوس لا يناقش صحة المسميات إلا فى مناقشة لصحة اسم نبتة (III.18.13) والتسمية الحديثة لمرضين (III.27.1) وإستخدام اليونان لبعض المصطلحات دون تمييز. على أية حال يبدو كلسوس مهتما بتقديم صورة عامة للمصطلحات اليونانية وليس توضيح إتفاق وإختلاف اليونان عليها وهو أمر مستغرب مع علمنا بتعدد مصادر كلسوس اليونانية وإحتمال إختلافها حول التسميات وهو أمر وارد يظهر مثلا فيما يخص أسماء الجسم البشرى كما يشير إلى ذلك روفس فى مؤلفه "تسمية أعضاء الإنسان" وفى المؤلف المنسوب إليه "تشريح أعضاء الإنسان."[٢٤] وهو أمر ناقشه جيفرى لويد فى كتابه Sceince, Folklore and Ideolgy حيث وجد أن الإسم الواحد ينطبق على أكثر من مدلول والشىء الواحد له أكثر من اسم وهو أمر يصدق على العلاج والأمراض بالإضافة إلى أسماء أعضاء جسم الإنسان[٢٥] ومن ثم نستنتج أن كلسوس سعى إلى تقديم صورة موحدة للمصطلحات اليونانية التى لا لبس فيها ولا غموض ولا تاريخ ولا مناقشة لصحتها وربما دفعه إلى ذلك رغبته فى التسهيل على القارىء الرومانى غير المتخصص وصبغ المؤلف بالصبغة العملية التى تظهر فى نواح أخرى مثل بعده عن مناقشة بعض النظريات[٢٦] ولعل إفتقار

(٢٣) يبدو أن كلسوس شعر بالحاجة إلى تخصيص تسمية الفشاء الثالث العين "للعنكبوتى" لهيروفيلوس أما الأغشية الثلاث الأخرى فترجع للإغريق VII. 7.13 أو ربما يرجع ذلك إلى مصدره اليونانى.

يعتبر فون شتادين أن الفقرتين III. 27 و IV. 20. 1 دليلا على وعى كلسوس بالتغيرات اللغوية والإفتقار إلى وحدة المصطلحات فى أى زمن (H. von Staden (1991), p. 291)

اتفق مع فون شتادين فى أن كلسوس تميز بهذا الوعى، لكن قلة الأمثلة على ذلك تجعل من الحكم المطلق صعبا خاصة وأن هناك أمثلة تشير إلى عكس هذا التميز مثل إستخدامه لنفس الإسم اليونانى Pterygion للتعبير عن مرضين مختلفين: الأول هو نمو جزء من اللحم فى الأظفر VI. 19.1 والثانى نمو نسيج فى زاوية العين قد يمتد ليحجب إنسان العين VII. 7. 4 ، وندرة استخدام الإسم اليونانى بهذا المعنى الأول فى الكتابات اليونانية الباقية مما قد تعنى أنها إضافة من كلسوس أنظر Celsus, De Medicina, vol. II, p. 288, note a

(24) Ruelle-Daremberg, Oeuvres de Rufus d'Éphèse, Paris 1879, repr. Amesterdam 1973.

(25) G.E.R. LLoyd (1983), p. 166

(26) O. Temkin (1935), pp. 252 -3

تجدر الإشارة إلى أن بعض المصطلحات اللاتينية لدى كلسوس لها أكثر من معنى مثل كلمة praecordia التى تعنى ثلاثة أجزاء مختلفة من الجسم البشرى كما نفهم من تعليق سبنسرمترجم النص(vol. I, p. 100 note a) وكذلك كلمة vomica(vol. I. p. 130 note a) وما يخص المسميات المتعلقة بجسد المرأة كما أوضح فون شتادين فى مقالته أنظر von Staden (1991).

مقدمة الكتاب والعمل ككل للهجة التوجيهية والتعليمية والتى تظهر فى مقدمات الكتب والتى تفسح المجال للكاتب للخوض فى تلك المسائل كانت وراء ذلك وعلى أية حال يبدو أن كلسوس كان مهتما بمقارنة النتاج اليونانى بالرومانى وليس تأصيل ومناقشة النتاج اللغوى اليونانى، وبالرغم من إهتمامه بالناحية اللغوية التى تظهر فى صياغته لبعض المصطلحات اللاتينية إلا أنها ليست الهدف الرئيسى من وضع مؤلفه.

الخلاصة

لمؤلف كلسوس "فن الطب" أهمية كبرى فى عرضه لتاريخ الطب منذ القدم وأنواع مختلفة من الأمراض وأعراضها وطرق علاجها والمداواة بالجراحة وهو يقدم أرقى ما وصل إليه فن الطب على يد اليونان ومن ثم فلقد تعامل كلسوس مع عدد كبير من المصطلحات اليونانية أشار صراحة إلى الأصل اليونانى لبعض منها وأغفل ذلك مع البعض الآخر مما يعنى أنها أصبحت جزء من القاموس اللغوى العلمى اللاتينى.

هناك حالات أظهر فيها كلسوس براعته فى صياغة مصطلحات لاتينية جديدة وعدم تكرار المصطلحات اليونانية دفعت بعض الباحثين القدامى إلى القول بانه كان متخوفا من اليونانية ورومانيا وطنيا غير أن كابيتانى أحد الباحثين المحدثين رأى أن كلسوس إستخدم المصطلحات اليونانية رغبة فى الدقة والإيضاح والتحديد والتخصيص وهو أمر تتفق عليه هذه الدراسة إلا أنها رأت أن كلسوس ترك أحيانا أمراضا بلا أسماء وأمراضا عرفت بإسمها اللاتينى أو اللاتينى واليونانى معا أو حسب موقعها من البدن وإنقسمت إلى أنواع – ترك هذه الأنواع باسمائها اليونانية فقط دون مقابل لاتينى وهو أمر إن كان يزيد من جهة وجهة نظر كابيتانى فى سعى كلسوس نحو الدقة إلا أنه فى المقابل يشير إلى تكاسل كلسوس عن صياغة الجديد من المسميات اللاتينية وهو أمر أرجعه كلسوس لفقر اللغة اللاتينية وإن كان ذلك لا يعفيه من القيام بهذه المهمة. على أية حال لا ينقل كلسوس إلى القارىء شعوره بالريادة فى مجال صياغة المصطلحات اللاتينية إلا فى حالة واحدة ولا شعوره بصعوبة نقل الطب اليونانى إلى اللاتينية مثلما عبر لوكريتيوس عن صعوبة نقل الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية.

ولقدأوضحت هذه الدراسة بالأمثلة أن المصطلحات اليونانية لديه متفق عليها وصحيحة وبلا تاريخ وربما يعود ذلك إلى رغبة كلسوس فى التسهيل على القارىء وإنصاف المؤلف بالعملية وغياب الصبغة التعليمية منه وتبقى أهمية المؤلف الطبية واللغوية فلقد احتفظ بأسماء يونانية فقدت المؤلفات اليونانية التى وردت فيها مما يجعل مؤلفه مرجعا لتلك الأسماء ولغيرها من الأسماء اليونانية قليلة الإنتشار(٢٧).

(٢٧) ينكر جرميك أن المصطلح paroulis لا يظهر قبل جالينوس سوى لدى كلسوس أنظر Grmek (1991) p. 199 وعن الأسماء اليونانية الأقل إنتشارا إقرأ ملاحظات سبنسر مترجم النص لاتيني على فقرات V.28.3A و VI.8 و VII.12.2 VII.18.2.

Biliography

1) Primary Sources

Celus, De Medecina, translated by W.G. Spencer, Loeb classical Librarry (London-Cambridge, Mass., 1935-1938 repr.1971-1979).3 vols.

Lucretius, De rerum natura, translated by W.H.D. Rouse, revised by Martin Ferguson Smith, Loeb Classical Library, (London-cambridge, Mass., 1975.)

Rufus of Ephesus, Quevres de Rufus d'Éphése, edited by Ruelle-Daremberg, Paris 1879, repr. Amsterdam 1973.

2) Secondary Sources

André, J. " Remarques sur la traduction des mots grecs dans les textes médicaux du Ve siècle (Cassius Félix et Caelius Aurélianus)", Revue de philologie 37 (1963) 47-67.

Biville, F. "Grec et latin : Contacts linguistiques et creation lexicale. Pour une typologie des hellenisme lexicaus du, latin", M. lavency and D. Longrée eds., Actes du colloque de linguistique latine (Louvain-la Neuve/Borzée, 31 march-4 April 1989) (1989) 29-40.

Capitani, U."A.C. Celso e la terminologia tecnica Greca", Annali della Scuola norm. sup. di Pisa : Classe di lett. e filos. 5.2 (1975) 449-518.

Castiglioni, A. "Aulus Cornelius Celusus as a historian of medicine", Bulletin of the History of medicine 8.2 (1940) 857-873.

Gourevitch, D. "Les mots pour dire la folie en latin : A propos de passages de Celse et de Célius Aurélien", L'Évolution

Psychiatrique 56,3 (1991) 561-568.

Grmek, M.D. "La dénomination latine des maladies considérées comme nouvelle par les auteurs antiques", G. Sabbah ed., Le latin médical: la constitution d'un langage scientifique (Actes du IIIe colloque international "Textes médicaux latins antiques" (Saint-Étienne, 11-13 Septembre 1989) (1991) 195-214.

Langslow, D.R. "Latin technical language: Synonyms and Greek words in latin medical terminology", Transactions of the Philological Society 87 (1989) 33-53.

--------, "The development of latin medical terminology, some working hypotheses", Proceedings of the Cambridge Philological Society 37, (1992) 106-130.

Lloyd, G.E.R. Science, Folklore and Ideology, Combridge, 1986, PP 149-167.

Sabbah, G., Corsetti,l., Fischer, K. (eds.) Bibliographie des textes médicaux latins, Saint-Étienne, Publications de l'Université, (1987)

Spencer, W.G. "Celsus' De Medicina- A learned and experienced practitioner upon what the art of medicine could then accomplish", Proceedings of the Royal Society of Medicine (1926) 129-139.

von Staden, H. "Celsus' reluctant, construction of the female body", G. Sabbah ed. Le latin médical: la constitution d'un langage scientifique (Actes du IIIe colloque international "Textes médicaux latins antiques" Saint-Étienne, 11-13 Septembre 1989) (1991) 271-296.

Temkin, Owsei. "Celsus'" on Medicine" and the ancient medical sects", Bulletin of the Institue of the History of medicine 3 (1935)249-264.

Dictionary of Scientific Biography s.v. Celsus

Oxford Classical Dictionary, s.v. Celsus.

الهون والرومان الشرقيون

خلال النصف الاول من القرن الخامس الميلادي

دكتور / احمد عبد الكريم سليمان

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية التربية بالفيوم – جامعة القاهرة

الهون والرومان الشرقيون

خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى

بدأ هجوم الهون علي الأراضي الرومانية قبل معركة ادرنة التى وقعت بين القوط والرومان سنة ٣٧٨م بقليل (١) ، فاقتحم الهون منطقة بانونيا سنة ٣٧٧م ، ثم ازدادت هجماتهم بعد سنة ٣٧٨م على ولايات البلقان مما اضطر الامبراطور ثيودوسيوس الكبير الى محاربتهم وانزال الهزيمة بهم وبحلفائهم من الالان Alans والقوط . واستفاد الامبراطور ثيودوسيوس من الهون ايضا فاستخدم جماعات منهم في حربه ضد المغتصب مكسيموس Maximus سنة ٣٨٨م . ويرجع انتصار ثيودوسيوس السريع الى خيالة الهون العاملة في جيشه ، فهى التي اوقعت الخسائر الضخمة بجيش العدو الهارب (٢) .

وعاد الهون لمهاجمة اراضى الامبراطورية الشرقية عام ٣٩٥م حيث انتهزوا فرص تجمد نهر الدانوب وعبروا الى تراقيا فعاثوا فيها الفساد كما اصبحت دالماشيا ايضا مهددة بالغزو . وهاجمت جماعات اخرى من الهون ارمينيا حتى منطقة ملطية Meitene والمناطق الغنية من الامبراطورية

---

(١) للمزيد من المعلومات عن معركة ادرنة وعن اصل الهون وظهورهم انظر :

Ammianus Marcellinus, The Huns; Jordanes, the visigothic conquests, in the medieval world 300 - 1300, Second edition, edited by Norman F. cantar, N. 13, pp. 68 - 70, N. 14, pp. 70 - 73;

د. احمد عبد الكريم سليمان : (١) معركة ادرنة بين القوط والرومان فى ضوء وثائق المؤرخ العسكري اميانوس مارسلينوس ، دار النهضة العربية سنة ١٩٩٠م .

(٢) الصراع الدولي فى الغرب الاوربى فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، مجلة المؤرخ المصرى ، عدد يناير ١٩٩٤م ص ٢٢٤ ومابعدها (كلية الآداب ، جامعة القاهرة) .

(2) Thompson, A history of Attila and the Huns, oxford 1943, reprinted 1975, pp. 25 - 26, 31 - 34; F. Lot, The end of the ancient world and the beginnings of the middle ages, pp. 194 - 196, London 1968.

الشرقية . وامتد التخريب ايضا الى كبادوكيا . كما اجتاح الهون منطقة الفرات وبعض مناطق سوريا واصبحت انطاكية مهددة . وتكرر الهجوم ايضا سنة ٣٩٨م ، فاضطرت الحكومة الرومانية الشرقية الي الاستعانة بالقوط لمقاومة الهون لان الجيوش الرومانية كانت عند وفاة ثيودوسيوس فى الغرب ولم تصل بعد الي الشرق . وأخيرا عقدت معاهدة بين الجانبين الهونى والرومانى أواخر عام ٣٩٨م (١) .

وبمقتضي معاهدة سنة ٣٩٨م بين الرومان الشرقيين والهون قدم اولديس Auldis ملك الهون المساعدة في هزيمة الثائر الجرماني جياناس Gainas الذي عبر الدانوب سنة ٤٠٠م وهدد الاراضى الرومانية . والواقع ان اولديس قام بذلك العمل لسببين : الاول وهو انه لا يرغب في رؤية جيش بربري آخر يتجول شمال الدانوب ، والثاني هو تقديم خدمة الي الرومان الشرقيين بارسال رأس الثائر جياناس Gainas الي القسطنطينية في يناير سنة ٤٠١م وقد تسلم اولديس مكافأته ، فحصل علي مجموعة من الهدايا ، كما جدد معاهدة التحالف مع الحكومة الرومانية الشرقية ، وتضمنت المعاهدة الجديدة سداد أموال سنوية للهون (٢) .

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 26 - 28.

(2) Thompson, op. cit., pp.31 - 32.

ولا يعود الفضل في هزيمة جياناس كلية الي الهون ، فتوقعا لوصول جياناس اسرع المواطنون في تراقيا باصلاح وسائل الدفاع عن مدنهم ، كما احتشدوا هم انفسهم حاملين اسلحتهم . ونتيجة للغارات السابقة فانهم كانوا علي دراية بالحرب ، فلم يجد جياناس خارج الاسوار سوى الحشائش لانهم نقلوا كل شيء الى داخل المدن ، ومن الواضح ان حوادث عام ٣٩٥م قد علمت سكان تراقيا درسا لم يتقاعسوا عن فهمه ولم ينسوه بسرعة ، وقد تكرر ذلك المشهد فيما بعد عندما هزمت فرق اتيلا علي يد مواطنى ازيموس *Asemos* انظر : *Thompson, op. cit., pp. 32 - 33.*

وعن ثورة جياناس انظر : د. الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٤٤ ، دار النهضة العربية ١٩٨٢م .

وازدادت خطورة الهـــون في السنوات الاولي من القــرن الخـــامس الميلادى ،، واخذوا يبحثون لهم عن موضع قدم داخل اراضى الامبراطورية الرومـانيـة بأى ثمن سـواء بالتـحـالف ام بشن الهـجـمات واحـتـلال الاراضى بالقــوة ، وهكذا نري جـمـاعات من الهون تضـغط من المناطق التى احتلتها شمال البلقان علي العناصر الجرمانية الاخري مثل الوندال والالان والسويفى حتى اضطرت تلك العناصر الى الاتجاه الي الغرب الاوربى ، هذا في الوقت الذى نرى فيه الهون اتباع اولديس يشتركون مع ستيلكو قائد القوات الغربية في هزيمة راداجـايسـوس Radagaisus قائد العناصـر الجرمـانية في معركة فاسولاى Fasulae اوائل عـام ٤٠٦م . وكان لغرسـان الهون الدور الكبيـر في احراز النصر ، كما حازوا علي عدد كبير من الاسري (١) .

وهاجم الـهون في عام ٤٠٨م بقيـادة اولديس أو اولدين Auldin ولايات الدانوب الادني فى اراضي الامبراطورية الشرقية واستولوا علي قلعة كاسترا مارتيس Castra Matis (وهي كـولا الحـديثـة في بلـغـاريـا الواقـعـة في ولاية مويسيا) وقد استولي اولديس علي الحصن بطريق الخيانة ثم اجتاح اولديس تراقيا ورفض الاموال التي عرضها عليه القائد الروماني المحلى قائلا ان فى وسعه اخضـاع كل البلاد التى تشرق عليها الشمس ، ثم طلب مبلغا كبيرا يصـعب سداده ثمنا للسلام ، فـاضطر القائد الرومـاني لرشـوة بعض اتبـاع اولديس حتى تخلوا عن سيدهم كما تخلت عنه ايضا جماعات السكرى Sciri التي كـانت تعـمل تحت قـيـادته ، فـوقـعت الهزيمة فى صـفـوفـه ، وتمكن من

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 28, 32 - 33; Bury, History of the later Roman Empire from the death of theodosius I to the death of Justinian, New York 1958, Vol. I, pp. 212 - 213, 271.

الانسحاب بصعوبة بالغة واسر كثير من اتباعه ، فتم توزيعهم كرقيق علي ملاك الاراضي في آسيا الصغري (١) .

واذا كان الهون في اوائل القرن الخامس اعداء للامبراطورية الرومانية بقسميها الغربي والشرقي الا ان جماعات من هؤلاء الهون دخلت في خدمة الرومان الشرقيين والغربيين على السواء ، ولم تكن خدماتهم كمرتزقة في الجيوش الرومانية دون تأثير ملحوظ . كذلك استخدمت بعض الشخصيات الكبيرة فى الحكومة الرومانية جماعات من الهون للحراسة الشخصية ، مثال ذلك الوالى البرايتورى روفينوس Rufinus في عهد الامبراطور الشرقي اركاديوس Arcadius ويقال بأن روفينوس الذي كان منافسا خطيرا للقائد الغربي ستيلكو عمل على تشكيل جيش خاص له من الهون . وعندما اراد خصوم روفينوس القضاء عليه هاجموا اتباعه من الهون وذبحوهم وهم نائمون (٢) .

ونتيجة لهجوم الهون السابق اتخذت حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية الاجراءات الضرورية لاصلاح وترميم الولايات التى عاث فيها الهون فسادا ، كما اعيد بناء الاسطول ، واستغرق تنفيذ ذلك المشروع سبع سنوات . وقد زود الاسطول بمائتي سفينة محاربة واخرى للتموين حتي اصبح جاهزا لحراسة الدانوب ، كما استقرت اعداد منه فى ولايات موئيسيا وسكيثيا المجاورتين للنهر الكبير . ويضاف الي ذلك فقد تم تحسين وسائل الدفاع عن العاصمة القسطنطنية ببناء اسوار جديدة لها سنة ٤١٣م ، وهى اول اسوار

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 29, 32 - 33; Bury, op. cit, pp. 212 - 213, 271.

(2) Thompson, op. cit., pp. 35.

تبنى بعد تلك التى بنيت في عصر قسطنطين الكبير (١) .

ولكي تتجنب الحكومة الرومانية الشرقية عداء الهون فقد اقدمت في عام ٤١٢م علي ارسال سفارة بقصد التعرف علي حكامهم ومحاولة احتوائهم ، وتشير احدى شذرات اوليمبودوروس الطيبى المصري Olympiodorus الى قيامه على رأس سفارة من القسطنطينية الى هؤلاء البرابرة ، وانه ابحر شمالا عبر البحر الاسود . وقد ضلت السفارة في بداية الرحلة طريقها بسبب العواصف ولكنها وصلت اخيرا الي ملك الهون المسمي دوناتوس Donatus الذى كان نفوذه واسعا وذائع الصيت بدرجة اعلى من اولديس Auldis . وقد نجح السفير الروماني في مهمته ، وبعد تبادل حلف اليمين بالصداقة بين الجانبين استطاعت السفارة قتل ملك الهون عن طريق الرشوة . وقد جاء بعد دوناتوس فى حكم الهون كاراتو Charato . وبطبيعة الحال كانت له اسبابه فى ابداء العداء والكراهية لاعضاء السفارة الرومانية ، لكن الرومان الشرقيين كانوا قد احتاطوا للأمر ، فأسرع اعضاء السفارة بتقديم الهدايا الثمينة باسم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى مما اغرى الملك البربرى علي البقاء في سلام مع الرومان (٢) .

ويكتنف الغموض نشاط الهون بعد هزيمة اولديس Auldis ولايعرف سوى معلومات قليلة عن قيام الهون بهجوم فاشل علي بلاد فارس في الفترة من سنتى ٤١٥ – ٤٢٢م مستغلين حالة الحرب بين الفرس والرومان بسبب

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 29 - 30; Bury, op. cit, Vol. I, pp. 212 - 213,

ج . م . هسى ، العالم البيزنطي ، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ص ١٠٠ – ١٠١ ، دار المعارف ١٩٨٤ الطبعة الثانية .

(2) Thompson, op. cit., p. 8, 34.

اضطهاد الفرس للمسيحيين ، ورفض فارس سداد قيمة البضائع التي حصلت عليها من التجار للرومان ، ثم قام الهون بشن هجمات علي تراقيا ، وتلى ذلك عقد معاهدة يدفع بمقتضاها الرومان الشرقيون مبلغ ٣٠٠ ليبرا ذهبية سنويا الي الهون . ويبدو أن الهجمات علي اراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية قد توقفت بعد سنة ٤٢٢م حتى ظهور روا أو روجيلاس ملكا على الهون (١) .

وفى العشرينات من القرن الخامس الميلادى تسلم روا Rua أو روجيلاس Rugilas القيادة العسكرية للهون بمشاركة اخويه منديوك او منديوش Mundiuch ، اوكتار Octar ويبدو ان كل زعيم منهم كان يسيطر على جزء من الاراضى الخاضعة للهون . ومعلوماتنا محدودة عن والد روا واخوته واسلافهم ، ولا نعرف على وجه الدقة كيف جاء هؤلاء الى السلطة في بلاد الهون وكل ما هو متوفر حاليا من معلومات هو ان اوكتار ومنديوش قد ماتا قبل اخيهما روا بعدة سنوات ، فقد كان روا هو القائد العسكرى الوحيد عندما ظهر اسمه لأول مرة فى التاريخ عام ٤٣٢م (٢) ، وكان يحكم القبائل التى تسكن مناطق سهول الهنغاريا (المجر) وان بعض قبائل السلاف والجرمان والسارماشيين قد دخلوا تحت طاعته ، وقد دفعت له حكومة الامبراطورية الشرقية جزية سنوية (٣) .

---

(١) د. السيد الباز العرينى ، مرجع سابق ص ٤٨ ؛

A. H. M. Jones, The decline of the ancient world, p. 78;

Thompson, op. cit., p. 31.

(2) Thompson, op. cit., p. 63; Bury, op. cit, Vol. I. pp. 271 - 272.

(3) Cambridge Medie Val History, Vol. I, p. 360, Bury, op. cit, Vol. I., p. 271.

وفي الوقت الذى نعمت فيه الامبراطورية الغربية بعلاقات سلمية مع الهون بل واستخدمتهم في كسر حدة الشعوب الجرمانية مثل البرجنديين والجيبداى والقوط مستفيدة من الصداقة التى نشأت بين أيتيوس Aetius قائد عام القوات الرومانية الغربية وروا ملك الهون (١) ، في ذلك الوقت سلك الهون مسلكا عدائيا واضحا تجاه الامبراطورية الشرقية ، واستغلوا فترات الضعف التى تمر بها وابتزازها بمطالب متعنتة او شن الحرب عليها . لقد استغل روا ملك الهون انشغال قوات الامبراطورية الشرقية بقيادة اسبار Aspar في الحرب ضد الوندال فى شمال افريقيا ، وبالتالى خلو جبهة الدانوب من القوات الرومانية الشرقية التى تكفي للدفاع عنها . وهكذا ظهر اسلا Esla سفير روا الي القسطنطينية اوائل عام ٤٣٤م بمطالب متعنتة ، منها أن يعيد الرومان الهون الهاربين ، والا فأن ملك الهون سيعلن الحرب (٢) .

ولم تكن حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية مستعدة للحرب بسبب الظروف التي ذكرناها ، لذلك لجأت الي الدبلوماسية ، وهى السلاح الذي طالما نجحت الامبراطورية الرومانية الشرقية في استغلاله وقت الشدة والخطر المحدق بها وقد أرسلت القسطنطينية سفارة من أجل تهدئة غضب روا ، وتشكل وفد المفاوضات الرومانى برئاسة القائد بلينثا Plintha وهو من أصل قوطي ، وكان اقوى رجل فى بلاط ثيودوسيوس الثاني في تلك الفترة وقبل

---

(1) camb. Med. Hist, Vol I, p. 360, Thompson, op. cit, pp. 64 - 65; Bury, op. cit, Vol. I, p. 272.

(2) Thompson, op. cit, pp. 70 - 71, Jones, op. cit, p. 80.

وكان هؤلاء الهاربون من الهون الذين رفضوا الاعتراف بسيادة روا او الدخول تحت طاعته ، رفضوا البقاء تحت رئاسة رؤسائهم المحليين واندمجوا ضمن الجيش الامبراطورى ومن هؤلاء قبائل : الاميلزوري *Amilzuri* الاتمارى *Itimari* التنسور *Tunsures* البوسكي *Boisci* انظر : *Thompson, op. cit. p. 71.*

أن تبدأ السفارة مهمتها جاءت الاخبار بوفاة روا ملك الهون فى ابريل – مايو سنة ٤٣٤م . وقد احس الرومان الشرقيون براحة كبيرة لموت الزعيم الهونى ، وادى البطريرك بروكلوس Proclus ٤٣٤ – ٤٤٧م صلاة شكر بعد سماعه الخبر ، وانتشرت شائعات عن انه موت روا كان نبوءة جاءت في سفر حزقيال ، وان الرب قد انتم منه ، وفي ذلك دلالة علي مدي الرعب الذى كان يسود الرومان الشرقيين من ملك الهون (١) .

ولم تتم فرحة الشعب الروماني بوفاة روا Rua ، فقد خلفه اثنان من أبناء اخيه منديوك Mundiuch هما بليدا واتيلا Bleda & Attila ولم يلعب بليدا دورا مهما في تاريخ الهون ، فقبض أتيلا علي زمام الأمور كلها وشكل خطورة كبيرة علي الامبراطوريتين الشرقية والغربية علي السواء ، وقررت السلطات الرومانية الشرقية سبر غور الحاكمين الجديدين في بلاد الهون ، فتقرر سفر بلنثا Plintha ومعه ابيجينيس Epigenes الذى كان متكلما مشهورا . ووصل الوفد الروماني الى مدينة مارجوس Margus الشهيرة في موئيسيا العليا ، وهى مدينة تجارية مهمة ، ولعبت اسقفيتها دورا مهما فى الحرب بين الهون والرومان (٢) .

وقابل بليدا Bleda واتيلا السفارة الرومانية ، ودارت المفاوضات وهم على ظهور الخيل كعادة الهون ، وعقدت في نهاية الامر معاهدة بين الجانبين سنة ٤٣٥م عرفت باسم معاهدة مارجوس ، وقد نصت علي مضاعفة الجزية السنوية التي يدفعها الرومان الشرقيون لتصبح ٧٠٠ ليبرا ذهبية ، وكانت فى

---

(1) Thompson, op. cit, pp. 71 - 73.

(2) Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 360; Thompson, op. cit, pp. 72 - 74; Bury, op. cit, Vol. I, p. 272.

عهد روا ٣٥٠ ليبرا ذهبية ، وعدم قبول الرومان الهون الفارين من حكامهم مع تسليم الذين هربوا من قبل ، ودفع فدية للاسرى الرومان بواقع ٨ سوليدا Solidi عن كل اسير رومانى . واشار بليدا واتيلا الي معاهدة قديمة مع روا وافق بمقتضاها الرومان في تاريخ غير معروف علي منح الهون حقوقا تجارية في بعض أسواق المدن الرومانية ، وقد اعيد تأكيد هذه الحقوق ، فأصبح من حق التجار الهون ان يتاجروا بنفس المزايا التي يتمتع بها التجار الرومان . ومن الواضح ان شروط هذه الاتفاقية كانت جميعها في صالح الهون لاسيما الشرط الذى نص علي عدم قبول لاجئين هون من امبراطورية اتيلا ، فالهدف من ذلك كان اضعاف الجيش الرومانى لان الفرق الرومانية العاملة بجوار نهر الدانوب كانت تزود بكثير من البرابرة الهون وغيرهم (١) .

وقضى اتيلا السنوات القليلة بعد عقد معاهدة مارجوس سنة ٤٣٥م فى اخضاع بعض الشعوب المجاورة له مثل شعوب سكيثيا Scythia وسوروجى Sorogi ، فكل الشعوب الواقعة بين الالب والبحر البلطى من ناحية ، وبين بحر الخزر Cospion Sea او الى الغرب منه بقليل وبين خط لا يعرف شرقي الراين اعترفت بأتيلا وبليدا حاكمين لهم . وفي سنة ٤٤٠م ظهرت لاتيلا فرصة جديدة لتهديد الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وفي تلك السنة اشتركت جيوش تلك الإمبراطورية في عمليات عسكرية منظمة في شمال افريقيا بعد ان سقطت قرطاجة في يد الوندال في اكتوبر سنة ٤٣٩م ، كما احتل

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 73 - 75; Bury, op. cit, Vol, I, p. 273; Jones, op. cit; p. 80, Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 362.

وعن عادات الهون ونظمهم العسكرية انظر : د. اسحاق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ص ١١٢ .

والـ *Libra* ليبرا كما جاءت في المورد وحدة وزن رومانية قديمة تعادل ٣٢٧٫٤٥ جرام .

المهاجمون الوندال رودس بهدف اعاقة طريق القمح من مصر الي القسطنطينية التي باتت هي الأخري مهددة من الاسطول الوندالى المرابط في قرطاجة بل وانتشرت شائعات بأن جيسريك ينوي مهاجمة مصر أيضا . والواقع ان فقدان شمال افريقيا كان كارثة ضخمة للشرق والغرب على السواء واصبح ماعداها من أحداث في مكان ثانوى . وكان اتيلا فى ذلك الوقت صديقا لجابزويك ملك الوندال بعد ان جمعتهما المصالح المشتركة في عداوة القوط في الغرب الاوربى من ناحية والرومان الشرقيين من ناحية اخري . هذا في الوقت الذي جاءت الاخبار بأن جيشا فارسيا تحت قيادة يزدجرد الثاني ٤٣٨ – ٤٥٣م قد شن هجوما على ارمينيا . ومع ان القوات الفارسية قد انسحبت بسرعة بعد ان هددت مؤخرتها هجمات الهون البيض الا ان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى اضطر الى نشر قوات رومانية ضخمة لمواجهة الفرس ، وقد جاء الحشد العسكري علي حساب جبهة الدانوب في الشمال ، فخلت من المدافعين عنها بعد ان سحبت منها معظم الفرق العسكرية(١) .

ولم يعدم اتيلا الحجة او التبرير لعدوانه ، فاشتكى ان الجزية لم تسدد بانتظام ، وان اللاجئين الهون لم يسلموا اليه . ولما لم تهتم الحكومة الرومانية الشرقية بشكواه ظهر اتيلا علي الدانوب عام ٤٤١م وحاصر حصن راشيريا Ratairia وكان ذلك الحصن يقع ضمن المناطق التى يحق للهون فيها المتاجرة وفقا للمعاهدة السابقة بين روا (أو روجيلاس) والامبراطورية الرومانية الشرقية . وقد تمكن الهون من القضاء علي القوات الرومانية التى كانت في

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 74 - 75, 76 - 79; Bury, op. cit, Vol, I, p. 273; Jones, op. cit; p. 80, Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 362.

الحصن كما ذبحوا كثيرا من التجار الرومان . وقد احتج الرومان علي عملية احتلال الهون لحصن راشيرا وخرق معاهدة مارجوس التي تنص علي حرية التجارة وتأمينها لكلا الطرفين ، ولكن الهون اظهروا مزيدا من النوايا السيئة عندما اشتكوا بأن اسقف مدينة مارجوس – التى عقدت المعاهدة خارج أسوارها سنة ٤٣٥م بحضور بلنتا Plintha قد عبر الدانوب الي اراضي الهون وسرق مقابر الهون الملكية التى تقع علي الشاطىء الآخر للنهر ، كما استولي علي الكنوز المدفونة مع ملوك الهون ، فقدم الاسقف بذلك للهون المبرر الكافى لأعمالهم العسكرية وقد طلب أتيلا تسليم الاسقف فورا ، وكذلك الهون الهاربين ، ولم يستطع السفراء الرومان سوى تقديم انكار هزيل للاتهامات التي وجهها الهون لهم ، فاستأنف اتيلا عملياته العسكرية ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (١) .

وعبر الهون الدانوب للاستيلاء علي المدن الكبري علي شواطئه الجنوبية وتخريبها ، فسقطت مدينة فيميناكيوم Viminacium وهى كوستولاكى Kostolacz وقد كان سقوط هذه المدينة المهمة في يد الهون انذارا للرومان بما سيقع لبقية المدن الرومانية علي الجبهة . لقد سويت المدينة بالارض ووقع جميع سكانها في الأسر . وعندما زارها بروكوبيوس Procopius بعد ذلك بمائة عام ذكر ان المدينة قد هدمت من اساسها ، وظلت علي هيئتها المتهدمة حتى اعاد بناءها الامبراطور جستنيان . كذلك سقطت مدينة سينجيدونم Singidunam " بلجراد الحالية " وتم تخريبها ايضا وتركت مهجورة حتي عصر جستنيان . اما مدينة مارجوس Margus فسقطت بالخيانة بعد ان

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 79 - 80, Bury, op. cit, Vol, I, pp. 273 - 274; Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 362.

سلمها اسقفها طواعية للهون كى يضمن السلامة لنفسه . وكانت المأساة الكبري في سقوط مدينة سرميوم Sirmium وأسر سكانها ، فهي نقطة الارتكاز ، أو محور الدفاع عن كل جبهة الدانوب ، وبذلك اصبحت ولايات البلقان تحت رحمة الهوان (١) .

وتوقفت العمليات العسكرية في عام ٤٤٢م ضد الفرس والوندال ، وعادت القوات الرومانية الى جبهة الدانوب ، كما استدعي الامبراطور ثيودوسيوس الثانى الاسطول من صقلية ، ولكن الوقت كان متأخرا لاشتراك هذه القوات في القتال ضد الهون . وزاد الأمر سوءا نجاح مؤامرة اغتيال قائد الجيش في تراقيا التي كانت بمثابة قاعدة للعمليات العسكرية الهجومية ضد الهوان . وفي خلال تلك الفتنة لم تكن هناك امكانية حشد قوات رومانية كافية للدفاع عن حدود الدولة ومقاومة الغزو الهونى ، فاضطرت الحكومة الرومانية الشرقية الي الدخول في مفاوضات صلح مع أتيلا (٢) .

ويبدو ان استكمال حشد القوات الرومانية الشرقية قد شجع ثيودوسيوس الثاني علي رفض طلبات الهون او عدم سرعة الاستجابة لها – وعندما سمع اتيلا باجابة الامبراطور انتابه الغضب الشديد وبدأ فى مهاجمة الاراضي الرومانية المقابلة له واتجه شرقا علي طول الدانوب ، وبعد ان استولي اتيلا علي عدد من الحصون الثانوية اعاد احتلال مدينة راشيار Ratiaria المكتظة بالسكان والواقعة علي الضفة اليمني للدانوب في موئيسيا العليا (وراشيارا هي مدينة ارتشر Artscher الحديثة في بلغاريا) . وتكمن

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 80 - 81; Bury, op. cit, Vol, I, pp. 273 - 275.

(2) Thompson, op. cit., pp. 81 - 83; Bury, op. cit, Vol, I, pp. 274 - 275.

(3) Thompson, op. cit., p. 83.

اهمية تلك المدينة في أنها كانت قاعدة لاسطول الدانوب من ناحية ، كما انها كانت تضم احد مصانع السلاح من ناحية ثانية ، وقد دمر الهون كعادتهم المدينة عن آخرها وحملوا سكانها اسرى (١) .

وحقق استيلاء الهون على مدينة راشيارا الامن لمؤخرتهم ، فلا تستطع القوات الرومانية في تلك الحالة مهاجمة خطوط مواصلات الهون الخلفية عند اختراقهم للاراضي الرومانية الداخلية ، كما ان استيلاء الهون علي وادي نهر مارجوس او موراڤا مكنهم من الوصول الي مدينة نيش Naissus ذات الاهمية الاستراتيجية ، وتقع في داكيا الوسطي كما انها كانت مركزا لمصانع الاسلحة في الامبراطورية وكثيفة السكان : وعندما انسحب منها الهون ظلت مهجورة حتى اعاد بناءها الامبراطور جستنيان مع باقي المدن الآخري . واتجه الهون بعد ذلك جنوبا بغرب على نهر نيشافا Nischava ودمروا مدينة اخري كبيرة هي ساردیكا Sardica أو صوفيا " في العصر الحديث " وقد اخليت هذه المدينة من سكانها ، واصبح الطريق بذلك مفتوحا الي القسطنطينية . وقد اندفع الهون على الطرق العسكرية بمحازاة نهر هيبروس Hebrus او مارتيزا Martiza وعندما سقطت مدينة فيلوبوليس Philippolis في يد الهون أصبح الدفاع عن الولايات الاوربية صعبا وربما مستحيلا لانه عند هذه المدينة العتيقة فان الطريق من الشمال الى الجنوب اى من الـ Oescus علي الدانوب الي بحر ايجه يمر بالطريق القديم من البسفور الى الغرب . وقد تمكنت مدينتا هرقلة وادرنة من صد هجمات الهون الا ان مدينة اركاديوليس Arcadiopolis قد احتلها الهون واستولوا منها على غنائم واسلاب هائلة كما كان الاسرى فوق الحصر (١) .

---

(1) Thompson, op. cit., p. 84.

وأخيرا واجه الهون الجيش الجديد الذى اعده ثيودوسيوس الثاني وكان يقوده اسبار Aspar وهو من الالان ومعه القائدان الجرمانيان اريوبندوس Areobindus وارنجسكولاس Arnegisclus ، وكان هؤلاء الثلاثة فى طليعة الجنرالات الجرمان الذين يعملون في خدمة الامبراطورية ولكنهم لم يكونوا اندادا لأتيلا في الحرب . وخاصة الثلاثة معارك متتالية خارج العاصمة لكنهم هزموا فيها جميعا شر هزيمة وتمكن الهون من قطع الطريق بينهم وبين العاصمة فاضطر الجيش الروماني الي التقهقر الى خيرسونا " خرشنه " Chersonesas فوصل الهون بذلك الي قرب اسوار العاصمة واستولوا علي حصن اثيراس Athyras غير ان اسطول الهون الضعيف التسليح لم يسمح بمهاجمة باقي حصون القسنطينية كما لم يقم الهون بأى محاولة للهجوم علي العاصمة ذاتها واتجه أتيلا بدلا من ذلك الي خيرسونا حيث هاجم بقايا الجيش الروماني ومزقه في معركة فاصلة . ولم تحقق الامبراطورية من انتصارات سوى في مدينة ازيموس الحصينة ، ولايرجع ذلك الانتصار الي الجيش النظامي بل الى السكان المحليين الذين هاجموا قوات الهون المثقلة بالاسلاب والغنائم (١) .

ولم يكن امام ثيودوسيوس الثاني بعد هزيمة خيرسونا من خيار سوى طلب عقد الهدنة ، وانيطت المفاوضات الى اناتوليوس Anatolius الذي كان قد نجح لتوه في انهاء الحرب مع الفرس ، واصبح قائدا للجيش منذ سنة ٤٣٨م ، وكانت الشروط التى فرضها أتيلا قاسية ، لقد طلب تسليم اللاجئين الهون فورا ، والمتأخرات من الجزية وقدرها ستة آلاف ليبرا ذهبية اما مبلغ الجزية نفسه فقد زاد الى خمسة اضعاف ماكان عليه أى اصبح ٢١٠٠ (الفان ومائة

(1) Bury, op. cit, Vol. I, p. 275, Thompson, op. cit., pp. 84 - 85.

ليبرا ذهبية) كل عام وان تدفع الحكومة الرومانية عن كل اسير روماني تمكن من الهرب مبلغ ١٢ سوليدا مقابل ثمانية سوليدا Solida في اتفاقية عام ٤٣٥م ، وألا يستقبل الرومان بعد ذلك اى لاجيء هونى (١) .

وذهب سكوتا Scotta احد مساعدى أتيلا الي القسطنطينية لاستلام الذهب المتفق عليه وكذلك استلام اللاجئين الهون ، ولكنه فوجيء بأن الرومان قد قتلوا كل الاسرى الهون الذين ابدوا عدم الرغبة في العودة شمالا عبر الدانوب ، واراد القائد الهونى ان ينتقم من الرومان الشرقيين ، فاعلن ان لديه تفويضا باضافة شرط جديد للاتفاقية وهو ان كل رجال ازيموس Asemus يجب ان يسلموا جميعا للهون سواء كان هؤلاء من البرابرة او الرومان ، والا فان الجيش الهونى لن ينسحب كما ان الاتفاقية لن يتم التصديق عليها . ورأى اناتوليوس ومساعده في المفاوضات ثيودولوس Theodulus قائد الجيش فى تراقيا ان الوفد الرومانى في وضع حرج لايسمح برفض طلبات الهون ، ولم يحاول القائدان الرومانيات اغراء سكوتا بالتخلى عن ذلك الشرط الجديد بل تركزت جهودهما فى جعل أتيلا يتخلى عن رغبته الملحة فى مواصلة الحرب(٢) .

وكتب القائدان الرومانيان الى مواطنى ازيموس وخيروهم بين تسليم الاسرى الرومان الذين انقذوهم أو ان يدفعوا ١٢ سوليدا Solida عن كل رجل وطلب القائدان ايضا اطلاق سراح الهون الذين تم أسرهم . وقد أجاب سكان

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 85 - 86; Camb, Med. Hist., Vol. I, pp. 362 - 363, Jones, op. cit, p. 80.

وفى بيورى يدفع الأسير الرومانى عشرة سوليدا انظر :

Bury, op. cit, Vol. I, p. 275.

(2) Thompson, op. cit., pp. 83 - 86.

المدينة بأن كل الرومان قد عادوا الى منازلهم ولايمكن استدعاؤهم أو جمعهم أما الأسرى الهون فقد تم قتلهم جميعا باستثناء شخصين فقط قد تم الاتفاق عليهما على أساس مبادلتهما ببعض الأطفال الذين أسرهم الهون خارج اسوار المدينة . وعندما سمع أتيلا ذلك بحث عن هؤلاء الاطفال المطلوبين ولكنه لم يعثر على أحد منهم وقد وافق الرومان علي تأكيدات أتيلا بفقدهم ، وأعاد الرومان الاسيرين الهونين المتحفظ عليهما وهكذا تم التوقيع والتصديق علي معاهدة السلام بين الهون والرومان فى خريف سنة ٤٤٣م ، وعرفت باسم اتفاقية اناتوليوس الاولى (١) .

ولم تطمئن حكومة الامبراطورية الشرقية الي نوايا اتيلا رغم توقيع اتفاقية السلام معه . وعلي الرغم من المصاعب الكبيرة التي واجهت الامبراطورية الشرقية علي جبهتي ارمينيا وفارس ، فقد بذلت الامبراطورية الشرقية ماوسعها من جهد لاصلاح وتقوية جبهة الدانوب في الشمال . وقد صدرت الاوامر الحازمة الي نوموس رئيس البلاط وهو اكثر الوزراء ثقة لدى الامبراطور ثيودوسيوس الثانى بأن يعيد بناء وتقوية الحصون التى سبق ان هاجمها الهون علي طول الدانوب سنة ٤٤١م ، وان يحشد في تلك المنطقة كل الفرق العسكرية المتاحة وان توضع تلك الفرق في حالة الاستعداد القصوي . وقد شملت تلك الاجراءات ايضا اعادة بناء وتقوية أسوار القسطنطينية . ومما يدل على نجاح نوموس في مهمته ترقيته الى وظيفة قنصل عام ٤٤٥م . وفي خلال تلك الفترة استقبلت القسطنطينية العديد من سفراء أتيلا الذين تم أغدق الهدايا الثمينة عليهم وارسال اخري الى أتيلا . وهكذا تمتعت ولايات الليريا وتراقيا بفترة راحة من الغزو الهونى لمدة ثلاث سنوات بعد

(1) Thompson, op. cit., p. 86.

توقيع اتفاقية السلام الأولى (١) .

واستغل اتيلا فترة استقرار السلام على جبهة الدانوب كى يعيد ترتيب الاوضاع السياسية داخل مملكته لتقوية نفوذه والانفراد بالحكم . وقد تمكن اتيلا بالفعل من قتل بليدا ، وبذلك اصبح اتيلا السيد المطاع الوحيد فى كل بلاد الهون دون منافس حتى وفاته ، بل اصبح اتيلا بالفعل اقوى رجل في اوربا ، واعتبر نفسه سيدا على الامبراطورية الشرقية لان امبراطورها يدفع الجزية له . ولكى يؤكد اتيلا سيادته على كل الهون ادعى حصوله على سيف مارس اله الحرب الذى سيمكنه من الانتصار على كل الاعداء . واصبح تحدي اتيلا يعني في نظر الهون تحدى القدرة المقدسة لاله الحرب (٢) .

واذا كانت اراضي الامبراطورية الشرقية قد نجت خلال السنوات من ٤٤٣م الى سنة ٤٤٦م من هجمات الهون ، فانها قد تعرضت لكوترث أخرى طبيعية ترتب عليها وفاة الالآف من الرجال وقطعان الماشية نتيجة لنزول صقيع شديد ، كما ان العواصف المطرة دمرت ولاية بيثينيا وغرقت المدن الداخلية بسبب فيضان الانهار . وفى سنة ٤٤٥م حدثت مشاغبات فى السيرك المعروف في القسطنطينية سقط فيها عدد كبير من الضحايا . وتلى ذلك انتشار الطاعون الذى مات بسببه عدد كبير من المواطنين ، وظلت تلك الاوضاع السائدة حتي سنة ٤٤٦م ، وقلت الامدادات التموينية للعاصمة ، ثم تكرر الطاعون مرة اخرى ، فاصيبت الحكومة الرومانية الشرقية باضطراب وانزعاج شديدين وباتت عاجزة عن تصريف الامور ، وانعكس ذلك علي جبهة

(1) Thompson, op. cit., pp. 87 - 88, Bury, op. cit, Vol. I, p. 276; Vasiliev, History of the Byzyantine Empire, Vol. I, p. 103, "Madison 1958".,

(2) Bury, op. cit, Vol. I, pp. 275 - 277; Thompson, op. cit., p. 89; Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 364.

القتال الشمالية المواجهة للهون على نهر الدانوب (١) .

واستغل اتيلا من جانبه الظروف البيئة التى تمر بها الامبراورية الرومانية الشرقية ، واخذ يكرر مطالبه السابقة ، ويمهد لعبور الدانوب فى ربيع سنة ٤٤٧م . وكان هجوم الهون في هذه السنة اوسع نطاقا مما حدث سنة ٤٤١م ، واشترك فيه مع الهون كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فالجيبداى Gepids اشتركوا بقيادة ملكهم ارداريك Ardaric والقوط الشرقيون بقيادة فالامير Valamir واخترق هجوم الهون ولايات سكيتيا السفلي ومئيسيا ومناطق اخري ابعد الى الشرق فتجاوز بذلك الحصون الجديدة التى بناها نوموس ، والواقع ان هجوم سنة ٤٤٧م كان الفرصة الوحيدة التى اتيح فيها للهون مواجهة الجيش الرومانى باكمله (٢) .

وعندما بدأت قوات الهون في التحرك صوب الاراضى الرومانية الشرقية وقعت كوارث ضخمة في الامبراطورية ، فقد ضربت سلسلة من الهزات الارضية المدن الرومانية خلال فترة اربعة اشهر من فبراير سنة ٤٤٧م . وكانت تلك الهزات من أسوأ ماواجه الرومان طيلة تاريخهم ، فاختفت قرى باكملها ، وكانت الخسائر ضخمة فى البر والبحر وعانت تراقيا والهللبونت والكبكلاديس اكثر من غيرها ومما زاد الحالة سوءا هطول امطار كثيرة بعد بداية الهزة الاولى بثلاثة او اربعة ايام ، فغرقت اماكن كثيرة ، وسقطت مباني عديدة في القسطنطينية واسوار وحوائط وابراج لايقل عددها عن سبعة وخمسين ، ودفن عدد كبير من السكان تحت الانقاض وتلى ذلك انتشار الطاعون فمات به عدة الاف من السكان . وقد اوشكت القسطنطينية في تلك

---

(1) Thompson, op. cit., p. 90.

(2) Thompson, op. cit. pp. 90 - 91, Bury, op. cit, Vol. I, p. 275.

الظروف علي السقوط عند اول هجوم لولا قيام الوالى فلافيوس قسطنطيوس ورجال القسطنطينة بمواجهة الموقف بجدية حتى تم اعادة بناء الاسوار وزيادة سمكها وترميم الحصون المتهدمة ، كما عهد بالدفاع عن العاصمة الى القائد فلافيوس زينون (١) .

وتقدمت القوات الرومانية من مدينة مرقية او مرقيا نوبل Marciamople يقودهم القائد الجرماني ارنجسكولوس . وعلى الرغم من الشجاعة الكبيرة التى ابداها ذلك القائد الا انه سقط قتيلا في المعركة بعد ان كبا به جواده علي شاطىء نهر اوتوس Utus . وقد سقطت مدينة مرقية في يد العدو وظلت مهجورة قرابة مائة عام حتى جددها الامبراطور جستنيان ولم يتمكن الهون من اقتحام القسطنطينية بعد ان اعيد بناء اسوارها ، لكن الهون دمروا ولايات البلقان لاسيما الليريا وتراقيا ، وولايات داكيا ومونيسيا وسكيثيا ، ثم اندفع الهون جنوبا في بلاد اليونان حتى ثيرموبلاى Thermopylae . ويقال بأن مابين سبعين ومائة مدينة احتلها الهون في ذلك الهجوم ، وتم ذبح الرهبان الذين لم يتمكنوا من الفرار ، وقد تكبد الهون ايضا خائر فادحة . وقد كان ذلك الهجوم هو آخر انتصارات اتيلا علي الرومان الشرقيين (٢) . والامر الملاحظ هنا ان الغرب الاوربي لم يتحرك ولم يقدم اى مساعدة للامبراطورية الشرقية بسبب العلاقات الودية التى كانت بين اتيلا وايتيوس قائد عام قوات الامبراطورية الغربية في تلك الفترة .

لقد وصلت الامبراطورية الرومانية الشرقية عند نهاية عام ٤٤٧م الى

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 91 - 92, Bury, op. cit, Vol. I, p. 27o. يراجـــع :

(2) Thompson, op. cit., pp. 92 - 93; Bury, op. cit, Vol. I, p. 275, Camb. Hist. Vol. I, p. 363.

حالة من الضعف حتي اصبحت غير قادرة علي المواجهة العسكرة مع اتيلا ، وبالتالى كان عليها الاعتماد علي الدبلوماسية فى الدرجة الاولى خلال السنوات الثلاث التالية ، أما اتيلا فلم تتغير نواياه التوسعية في اوربا الشرقية ، فأمة الهون لا يمكن ان تعيش فى سلام لفترة طويلة لان ذلك ضد طبيعتهم التي جبلت علي الحرب والسلب والنهب . وفكر الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في التحالف مع بعض فصائل الهون المعرضة لحكم اتيلا مثل قبائل الاكاتزيري Acatziri التي رغم معارضتها لحكم اتيلا كانت في حالة هدوء نسبي . ومن سوء حظ الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ان فشلت سفارته لهذا الغرض بل جاءت بعكس ما كان يهدف اليه ، وطلب احد زعماء الكاتزيرى تدخل اتيلا ضد باقي القبائل ، وانتهى الامر باخضاع كل الكاتزيري لسيادة اتيلا (١) .

وعادت المفاوضات من جديد بين الحكومة الرومانية الشرقية والهون عام ٤٤٨م وكان المفاوض الرئيسى في الجانب الروماني هو اناتوليوس Anatolius الذي نجح من قبل في عقد اتفاقية عام ٤٤٣م . وتشير معظم شروط الاتفاقية الجديدة الي انها كانت اكثر قسوة من تلك التى وقعت عام ٤٤٣م ، لقد اصر اتيلا علي اخلاء مساحة كبيرة من البلاد الواقعة جنوب الدانوب من سكانها الرومان . وتمتد تلك المساحة من مدينة سنجدونم Singgidunum علي حدود بانونيا الي مدينة نوفاى Novae اي حوالى ثلاثمائة ميل طولا بعمق

---

(١) كان الزعيم الاكاتزيري كورياكوس *Curdachus* يري نفسه في وضع اسمي واعلي من باقي الزعماء . وأخطأ السفير الرومانى وجعله في المرتبة الثانية عند تقديم هدايا ثيودوسيوس ، فغضب كورياكوس وطلب تدخل اتيلا ضد من اغتصبوا سلطته .

انظر :

Thompson, op. cit., pp. 95 - 97.

حوالى مائة وعشرين ميل وبعبارة اخري فان كل داكيا Dacia واجزاء من ثلاثة ولايات اخري تكون خالية من السكان ووسائل الدفاع عنها ، وان يكون خط الدفاع عند مدينة نيش Naissus ، وبذلك لم يعد ساحل نهر الدانوب بكل حصونه ومدنه الكبرى التي اصبحت خرابا يمثل خط الحدود الشمالى للامبراطورية الشرقية ولايعرف عن الشروط الاخري للمعاهدة سوى ان الجزية لابد ان تستمر . وتم عقد هذه المعاهدة عام ٤٤٨م وعرفت باسم معاهدة أناتوليوس الثانية وقد تركزت جهود الدبلوماسية الرومانية الشرقية طيلة العامين التاليين في محاولات تخفيف شروطها (١) .

واستمر اتيلا برغم عقد الاتفاقية الاخيرة في ارباك حكومة القسطنطينية بالسفارات والشكاوي والطلبات المتعددة ، من ذلك السفارة التى وصلت الى القسطنطينية في ربيع عام ٤٤٩م برئاسة ايديكو Edeco احد نواب اتيلا وعضوية اورستيس Orestes وهو فى الاصل مواطن رومانى من باتونيا ويعمل في خدمة الزعيم الهونى . وجاء في الخطاب الذى يحمله ايديكو ان الرومان الشرقيين لم ينفذوا شروط اتفاقية اناتوليوس الثانية ، وانهم فشلوا في اخلاء المنطقة الواقعة جنوب الدانوب . وهدد اتيلا بشن الحرب من جديد . ونتيجة لتلك التهديدات وعجز الرومان الشرقيين عن مواجهة اتيلا عسكريا فقد وضع احد وزراء ثيودوسيوس الثانى الاقوياء وهو الخصى كريسافيوس Chrysaphius خطة لاغتيال اتيلا والخلاص منه عن طريق رشوة نائبه ايديكو بمبلغ خمسين الف ليبرا ذهبية وان يعود ايديكو للعيش في القسطنطينية فى احد القصور الفخمة التي اعجب بها مكافأة له فى حالة

---

(1) Thompson, op. cit. p. 98, Bury, op. cit, Vol. I, pp. 275 - 276, Camb. Med. Hist. Vol. I, P. 363.

نجاحه في تنفيذ المؤامرة (١) .

وعاد إيديكو الي سيده اتيلا ضمن سفارة رومانية علي رأسها مكسيمين Maximin ورافق السفارة المؤرخ بريسكوس Priscus ومن سوء حظ الرومان ان المؤامرة كشفها اتيلا فاستشاط غضبا وارسل خطابا الى الامبراطور ثيودوسيوس الثاني مملوءا بعبارات التهكم والتحقير ، وطلب ارسال سفارة رومانية علي مستوى عال مثل رتبة قنصل . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية قد شهدت صراعا علي السلطة بين الخصي كريسافيوس وبين قائد الجيش القوي زينون Zeno الذى ازداد نفوذه منذ نجاحه في الدفاع عن العاصمة سنة ٤٤٧م ، وتوليه القنصلية عام ٤٤٨م ثم اصبح قائدا عاما للجيش عام ٤٤٩م وازدادت الهوة بين الجانبين بسبب فشل خطة زواج قسطنطيوس سكرتير اتيلا من ابنة ساتورنينوس Saturminus أحد اثرياد الامبراطورية الشرقية ، فقد قام زينون باختطاف الفتاة وتزويجها لاحد اتباعه المسمى روفوس Rufus فاعتبر اتيلا ذلك عملا معاديا له ، فلما قام ثيودوسيوس بمصادرة ممتلكات روفوس اعتقد زينون ان كريسافيوس هو المحرض علي ذلك الاجراء ، هذا في الوقت الذي ازداد العداء بين الهون والامبراطورية الشرقية بسبب مؤامرة اغتيال اتيلا (٢) .

واسرعت الحكومة الرومانية الشرقية الي تحسين علاقاتها مع اتيلا ، وارسلت سفارة علي رأسها أناتوليوس وثوموس للمفاوضة واقناع اتيلا

---

(١) عن تفاصيل تلك المؤامرة انظر : -

Thompson, op. cit., pp. 98 - 121; Bury, op. cit., Vol. I, pp. 276 - 279, R. S. Hoyt & S Chodorow, Europe in the middle ages, p. 67, "Third, Jones, op. cit., p. 80, Camb. Med. Hist., Vol. I, pp. 363 - 364, 414.

(2) Thompson, op. cit., pp. 101 - 107, 121 - 122.

بضرورة الحفاظ علي معاهدة السلام . وابحرت السفارة الرومانية في ربيع عام ٤٥٠م وعبرت الدانوب الي اراضي الهون ، فاسرع اتيلا جنوبا لمقابلاتها عند نهر دريكون Dreccon وقد استطاعت السفارة ترضية اتيلا واطفاء نار غضبه بالهدايا الثمينة التي قدمت له حتى حصلت منه على وعد باحترام شروط معاهدة السلام لعام ٤٤٨م ، وألا يطالب باعادة اللاجئين الهون . وكان النجاح الكبير للسفارة في اقناع اتيلا بالانسحاب من كل الاراضى الواقعة جنوب الدانوب ، وهى الاراضى التى انسحب الرومان منها بناء علي طلب اتيلا عام ٤٤٨م . وبالاضافة الى ذلك طلب السفارة الرومانية اطلاق سراح بيجيلاس احد المتآمرين علي قتل اتيلا . وقد وعدت الحكومة الرومانية بأن سكرتير اتيلا سوف يحصل على زوجة رومانية لاتقل نبلا وثراء عن ابنة ساتورنينوس Saturninus ولتخفيف غضب اتيلا لفتت الحكومة الرومانية نظره بأنه لم تجر العادة بين الشعب الرومانى علي اكراه فتاة للزواج غير ارادتها . وقد عبر اتيلا عن سعادته بلقاء السفارة بأن اغرق اعضاءها بالهدايا الثمينة من الخيول والجلود والفراء التى يحب حكام الهون ارتداءها . كما تخلى اتيلا عن طلب اعدام كريسافيوس ، وقد رافق السفارة عند عودتها قسطنطيوس سكرتير اتيلا لتسلم عروسه ، وقد اختار له ثيودوسيوس ارملة ابن بلنثيا الذى سبق ان عقد مع الهون اتفاقية مارجوس سنة ٤٣٥م . وهكذا تم عقد معاهدة اناتوليوس الثالثة عام ٤٥٠م (١) .

والواقع ان تفاوض اتيلا غير العادي في مفاوضاته مع الرومان الشرقيين يمكن تفسيره في ضوء ماحدث فيما بعد من غزو غالة سنة ٤٥١م

(1) Thompson, op. cit., pp. 122 - 123.

وكان ابن بيجيلاس ضمن السفارة وقد حمل معه مبلغ ٥٠ ليبرا ذهبية فدية لابيه بناء علي طلب اتيلا

وايطاليا سنة ٤٥٢م ، فقد اراد ان يحمى مؤخرته عندما يكون مشتبكا فى حرب مع الغرب الاوربى وهكذا تناقض اناتوليوس ونومـوس في ظروف مناسبة تماما للرومان ، ولابد ان الحكومة الرومانية الشرقية قد ابدت سرورها عندما علمت في الشهور الاولى من سنة ٤٥٠م ات اتيلا قد قرر الهجوم علي القوط المتمركزين فى تولوز ، وانه سيفعل ذلك بصفته حليفا للحكومة الرومانية الغربية وامبراطورها فالنشيلن الثالث . وقد كان عقد الاتفاقية الثالثة مع الهون يمثل نجاحا كبيرا للدبلوماسية الرومانية الشرقية ، واصبح الرومان الشرقيوم مقتنعين بأن السلام علي جبهة الدانوب قد ساد وتاكد منذ صيف ٤٥٠م . اما اتيلا فقد ظن انه قد أمن مؤخرته بعقد سلسلة المعاهدات مع الامراطورية الشرقية حتي اوائل عام ٤٥٠م . وطالما كان الامبراطور الشرقي ثيدوسيوس الثانى علي قيد الحياة فان اتيلا لم يتوقع اى تحركات عسكرية علي جبهة الدانوب ، فقد كان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ضعيف الشخصية كما وقع تحت تأثير كريسافيوس وغيره ولم يكن له من الامر شيء ، وادي شعوره باليأس الي الانصراف الي حياة العزلة والتقوي والورع وتحصيل العلم . وقد لخص بريسكوس موقف الامبراطورية الرومانية الشرقية في نهاية عهد ثيودوسيوس الثانى بقوله ان الحكومة الرومانية الشرقية كانت تطيع كل تعليمات اتيلا وان اوامره لها كأوامر السيد (١) .

غير ان تطورات الاحداث داخل الامبراطورية الشرقية ادت الى خلق

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 123 - 124, 129 - 130, 188 - 189,

د. السيد الباز العريني – مرجع سابق ص ٤٥ ، د. محمد محمد مرسى الشيخ ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٣١ " دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٩٤م " . وعن غزو غالة وايطاليا انظر : د. احمد عبد الكريم ، الصراع الدولى الغرب الاوربى في منتصف القرن الخامس الميلادى مجلة المؤرخ المصرى كلية الآداب – جامعة القاهرة – العدد الثانى عشر يناير ١٩٩٤م .

موقف جديد في العلاقات مع اتيلا ، فقد سقط الامبراطور ثيودوسيوس الثاني من علي جواده وهو في رحلة صيد بالقرب من نهر ليكوس Lycus يوم ٢١ يوليه سنة ٤٥٠م ، وكانت اصابته خطيرة ، فتوفى بعد ايام قليلة من ذلك التاريخ ، ولم يترك ثيودوسيوس الثانى ابنا يخلفه في الحكم ، كما لم يعين خلفة له في منصب الامبراطور ، وقد انتخب الناتو التربيون مارقيان وكان شخصية مجهولة تولى من قبل منصب مساعد اسبار . وهكذا تولي الامبراطور مارقيان عرش الامبراطورية الشرقية في ٢٥ اغسطس واتخذ سياسة حازمة تجاه الهون ، فرفض سداد الجزية ، واعلن استعداده للحرب وفي خلال شهور قليلة اصبح الرومان الشرقيون علي حافة الحرب مع اتيلا ، وتلاشي السلام الذى حققه ثيودوسيوس الثانى بصعوبة بالغة خلال احدي عشرة سنة (١) .

وهكذا لم تكن جبهة الدانوب عام ٤٥١م هادئة كما كان يتمنى اتيلا عندما عقد معاهدته مع اناتوليوس ونوموس في ربيع العام السابق . وبالرغم

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 134 - 135, Lot., op. cit, pp. 217 - 218, camb. Med. Hist. Vol. I. p. 364. Jones, the decline of the ancient world, pp. 87 - 88,

د. محمد محمد مرسي الشيخ ، مرجع سابق ص ٣٢ ، وربما كان تعيين مارقيان ، قد تم باشارة من ثيودوسيوس الثانى اثناء مرضه انظر :

Bury, op. cit., Vol. I, pp. 235 - 236.

وكان كل من ثيودوسيوس الثانى ومارقيان ينتميان الي طبقة اجتماعية واحدة مختلفة فثيودوسيوس الثاني ينتمى الي جماعة الخضر المؤيدين من التجار والحرفيين والصناع ورجال السفن ، وعلى ذلك فان سياسته التي خطط لها كريسافيوس وكان من الخضر ايضا تهدف الي مهادنة الهون لتنشيط اتجارة بين الجانبين مما يحقق مصالح الحرفيين . اما مارقيان فكان مؤيدا من جماعة الزرق وهم الارستقراطيون كبار الملاك ، وقد قل اهتمامه بالتجارة ، وبالتالى ساءت علاقته بالهون بعد ان قلب سياسة كريسانيوس ونوموس والمؤيدين لهما . انظر :

Thompson, op. cit., pp. 190 - 192, Jones, op. cit., p. 88.

من تهديدات اتيلا فان مارقيان اصر علي موقفه الشجاع في عدم الخضوع ارسال الجزية الى الزعيم الهوني . وارسل مارقيان من قبله السفير ابوللونيوس Apollonius لابلاغ اتيلا بموقفه . وقد استاء اتيلا من ارسال ذلك السفير ، ورفض منحه شرف مقابلته ، فان الهون الذين كانوا علي وشك الهجوم علي غالة انتابهم الغضب الشديد عندما علموا ان السفير الرومانى الشرقي لم يحمل معه الجزية وانه جاء فقط للمفاوضة . فقد ارسل اتيلا رسالة شديدة اللهجة الي السفير تدعوه الي تسليم مامعه من الهدايا التى حملها باسم الامبراطور ، وهدده بالموت في حالة الرفض ، وذهبت تلك التهديدات كلها ادراج الرياح ، ولم تؤثر في صلابة موقف ابوللونيوس ، فاعلن انه سيسلم مامعه من هدايا فقط في حالة استقباله استقبالا لائقا يتناسب مع مركزه كسفير للامبراطورية الرومانية الشرقية . اما اذا قتل فان الهون سيحصلون علي مامعه من هدايا ، ولكنهم لن يحصلوا على مثلها في المستقبل . واخيرا سمح اتيلا للسفير بالرحيل دون ان يراه ، وتدهور بذلك الموقف بين الهون والرومان الشرقيون تدهورا خطيرا (١) .

ونحن ندرك الصعوبة الكبيرة التي واجهت اتيلا في تقريره أى الجبهتين يبدأ بالهجوم عليها ، واخيرا قرر اتيرا السير في مشروعه الاصلي بالهجوم علي الغرب ، لقد سبر اتيلا من قبل غور الامبراطورية الشرقية وعرف في مواقف كثيرة كيف يمتص تهديداتها ، وسلسلة مفاوضاته الطويلة معها اكسبته خبرة في تطبيع وتطويع العلاقات معها الي مصلحته ، اما في الغرب فهناك اكثر من عدو يجب مواجهته كما ينبغي تقوية نفوذ الهون في غرب اوروبا . ومهما كان الامر فقد قاد اتيلا في يواكير عام ٤٥١م جيشا كبيرا

---

(1) Thompson, op. cit., p. 143.

في اتجاه غالة مكونا من الهون والعناصر الجرمانية الخاضعة لهم . وقد لقى الجيش الهزيمة على يد الحلفاء الاوربيين في معركة موریاك Mauriac او سهول قطالونيا في ٢٠ يونيه من نفس العام . واضطر الي الانسحاب وقد كشفت تلك المعركة عن براعة أيتيوس Aetius قائد عام قوات الامبراطورية الغربية السياسية والعسكرية ، ومن ناحية اخري فقد ادت هزيمة اتيلا الي تلاشى اسطورته كغازى لايقهر ، كما حرمته من نفوذه الى غرب اوربا ، وفي نفس الوقت كان آخر انتصار يحرزه جيش يحمل شارة الامبراطورية فى اوربا الغربية (١) .

وبالرغم من هزيمة الهون في غالة والخسائر الكبيرة التي تكبدوها الا ان اتيلا لم ينس تحدي الامبراطور الشرقي مارقيان له ، فكبرياء اتيلا منعه من تقدير موقفه العسكري تقديرا صحيحا . وفي سبتمبر سنة ٤٥١م اعطي اتيلا اشارة لما سيفعله في المستقبل ، فانقضت مجموعة من الهون علي الليريا الشرقية ونهبتها . وقد منع قلق الامبراطور مارقيان علي جبهته الشمالية من عقد المجمع الديني الكبير في نيقيه Nicaea كما خطط من قبل ، فعقد الاساقفة اجتماعهم في خلقيدونيا بدلا منها . وعندئذ لم يسطع مارقيان ان يعطي اهتمامه الكامل لان هجوم الهون عبر الدانوب جعل مارقيان يقرر النزول الي ميدان القتال سبنفسه . ويبدو ان خطوات مارقيان العسكرية كان

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 140 - 143, Bury, op. cit, Vol. I, pp. 293 - 294, Jones, op. cit, p. 80, Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 364,

تورمان فغ كانتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، ص ١٦١ .

وعن معركة سهول قطالونيا بالتفصيل انظر :

د. احمد عبد الكريم سليمان : الصراع الدولي في الغرب الاوربي في منتصف القرن الخامس الميلادى – مجلة المؤرخ المصرى يناير ١٩٩٤م ، ص ٢٣٨ – ٢٤٣.

لها نتائجها الايجابية ، فاجبرت اتيلا علي تغيير وجهته والاتجاه مرة اخرى الى الغرب الاوربي . وقد قرر اتيلا غزو شمال ايطاليا ، فقد اعتقد ان الامبراطورية الغربية كانت السبب في الكارثة التي حلت به في غالة . كما لم يتذكر الجميل الذي اسداه له ايتيوس بتمكينه من الانسحاب من غالة في سهولة ويسر ، بل اعتبر انفصال الجيش القوطى عن الرومانى الغربى ميزة عسكرية تمكنه من هزيمة كل جيش علي حدة (١) .

وحشد اتيلا عام ٤٥٢م جيشا مثل الذى قاده عام ٤٥١م ، واخترق به ولايات بانونيا ، وعبر جبال الالب الي ايطاليا في بداية حملته ، ولم يكن مصير تلك الحملة الجديدة احسن حالا من الحملة السابقة علي غالة ، فانتهي مصيرها هى الاخري الي الفشل الذريع ، ولم يحقق اتيلا اهدافه في اخضاع ايطاليا لسلطانه وكانت هناك عوامل عديدة وراء فشل تلك الحملة ، منها انتشار الطاعون والمجاعة في ايطاليا ، كما ان الامبراطور الشرقي مارقيان اراد الانتقام لاهانة سفيره من اتيلا في العام السابق فعبرت القوات الرومانية الشرقية الدانوب والحقت الهزيمة بؤخرة الهون ، ووجد اتيلا نفسه امام ضغوط عسكرية وكوارث طبيعية فانسحب من ايطاليا (٢) .

ولم ينس اتيلا موقف مارقيان المعادي له منذ اعتلائه العرش ، فاعلن اتيلا بعد انسحابه من ايطاليا ان الوقت قد حان لتأديب خصمه ، ولاشك ان فشل اتيلا في غالة وايطاليا قد دفعه للانتقام من الامبراطورية الشرقية كى يحقق نصرا يزهو به ويزيل عار الهزيمتين . وجاءت خطوة اتيلا الاولي ضد

---

(1) Thompson, op. cit., pp. 143 - 144.

(2) Thompson, op. cit., pp. 147 - 148, Bury, op. cit, Vol. I., pp. 294 - 296, Camb. Med. Hist., Vol. I, pp. 364 - 365.

مارقيان بأن زحف الي هنغاريا . ومن موقعه الجديد ارسل رسالة الى الامبراطور الشرقي يقول فيها بأنه مالم يسدد الجزية المتفق عليها مع ثيودوسيوس الثانى فانه اى اتيلا سيعلن الحرب ضد الامبراطورية الشرقية ويوقع كل سكانها في العبودية ، غير ان القدر لم يمهل اتيلا لتحقيق انذاره ، فقبل الهجوم الكبير قرر اتيلا ان يضيف زوجة جديدة له . وبعد افراطه في السكر وجده رجاله صباح اليوم التالى لزواجه ميتا دون ان يكون مصابا بجروح . وبذلك انقذت الامبراطورية الشرقية من خطر اتيلا . وتلي ذلك ثورة الشعوب الخاضعة للهون واوقعت الهزيمة بأبناء اتيلا وفشلت محاولة للمفاوضة بين الهون والرومان الشرقيين سنة ٤٦٨م – ٤٦٩م في القسطنطينية ، كما الحقت القوات الرومانية الشرقية الهزيمة بالهون ، وسرعان ماتفككت امبراطورية اتيلا ، ولم يعد الهون يمثلون خطرا علي الشرق او الغرب (١) .

(1) Thompson, op. cit., pp. 149 - 157, Bury, op. cit, Vol. I., pp. 296, ostrogorsky, History, of the Byzatine state, Reprinted 1986", p. 17; Jones, op. cit., p. 80.

المصادر والمراجع

أولا : المراجع الاجنبية :

1- Bury, J. B.,

History of the later Roman Empire from the death of Theodosius I to death of Justinian, New York 1958 2 vols.

2- Cambridge Medieval History vol. I.

3- R. S. Hoyt and S. Chodorow,

Europe in the middle ages, Third edition 1076, New York.

4- A. H. M., Jones,

The decline of the ancient world, London I 1978.

5- F. lot.,

The end of the ancient world and the beginnings of the middle ages, London 1968.

6- Norman F. Cantor,

The Medieval world 300 - 1300 second edition, 1968.

7- G. Ostrogorsty,

History of the Byzantine State, Translated from German by J. Hussey, Great Britain, 1986.

8- E. A. Thompson,

A History of Attila and the Huns, Oxford 1943, Reprinted 1975, Green wood press.

9- A. A. Vasiliev,

History of the Byzantine Empire, Vol. I, Madison 1958.

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة :

١ – احمد عبد الكريم سليمان :

معركة ادرنة بين القوط والرومان في ضوء وثائق المؤرخ العسكري اميانوس مارسللينوس – دار النهضة العربية ١٩٩٠م .

٢ – الصراع الدولى في الغرب الاوربى في منتصف القرن الخامس الميلادى – مجلة المؤرخ المصري عدد يناير ١٩٩٤م – كلية الآداب – جامعة القاهرة .

٣ – د. اسحاق عبيد :

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، الطبعة الاولي ١٩٧٢م ، دار المعارف بمصر .

٤ – د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

اوربا العصور الوسطى الجزء الأول ، الطبعة التاسعة ١٩٨٣م .

٥ – د. السيد الباز العرينى :

الدولة البيزنطية – دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ .

٦ – كانتور نورمان :

التاريخ الوسيط قصة حضارة : البداية والنهاية ، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم – الطبعة الثانية – دار المعارف .

٧ – د. محمد محمد مرسي الشيخ :

تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية – ١٩٩٤م .

٨ – م . هس :

العالم البيزينطي ، ترجمة وتعليق د. رأفت عبد الحميد ، دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

* Hotelling, H. "The Economics of Exhaustible. Resources "Journal of Political Economy, 1990.

* Broadway, R. & Bruce, N "Welfare Econonics" Black well, Oxford, 1984.

* Brookshire, D., Eubanks, L & Randall, A. "Estimating Option Prices and Existence Values for Wildlife Resources", Land Economics, February, 1991.

* Smith, K., V. " Environmental policy" University of Carolina press, Chapel Hill, 1989.

* Smith, K., V. & Krutilla (eds), "Explorations in Natural Resources Economics", John Hopkins University Press, Baltimore, 1982.

References.

* Blaug's M. "Economic Theory in Retrospect Cambridge University Press, Cambridge, 1978.

* Hamrin, R. D. "Managing Growth in 1980s : Toward a New Economics", Praeger, New York, 1980.

* Turner, K. R. (ed) "Sustainable Environmental Management : Principles and practice "Belharen press, London, 1988.

* Common, M. (ed). "Poverty and Progress Nerisited", Macmillan London 1980.

* Norgoard, R. "Coevolutionary Development Potential, "Land Economics, 60 (2), 1984.

* Pigon, A "The Economics of welfare", Macmillan London, 1991.

* Dorfman, N. "Economics of Environment", 2nd edn, W. W. Norton New York, 1977.

* Repetto's R. "World Enough And Time : Successful Strategies for Resources Management "Yale University press, New Haren 1986.

* Turner, K. R. "Oppurtunity Cost Approach", London, 1983.

* Cornad, J & Clark, C " Natural Resources & Economic : Notes & problems, Cambridge University Press Cambridge, 1987.

* Das Gupta, P & Heals, G. "Economic Theory and Exhaustible Resources", Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

* This temtation should be avoided because over - exploitation of exhaustible resources means they will run out more quickly and over - exploitation of renewable resources reduces their capacity to regenerate.

* Damage to resource had real economic costs.

* Managing resources to prevent damage to them is essential.

Recommended strategies include : -

@ Improving the prices of agricultural goods.

@ Not over - valuing exchange rates.

@ Improving securities of tenure for small tenants farmers.

These measures are intended for improving the means as an incentive to improve resource management.

* We need to assess Total Economic value in order to compare the losses resulting of pollution with the benefits derived from the polluting activity, and therefore determine the optimal level of pollution which we should aim at.

In many developing countries government policies lead to over - valued exchange rates. This means that when producers sell their products abroad and convert the foreign money they receive into domestic money, they lose money. Over valued exchange rates reduce producers profits. Producers have less money to invest, and increase efficiency. If exchange rates were not over - valued producers would get more profit and would be able to make this invest saving natural resources. However, there is still no guarantee that these profits will be spent on resources conservation (Kerry, V, Kritilla, J. eds, 1982).

Alot of the agricultural land in developing countries is owned by large landlords who rent out smaller plots to farmers, consequently the farmer have little incentives to improve the land because it does not belong to them, and they may be moved off it. Government policies should take the land away from the large landlords and distribute it to the individual farmers. In the same way land which is owned by no - one in particular is not treated with care. Selling it to a user makes an individual responsible for it. So the resources will be more carefully looked after.

10) Conclusion.

* Pressure on resources is greater in developing countries because they are more scarce.

* This increases the temptation to over - exploit these resources.

them that careful management of the environments will make the country more efficient, changes may be made. But how can we give incentives for producers to look after their natural resources? Prices of agricultural goods in developing countries are often less than these quoted the world market. If governments allowed prices to rise closes to world price levels producers would receive more money. They could be given incentives (e. g. government / UN aid) to invest in resource saving technology. This would make producers more efficient and may increase the amounts produced. However there is no guarantee that raising prices to give producers more money will help conserve natural resources. Producers may choose to keep the profits instead of re - invest them. They may choose to invest profit in more production leading to even more use of natural resources. (Hotelling, H., 1990).

In developing countries there is normally a small number of men who are extremely wealthy and looking for place to invest their money. A lot of developing countries have currency restriction laws which make the investment of large amounts of money abroad is illegal. Those with wealth do not have many options for investments. The options that do exist receive a lot of money and expand rapidly, and example is livestock ownership. Such expansion may cause natural resources to be used up more quickly. In the case of linestock, more trees are cut down for grazing land. Improving the stock exchange in the country will provide many more options for those with wealth to invest thus reducing pressure on natural resources.

their consumer surplus in our calculation so that

Gross Willingness To Pay = Market Price (Indicates Basic Willingness tp pay) + Consumer surplus.

If we use gross willingness to pay in our evaluation of environment benefits we have a more accurate indicator of the value society places on them. (Pearce, D Turner, K., 1990). The market price can be identified by the supply and demand forces, because it is not possible to change a separate price to each and every individual buying the good, see fig. (1).

If the market price of a good fall clearly the consumer enjoys an increase in consumer surplus an increase in benefits we could therefore ask the consumer how much he would be willing to pay to gain that benefits.

There is another way of looking at this. We could equally ask the consumer how much he would be willing to accept to forget this increase in benefit. This would mean the consumer agreeing to compensation for less of benefit.

9) Managing Resources.

If we are to presuade government that managing natural resources is important we must show the economic arguments. The most important department in any government is the treasury and if we can show

The willingness to pay value which used to assess the value of environmental benefits is an aggregate figure. Some members of society would be willing to pay more than that amount to secure particular environmental benefits. They value these environmental benefits more than the market price. We have assigned to them through the aggregate willingness to pay figure. These people receive more benefit than the market price indicates - they enjoy a "Consumer Surplus".

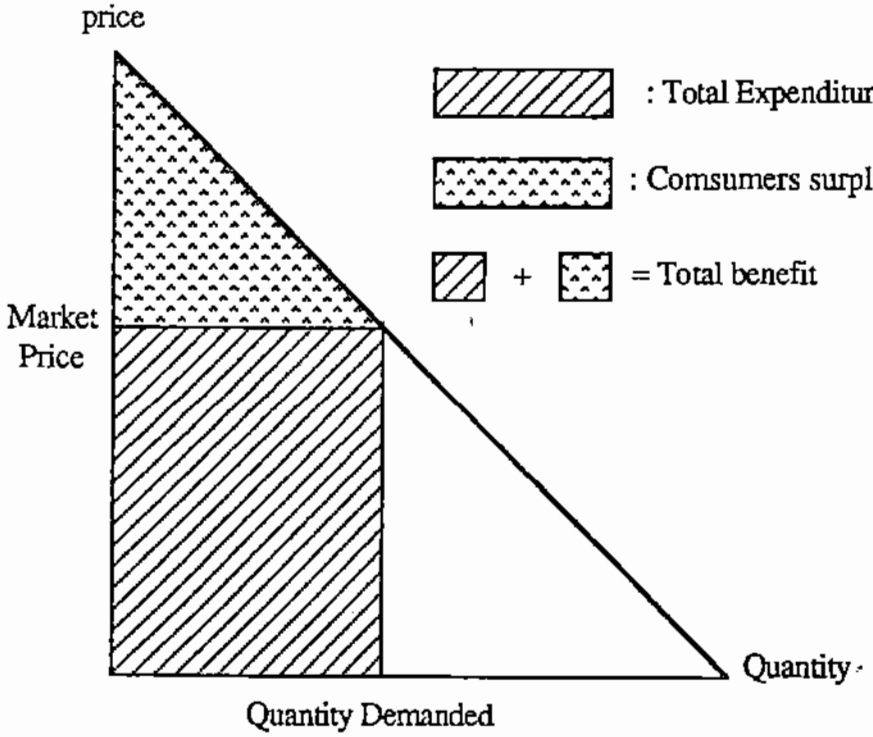

Fig. 1 a demand curve for environmental goods.

In order to take account of people who are willing to pay more than market price for environmental benefits, we must include

resources was 30 times the cost of water pollution to freshwater fishing resources. It is also possible to see that in 1985, pollution damage was costing an amount equal to 6% of FDR's Gross national Product - a significant sum. Money value may also be given to estimates of environmental damage avoided by sound policies. For example, the USA's environment policies reduced environmental damage equivalent to 1.25% of GNP in 1978 (Smith, K. ed., 1989).

Cost, Benefits, Willingness to Pay & Willingness to Accept.

Giving a money value to environmental damage gives us an indication as to whether or not environmental protection is worth investing in. Expenditure on environmental important is worthwhile so long as the extra benefits of the improvement units outweigh the extra costs. In fact expenditure will take place until; all the possibilities of gain are exhausted; until extra costs equal extra benefits. (Marginal lost = Marginal benefit).

The aim of assigning money value to environmental benefits is to allow us to take action on people's preferences, and ensure that the environmental features at the top of their preference list are given top priority. We take individuals willingness to pay as an indication of their preferences. The more they are willing to pay, the higher in the list of their priorities that factor should be. Not evryone has the same preferences. Economists and environmentalist are concerned about doing the best thing for society.

cereal. So we can use money to indicate how much we would be willing to pay for the environment - a measure of its value, which reflects as preferences. Clearly this is an imperfect way of showing how much people care for the environment, but it appears to be the best way economists have found.

The Uses of Economic Value.

We already mentioned that one use of economic value is to enable us to compare it with benefit to the producer and thus to calculate the optimal level of pollution. Economic value measurements may also be used to show the importance of environmental policy. The gains from environmental policy are not just immediate monetary benefits, they are gains in quality of life which may not be measured in money terms.

Traditionally, gains which are measured in money terms are those which benefit private individuals or distinct groups of people. Those gains which beenfit areas not under private or public ownership - the air, water, landscapes - are not measured by money. This is because no money transfers between pollutes and polluted take place. Just because they are not measured in money, they should not be seen as less important. Attemping to give money value to these gains or losses would however make it easier to access them. For example, by applying money value to environment damages in Germany (1983 - 5) it is possible to see that the lost of the water pollution to the ground water

pollution to an acceptable level for the health of the population. Taxes and permits would probably be effective.

If attempts toward reaching an economically optimal level of pollutions calculations are required.

The economically optimal level of pollution occurs when the external loss of producing one more unit of pollution (The Marginal External Cost) is equal to the benefits of producing one unit of pollution. (The marginal net private benefit). Therefore to calculate the optimal level of pollution involves calculating the money lost to the producers for producing some more unit of pollution, and the money benefits which the produces gets from producing one more unit of pollution. The produces will already know how much money he receives from producing one more unit of pollution. This will be the amount of profit he receives from making however many goods involve the creation of one unit of pollution. Putting money value involve the creation of one unit of pollution. Putting money value on the damage caused by this pollution causes is more difficult. (Brookshire, D, Eubark's, L. & Randall, A., 1991).

Some may regard putting a money value on environmental damage as immoral, but we are using value only to indicate the loss of welfare the damage has caused. In the same way that the price of a box of corn flakes is an indication of how much we are 'willing to pay" for the

economically valuable. Time spent traveling in search of fuel wood could have been more usefully spent making goods or providing services. If laborers have to work further to collect fuel wood, they will be tired during their work and will work less well. If fuel wood is scarce people will use animal dung and crop waste as fuel, instead of using it as fertilizer on the land. Crop production may fall and farmers income will fall. (Broadway, R & Bruce, N., 1984).

If trees are chopped down the soil is not protected from rainfall. Tree roots do not hold the soil together. A lot of soil is washed into rivers. The rivers carry this soil down to the dams. This can cause damage to the dams which is expensive to repair, and less electricity will be produced until the repairs are completed.

8) Measuring Environmental damages and the Total Economic Value.

It is very unlikely that markets will correct for pollution on their own. Some form of regulation will be required. Regulation may be used to try to achieve a calculated "optimal" level of pollution, or merely to try to reduce pollution levels without aiming towards any "optimal" level.

If one affects toward determinating an "optimal" level of pollution, are to be made no calculations of the economic losts of the pollution will be necessary. In this case it would probably be best to try to reduce the

important if they are to be conserved for use in the future.

D) Links Between Resources ;

Land resources (trees, pasture etc.) are closely linked to water resources. In developing countries the links are even closer than in developed countries.

An example : Chopping trees reduces availability of firewood. But this is not the only effect. Tree leaves protect the soil from the impact of heavy rainfall. Treeroots hold the soil together. Without trees the fertile topsoil is washed away. Soil is exposed to the sun and is baked hard. Rain is no longer able to soak into the soil. Rain runs off the surface of the soil, sometimes causing flooding. The rain water cannot soak down to the springs. Some of the springs will run dry. The rain water cannot soak through to rivers. Some river will run dry (bohi, D & toman, M., 1983). By damaging a land resource (trees), a water resource has been affected.

7) the Economic cost of damaging Resources.

The loss of resources has obvious environmental cost, but it also involves economic cost.

Fuel wood may be used as an example. If forests are cut down, fuel wood becomes scarce. Those who want fuel wood will have to forward further to get it. This will take more time and time is

so many developing countries depend on wood and crop waste for a large amount of fuel. Therefore if pollution or over-use damages these resources the countries will be heavily effected. The poorer the countries the less money they have to import replacement fuels (e. g. oil) and the more affected they will be. Statistics how that if poorer countries continue to use their fuel in the same way, their resources will very quickly run out. The United nations estimated that Haiti lost 59% of its forest between 1956 & 1977. 70% of haiti's fuel covers from wood, so the country will suffer badly when it is used up. Measures are being taken to conserve the forest. (Dorfman, N & R, 1977).

B) water :

Water is vital. Humans and animals need it to drink, Mining & manufacturing industries need it in production. But 70% of the world's water is used for irrigation. Developing countries are highly dependent on water for irrigation because they tend to be located in hotter areas. Egypt uses 91% of its water for irrigation, the most of any developing countries. It is therefore very important not to waste water. (Dasgupta P. & Heals G., 1979).

C) Other Resources :

Trees are important for animal fodder. Crops depend on animal manure and crop waste. Many medicines are discovered in plants. Forest provie building materials. Managing natural resources is

The prescription for change in the international economy is uually to encourage more North-south investment and better protection of economic interests in developing countries. The unequal exchange of investment and resources is not merely between North & South, however. Within he Third World, 70% of investment is confined to 15 countries with over 20% in Brazil & Mexico alone. (Pigon, A., 1991).

The scarcity of natural resources is not as important a factor as the immobility of resources. Their immobility results in the penetration of transnational companies into the Third world (in the form of assembly shops and chemicals plants for example). Energy and raw materials are diverted towards satisfying the demand for hi-tech goods in rich countries while labour is used to maintain existing inequality (Repetto's R., 1986).

6) Dependence on natural Resources.

A) Fuel :

woods is an important source of fuel in developing countries. Wasted parts of crop (such as stems, roots) are also used. Of all developing countries, nepal is the most dependent on these "Traditional fuels. 93% of nepal's fuels comes from wood or crop waste. The countries which are most dependent on "traditional : fuels are usually the poorest countries. Therefore looking at statistics on sources of fuel can tell us how poor a country is. (Cornard, J & Clork C., 1987).

Structural processes and the environment are linked in that both population pressure and land distribution are involved in the way the poor have recourse to their environment. Serious rural poverty often occurs in resource poor environments like the high Andes and the Sahel. It is difficult to attribute poverty to the environment alone, however. There is poverty in fertile areas of Bangladesh & India in the Andes and the Sahel poverty can be seen as partly a result of marginalisation of poor from the land. Thus the relative position of the poor in an international context must be considered in the question of poverty and the environment.

5) Global Resources and the International Economy :

North-South economic relations contribute to environmental problems in a number of ways :

i) Individual in developed countries use more resources than individuals in developing countries.

ii) Economic demands of developed countries must be met by the resources base of the south.

iii) Industrial countries rarely recycle their waste. For example, in 1977 the US generated 13001 billion square of municipal solid waste per capita. In less developed countries, howevr, rubbish tips often provide a resource base in themselves.

describing the process of underdevelopment and its connection with poverty (Hamrin, R. D., 1980). The rural sector in Third World countries is more vulnerable to market forces because of the low level of development in the production process of peasant agriculture. In order to produce more commodities for the market in the developed countries, peasant farmers may start to develop more & more marginal, regions and thus increase the chances of soil erosion and desertification. Although the results of market surplus (as opposed to subsistence) production vary from region to region, the costs of externalities will largely be borne by the developing countries, rural poor. (Thurner, R. K., 1988).

The other perspective focuses upon the effects of poverty, believing that development does not necessarily lead to poverty in rural areas. Many internatioal bodies and ais agencies take this view (e. g. the ILO, International Labour Office) since they are more concerned with effective policy decisions than with determining the theoretical background of under development. The problem of poverty is essentially seen as an employment problem with the majority of people in the Third World unable to find renumerative uses for their labor. The poor in these countries are unable to control the redistribution of income without which development is impossible.

Both approaches to the question of poverty are structural in that they focus on the way the market allocates goods and income.

often worse. (Marc Blang's 1990).

In these areas, development problems are environment problems; food supply is often insecure and population growth increasing, Housing, food and other development needs must come first, taking priority over pollution controls.

Following development environmental action increases but in most developed countries this action follows class lines. Hence the affluent are concerned with atmospheric pollution, noise, traffic congestion etc., while for the less well off sectors of society other, more immediate environmental issues take priority (water pollution, housing, disease etc.) since the problems may be life threatening.

4) Structural Linkages between Poverty and Environment :

Rural poverty can be seen either as structural (socio-economically derived) or as a result of resource depletion. Both explanations have some truth in them but reality is more complex. An integration of the factors involved in both these explanations is more complex. An integration of the factors involved in both these explanations can lead to a better understanding of the active process of under development. The different approaches to the problem of rural poverty arise from two perspectives. One focuses upon underlying dependent causes and the other is more concerned with the effects of poverty. Authors such as De Janvery and Bernstein provide examples of the former approach,

Our example demonstrates that damaging one resource also effects other resources. In our case, damaging the trees also damaged fertile land. This makes it even more important not to damage a resource which affect another resources.

Renewable resources are called "renewable" because once used they can grow again. However there is a natural rate of growth. If the rate at which the resource is used is greater than the natural rate of growth, the amount of the resource will shrink. Fish supply is a good example. Fish breed naturally at a certain rate. If the adult fish are removed by fishermen at a faster rate than they can reproduce themselves, permanent damage will be inflicted on fish supply. Over use of resources damages their ability to renew their ability to renew themselves.

3) The Environment In Developing Countries :

Environment issues in the Third World are not viewed in the same way as they are in the industrial countries. Very litte importance is attached to the concept of 'countryside' as a rural idyl, the term is more likely to be associated with poverty and repression. For example, agribusiness in the developed world is often opposed by leisure consumers of the countryside. In the South, 'quality' of the countryside is not regareded as reason for opposing agribusiness although environmental effects (erosion, siltation, ecosystem destruction etc.) are

2) The Nature of the Problem :

In all countries nature relies on man to preserve it, and man relies on nature for his resources. In developing countries this relationship is especially strong. For example : the trees in a forest protect the soil from being washed away, and their leaves fall & decomposes making the soil fertile. As trees are chopped down to make way for big agriculture projects, timber manufacturing or fire wood, the quality of the soil suffers. The soil is exposed to the sun which bakes it hard and the wind below away the fertile top layer. The soil no longer absorbs water. It becomes useless for agriculture, and the risk of flooding is increased. Man damaged the land by removing trees and because the land is damaged he can no longer benefit from it.

Our example involves trees. Which are a "renewable resource", they can be replanted and replaced. But if they are over used, it too many are chopped down, the damage could become irreversible. If renewable resources are not treated with care, they will eventually disappear for ever.

Developing countries have fewer resources than developed countries. They have less mony to import resources if they need a lot. Developing countries may be tempted to over use their resources. This means the non-renewable resources will not last as long, and that irreversible damage may be done to the renewable resources.

Nobody knows if the earth will be able to cope with the pollution naturally so that humans will not be affected, or wether the Earth will no longer be suitable for human life.

Humans want higher standards of living. This means consuming more goods and services. It also means that more good will have to be produced. Therefore more valuable resources will be used up. Most of these resources cannot be replaced, oil is one such example. Therefore people vcannot expect to have higher standards of living for ever. If we continue to produce goods in the same way. There may be ways to produce goods using fewer resources. This would allow us to continue for longer, but more research is needed.

The area of Economics which deals concerned with the environment is a very new subject. The effects which pollution will have on our planet are unknown. Nobody, has created a set of standards which can be used to evaluate our action, and indicate, for example that "Option a is bad. Option B is good, Option C is best for the environment". Most economists still use "Neoclassical Values", which they regard as the best and most profitable options. They do cosider the effects these may have on the environment. Economist should recognize that there are other approaches which can be taken towards solving any problem. Futhermore, economist who are concerned about the environment must also realize that experts in Biology, Chemistry, Physics and Geography will have valuable things to say about the problems.

1) Introduction :

People are now very concened about the environment, there is evidence that the world is begininning to wear out as exemplified by hole in the ozone layer which protects us from the damage by the sun , for example.

The environment is not just a problem for the west . Ex-Soviet countries are in trouble too. Poland suffers from very polluted rivers, in its industrial areas. Cities in the Czech Republic have very polluted air .

Pollution may destroy areas which are very important environmentally. An example is Lake Baikal in the Former Soviet Union which used to be home for many rare plants, birds and animal.

Cities in developing countries are also suffering especially from air pollution. Examples include Mexico City in Mexico and Sao Paulo in Brazil. The poorest countries in the world do not have enough money for proper drainage, sewage and rubbish disposal and this causes more pollution. These countries are also very short of resources like coal, minerals or fertile land. The scarcity of resources and high demand have often led to over-expoloitation. Lack of adequate fertite land, for example, has led to over-cultivation and the available land is not allowed time to recover after each harvest. The soil "wears out" and becomes useless. Sometimes more overcrowded and polluted.

Even now nobody knows exactly how harmful pollution can be.

Developing Countries and Environmental Geographical Issues

Dr. Abdullah R. A. Al - Kandari
Vice Dean
College of Graduate studies
Kuwait University